شرح عين العلم لعلى القارى

الجلد الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب العاشر فى الاناءة والعجلة والحلم والعفو والنصيحة والحقد

الاناءة بفتحات اسم لضد العجلة والحلم والتحمل والعفو التجاوز والنصيحة ارادة الخير للمنصوح له والحقد بالكسر العداوة بالقلب وينتج نحو الحسد والغضب (بسم الله الرحمن الرحيم) الذى يستعان به على كل خلق كريم ويستعاذ به من كل طبع ذميم (الاناءة معنى) اى خلق باطنى (باعث على الاحتياط فى الامور) اى المتعلقة بالحكم الخارجى وهو ارادة اتمام الامور على وجهها بحيث لايفوت شئ من حقها (والتأنى) مصدر باب التفعل وتاؤه للطلب او التكلف (اتباعها) اى تتبع تلك الامور (بعد الدخول) اى دخول الانسان (فيه) اى فى حال الدخول قبل الدخول وضده التعسف فى الحصول (والتوقف قبله) اى ويقال له التوقف (وضدها) اى الاناءة (العجلة وهو) اى العجلة معنى (باعث على الاقدام) اى اقدام الانسان على الامور (باول خاطر) من غير تأمل وتفكر (والاستعجال اتباعه) اى تتبع ذلك الباعث من غير تأخر (وورد العجلة من الشيطان) ابو يعلى من حديث انس بلفظ التأنى من الله والعجلة من الشيطان والترمذى وحسنه من حديث سهل بن سعد بلفظ الاناءة من الله (الا فى تزويج البكر) اى خصوصا اذا بلغت ووجدت لها كفوا (وقضاء الدين) ولو كان مؤجلا (وتجهيز الميت) اذا كان ميسرا (وقرى الضيف) اذ حسنه

ان يكون معجلا لقوله تعالى * فما لبث ان جاء بعجل حنيذ * ففيه الدلالة على المبادرة بالعبارة والاشارة (والتوبة من الذنب) اذ يجب ان تكون في الحال فان اكثر عذاب اهل النار من تسويفهم في القال ويستثنى ايضا الصلاة اذا دخل وقتها فان في التأخير آفات (وآفاتها) اى العجلة اشياء منها (الحرمان) عن المطلوب (فمن استعجل نيل منزلة) من مال اوجاه اولذة اومقام اوحال اومرتبة (او اجابة دعوة قبل الوقت) اى المقدر لها فان الامور مرهونة باوقاتها (يترك ملالة) اى يترك المستعجل طلب تلك المنزلة والدعوة من جهة الملالة فيكون سبب الحرمان عن وصول تلك الحالة لامحالة او يغلو ويبالغ في الجهد واتعاب النفس فينقطع عن الطريق فهو بين افراط وتفريط وكلاهما نتيجة الاستعجال وقد ورد برواية البزار والحاكم والبيهقي وغيرهم ان ديننا هذا متين فاوغل فيه برفق فان المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى والمنبت الذى انقطع به في سفره وعطبت راحلته والفعل انبت مطاوع بته من البت وهو القطع وفي المثل السائر ان لم تستعجل تصل ولبعضهم يقول * ﴿شعر﴾

* قد يدرك المتأني بعض حاجته * وقد يكون المستعجل الذليل *

فيفتر وييأس ويترك الدعاء فيحرم حاجته قال تعالى * لا يسأم الانسان من دعاء الخير وان مسه الشر فيؤس قنوط (اومكافاة ظالم) اما منصوب عطفا على نيل منزلة اومجرور عطفا على منزلة (يبطل) اجره لعدم صبره (بالدعاء عليه) اى على الظالم وذلك بان يظلمه انسان فيغيظه ويدعو عليه وربما يتجاوز عن الحد فيقع في المعصية والهلاك قال تعالى * ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا (واقتحام الشبهة) اى ومن آفات العجلة دخول الشبهات المورثة للسيئات (فاصل الورع) اى اساسه الذى عليه ومدار الشرع (النظر البالغ في كل شئ) اى من الاصل والفرع الذى هو بصدده من اكل وشرب وكلام وغيره فاذا كان الرجل مستعجلا في اموره غير متأن ولا متثبت عند صدورها فيميل الى كل طعام وكلام فيقع في شبهة اوحرام وكذا في سائر المرام فيفوته الورع الذى عليه مدار احكام الاسلام وقد ورد اخبار وآثار في فضل الرفق الذى عليه مدار حسن الخلق في معاشرة الخلق ففي صحيح مسلم من حديث عائشة * ان الله رفيق يحب الرفق ويعطى عليه مالا يعطى على العنف وفي الصحيحين من حديثها ايا عائشة ان الله يحب الرفق في الامر كله * ولمسلم من حديث جرير * من يحرم الرفق يحرم الخير * اى كله كما في رواية ابي داود وللطبراني في الاوسط من حديث ابن مسعود والبيهقي في الشعب كلاهما من حديث عائشة * الرفق يمن والخرق شؤم * ولابن المبارك في الزهد من حديث ابي جعفر مرسلا * اذا اردت امرا فتدبر عاقبته فان كان رشدا فامضه وان كان سوى ذلك فانته * وعن الحسن المؤمن وقاف متأن وليس كحاطب ليل ثم العنف وان كان محمودا في بعض الاحوال ولكن الاحتياج الى الرفق

اقوى فى اكثر الافعال والاقوال ومن هنا قال سفيان لاصحابه اتدرون ما الرفق فقال واقل يا ابا محمد قال ان تضع الامور فى مواضعها الشدة فى موضعها واللين فى موضعه والسيف فى موضعه والسوط فى موضعه وفيه تنبيه نبيه على انه ينبغى مزج الغلظة باللين والعنف بالرفق كما قيل * ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا * اى بالعلا * مضر كوضع السيف فى موضع الندى * اى العطاء وعن ابى عون الانصارى ما تكلم الناس بكلمة صعبة الا والى جانبها كلمة الين منها تجرى مجراها (والافراط) اى ومن آفات العجلة الاكثار والمبالغة (فى الغضب وهو) اى الغضب اوافراطه (مذموم) اى شرعا وعرفا (فورد) اى برواية الطبرانى والبيهقى من رواية بهز بن حكيم عن ابيه عن جده (الغضب يفسد الايمان) اى كماله اويطفئ نوره اويمنع ظهوره (كما يفسد الصبر العسل) وهو بفتح الصاد وكسر الباء عصارة شجرة مر وعن ابى هريرة ان رجلا قال يارسول الله مرنى بعمل واقلل قال لاتغضب ثم اعاد عليه فقال لاتغضب رواه البخارى ومن هنا قيل لابن المبارك اجمل لنا الخلق الحسن فى كلمة قال ترك الغضب وعن عكرمة فى قوله تعالى * وسيدا وحصورا * قال السيد الذى لايغلبه الغضب وقد قيل الغضب غول العقل (وهو) اى الغضب (غليان دم القلب لطلب الانتقام والمحمود) من الغضب (الاعتدال) كسائر الاخلاق والاحوال فللبيهقى فى الشعب مرسلا خير الامور اوساطها (وهو) اى الاعتدال (الضبط تحت الشرع والعقل) بان لايكون فيه تفريط ولاافراط فيغلب حيث وجبت الحمية الشرعية وينطفئ حيث يحسن الحلم فى القضية الفرعية (فالتفريط) اى بفقد الغضب اوضعفه (مذموم) وهو الذى يقال فيه انه لاحمية له ولذا قال الشافعى من استغضب فلا يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان (كالافراط) اى كما ان الافراط بالتجاوز عن الحد مذموم قال تعالى * اذجعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين * ذم الكفار بماتظاهروا به من الحمية الصادرة من الغضب بالباطل ومدح المؤمنين بما انعم الله عليهم من السكينة (فورد) فى مدح الاعتدال قوله تعالى (اشداء على الكفار) تمامه * رحماء بينهم * وكذا قوله * اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين * وقد قال تعالى لنبيه عليه السلام * يا ايها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم * (ولاتأخذكم بهما) اى بالزانى والزانية فى حدهما (رأفة فى دين الله) اى شدة رحمة وهو دليل لذم التفريط وقال عليه السلام * خيرامتى احداؤها * يعنى فى الدين رواه الطبرانى والبيهقى عن على (وقلعه) اى قطع الغضب ودفعه (فى زوال ما استغنى عنه) كالجاه والمال الكثير والغلمان والدواب (ممكن) اذليست هذه الاشياء ضروريات لاحد من الخلق فيمكن رفعها بالرياضة والمجاهدة العلمية والعملية (لا) اى

لايمكن قلعه فى زوال (ما احتيج اليه) اى ولا يستغنى عنه بحال (كطعام يسدجوعته) من قوت يومه وليلته (وثوب يستر عورته) ويصحح صلاته (وبيت يواريه) اى يستر حالته ويدفع برودته وحرارته (وكتاب يطالعه) وفى معناه كل آلة بها يكتسب صاحبها والاخير من ضروريات بعض افراد الناس (لصعوبة تفريغ القلب عن حبها) اى عن حب هذه الاشياء بحكم الطبيعة فانه لا يمكن قلعها بالرياضة ولا كلف احد بها فى ابواب الشريعة وقد اشار اليه صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله من اصبح منكم آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا اى جمعت له لذاتها الترمذى وابن ماجه من حديث عبد الله ابن محصن وقال الترمذى * حسن غريب * ورواه الطبرانى فى تاريخه والكل بدون زيادة بحذافيرها (الا لمن غلب عليه التوحيد) فلا يغضب على تفويت هذه الاشياء لما عنده من المقام السديد وحال الفناء (فيرى الخلق مسخرين للحق) القاهر الغالب (كالقلم للكاتب) لكن غلبة التوحيد الى هذا الحد فى مقام التفريد انما يكون كالبرق الخاطف يقع فى احوال نادرة مع الرب ثم يرجع القلب الى الوسائط رجوعا طبيعيا لا يندفع عنه ولو تصور ذلك على الدوام لاحد من الانام لتصور لرسوله عليه السلام فانه كان يغضب حتى تحمر وجنتاه ويقول انما انا بشر اغضب كما يغضب البشر كما فى الصحيحين وفى رواية فايما مسلم سببته اولعنته اوضربته فاجعلها منى صلاة وزكاة وقربة تقربه بها اليك يوم القيمة (وفيه) اى فيما احتيج اليه (يتصور الكسر) اى كسر النفس (بان لايظهر الاثر) اى اثر الغضب فى البشرة لاقلع الغضب بالمرة لانه غير مقدور البشر وعن على كرم الله وجهه كان عليه السلام لايغضب للدنيا فاذا اغضبه الحق لم يقربه احد ولم يقم لغضبه شئ حتى ينتصر له رواه الترمذى فى الشمائل وفى صحيح مسلم عن عروة ان عائشة حدثته ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج من عندها ليلا قالت فغرت عليه فجاء فرأى ما اصنع فقال مالك يا عائشة اغرت فقلت ومالى لا يغار مثلى على مثلك فقال صلى الله تعالى عليه وسلم لقد جاءك شيطانك قالت يارسول الله اومعى شيطان قال نعم قلت ومع كل انسان قال نعم قلت ومعك يارسول الله قال نعم ولكن ربى اعاننى عليه حتى اسلم فلا يأمرنى الا بخير فى الاحياء اراد شيطان الغضب والمعنى انه لايحملنى على الشر وقال عبد الله بن عمرو بن العاص يارسول الله اكتب عنك كلما قلت فى الغضب والرضاء قال اكتب فو الذى بعثنى بالحق ما يخرج منه الاحق واشار الى لسانه فلم يقل انى لااغضب ولكن قال ان الغضب لايخرجنى عن الحق ولا اعمل بموجب الغضب والحديث رواه ابوداود باسناد صحيح وهو متضمن لما فى قوله تعالى * وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى * وقوله سبحانه * قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى * اى التمييز بينى وبينكم بوقوع الوحى الى دونكم هذا وقد يفقد اصل الغضب

فيما هو ضروري اذا كان القلب مشغولا بضروري اهم منه فلا يكون فى القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره فان استغراق القلب ببعض المهمات يمنع الاحساس بما عداها ولوكانت من الضروريات ومن هنا لما شتم سلمان قال ان خفت موازيني فانا شرمما تقول وان ثقلت موازيني فلايضرني ما تقول فقد كان همه مصروفا الى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالشتم ولم يصر سببا لغضبه وكذلك شتم الربيع بن خيثم فقال ياهذا سمع الله كلامك وان دون الجنة عقبة ان قطعتها لم يضرني ما تقول وان لم اقطعها فانا شر مما تقول وقيل للبسطامي لحيتك افضل ام ذنب الكلب فقال ان مت مؤمنا فلحيتي والا فذنب الكلب فكان همه حسن الخاتمة وشتم رجل ابابكر الصديق فقال ما ستر الله عنك اكثر فكأنه كان مشغولا بالنظر فى تقصير نفسه عن ان يتقى الله حق تقاته ويعرف الله حق معرفته فلم يغضبه نسبة غيره اياه الى نقصان فى امره اذكان ينظر الى نفسه بعين النقصان وذلك لكمال قدره وقالت امرأة لمالك بن دينار يامرائى فقال ما عرفنى غيرك فكأنه كان مشغولا بان ينفى عن نفسه آفة الرياء ليصل الى حالة الاخلاص ومقام البقاء بعد الفناء وسب رجل الشعبى فقال ان كنت صادقا فغفر الله لى وان كنت كاذبا فغفر الله لك (والسبب) اى باعث الغضب ستة اشياء (الكبر والعجب والمزاح والاستهزاء والايذاء اى بالتعيير والمراء (والحرص) اى شدة الميل (فى الفضول) اى زيادة المال والجاه وهى باجمعها اخلاق ردية واحوال دنية مذمومة فى امور شرعية واحكام فرعية ولاخلاص من الغضب مع بقاء هذه الاسباب فلابد من ازالتها باضدادها المعروفة فى الباب (وعلاج كل) اى من الكبر ونحوه (فى موضعه) اى يأتى مفصلا واما مجملا فهو بان يميت الكبر بالتواضع ويميت العجب بمعرفة النفس اذا كان بالعلم والعمل واما اذا كان بالنسب المجرد فبمعرفة ان بنى آدم جنس واحد وان الشرف بالفضائل والفخر والعجب من اكبر الرذائل ويميت المزاح بالاشتغال بالمهمات الدينية والامور الاخروية ويزيل الهزل بالجد ويميت الباطل بالحق لقوله تعالى * انه لقول فصل وما هو بالهزل * ويزيل التعيير بالاشتغال بعيوب نفسه فورد طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ومن عير اخاه بذنب لم يمت حتى يبتلى به ويزيل الحرص على مزايا العيش بالقناعة والاشتغال بالعبادة على قدر الاستطاعة فالدنيا ساعة فاجعلها طاعة مع ما فى القناعة من الاستغناء والترفع عن ذل الحاجة ثم المواظبة على مباشرة اضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة سديدة فاذا انمحت عن النفس فقد زكت وطهرت عن هذه الرذائل واتصفت بمحاسن الفضائل ومكارم الشمائل * والحاصل ان الغضب انما هو لضعف النفس فالمريض اسرع غضبا من الصحيح والمرأة اسرع غضبا من الرجل والصبى اسرع غضبا من الكبير والشيخ الضعيف اسرع غضبا من الكهل وذو الخلق السئ والرذائل اسرع غضبا من

صاحب الفضائل فالرذيل يغضب لشهوته عند فوت لقمته ولبخل عند فوت حبته وصاحب الفضل يملك نفسه عند غضبه وحدته ففي الصحيحين عن ابي هريرة ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب وهو الذى ذكرناه علاجه بتفصيل الاحوال (وبالاجمال) علاجه اثنا عشر (التوضى) والاغتسال اتم ففى الحديث اذا غضب احدكم فليتوضأ بالماء فان الغضب من النار ابوداود من حديث عطية السعدى وفى رواية اخرى ان الغضب من الشيطان وان الشيطان خلق من النار وانما تطفأ النار بالماء فاذا غضب احدكم فليتوضأ وروى ان عمر غضب يوما فدعا بماء فاستنشق وقال ان الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب فى الجملة (والتعبد) اى بالصلوة ونحوها وفى نسخة التغسل وهو الظاهر فيكون فى الاصل تصحيف وتحريف اذ لم يرد فيه حديث شريف بخلاف الاغتسال فقد اخرج ابن عساكر من حديث معاوية الغضب من الشيطان والشيطان خلق من النار والماء يطفى النار فاذا غضب احدكم فليغتسل ومن جملة العلاج السكوت فعن ابن عباس مرفوعا اذا غضبت فاسكت احمد وابن ابى الدنيا والطبرانى والبيهقى فى شعب الايمان (والقعود) اى الجلوس اذا كان قائما (والاتكا) اذا كان جالسا (والاضطجاع) اذا كان متكئا فللترمذى من حديث ابى سعيد ان الغضب جمرة فى القلب الم تروا الى انتفاخ اوداجه وحمرة عينيه فاذا وجد احدكم من ذلك شيئا فان كان قائما فليجلس وان كان جالسا فلينم اى فليضطجع فان لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد او يغتسل فان النار لا يطفيها الا الماء ولابن ابى الدنيا من حديث ابى هريرة كان عليه السلام اذا غضب وهو قائم جلس واذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه ولاحمد باسناد جيد وكان ابوذر قائما فجلس ثم اضطجع فقيل له لم جلست ثم اضطجعت فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا اذا غضب احدكم وهو قائم فليجلس فان ذهب عنه الغضب والا فليضطجع والمرفوع عند ابى داود بسند فيه انقطاع والاضطجاع غاية السكون فان سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة والظاهر عنوان الباطن ويستعان بكل منهما على الآخر كما حقق فى طهارة الظاهر والباطن وقد ورد ان اباذر قال لرجل يا ابن الحمراء فى خصومة بينهما وفى رواية يا ابن الخضراء فبلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال يا اباذر بلغنى انك اليوم عيرت رجلا بامه قال نعم فانطلق ابوذر ليرضى صاحبه فسبقه الرجل فسلم عليه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال يا اباذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم انك لست بافضل من احمر فيها ولا اسود الا ان تفضله بعمل ثم قال اذا غضبت فان كنت قائما فاقعد وان كنت قاعدا فاتك وان كنت متكئا فاضطجع رواه ابن ابى الدنيا باسناد صحيح وفى الصحيحين من حديثه قال كان بينى وبين رجل من اخوانى

كلام وكانت امه اعجمية فعيرته بامه فشكانى الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا اباذر انك امرؤ فيك جاهلية ولاحمد انه عليه السلام قال له انظر فانك لست بخير من احمر ولا اسود الا ان تفضله بتقوى ورجاله ثقات (والصاق الخد بالارض) فعن ابى سعيد الخدرى مرفوعا الا ان الغضب جمرة فى قلب ابن آدم الاترون الى حمرة عينيه وانتفاخ اوداجه فمن وجد من ذلك شيئا فليلصق خده بالارض الترمذى وحسنه وكأن هذا اشارة الى تمكين اعز الاعضاء من اذل الاشياء لتستشعر به النفس المذلة ويزيل عنها الزهو والعزة وايماء الى من اوله وآخره التراب لا يصلح له الغضب فى باب من الابواب والى قول بعض اولى الالباب ما للتراب ورب الارباب والله اعلم بالصواب وقال عروة بن محمد لما استعملت على اليمن قال لى ابى اوليت قلت نعم قال فاذا غضبت فانظر الى السماء فوقك والى الارض تحتك ثم عظم خالقهما (فالكل مروى) اى فعله كما قدمنا (مامور به) كما بيناوالمعنى انه جمع فيه بين العمل والقول (معللا) وفى نسخة معلل (بانه) اى الغضب (جمرة) اى حرارة غريزية او حادثة عرضية تتوقد (فى القلب بدليل حمرة العين) اى حينئذ (وانتفاخ الاوداج) اى عروق الرقبة وقد سبقت به الرواية وتحقق فيه الدراية (والاستعادة) اى ومن جملة العلاج العودة الى الحالة الاولى بعد التغير عنها الى الحالة الثانية (والاستعاذة) اى التعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند الغيظ وهو متفق عليه من حديث سليمان بن صرد قال كنت جالسا مع النبى صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان فاحدهما احمر وجهه وانتفخت اوداجه فقال عليه السلام لو قال اعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد الحديث ولابن عدى من حديث ابى هريرة اذا غضب الرجل فقال اعوذ بالله سكن غضبه ولابن السنى فى اليوم والليلة من حديث عائشة كان عليه السلام اذا غضبت عائشة يأخذ بانفها وقال يا عويش قولى اللهم رب النبى محمد اغفر لى ذنبى واذهب غيظ قلبى واجرنى من مضلات الفتن (والاستعانة بالله تعالى) اى بحوله وقوته فى دفع غضبه وشدة حدته (والعلم بثواب الحلم والتحلم) عطف على العلم لا الحلم اى ومن العلاج التكلف فى الحلم فانه محمود ايضا وللطبرانى انما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم (فورد) فى التنزيل (والكاظمين الغيظ اى المتحلمين) وذلك فى معرض مدح المتقين من المؤمنين وتمامه * والعافين عن الناس والله يحب المحسنين * وللطبرانى فى الاوسط والبيهقى فى الشعب من حديث انس (من كف لله غيظه كف الله عنه عذابه) ولابن ابى الدنيا من حديث ابن عمر من ملك غضبه وقاه الله عذابه ولابن ابى الدنيا من حديث على اشدكم من ملك نفسه عند الغضب واحلمكم من عفا عند القدرة (ان المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم) اى بالنهار (القائم) اى بالليل رواه الطبرانى

فى الاوسط ولابن السنى من حديث ابى هريرة * اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم وفى الصحيحين يـا اشج ان فيك خلقين يحبهما الله الحلم والاناءة وللطبرانى من حديث فاطمة * ان الله يحب الحيى الحليم ولابن ماجه باسناد جيد من حديث ابن عمر ماجرع عبد جرعة اعظم اجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله زاد ابن ابى الدنيا من حديث ابن عباس وما كظمها عبد الاملأ الله قلبه ايمانا وقـال ايوب حلم ساعة يدفع شرا كثيرا واجتمع سفيان الثورى وفضيل بن عياض فتذاكرا واجتمعا على ان افضل الاعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الطمع وقال رجل لعمر والله ما تقضى بالعدل ولا تعطى الجزل فغضب عمر حتى عرف فى وجهه فقال له رجل يا امير المؤمنين الم تسمع ان الله قال * خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين * وهذا من الجاهلين فقال عمر صدقت وكأنما كانت نارا فاطفئت (وشدة غضبه تعالى وقدرته الآخرة) اى والعلم بها فانها تكون سببا لاطفاء نار الغضب وتسكينها عن اللهب فيخوف نفسه بعقاب الله بان يقول قدرة الله على اعظم من قدرتى على هذا الانسان فلو امضيت غضبى عليه لم آمن ان يمضى الله غضبه على يوم القيمة احوج ما اكون الى العفو والمرحمة وقد قال تعالى فى بعض الـكتب المتقدمة يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب اذكرك حين اغضب فلا امحقك فيمن امحق وبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصيفا الى حاجة فابطأ عليه فلما جاء قال لولا القصاص لاوجعتك ضربا اى خوف القصاص فى القيمة ابويعلى من حديث ام سلمة بسند ضعيف ولاحمد من حديث عبد الله بن عمر وسأل رجل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مايبعدنى من غضب الله قال لاتغضب (وتشبه الحليم بالانبياء) فورد كاد الحليم ان يكون نبيا وقد مدح الله سبحانه خليله بانه حليم وكذا بشره بغلام حليم (والاولياء) اى باتباع الانبياء من الاصفياء فقد ورد العلماء ورثة الانبيـاء وضد ذلك حال الاكراد والاتراك والجهلة والاغبياء (والغضوب) اى وتشبه كثير الغضب (بالسبع الضارى) اى الصائل العادى من الاسد ونحوه فهو من اخلاق البهائم والـكلب الهائم (وقبح هيئته) اى بتغيير صورته حال غضبه وشدة حدته بان يتفكر ويتذكر صورة غيره حال غضبه وتغير لونه وشدة رعدته فى اطرافه واكتافه وخروج افعاله عن ترتيبه ونظامه من اضطراب الحركة فى اعضائه وكلامه حتى يظهر الزبد على الاشداق وتحمر الاحداق وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة فى الظاهر ولورأى الغضبان نفسه فى حال غضبه وقبح صورته يسكن غضبه من قبح هيئته واستحالة خلقته وقبح باطنه اعظم من ظاهره وهذا التغير فى جسده واما اثره باللسان فانطلاقه بالشتم والفحش وقبح الكلام الذى يستحيى منه ذووا العقول ويستحيى منه قائله ايضا عند فتور غضبه وذلك مع تخبط نظمه اواضطراب لفظه واما اثره على الاعضاء فالضرب والهجم والتمزيق والجرح والقتل عند التمكين

من غير مبالات فان هرب منه المغضوب عليه اوفاته بسبب لديه وعجز عن التشفى اليه رجع الغضب على نفسه بتمزيق ثوبه ولطم وجهه وقد يضرب بيده على الارض اوجدره ويعدو عدو الواله والسكران فى مشيه وربما يسقط صريعا لايطيق العدو سريعا وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة على الارض ويكسر المائدة ويتعاطى افعال المجانين فيشتم البهيمة ويخاطبها ويقول لها الى متى الى متى منك ياهذا ياكيت وكيت كأنه يخاطب عاقلا حتى ربما رفسته دابة فيرفس هو الدابة ويقابلها بذلك وربما قتل نفسه بيده امابآلة اوبشنق اوبرمى فى بحر ونحوه (والعجز) اى والعلم بالعجز (عن الغلبة على مراده تعالى) فالله غالب على امره وهو القاهر فوق عباده فان الغضبان يود جريان الشيء على وفق مراد نفسه دون مراد ربه ومن وقع فى هذه الورطة وباءبه باء بغضب من الله وعذابه ونعم *

ماقيل * تود النفس ان تلقى مناها * ويأبى الله الاما يريد *

فيفعل الله مايشاء ويحكم مايريد * فكن مسلما لامره ان كنت من المريد الطالب لقام المزيد (وانتقام المغضوب عليه) اى يحذر نفسه عاقبة الانتقام من تسلط المغضوب عليه على اظهار معائبه والشماتة بمصائبه (وحدوث الذنوب) اى انواع العصيان (لاخذ اللسان فى الفحش والسب) الانسان (والجوارح فى الضرب والجرح والقتل) كما سبق فى معرض البيان (والقلب فى الحقد) فان الغضب اذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى غيظه رجع الى باطنه واحتقن فيه فصار حقدا فحينئذ يلزم قلبه استثقاله ويحسده فى حسن حاله ويظهر الشماتة بمسائه والحزن بمسرته والعزم على افشاء سره وهتك ستره والاستهزاء به فى قوله وفعله وجميع امره (وهو) اى الحقد (ذميمة) اى خصلة مذمومة (فاحشة) اى متجاوزة عن الحد لاشتماله على سيئات متعدية عن العد (فورد المؤمن) اى الكامل (ليس بحقود) فعول بمعنى فاعل اى ليس بذى حقد اوليس بمبالغ فى الحقد والحديث فى الاحياء وقال مخرجه لم اقف له على اصل (والعلاج) اى علاج الحقد (قلع الغضب) اى الذى سبب الحقد الباعث على الحسد ونحوه (وذكر ماورد) اى من الفضائل فى الكتاب والسنة (فى العفو مثل والعافين عن الناس) وتمامه * والله يحب المحسنين * وللطبرانى فى مكارم الاخلاق من حديث انس اذا وقف العباد نادى مناد ليقم من اجره على الله فليدخل الجنة قيل من ذا الذى اجره على الله قال العافون عن الناس وهو مستفاد من قوله * فمن عفى واصلح فاجره على الله * ولاحمد والحاكم وصححه ان الله عفو يحب العفو فالتخلق باخلاق الله له شأن عظيم عند مولاه (خذ العفو) تمامه * وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين * وورد فى تفسير العفو: ان تعطى من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عن من ظلمك (وان تعفوا

اقرب للتقوى) تمامه * ولاتنسوا الفضل بينكم * (وهو) اى العفو (اسقاط حق وجب) اى ثبت للعبد على غيره (اماقول ابي ضمضم) وهو رجل من بنى اسرائيل (اللهم تصدقت بعرضى على عبادك فوعد) اى لاعفو لانه اثبات ماله للغير لااثبات حق واجب له على الغير (وعليه الوفاء) اى بوعده وعهده وتوضيحه انه لما قال العفو اسقاط حق وجب ورد عليه ان قول ابي ضمضم تصدقت يدل على ان العفو قديكون باسقاط الحق قبل الوجوب فاجاب بانه وعد بانه لايخاصمه بـه يوم القيمة لاعفو كما قدمناه وفى الاحياء قال رجـل من المسلمين اللهم ليس عندى صدقـة اتصدق بهـا فايما رجل اصاب من عرضى شيء فهو صدقـة عليه فاوحى الله الى النبى عليه السلام انى قـد غفرت له قال مخرجه رواه ابونعيم فى الصحابة والبيهقى فى الشعب وابن عبدالبر فى الاستيعاب من حديث ابي هريرة ان رجلا من المسلمين ولم يسمه وقال اظنه اباضمضم وتقدم فى آفات اللسان حديث ايعجز احدكم ان يكون كابى ضمضم قالوا وما ابوضمضم قال رجل فيمن كان قبلكم اذا اصبح قال اللهم انى قدتصدقت اليوم بعرضى على من ظلمنى والمعنى انتم اولى بهذه الخصلة المهمة فانكم خير امة وقيل فى قوله تعالى * ربانيين * اى علماء حلماء وعن الحسن فى قوله تعالى * واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما * قال حلماء ان جهل عليهم لم يجهلوا يعنى بل يجيبونهم بقول يسلمون فيه عنهم وقال عطاء بن ابى رباح ويمشون على الارض هونا اى حلماء وقال ابن ابى حبيب فى قوله * وكهلا * قال الكهل منتهى الحلم وقال مجاهد * واذا مروا باللغو مروا كراما * اى اذا اوذوا صفحوا وروى ان ابن مسعود مر بلغو معرضا فقال عليه السلام اصبح ابن مسعود وامسى كريما ثم تلا ابراهيم بن ميسرة وهو الراوى قوله تعالى * واذا مروا باللغو مروا كراما * ابن المبارك فى البر والصلة ولاحمد من حديث سهل بن سعد اللهم لايدركنى ولاادركه زمان لايتبعون فيه العليم ولايستحيون فيه من الحليم قلوبهم قلوب العجم والسنتهم السنة العرب وعن على كرم الله وجهه ليس الخير ان يكثر مالك وولدك ولكن الخير ان يكثر علمك ويعظم حلمك وان لاتباهى الناس بعبادة ربك فاذا احسنت حمدت الله واذا اسأت استغفرت الله وعن الحسن اطلبوا العلم وزينوه بالحلم وقال بعضهم مـا احسن الايمان بزينة العلم وما احسن العلم بزينة العمل وما احسن العمل بزينة الرفق وما اضيف شئ الى شئ مثل حلم الى علم وعن انس بن مالك فى قوله تعالى * فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم * الى قوله * عظيم * هو الرجل يشتمه اخوه فيقول ان كنت كاذبا فيغفر الله لك وان كنت صادقا فيغفر الله لى وعن بعضهم قال شتمت فلانا من اهل البصرة فحلم عنى فاستعبدنى بها زمانا وسب رجل ابن عباس فلمافرغ قال ياعكرمة هل للرجل حاجة فتقضيها فنكس الرجل رأسه واستحيى وعن على بن الحسين انه سبه رجل فرمى

اليه خميصة كانت عليه وامر له بالفى درهم ومر المسيح بن مريم عليهما السلام بقوم من اليهود فقالوا له شرا فقال لهم خيرا فقيل له انهم يقولون شرا وانت تقول خيرا فقال كل واحد ينفق مما عنده ولاحمد من حديث جابر بن سمرة ان امرؤ عيرك بمافيك ولاتعيره بما فيه ولابى داود من حديث ابى هريرة شتم رجل ابابكر وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام عليه السلام فقال انك كنت ساكتا لما شتمنى فلما تكلمت قمت قال لان الملك كان يجيب عنك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان فلم اكن لاجلس فى مجلس فيه الشيطان (وما ارتكب) اى وذكر ما اكتسب (الحقود من مكروه كترك الاعانة فى الحاجة) وقد قال تعالى * وتعاونوا على البر والتقوى * (والدعاء) اى وكترك الدعاء له فى الغيبة فان الدعاء يستجاب فى غيبة المؤمن ويكون للداعى مثله (والوعظ) اى النصيحة وترك الفضيحة فقد ورد الا ان الدين النصيحة قيل لمن يارسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المؤمنين وعامتهم (والرفق) اى بالنية الصحيحة (فورد ان الله يحب الرفق) اى اللطف وهو ضد العنف وقد تقدم مخرجه (ومن حرام كالشماتة) وهى الفرح ببلية العدو (والاعراض) عند المواجهة بترك السلام والكلام (والاهانة) بترك القيام والتوسيع فى المقام (والغيبة) اى ذكر ما يكرهه فى الغيبة (وترك صلة الرحم) ان كان من ذوى القرابة (وقضاء الحق) اى وتركه من حقوق المسلمين من رد السلام وتشميت العاطس وعيادة المريض وامثالها (والنصيحة) ان وتركها (وهى ارادة بقاء النعمة على المسلم مما) اى من شئ (له) اى للمسلم (فيه) اى فى ذلك الشئ (صلاح) دنيوى واخروى (عرف) كونه صلاحا (بغلبة الظن اوقيد بشرطه) اى اوقيد البقاء بشرط الصلاح بان يقول ان كان له فيها صلاح فابقها (وضدها) اى النصيحة (الحسد وهو ارادة زوالها) اى النعمة (عنه) اى عن المسلم (مماله فيه صلاح فان انتفى الصلاح) وقد اراد زوالها عنه مطلقا من غير ان يباشر سببا لاجل زوالها (فغيرة) وهى مذمومة (وان اراد مثلها لنفسه دون الزوال عنه فغبطة ومنافسة) وهى خصلة محمودة ومنه قوله تعالى * وفى ذلك فليتنافس المتنافسون * وحديث الصحيحين عن ابن عمر لاحسد الا فى اثنين رجل آتاه الله علما فهو يعمل به ويعلمه الناس ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق (والحسد) اى المذموم (حرام) لقوله تعالى * ام يحسدون الناس على ما آتيهم الله من فضله * وعن الفضيل المؤمن يغبط والمنافق يحسد ولقوله عليه السلام * الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب * ابو داود من حديث ابى هريرة وابن ماجه من حديث انس وفى الصحيحين * لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا * وللبيهقى فى الشعب كاد الفقر ان يكون كفرا وكاد الحسد ان يغلب القدر (فآفاته) منه

(كراهة نعمته تعالى) فللطبرانى من حديث معاذ استعينوا على قضاء الحوايج بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود وللطبرانى فى الاوسط من حديث ابن عباس ان لاهل النعم حسادا فاحذروهم (وقضائه) فعن زكريا عليه السلام قال تعالى الحاسد عدو لنعمتى ساخط لقضائى غير راض بقسمتى التى قسمت بين عبادى وقد يؤخذ هذا المعنى من قوله تعالى * ولاتتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسئلوا الله من فضله ان الله كان بكل شئ عليما * وقال تعالى * لكل اجل كتاب * وكل شئ عنده بمقدار * وقد شكى نبى من الانبياء من امرأة ظالمة مستولية على الخلق فاوحى الله اليه فرّ من قدامها حتى تنقضى ايامها (وراحة المسلم) اى وكراهتها وهو من خصال المنافقين كما قال تعالى فى حقهم * ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها * وقال معاوية كل الناس اقدر على رضاه الا حاسد نعمة فانه لايرضيه الا زوالها ولذا قيل

(شعر) * كل العداوة قد يرجى اماتتها * الا عداوة من عاداك من حسد *

ومن هنا قال الله تعالى * قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور * وقال اعرابى ما رأيت ظالما اشبه بمظلوم من حاسد انه يرى النعمة عليك نقمة عليه وقال الحسن يا ابن آدم لم تحسد اخاك فان كان الذى اعطاه الله اياه لكرامته عليه فلم تحسد من اكرمه الله وان كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره الى النار (وفعل المعاصى) بالرفع اى من آفاته (كالتملق) فى الحضرة وانما يتملق الحسود على المحسود لئلا يطلع على ارادته الباطنة اذ الخائن يخاف من الفضيحة وهو من صفات المنافقين وقد سبق ان المؤمن ليس يتملق الا فى طلب العلم (والغيبة) اى غيبة المحسود فى الغيبة (والشماتة) وهى الفرح ببلية المحسود فللترمذى من حديث واثلة بن الاسقع لاتظهر الشماتة لاخيك فيعافيه الله ويبتليك وفى رواية ابن ابى الدنيا فيرحمه الله (فورد) فى التنزيل (ومن شر حاسد اذا حسد) اى اذا اظهر الحسد والا فلايخلو الجسد من الحسد وعن الحسن انه سئل عن الحسد فقال غمة فانه لايضرك مالم تبده (والتعب فى الدنيا) فان الحسود لايسود ولعدم خلو الدنيا من ذى نعمة (والعقاب فى الآخرة بلانفع) اى للحاسد (بل ينفع المحسود فى الدنيا بمضرة العدو) وهو الحاسد (وفى الآخرة بطلب المكافاة) اى المجازاة على عمله الكاسد (وعمى القلب) الناشئ من عدم الرضاء بقضاء الرب (والخذلان) اى عدم النصرة (فى الدنيا والآخرة ففيه الاثر) اى المروى من بعض السلف ان الحاسد لاينال من المجالس الا مذمة وذلا ولاينال من الملائكة الا لعنة وبغضا ولاينال من الخلق الا جزعا وغما ولاينال عند النزع الا شدة وهو لا ولاينال عند الموقف الا فضيحة ونكالا (الا فى نعمة الكافر) مستثنى من قوله

والحسد حرام (والفاسق المستعين بها على الفسق) والظالم المتقوى بهـا على الظلم (والمبتدع) الذى يشتد بها على البدعة (وهويكره من حيث آلته) اى آلة ما ذكر من الكفر والفسق والظلم والبدعة (دون النعمة) اى اصلها (بخلاف الغيرة) فانها غير حرام (فورد اتعجبون من غيرة سعد) وهو ابن ابى وقاص (فوالله ان سعدا لغيوروانا اغير منهوالله اغيرمنا) وغيرة الله ان يأتى المؤمن ماحرم الله عليه (والغبطة) اى وبخلاف الغبطة فانها ليست بحرام (فورد) اى فى التنزيل (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) اى ليرغب الراغبون وبطلب الطالبون المنازل العالية والمحافل الغالية وورد فى الحديث (هما فى الاجر سواء فيمن قال لو ان لى مال فلان لكنت اعمل فيه بمثل عمله) اى من الخيرات والمبرات فلابن ماجه والترمذى وقـال حسن صحيح مثل هذه الامة مثل اربعة رجال رجل آتاه الله مـالا وعلما فهويعمل بعلمه فى ماله ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول رب العلم لوان لى مال فلان لكنت اعمل فيه بمثل عمله فهما فى الاجر سواء ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه فى معاصى الله ورجل لم يؤته الله مالا فيقول لو ان لى مثل مال فلان لكنت اعمل بمثله عمله فهما فى الوزر سواء (فهى) اى الغبطة (تتبع ماغبطفيه) بصيغة المجهول (حرمة) كالمعاصى (واباحة) كالمباحات من الثياب الفاخرة وسائر النعم الظاهرة لكن الغبطة فى المباحات تناقض علو الحالات والمقامات كالزهد والرضاءوالتوكل والقناعة والتسليم وتعجب عن المقامات الرفيعة من غير اثم فى قواعد الشريعة (ووجوبا) كالايمان والصلوة والزكوة وسائر الاعمال (وندبا) كانفاق الاموال فى تحسين الاحوال (والسبب) اى الحسد سبعة (خبث النفس وهوداء مدمن) اى لازم (لانه جبلى) لاعلاج له فقد يوصف عنده حسن حال رجل من عباد الله فيما انعم به عليه مولاه فيشق ذلك عليه ويحب زوال نعمة الله تعالى عنه وليس بينه وبينه عداوة خفية ولاجنسية جلية ولاشئ مما ذكر من اسباب الحسد بل انما هولخبث فى نفسه ورذالة فى طبعه لايزول الا بموته كما تقدم فى ذمه (والرغبة فى نعمة الغير كالرياسة) فى مقام الجاه والسياسة فانه يحب ان يكون فريد دهره ووحيد عصره (وخوف فوت المقاصد كما فى الضرة) على توهم المضرة ومن هذا القبيل الاخوان عند الاب والتلاميذ عند العلماء والندماء عند الامراء بل ومن ذلك حسد العالم للعالم دون العابد وحسد العابد للعابد دون العالم وقس على هذا (والعداوة) الكامنة فى القلب (والتعزز بكراهة ترفع الغير عليه) فى المنازل والمحافل فيما بين اهل الفضائل ومنه قوله تعالى * اهؤلاء من الله عليهم من بيننا * (والتكبر) وهومن اردى الرزائل (والتعجب برجحان من ساواه) اى نسبا وحسبا ومنه قوله تعالى * ولئن اطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون * تعجبوا من ان يكون الرسول بشرا وجوزوا ان يكون الاله حجرا ومنه ايضا

قوله

قوله تعالى * وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * وقوله * أأنزل عليه الذكر من بيننا * وقوله * اوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم * (فمن ثم كثر الحسد بين الاقارب) وقل بين الاجانب (لكثرة تحققها) اى المساواة فى ذوى القرابات (دون علماء الآخرة) فانه لايكثر فيهم بل لايوجد عندهم اذ مقصودهم معرفة الله تعالى وهى بحر واسع لاضيق فيه وغرضهم المنزلة عنده وليس فيه ممانعة ولامزاحمة بل يزيد الانس بسبب الكثرة (وورد) فى التنزيل (ونزعنا) اى فى الدنيا والاخرى (ما فى صدورهم من غل) اى حقد وحسد (اخوانا على سرر متقابلين وعلاج كل) اى كل واحد من اسباب الحسد (ضده) فعلاج خبث النفس سلامته وطيبه وعلاج الرغبة التنفر وعلاج الخوف الامن لعدم خلاف المقدور وعلاج العداوة المحبة والتعزز التذلل والتكبر التواضع والتعجب الاطمئنان بالتفكر فى قدرته وقضائه وارادته فى خليقته (وذكره الآفات المذكورة) اى من جملة علاج الحسد (وماورد فيه) اى وذكره ما ورد فى ذم الحسد (ووجوب) اى وذكر وجوب (موالاة المؤمن ورعاية حقوقه وعظم قدره والفوائد) اى وذكره الفوائد الواصلة من المؤمن اليه من ترك الحسد (كالتعاون على البر والتقوى والتساعد على العلم والعمل والفتوى (وبركة الجماعة) لاسيما فى الجمعة والجنازة والمشاهد العظام والاجتماع بالعلماء الكرام والمشايخ الفخام وقد قال تعالى * ودّ كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند انفسهم * وقال * ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم اولياء * وقال * بئس ما اشتروا به انفسهم ان يكفروا بما انزل الله بغيا * اى حسدا ولله در القائل من ذوى الفضائل *

* لامات اعداؤك بل خلدوا * حتى يروا فيك الذى يحمد *
* لازلت محسودا على نعمة * فانما الكامل من يحسد *

ونعم المقال من بعض اهل الحال * حسد حافده وحقد حاسده

الباب الحادى عشر فى العزلة والخمول وحب الذم وبغض المدح

العزلة ضد الخلطة والخمول ضد الشهرة فذهب الى اختيار العزلة وتفضيلها على الخلطة سفيان الثورى وابن ادهم وداود الطائى والفضيل بن عياض وبشر الحافى وطائفة وقال اكثر التابعين باستحباب المخالطة تعاونا على البر والتقوى ومال الى هذا سعيد بن المسيب والشعبى وابن عيينة وابو حنيفة وابن المبارك والشافعى واحمد بن حنبل وجماعة فعن الفضيل كفى بالله محبا وبالقرآن مونسا وبالموت واعظا اتخذ الله صاحبا ودع الناس جانبا وقال الثورى هذا زمان السكوت ولزوم البيوت وقيل كان مالك

بن انس يشهد الجنائز ويعود المرضى ويعطى الاخوان حقوقهم فترك ذلك كله واحدا واحدا حتى تركها كلها وكان يقول لايتهيأ المرء ان يخبر بكل عذر له وقال الفضيل انى لاجد للرجل عندى يدا اذا لقينى ان لايسلم علىّ واذا مرضت ان لايعودنى وقال ابو سليمان الدارانى بينما الربيع بن خيثم جالس على باب داره اذجاءه حجر فصكه فى الجبهة فشجه فجعل يمسح الدم ويقول لقد وعظت ياربيع فقام ودخل داره فما جلس بعد ذلك على باب داره حتى اخرجت جنازته وكان سعد بن ابى وقاص وسعيد ابن زيد لزما بيوتهما بالعقيق فلم يكونا يأتيان المدينة للجمعة ولاغيرها حتى ماتا بالعقيق ودخل بعض الامراء على حاتم الاصم فقال له الك حاجة قال نعم قال ماهى قال ان لاترانى ولاأراك وقيل للفضيل ان ابنك عليا يقول لوددت انى فى مكان ارى الناس ولايرونى فبكى الفضيل فقال ويح على افلا اتمها فقال لااراهم ولايرونى وعن ابن عباس افضل المجالس مجلس فى قعر بيتك لاترى ولاترى (بسم الله الرحمن الرحيم) الذى يأنس به ارباب الخلوة ويستأنس به اصحاب الجلوة (فى العزلة فوائد) تسعة (وهى الفراغ للعبادة فالخلق شاغلون) بل مانعون لاهل الارادة وفق العادة فانهم كما قال تعالى * اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون * فعن الحاتم الاصم طلبت من هذا الخلق خمسة اشياء فلم اجد منها الواحدة طلبت منهم الطاعة والزهادة فلم يفعلوا فقلت اعينونى عليها ان لم تفعلوا فلم يفعلوا فقلت ارضوا عنى ان فعلت فلم يفعلوا فقلت لاتمنعونى عنها اذا فمنعونى فقلت لاتدعونى الى مالا يرضى الله ولاتعادونى عليها ان لم اتابعكم فيها فلم يفعلوا فتركتهم واشتغلت بمخاصمة نفسى فانها اولى منهم بها (وكان عليه السلام يعتزل فى جبل حراء) اى فى اول امره كما فى الصحيحين من حديث عائشة كان يخلو بغار حراء يتحنث فيه اى يتعبد الليالى المتتابعة حتى قوى فيه انوار النبوة وظهر منه اسرار الرسالة (والجمع) اى بين الفراغ والخلطة (متعذر) فيتعين الخلوة (الا لمن استغرق باطنه به تعالى) بحيث لايمنعه الوحدة عن الكثرة ولاتحجبه الكثرة عن الوحدة وهو مقام جمع الجمع للصوفية المعبر عنها بالكائن البائن والقريب الغريب والعرشى الفرشى (فغاب عنهم قلبا) اى جنانا (وشهدهم لسانا) اى حضرهم بيانا وبرهانا وهذا انما يتصور لمن اراد به سبحانه شانا فقد نقل عن الجنيد انه قال انا اكلم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون انى اكلمهم وقال بعضهم لايتمكن احدهم من الخلوة الا بالتمسك بكتاب الله والمتمسكون بكتابه استراحوا من الدنيا وبذكر الله عاشوا وبذكر الله ماتوا وبذكر الله لقوا الله وقيل لبعضهم ما اصبرك على العزلة فقال ما انا وحدى انا جليس الله تعالى اذا شئت ان يناجينى قرأت كتابه واذا شئت ان اناجيه صليت وقيل الاستيناس بالناس من علامة الافلاس وقيل بينما اويس القرنى جالس اذ اتاه هرم بن حيان فقال له اويس ماجاء بك قال جئت لانس بك فقال اويس ماكنت ارى احدا

يعرف ربه فيأنس بغيره وقال بعض الحكماء انمايستوحش الانسان من نفسه لخلو ذاته من الفضيلة التى سبب انسه وقال الفضيل اذا اقبل الليل فرحت به وقلت اخلو بربي واذا اصبحت استرجعت كراهية لقاء الناس وان يجيء من يشغلنى من ربى وعن بعضهم انى اصبح وامسى بين نعمة وخطيئة فاشغل نفسى بشكرالله على النعمة وبالاستغفار من الخطيئة (والخلاص عن المعاصى) التى يتعرض لها الانسان غالبا بالخلطة ويسلم منها فى الخلوة (كالرياء) والسمعة اذكل من خالطهم داراهم ومن داراهم راآهم ولقد صدق يحيى بن معاذ فى قوله رؤية الناس بساط الرياء (والغيبة) والسكوت عن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ومسارقة الطبع من الاخلاق الردية والاحوال الدنية (والبدع) فى الاقوال المتعارفة (مثل كيف اصبحت) فانه ان لم يكن على قصد الاعانة فهو نفاق وليس من اخلاق اهل الديانة فقد كان السلف يتلاقون ويحترزون فى قولهم كيف اصبحت وكيف حالك وفى الجواب عنه وكان سؤالهم عن احوال الدين لا لاحوال الدنيا قال حاتم الاصم لحامد اللفاف كيف انت فى نفسك قال سالم معافى فكره حاتم جوابه فقال يا ابا حامد السلامة من وراء الصراط والعافية فى الجنة اى على بساط النشاط وحال الانبساط وقد ورد اللهم لاعيش الاعيش الآخرة وكان اذا قيل لعيسى عليه السلام كيف اصبحت قال اصبحت لااملك نفع ما ارجو ولا استطيع دفع ما احترز واصبحت مرتهنا بعملى والخير كلـه بيد غيرى فلا فقير افقر منى وكان الربيع بن خيثم اذا قيل له كيف اصبحت قال اصبحنا ضعفاء مذنبين نستوفى ارزاقنا وننتظر آجالنا وكان ابو الدرداء اذا قيل له كيف اصبحت قال اصبحت بخير ان نجوت من النار وكان سفيان الثورى اذا قيل له كيف اصبحت يقول اصبحت اشكو ذا الى ذا واذم ذا الى ذا وافر من ذا الى ذا وقيل لاويس القرنى كيف اصبحت قال كيف يصبح رجل اذا امسى لايدرى انه يصبح واذا اصبح لايدرى انه يمسى وقيل لمالك بن دينار كيف اصبحت قال اصبحت فى عمر ينقص وذنب يزيد وقيل لبعض الحكماء كيف اصبحت قال اصبحت لاارضى حياتى لمماتى ولانفسى لربي وقيل لحكيم كيف اصبحت قال اصبحت آكل رزق ربي واطيع عدوه ابليس وقيل لمحمد بن واسع كيف اصبحت قال ماظنك برجل يرتحل كل يوم الى الآخرة مرحلة قلت وعن على كل نفس خطوة الى اجلك وقيل لحامد اللفاف كيف اصبحت قال اصبحت اشتهى عافية يوم الى الليل فقيل له الست فى عافية كل الايام فقال العافية يوم لا اعصى الله فيه وقيل لرجل وهو يجود بنفسه ماحالك فقال وماحال من يريد سفرا بعيدا بلا زاد ويدخل قبرا موحشـا بلا مونس وينطلق الى ملك عدل بلاحجة وقيل لبعضهم ماحالك قال ماحال من يموت ثم يبعث ثم يحاسب (عافاك الله) اى اذا كان قبل السلام ولم يكن فى الحمام وعن الحسن انمـا كانوا يقولون السلام عليك

اذا سلمت والله القلوب فاما الآن كيف اصبحت عافاك الله كيف انت اصلحك الله فان اخذنا بقولهم كانت بدعة ولا كرامة فان شاؤا غضبوا علينا وان شاؤا لا وفى الاحياء وانما قال ذلك لان البداية بقوله كيف بدعة (ومشاهدتها) اى ورؤية المعاصى (فهو يورث الاستحقار بها) بل رؤية ارباب الدنيا فانه يورث الاستعظام بها ومن هنا قال تعالى * ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم لاتمدن عينيك الى مامتعنا به ازواجا منهم * وذلك لان مسارقة الطبع لمايشاهده من اخلاق الناس واعمالهم وسائر احوالهم داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلا عن الغافلين فلا يجالس الانسان فاسقا اومبتدعا مدة مع كونه منكرا عليه فى باطنه الاولوقاس نفسه الى ماقبل مجالسته لادرك فيهما تفرقة فى النفرة عن الفساد اذيصير الفساد بكثرة المشاهدة من العباد هينا على الطبع ويسقط عنه وقعه واستعظامه له فى الشرع ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره استصغر الصغائر من نفسه ولذا يزدرى الناظر الى الاغنياء نعمة الله عليه فيؤثر مجالستهم فى ان يستصغر ما عنده ويؤثر مجالسة الفقراء فى استعظام ما قدر له من النعماء فكذا النظر الى المطيعين والعصاة فمن يقصر نظره على ملاحظة احوال الصحابة والتابعين فى عبادة المولى والتنزه عن الدنيا فلايزال ينظر الى نفسه بعين الاستصغار والى عبادته بعين الاستحقار وما دام يرى نفسه مقصرا فلا يخلو عن داعية الاجتهاد رغبة فى الاستكمال واستتماما للاقتداء ومن نظر الى الاحوال الغالبة على اهل الزمان واعراضهم عن الله واقبالهم على الدنيا واعتيادهم للمعاصى استعظم امر نفسه بادنى رغبة فى الخير يصادفها من قلبه وذلك هو الهلاك لنفسه ومما يدل على سقوط وقع الشىء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته ان اكثر الناس اذا رأوا مسلما افطر فى نهار رمضـان استبعدوه استبعادا يكاد يفضى الى اعتقادهم كفره وهم يشاهدون من يخرج الصلوات عن اوقاتها ولاتنفر عنه طباعهم كنفرتهم عن تأخير الصوم مع ان صلوة واحدة يفضى تركها الى الكفر عند قوم وحز الرقبة عند قوم وترك صوم رمضان كله لايقتضيه وكذا لولبس الفقيه ثوبا من حرير اوخاتما من ذهب استبعدته النفوس وقد يشاهد فى مجلس طويل لايتكلم فيه الا بماهو اغتياب للناس ولايستبعد منه والغيبة اشد من الزنا فكيف لايكون اشد من لبس الحرير ولكن كثرة سماع الغيبة ومشاهدة المغتابين اسقط عن القلوب وقعها وهون على النفوس امرها وقيل لبعضهم ماحملك على العزلة قال خشيت ان اسلب دينى ولا اشعر به فتفطن لهذا القول الاسد وفر من الناس فرارك من الاسد لانك لا تشاهد منهم الامايزيد على حرصك فى الدنيا وغفلتك من العقبى ويهون عليك المعصية ويضعف رغبتك فى الطاعة فان وجدت جليسا يذكرك الله صورته وانيسا يفكرك الله سيرته فالتزمه واغتنمه فان الجليس الصالح خير من الوحدة وان الوحدة خير من الجليس السوء لكن

الجليس الصالح عزيز الشهود فى صحن الوجود كما قال عليه السلام اخبر تقله والناس كابل مائة لاتجد فيها راحلة وكما قيل *

* اتمنى على الزمان محالا * ان ترى مقلتاى طلعة حر *

فان الحر من لا يستعبده هواه ولا تسترقه دنياه بل تستغرقه خدمة مولاه وهذا معنى قوله (والجليس السوء) بفتح السين وضمها اى ومشاهدته او والخلاص عنه (لتاثير الصحبة) اى خيرا اوشرا بحسب الرتبة (فورد مثل الجليس السوء مثل القين) اى الحداد تمامه ان لم يحرق ثوبك اصابك ريحه ومثل الجليس الصالح مثل العطار ان لم يعطك من عطره اصابك من ريحه وفى البخارى من حديث ابى موسى مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكبير الحداد لايعدمك من صاحب المسك اما تشتريه اوتجد ريحه وكير الحداد يحرق بيتك او ثوبك اوتجد منه ريحا خبيثة (والفتن) اى والخلاص من محن انواع الفتن وقل مايخلو العباد فى البلاد عن تعصبات وخصومات (فورد) اى عن عبد الله ابن عمرو بن العاص لما ذكر عليه السلام الفتن ووصفها وقال اذا رأيت الناس مرجت عهودهم وخفت اماناتهم وكانوا هكذا وشبك بين اصابعه قلت فما تأمرنى فقال (الزم بيتك) اى لازم سكونه (واملك عليك لسانك) اى التزم سكوته (وخذ ماتعرف واعمل به (ودع ما تنكر) اى اتركه (وعليك بامر الخاصة) اى والزم خاصة نفسك (ودع عنك امر العامة) اى من لم يتعلق بك (حين قيل) ظرف لورد (ماذا تامرنى فى زمان الفتن) والحديث رواه ابو داود والنسائى باسناد حسن وفى البخارى من حديث ابى سعيد الخدرى يوشك ان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن وللخطابى من حديث ابن مسعود وللبيهقى من حديث ابى هريرة وسيأتى على الناس زمان لايسلم لذى دين دينه الامن فر بدينه من قرية الى قرية ومن شاهق الى شاهق ومن حجر الى حجر كالثعلب الذى يروغ قيل له ومتى ذلك يارسول الله قال اذا لم تنل المعيشة الا بمعاصى الله تعالى فاذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة قالوا وكيف ذلك يارسول الله وقد امرتنا بالتزويج قال اذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد ابويه فان لم يكن ابواه فعلى يدى زوجته وولده فان لم يكن فعلى يدى قرابته قالوا وكيف ذلك يارسول الله قال يعيرونه بضيق اليد فيتكلف ما لايطيق حتى يورده ذلك موارد الهلكة وفى الاحياء هذا الحديث وان كان فى العزوبة فالعزلة مفهومة منها اذ لايستغنى المتأهل عن المعيشة والمخالطة ثم لاينال المعيشة الا بالمعصية ولاجله قال سفيان الثورى والله لقد حلت العزلة اقول وفى زماننا وجبت وعن سفيان بن عيينة لقيت ابراهيم بن ادهم فى بلاد الشام فقلت له يا ابراهيم تركت خراسان قال ما هنأت بالعيش الا ههنا افر بدينى من شاهق الى شاهق فمن رآنى يقول موسوس اوحمال

اوملاح وعن ابن عمر انه لما بلغه توجه الحسين الى العراق لحقه على مسيرة ثلاثة ايام فقال له اين تريد فقال العراق فاذا معه طوامير وكتب فقال هذه كتبهم وبيعتهم فقال لاتنظر الى كتبهم ولا تأتهم فابى فقال ابن عمر انى محدثك حديثا ان جبريل اتى النبى عليه السلام فخيره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا وانك بضعة من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والله لايليها احد منكم ابدا وما صرفها عنكم الا الذى هو خير لكم فابى ان يرجع فاعتنقه ابن عمر وبكى وقال استودعك الله من قتيل رواه الطبرانى فى الاوسط والبزار بنحوه واسنادهما حسن وكان من الصحابة اكثر من عشرة آلاف فما خف ايام الفتنة اكثر من اربعين رجلا ولما بنى عروة قصره بالعقيق ولزمه فقيل له لزمت القصر وتركت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رأيت مساجدكم لاهية واسواقكم لاغية والفاحشة فى فجاجكم عالية وفيما هنا عما انتم فيه عافية (وايذائهم) اى والخلاص عن ايذاء الجلساء فانهم يؤذونك تارة (بنحو الغيبة والنميمة) واخرى بسوء الظن والتهمة والنقول الذميمة ومرة بالاطماع الكاذبة التى يعسر الوفاء بها فيشتد الجفاء بسببها وقد قيل معاشرة الاشرار تورث الظن بالاخيار وقيل لعبد الله بن الزبير الاتأتى المدينة قال مابقى فيها الا حاسد نعمة اوفرح بنقمة وقيل كان الناس دواء يتداوى بهم فصاروا داء لادواء لهم وعن ابى الدرداء كان الناس وردا لاشوك فيه فصاروا شوكا لاورد فيهم وقال رجل لابراهيم بن ادهم اوصنى فقال اياك والناس وعليك بالناس ولابد من الناس فان الناس هم الناس بالناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقى الكناس والنسناس وما اراهم بالناس بل غمسوا فى ماء الناس وقيل الزم الدفاتر والمقابر وقال الحسن اردت الحج فسمع ثابت البنانى وكان ايضا من اولياء الله فقال للحسن بلغنى انك تريد الحج فاحببت ان نصطحب فقال الحسن ويحك دعنا نتعاشر بستر الله علينا انى اخاف الله ان نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه قال فى الاحياء وهذه اشارة الى فائدة اخرى فى العزلة وهى بقاء الستر على الدين والمروءة ولقد قال الشاعر

(شعر) * ولاعار ان زالت عن المرء نعمة * ولكن عار ان يزول التجمل *

وقال ابو الدرداء اتقوا الله واحذروا الناس فانهم ماركبوا ظهر بعير الا ادبروه ولاظهر جواد الاعقروه ولاقلب مؤمن الاخربوه (وطمعهم) من اضافة المصدر الى الفاعل اى والخلاص من طمع الناس عنك فان رضاء الناس غاية لاتدرك (فرعاية الحقوق شديدة) ومن اهون الحقوق وايسرها حضور الجنائز وعيادة المريض وحضور الولائم والاملاكات (وفيها) اى فى رعاية الحقوق (ضياع الاوقات وفوات المهمات) والتعرض للآفات ثم قد يعوق عن بعضها عائق ويستقل فيها المعاذير ولايمكن اظهار تلك الاعذار فيقولون قام بحق فلان وقصر فى حقى ويصير ذلك سبب عداوة ومن عم الناس كلهم بالحرمان رضوا

عنه كلهم وعن عمرو بن العاص كثرة الاصدقاء كثرة الغرماء (والطمع عنهم) وفى نسخة فيهم اى والخلاص من ان يطمع هو فيهم (فالنظر الى زهرات الدنيا) اى انواع زينتها واصناف بهجتها (يحرك الحرص) وانبعث بقوة الحرص طمعه ثم لايرى الا الخيبة فى كثرة الاطماع فيتأذى بذلك ومهما اعتزل لم يشاهد واذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع هنالك ولذا قال تعالى * ولا تمدن عينيك الى مامتعنا به ازواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى وأمر اهلك بالصلوة واصطبر عليها لانسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى * وقال عليه السلام فيما رواه مسلم من حديث ابى هريرة انظروا الى من هو دونكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فانه اجدر ان لا تزدروا نعمة الله عليكم وحكى ان المزنى خرج من باب جامع الفسطاط وقد اقبل ابن عبد الحكم فى موكبه فبهره مارأى من حسن حاله وهيئته فتلا قوله تعالى * وجعلنا بعضكم لبعض فتنة اتصبرون * ثم قال اصبروا رضى يعنى كما قيل *

* رضينا قسمة الجبار فينا * لنا علم وللاعداء مال *
* فان المال يفنى عن قريب * وان العلم يبقى لايزال *

(ولقاء الثقيل والاحمق) اى والخلاص عن ملاقاة الثقلاء والحمقى ومشاهدة اخلاقهم ومقاساة احوالهم (فهواشد البلايا) اى المعنوية فان رؤية الثقيل هو العمى الاصغر قيل للاعمش مم عمشت عينك قال من النظر الى الثقلاء ويحكى انه دخل عليه ابو حنيفة فقال له فى الخبر ان من سلب الله كريمتيه عوضه عنهما ماهو خير منهما فما الذى عوضك فقال فى معرض المطايبة عوضنى عنهما انه كفانى رؤية الثقلاء وانت منهم وقيل النظر الى الاحمق حمى باطن (وآفات) اى فى العزلة (وهى) عشرة (فوات التعلم فهو مقدم) على العزلة (لافتقار العبادة) العلمية (والتقوى) العملية (اليه) ولذا قال النخعى وغيره تفقه ثم اعتزل وفى لطائف العارف الجامى قدس الله سره السامى ان العزلة بغير عين العلم زلة كما انها بغير زاى الزهد علة (والتعليم) اى وفواته (فهو اولى) من العزلة (ايضا) اى كالتعلم (ان كان) التعليم (فى علم الآخرة) اى علم ينفعه فى العقبى (وارعى حقه تعالى) بالاخلاص وابتغاء وجه ربه الاعلى وكذا (بالاحتراز عن الذمائم كالرياء وحب الجاه) من الاستكثار بالاصحاب والاتباع وما يتبعه من حب المال وسائر الاخلاق الذميمة فى الاحوال فحكم العالم فى هذا الزمان ان يعتزل ان اراد سلامة دينه فانه لايرى مستفيدا يطلب فائدة ليقينه بل يستعمله فى معرض المنافسة والمباهاة بعلمه وتبيينه ولا يطلبه غالبا الا للتوصل الى التقدم على الامثال وتولى الولايات واجتلاب الاموال واستشعار الاذلال على الجهال فان صودف طالب الله ويتقرب بالعلم الى رضا مولاه فالاعتزال عنه وكتمان

العلم منه من اكبر الكبائر (فورد اذا ظهرت الفتنة وسكت العالم فعليه لعنة الله) لم اجد له اصلا وقد قال تعالى * ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون * وقد قيل (مافسدت الرعية الابفساد الامراء* ومافسدت الامراء الابفساد العلماء) ومن هنا قيل فساد العالم فساد العالم فنعوذ بالله من الغرور والعمى فانه الداء الدفين الذى ليس له دواء (والا) اى وان لم يكن تعليمه وتعلمه فى علم الآخرة (فالعزلة) متعينة بل واجبة (كما فى زماننا لذهاب علم الآخرة) من التفسير والحديث والفقه المتعلق بالعبادة فى اكثر البلدان (والعمل عليه) اى ولذهاب العمل على طبق العلم فى عامة اهل الزمان ولاينبغى ان يغتر الانسان بقول سفيان تعلمنا العلم لغير الله فابى ان يكون الالله وان الفقهاء يتعلمون لغيرالله ثم يرجعون الى الله وانظر الى اواخر اعمار الاكثرين منهم واعتبربهم انهم ماتواوهم هلكى على طلب الدنيا ومتكالبين عليها اوراغبين عنها وزاهدين فيها وليس الخبر كالمعاينة واما العلم الذى اشار اليه سفيان فهو علم الحديث وتفسير القرآن ومعرفة سير الانبياء والصحابة فان فيها التخويف والتحذير فان لم يؤثر فى الحال قد يؤثر فى المآل فاما الكلام وجدل الخصام والفقه المجرد الذى يتعلق بفتاوى المعاملات وفصل الخصومات فلا يريد الراغب فيه الا الدنيا لا الله بل لا يزال متماديا فى حرصه الى آخر عمره ونهاية امره ومن هنا قال بشر الحافى حدثنا باب من ابواب الدنيا (وتعذر رعاية الحقوق) اى ولتعذرها اوتعسرها من حقوق الاساتذة والتلامذة فعن ابى سليمان الخطابى دع الراغبين فى صحبتك والتعلم منك فليس لك منهم مال ولا جمال اخوان العلانية اعداء السر اذا لقوك تملقوك واذا غبت منهم سلقوك من اتاك منهم كان عليك رقيبا واذا خرج كان عليك خطيبا اهل نفاق ونميمة وغل وخديعة فلا تغتر باجتماعهم عليك فماغرضهم العلم وحسن الحال فى المآل بل الجاه وكثرة المال وان يتخذوك سلما الى اوطارهم وحمارا فى حاجاتهم واوزارهم ان قصرت فى غرض من اغراضهم كانوا اشد اعدائك ثم يعدون ترددهم اليك دلالا عليك ويرونه حقا واجبا لديك ويفرضون عليك ان تبذل عرضك وجاهك ودينك لهم فتعادى عدوهم وتنصر قريبهم وخادمهم ووليهم وتنتهض لهم سفيها وقد كنت فقيها وتكون لهم تابعا خسيسا بعد ان كنت متبوعا رئيسا (وموج الفتن) اى ولغلبة الفتن ومايترتب عليه من انواع المحن ماظهر منها ومابطن فانك ترى المدرس فى رق دائم وتحت حق لازم ومنة ثقيلة ممن يتردد لديه فكأنه يهدى تحفة اليه فيرى حقه واجبا عليه فلا يزال يتردد الى ابواب السلاطين ويقاسى الذل والشدائد مقاساة الذليل المهين حتى يكتب له على بعض وجوه السحت من مال المسلمين من اليتامى والمساكين ثم لايزال العامل يسترقه ويستخدمه ويمتهنه

ويستبذله الى ان يسلم اليه ماتعده نعمة مستأنفة من عنده عليه ثم يبقى فى مقاساة القسمة على اصحابه ان سوى بينهم مقته المبرزون ونسبوه الى الجنون وقلة التمييز والمعرفة فى الفنون وان فاوت بينهم سلقه السفهاء بالسنة حداد وثاروا عليه ثوران الاساود والآساد فلايزال فى مقاساتهم فى الدنيا وفى مظالم ما يأخذه ويفرقه فى العقبى (والانتفاع) اى وفواته (من الغير) وكذا نفع الغير (بالكسب للكفاية) اى لكفاية نفسه عن ابناء جنسه (او الصدقة) على غيره بالزيادة على قدر الكفاية بطريق القناعة (فهو) اى الكسب وفى نسخة فهى اى الصدقة (اولى من عمل الظاهر) كالصلوة والصوم وتلاوة القرآن وتوضيحه ان حالك لايخلو من ان تكون محتاجا الى القوت اولا فان كنت محتاجا اليه فاشتغالك بالكسب اولى بل فرض كما لايخفى وان كنت مستغنيا عنه فلا يخلو اما ان تكون فى خلوتك مشغولا بالاعمال الظاهرة فالكسب للصدقة افضل من العزلة لتعدى المنفعة واما ان تكون مشتغلا بالاعمال الباطنة من الانس بالله والحضور مع الله والتفكر فى صفات الله والتذكر لاحوال الآخرة فى عقباه والشوق الى لقاء ربه والذوق الى مقام رضاه فالعزلة اولى من الكسب لبقاء المنفعة ودوامها وتمامها فى الدنيا والاخرى (والتأدب) اى فوات كسب الادب وتحصيله (بالارتياض) اى المجاهدة وقبول رياضة النفس والمعاودة (فى البداية والتأديب) اى وفوات تعليم الادب (بالرياضة) فى النهاية (وهو كالتعليم) فى مقام الهداية وفى الاحياء ويعنى بالتأدب الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة فى تحمل اذاهم كسرا للنفس وقهرا للشهوات وهى من الفوائد التى تستفاد بالمخالطة وهو افضل من العزلة فى حق من لم يتهذب بعد اخلاقه ولم ينذعن لحدود الشرع شهواته واما التأديب فنعنى به ان يروض غيره وهو حال مشايخ الصوفية معهم فانه لا يقدر على تهذيب حالتهم الا بمخالطتهم وللترمذى وابن ماجه من حديث ابن عمر المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على اذاهم خير من الذى لا يخالط الناس ولايصبر على اذاهم (والموانسة) اى وفوات الاستيناس والايناس بالناس فى المصاحبة والمجالسة كالانس بملازمة ارباب التقوى من الاولياء وبمواظبة اصحاب الفتوى من العلماء وانما سمى الانسان بالانس لما فيه نوع من الانس لاسيما والمؤمنون اخوة وبينهم زيادة الفة لقوله تعالى * والف بين قلوبهم لو انفقت ما فى الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم * ولقوله عليه السلام * المؤمن يألف ولا خير فيمن لا يألف ولايؤلف * رواه احمد عن سهل بن سعد (فهى) اى الموانسة (مستحبة لقطع الملالة المنفرة للعبادة) اى كما هو فى العادة والرفق فى العبادة من حزم اهل الارادة فورد ان الله لايمل حتى تملوا وقد تقدم ومن يشاد هذا الدين يغلبه فان الدين متين والايغال فيه برفق دأب المستنصرين

ولذا قال ابن عباس لولا مخافة الوسواس لم اجالس الناس وقال مرة لدخلت بلدا لا انيس بها وهل يفسد الناس الا الناس قلت وكذا لا يصلح الناس الا الناس ومن هنا قيل ما زينة الناس الا الناس فلا يستغني المعتزل اذا من رفيق يستأنس بمشاهدته ويستلذ بمحادثته في اليوم والليلة من ساعته فيجتهد في طلب من لا يفسد في ساعته تلك شيئا من طاعته فقد قال عليه السلام المرء على دين خليله فلينظر احدكم من يخالل وقد تقدم ولبعرض ان يكون حديثه عند اللقاء في امور الدين وحكاية المشايخ الصالحين والعلماء المجتهدين فهذا النوع من الجلوة في بعض الاوقات قد يكون افضل من الخلوة في تحسين المقامات فقد ورد نوم العالم عبادة ومنه كلميني يا حميراء (وثواب اقامة الجمعة والجماعة) اى وفوات اقامتهما وادامتهما (ونحوهما) من حضور الجنازة وصلوة العيدين ومجلس العلم ووقوف عرفة وامثالها (وحقوقهم) اى وفواتها (كالعيادة) للمرضى (والتشييع) للجنازة ومنها اجابة الدعوة في نحو الوليمة وقد حكى عن جماعة من السلف مثل مالك وغيره ترك اجابة الدعوة وعيادة المرضى وحضور الجنازة بل كانوا احلاس بيوتهم لا يخرجون الا الى الجمعة او زيارة القبور وبعضهم فارق الامصار وانحاز الى قلل الجبال ميلا الى الفرار تفرغا للعبادة وحذرا عن الشواغل في الارادة (والتواضع) اى وفواته من آداب المخالطة ولا يقدر عليه في الوحدة (فقد يحمل التكبر عليها) اى على العزلة (يحب زيارتهم تبركا) اى على سبيل التبرك والمعنى انه قد يكون الكبر سببا للعزلة وعلامته انه يحب ان يزار ولا يحب ان يزور ولو كان له الاشتغال بذكره والاستغراق في فكره لبغض زيارة الناس اليه ووقوفهم عليه لشغلهم عن المقصود لديه ثم اعلم ان التواضع في المخالطة لا ينقص عن منصب من هو كبير بعلمه او دينه وقد كان علي يحمل التمر والملح في ثوبه ويده ويقول *

* لا ينقص الكامل من كماله * ما جر من نفع الى عياله *

وكان ابو هريرة وحذيفة وابي وابن مسعود يحملون حزمة الحطب وجراب الدقيق وغيره على اكتافهم وكان ابو هريرة يقول وهو وال على المدينة والحطب على رأسه طرقوا لاميركم وكان عليه السلام يشتري الشيء فيحمله الى بيته بنفسه فيقول له صاحبه اعطني احمله فيقول صاحب المتاع احق بحمله رواه ابو يعلى من حديث ابي هريرة في حمله سراويله الذي اشتراه ثم اعلم ان من حبس نفسه في بيته لتحسين اعتقاد الناس في حقه فهو في عناء حاضر في الدنيا ولعذاب الآخرة اشد وابقى فلا تستحب العزلة الا لمستغرق الاوقات بربه ذكرا وفكرا وعلما وعبادة واشتغالا باموره تجردا وزهادة بحيث لو خالط الناس لضاعت اوقاته او كثرت آفاته او تشوشت عليه عباداته فمن شغل نفسه لطلب رضى الناس فهو مغرور لانه لو عرف حق المعرفة لعلم ان الخلق لا يغنون عنه من الله شيئا وان ضرره ونفعه بيد الله فلا نافع

ولا ضار

ولاضار سواه وان من طلب رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه الحق واسخط عليه الخلق بل رضى الناس غاية لاتدرك ولذا قيل *

* من راقب الناس مات غمـــــا * وفـاز بـالراحة الجسـور *

وقيل للحسن يا اباسعيد ان قوما يحضرون مجلسك ليس بغيتهم الاتتبع سقطات كلامك وتعنتك فى السؤال فتبسم وقال للقائل هون على نفسك فانى حدثت نفسى بسكنى الجنان ومجاورة الرحمان فطمعت وماحدثت نفسى بالسلامة من الناس لانى قد علمت ان خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم لم يسلم منهم وقال موسى يارب احبس عنى ألسنة الناس فقال ياموسى هذا شئ لم اصنعه لنفسى فكيف افعله لك واوحى الله سبحانه الى عزير ان لم تطب نفسا بان اجعلك علكا فى افواه الماضغين لم اكتبك عندى من المتواضعين وفى الحديث النبوى اذكروا الله حتى يقولوا مجنون وقد قالوا فى حق اعقـل الخلق مجنون وساحر ومسحور وكذاب وشاعر ومغرور (والتجارب) اى وفوائده فانهـا تستفاد من الخلطة ولاتوجد فى العزلة فالقلب المشحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر الاخلاق الذميمة انما تنفجر وتظهر آثارها من القلوب السقيمة اذاحرك بادنى الحركة المستقيمة كما يشير اليه خبر اخبر تقله وقولهم حرك تر ما يجرى (فتتعلق بها) اى بالتجارب (مصالح الدارين) من المناقب والمراتب (لاسيما الرياضة) فى ترك المناصب وعند حصول المصائب فمن هنا كانوا يجربون انفسهم فمنهم من كان يحمل قربة ماء اونحوه بين الناس على ظهره او حزمة حطب على رأسه ويتردد فى الاسواق لتجربة نفسه اذا استشعر كبرا فى باطنه فان غوائل النفس ومكائدها قل من يتفطن بها فقد حكى عن واحد انه قال اعدت صلوات ثلاثين سنة مع انى كنت اصليها فى الصف الاول ولكنى تخلفت يوما بعذر فما وجدت موضعا فى الصف الاول فوقفت فى الصف الثانى فوجدت نفسى تستشعر خجلة من نظر الناس الى وقد سبقت الى الصف الاول فعلمت ان جميع صلاتى كانت مشوبة بالرياء فالمخالطة لها فائدة ظاهرة فى استخراج القبائح واظهارها ولذا قيـل السفر يسفر عن الاخلاق فانها نوع من المخـالطة مع الخلق واذا عرفت هذا فان تحققت الفوائد وانتفت الآفات فاختر العزلة والا فالخلطة وان تقابلا فخذ بالارجح فى المسألة (والاصل الاستغناء من القلب) اذا كان مشغونا بذكر الرب والافضل هو الجمع بين الخلوة والجلوة كما يشير اليه قول الشافعى الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء فى المحادثة فكن بين المنقبض والمنبسط ولذا قيل كن وسطا وامش جانبـا ويومى اليه فى قوله تعالى * هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور (وحقها) اى العزلة (نية الاحتراز) اى الاحتراس (عن شر النفس) وما فيها من الوسواس (والغير) اى وغيرها من الجنة والناس فينبغى للمعتزل ان ينوى

بعزلته كف شر نفسه عن الابرار ثم طلب السلامة من شر الاشرار (والتقصير فى رعاية الحقوق) اى ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحق الانام (والتجرد للعبادة) اى ثم العزيمة بكنه الهمة للعبادة والفراغ للطاعة (وتهذيب الاخلاق) بان يكون فى خلوته مواظبا على العلم والعمل والذكر والفكر ودفع الامل وانتظار الاجل (والسلوك فى طريقه تعالى) بمنع الناس عن زيارته لئلا يكون مشوشا فى وقته وحالته وعدم السؤال عن اخبار الناس وافعالهم واراجيفهم فى احوالهم والقناعة باليسير من المعيشة والصبر على ما يلقاه من اذى الجيران وغيرهم وعدم الاصغاء الى مايقال فى حقه من مدح فيه بالعزلة اوقدح فيه بترك الخلطة وينبغى ان يكون له اهل صالح اوجليس معتمد عليه يستريح نفسه اليه فى اليوم ساعة عن كد المواظبة فى الطاعة ثم لايتم له الصبر فى العزلة الابقطع الطمع عن الدنيا وما الناس منتهكون فيه مما يوافقه او ينافيه ولا ينقطع طمعه الابقصر الامل وتقريب الاجل (والحضور فى نحو الجمعة) فانه فرض (والجماعة) فانه واجب اوفرض كفاية اوسنة مؤكدة (والعيد) فانه واجب اوسنة من سنن الهدى وشعار اهل التقى (والحج) فانه طريق اهل السلوك (ومجالس العلم) فانه لايستغنى عنه الصعلوك ولاالملوك ولاالمملوك (ويجوز الترك) اى ترك الحضور فى تلك الامور (عند معارضة منكر افحش منه) اى من ترك الحضور (والاحب حينئذ ان يسكن موضعا) بعيدا من العمارات (يسقطها) اى المذكورات من الجمعة والجماعات ونحوها من المأمورات (والسكون فى رباط السالكين) اى خانقاه الصالحين (يفيد سلامة العزلة) من آفات الخلطة (وبركة الجمعة) والجماعة (والتعاون على البر) والتقوى (والتأدب) بآداب اهل الشرع والفتوى (فلسان الحال افصح) من بيان القال (وورد) فى التنزيل اتقوا الله (وكونوا مع الصادقين والطريق) اى الموصل للعزلة (الاستغراق بالعبادة) ذكرا وفكرا وعلما وعملا وصبرا وشكرا صحوا ومحوا وسكرا وفناء وبقاء وقبضا وبسطا (فالاستيناس بالناس من الافلاس) اى من علامة الافلاس من مقام الايناس فاذا رأيت نفسك تطلع الى سلامهم وكلامهم وملاقاتهم فى مقامهم فاعلم ان ذلك فضول ساعة الفراغ وفى الحديث نعمتان مغبون فيهما اكثر الناس الصحة والفراغ وقيل

* ان الشباب والفراغ والجدة * مفسدة للمرء اى مفسدة *

ومتى عانقت العبادة ولازمتها حق الملازمة ووجدت حلاوة المناجات مع الحضرة واستأنست بكتاب الله وآياته واخبار رسوله وآثار صفاته استوحشت عن الاغيار على انه ليس فى الدار غيره ديار فى نظر الابرار وفى بعض الاخبار ان موسى عليه السلام كان اذا رجع من المناجات يستوحش من كلام الناس ويجعل اصبعيه فى اذنيه كيلا يسمع كلامهم ولا يفهم

مرامهم فعليك بما قال بعضهم اتخذ الله صاحبا ودع الناس جانبا شاهدا كنت فيه او غائبا
قلب الناس كيف شئت تجدهم عقارب (وقطع الطمع) من الخلق بل عن الحق ايضا بان
يعطيك غير ما قسم لك فيهون عليك امر الخلق والنظر اليهم والطمع فيهم فان من لاترجو
نفعه ولا تخاف ضره فوجوده وعدمه سواء عليك وقبوله ورده مستو لديك وهذا نبذة من
توحيد الافعال حيث قال تعالى خبرا عن مآلهم من الاحوال * واتخذوا من دونه آلهة لا
يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لانفسهم ضرا ولانفعا ولا يملكون موتا ولا حيوة
ولا نشورا (وذكر الآفات) اى آفات الخلطة وفوائد العزلة (وايثار الخمول) فانه الراحة
وضده الشهرة ففيها الآفة (وهى) اى صفة الخمول (فضيلة عظيمة) ومنقبة جسيمة وقد قيل
فى تعريفه هو اسقاط الناس عن نظر الخلق (فورد رب اشعث) اى متفرق الشعر (اغبر)
مغبر الوجه (ذى طمرين) اى كسائين اسودين او ازار بين خلقين (لايؤبه له) اى لايعتبر
له عند اكثر الخلق (لو اقسم على الله) فى شئ نفيا او اثباتا (لابره) اى لجعله الحق بارا فى
قسمه ذلك بان يجعله مطابقا لما اراده هنالك والحديث رواه مسلم من حديث ابى هريرة
بلفظ رب اشعث مدفوع بالابواب لو اقسم على الله لابره وللحاكم رب اشعث اغبر ذى
طمرين ينبو عنه اعين الناس لو اقسم على الله لابره وقال صحيح الاسناد ولابن ابى الدنيا
ومن طريق الديلمى من حديث ابن مسعود رب ذى طمرين لايؤبه له لو اقسم على الله لابره
لو قال اللهم انى اسئلك الجنة لاعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئا وفى الاحياء عن ابى هريرة
مرفوعا ان اهل الجنة كل اشعث اغبر ذى طمرين لايؤبه له الذين اذا استأذنوا على الامراء
لم يؤذن لهم واذا خطبوا النساء لم ينكحوا واذا قالوا لم ينصت لهم حوايج احدهم تتجلجل
فى صدره لو قسم نوره يوم القيمة على الناس لوسعهم وسكت عليه مخرجه وفى رواية ان
من امتى من لو اتى احدكم فسأله دينارا لم يعطه اياه ولو سأله درهما لم يعطه اياه ولو سأله
فلسا لم يعطه اياه ولو سأل الله تعالى الجنة لاعطاها اياه الطبرانى فى الاوسط من حديث
ثوبان باسناد صحيح وزاد فى الاحياء ولو سأله الدنيا لم يعطه اياها وما منعها اياه لهوانه
عليه بل لكرامته لديه قال مخرجه وروى مرسلا (ولو اتسع الجاه بلا طلب فغير مذموم
كما للانبياء) والمرسلين (والخلفاء) الراشدين (والائمة) المجتهدين من العلماء والصلحاء
المعتمدين (الا ان فيه) اى فى اتساع الجاه (فتنة للضعفاء) اى ابتلاء ومحنة لغير الاقوياء
حيث لم يتلذذوا بحال الفقراء فى خاطرهم ميل الى مقام الاغنياء وذهلوا عما ورد من
ان سليمان يدخل الجنة بعد سائر الانبياء بخمسمائة عام وكذا ابن عوف من العشرة
المبشرة يدخل الجنة بعد المهاجرين بخمسمائة عام بل فى الاحياء ان عذاب الكافر الفقر
اغنى من الغنى فى دار البقاء (فورد) من حديث انس عند البيهقى (حسب امرئ من

الشر الامن عصمه الله ان يشير الناس اليه بالاصابع فى دينه) اى بالعلم والعمل اى مخافة عجبه وغروره (ودنياه) اى بالمال والجاه اى خشية كبره وبطره وفسر الحسن دينه بالبدعة ودنياه بالفسق (وانما المذموم حب الجاه) اى لاوجوده وشهوده (فورد) فى التنزيل (تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الارض) اى لايحبون اعتلاء بالجاه والمال اذلا يريدون استعلاء بغير الحق (ولافسادا) بحال الخلق بل يريدون صلاحها لاهل الحق لكن كما قيل آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرياسة ولوكان من حيث المشيخة وباب السياسة والحاصل ان الله سبحانه علق جعل الدار الآخرة بنفى ارادة العلو المستلزم لحب الجاه دون نفس الجاه فعلم ان المذموم حب الجاه دون نفس الجاه من غير حب له (واصله) اى الجاه (انتشار الصيت) واشتهار السمت فالخمول محمود الامن شهره الله لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه لقوة يقينه (وحقيقته) اى الجاه (ملك القلوب) المطلوب منها تعظيمها وطاعتها (الموصل الى المقاصد) اى الدنيوية وقد تكون الدينية والاخروية قال ابن ادهم ماصدق الله من احب الشهرة وقال ايوب السختيانى ما صدق الله عبد الا سره ان لايشعر بمكانه وعن خالد بن معدان انه كان اذا كبرت حلقته قام مخافة الشهرة وعن ابى العالية انه كان اذا جلس اليه اكثر من ثلاثة قام وقال بشر لايجد حلاوة الآخرة رجل يحب ان يعرفه الناس وعن معاذ بن جبل ان اليسير من الرياء شرك وان الله يحب الاتقياء الاخفياء الذين اذا غابوا لم يفقدوا واذا حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة الطبرانى والحاكم وصححه وقال الفضيل بلغنى ان الله عزوجل يقول فى بعض مايمن به على عبده الم انعم عليك الم استرك الم اخمل ذكرك وكان الخليل بن احمد يقول اللهم اجعلنى عندك من ارفع خلقك واجعلنى فى نفسى من اوضع خلقك واجعلنى عند الناس من اوسط خلقك وقال الثورى وجدت قلبى بمكة والمدينة مع قوم غرباء اصحاب خوف وعبادة (وهو) اى الجاه (اشهى) اى الذ (من المال) ولذا يبذل المال لتحصيل الجاه ولانه يحصل به المال واوفى المآل (فتحصيل الغرض) من حظ النفس واتباع الهوى (به) اى بالجاه (ايسر) اى اهون من تحصيله بالمال (مع انه) اى الجاه (مأمون عن نحو السرقة والغصب) بخلاف المال (ونام) اى منتشر فى العالم (دون التعب) ببذل المال وبيان الحال (ومطاع بالطوع) اى بالرغبة فى خدمته لارباب الكمال واصحاب الجمال (فحرام) اى الجاه (ان كان بارتكاب ذنب كالكذب) بكونه علويا فى النسب اومن نسل الملوك والعلماء والمشايخ فى الحسب (والخداع باظهار انه عالم او ورع اوشريف وهو بخلافه) من جاهل اوفاسق او وضيع ومن هنا قيل فمن ادعى المشيخة فان كان صادقا فهو افضل الخلق وان كان كاذبا فهو شر الخلائق وقد ورد ماذئبان ضاريان فى زريبة

غنم باكثر فسادا من حب الشرف والمال فى دين الرجل المسلم رواه النسائى والترمذى وقال حسن صحيح من حديث كعب بن مالك (وبيع العبادة) اى وحرام ان كان يبيعها وهى من امور الدين بشئ من امور الدنيا مالا اوجاها (فجعلها) اى العبادة النافعة فى العقبى (وسيلة للدنيا) الدنية الفانية (جناية) وعلى نفسه خيانة (والا) اى وان لم يكن حب الجاه بارتكاب ذنب ولابيع عبادة (فمباح) وبضم نية نفع مسلم اودفع ظالم يصير مندوبا وقد يكون مطلوبا (فورد) فى يوسف (قال اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم) اى مخاطبا لملك مصر فانه طلب منزلة فى قلبه بكونه حفيظا عليما وكان محتاجا الى طلبه وكان صادقا فى قوله ونافعا لغيره فى امره (والاولى) لغير الاقوياء (الاحتراز عنه) اى عن طلب الجاه فانه لايخلو عن خطر لحظ نفسه وما يهواه (ففيه آفات) اربعة (وهى النفاق) لان صاحب الجاه لايستغنى عن المداهنة فى الاخلاق وهى مخالفة الظاهر الباطن قولا اوفعلا (واضطراب القلب) اى تزلزله عند ظهور العيوب (لشغله برعاية القلوب وحفظ الجاه) اى تمامه بين العباد ودوامه فى البلاد (ودفع الحساد) اى ضررهم وشرهم المعتاد (الاقدرا) استثناء من الاحتراز اى الاقدرا يسيرا من الجاه (يعين على الطاعة) ويكون سببا للراحة بقدر الاستطاعة (كاستمالة قلب خادم يتعهد) امورا ضروريا للمخدوم (اورفيق يعاون) فى السفر اوالحضر على البر والتقوى ومحافظة امور العقبى (اوسلطان يدفع الشر) والبلوى (والسبب) اى سبب حب الجاه ثلاثة (طول الامل) اى بتبعيد الاجل (وخوف الآفة) اى توهم المحنة التى تكون منشأ للمهنة وتوضيحه ان الشفيق بسوء الظن مولع والانسان وان كان مكفيا فى الحال فانه طويل الآمال فيخطر بباله ان المال الذى فيه كفاية ربما يتلف فيحتاج الى غيره واذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه فلايدفع الم خوفه الا الامن الحاصل اووجود مال آخر يفزع اليه ان اصاب هذا المال جائحة فهو ابدا لشفقته على نفسه وحبه للجاه يقدر طول الحيوة ويقدر هجوم الحاجات ويقدر امكان تطرق الآفات وهذا خوف لاموقف له عند مقدار مخصوص من المال اوالجاه ومن هنا ورد منهومان لايشبعان منهوم العلم ومنهوم المال الطبرانى وغيره ولوكان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثا ولايملأ جوف ابن آدم الاالتراب ويتوب الله على من تاب (واستدعاء الطبع) اى استشعاره (الكمال) الحقيقى والوهمى (لتحقق الطبع) اى الخلق (الربوبى فى الانسان) من الاستعلاء والاستيلاء والتكبر والتجبر واظهار العظمة والكبرياء اذ معنى الربوبية التوحد بالكمال والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال وكل انسان بطبعه محب لان يكون منفردا بالكمال فى الجمال والجلال ولذا قال بعض الصوفية ما من انسان الاوفى باطنه ما صرح به فرعون من قوله انا ربكم الاعلى ولكنه ليس يجد

مجالا وفى الاحياء وهو كما قال فان العبودية قهر على النفس والربوبية محبوبة بالطبع ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال فى جميع الاحوال (كالسبعى) من القتل والجرح والضرب والايذاء (والشيطانى) كالمكر والخديعة والاغواء (والبهيمى) من الاكل والشرب والوقاع مع النساء (فيحب) اى الانسان بالطبع الربوبى (الاستعلاء بالاسترقاق) اى استرقاق العبيد على وجه الاكثار واستعباد اجساد الاحرار (ان امكن) الاسترقاق ولو بالقهر والغلبة متى يتصرف فيهم بالاستسخار (كما فى الاجساد الارضية) من نحو الكلا والاغراس والاشجار بالقلع والابقاء والابداء والافناء وكالدراهم والدنانير والامتعة فيحب ان يكون قادرا عليها يفعل فيها ما يشاء من الرفع والوضع والعطاء والمنع فان ذلك قدرة والقدرة كمال والكمال من صفات الربوبية والربوبية محبوبة بالطبع والجبلة الخلقية ولذا احب الاموال وان كان لايحتاج اليها فى ماكله ومشربه وملبسه وشهوات نفسه (ثم بالاستمالة) اى بطلب ميل الخلق اليه ظاهرا وغلبة اوباطنا ورغبة (كما فى القلوب) طوعا اوكرها (ثم بالاطلاع) اى الاشراف (كما فى السموات) وفى نسخة السماويات اى اخبارها وامورها واسرارها (وعالم الملكوت) من العرش والكرسى ونحوهما من الملائكة وانوارها او المراد بالملكوت عالم الباطن بما يخطر من الخطرات والعزائم فى الحركات والسكنات والحاصل ان مطلوب القلب الكمال والكمال بالعلم والقدرة وتفاوت الدرجات فيه غير محصور فسرور كل انسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال فهذا هو السبب فى كون العلم والمال والجاه من المحبوبات وهو امر وراء كونه محبوبا لاجل التوصل به الى قضاء الشهوات فان هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات واللهوات بل يحب الانسان من العلوم ما لايصلح للتوصل به الى قضاء الاغراض بل ربما يفوت عليه جملة من الاغراض والاعواض ولكن الطبع يتقاضى العلم فى جميع العجائب والمشكلات لان فى العلم استيلاء على المعلومات وهو نوع من الكمال الذى هو من الصفات الربوبية فكان محبوبا بالطبع ولو كان صاحبه فى مقام العبودية (والعلاج) اى علاج رفع حب الجاه خمسة اشياء (العلم بانه) اى الجاه الدنيوى (كمال وهمى) ليس فى الواقع كمال حقيقى (لزواله بالموت) انتهاء ولحدوثه ابتداء (ولان القدرة الحقيقية له تعالى) ازلا وابدا (وفيه) اى فى الجاه الوهمى الصورى (التشبه بالسباع والشياطين والبهائم) كما تقدم (اما الحقيقى) اى كماله (فمعرفته تعالى ومحبته وما يعين عليه) اى على كماله من العلم والعمل كما حكم به شريعته وانما يكون هذا كمالا حقيقيا (لبقائه بعد الموت) فالكمال الحقيقى ما ينتقل مع صاحبه ولاينفك عن جانبه (وفيه) اى فى هذا الكمال (التشبه بالانبياء والملائكة) الموصوفين بكمال المعرفة والمحبة الدائمة الباقية فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم

انكباب

انكباب العميان وهم غافلون واقبلوا على طلب الكمال بالجاه والمال وهو الكمال الذى لا يسلم من الزوال وان سلم فى الحال فلا بقاء له فى المآل واعرضوا عن كمال الحرية والمعرفة المسمى علما لدنيا واذا حصل كان ابديا لا انقطاع له لكونه سرمديا فهؤلاء هم الذين اشتروا الحيوة الدنيا بالآخرة فلاجرم لايخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى * المال والبنون زينة الحيوة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا * فالعلم والقربة هى الباقيات الصالحات التى تبقى كمالا فى النفس واما المال والجاه فيفنى فى الحال او المآل كما مثله الله تعالى بقوله * انما مثل الحيوة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض الآية (وآفات الدنيا) اى والعلم بها (وخساستها) اى دناءة نفسها من كثرة عنائها وقلة غنائها وخسة شركائها وسرعة فنائها فلله در القائل

(شعر) * اشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا *

ولآخر من اهل الفضائل * اضغاث احلام وظل زائل * ان اللبيب بمثله لايخدع *

(وما ورد) اى والعلم بما جاء من السنة (فى ذم الجاه ومدح الخمول) على ما تقدم (واحوال السلف فى ايثار العقبى) على مناصب الدنيا ومعاونة بعضهم لبعض فى البر والتقوى فقد كتب الحسن البصرى الى عمر بن عبد العزيز * اما بعد فكأنك بآخر من كتب عليه الموت وقد مات فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل وقدره كائنا * وكتب عمر بن عبد العزيز فى جوابه * امابعد فكأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل فهؤلاء كان التفاتهم الى العاقبة فكان عملهم لها بالتقوى اذ علموا ان العاقبة للمتقين واستحقروا الجاه والمال فى الدنيا وبصائر اكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لايمتد نورها الى مشاهد العواقب الآجلة كما قال تعالى * بل تؤثرون الحيوة الدنيا والآخرة خير وابقى * وقال تعالى * كلابل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة (ومباشرة امر) بالرفع عطفا على العلم اى والعلاج العمل وهو مباشرة فعل (يسقطه) اى جاهه وقدره عن قلوب الخلق واعينهم ويفارقه لذة القبول ويأنس بالخمول ويقنع بنظر الخالق وقبوله وهذا طريق الملامتية الطالبين للحالة السلامتية (كشرب الماء) الحلال (فى قدح يشبهه الخمر لونا) اى يشبه لونه لون الخمر حتى يظن به انه يشرب الخمر فيسقط من الاعين وهذا فى جوازه نظر من حيث الفقه الا ان ارباب الاحوال ربما يعالجون انفسهم بما لايفتى به الفقيه مهما رأوا صلاح قلوبهم فيه ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير كما فعل بعضهم فانه عرف بالزهد واقبل الناس عليه فدخل حماما وليس ثوب غيره وخرج ووقف فى الطريق حتى عرفوه واخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وسموه لص الحمام

(الا ان يكون متبوعا) اى من المقتدين حيث لايجوز ان يفعل ما لا يكون بظاهره مشروعا فانه يوهن الدين فى قلوب المسلمين واما الذى لايقتدى به فلاينبغى له ايضا ان يقدم على محظور لاجل ذلك (فيباشر مايرى مباحا) مما يسقط قدره عند الناس (كاظهار الشره) بفتحتين اى الحرص فى الطعام كما روى ان بعض الملوك قصد بعض الزهاد فلما علم بقربه منه استدعى طعاما وبقلا واخذ يأكل بشره ويعظم اللقم فلما نظر اليه الملك سقط من عينه وانصرف فقال الزاهد الحمدلله الذى صرفك عنى وهذا بالنسبة الى المتقدمين واما فى زماننا فمن عمل بالكتاب والسنة فى امره لم يلق صديقا فى دهره مدة عمره (والاقوى) اى فى المعالجة (القناعة) بلزوم الطاعة وعدم الطمع من اهل الاستطاعة والاكتفاء بما لابد منه للاحياء كلقمة تسد جوعته وخرقة تستر عورته وبيت يدفع عنه حره وقره (والاغتراب) اى وطلب الغربة والهجرة الى موضع الخمول وعدم الشهرة (واما الاعتزال فى الوطن فلا يخلو عنه) اى عن نوع من الجاه (لمعرفة الناس به) فان المعتزل فى البلد التى هو فيها مشهور لايخلو فى بيته عن حب المنزلة التى يترشح له فى القلوب بسبب عزلته فربما يظن انه ليس محبا لذلك الجاه وهو مغرور بها وانما سكنت نفسه لانها قد ظفرت بمقصودها ولو تغير الناس عليه عما اعتقدوا فيه وذموه جزعت نفسه وتألمت ثم لا يمكنه ان لايحب المنزلة فى قلوب الناس مادام يطمع فيهم فاذا احرز قوته من كسبه او من جهة اخرى وقطع الطمع عنهم اصبح الناس كلهم عنده كالاراذل فلايبالى اكان له منزلة فى قلوبهم كما لايبالى بما فى قلوب الذين هم منه فى اقصى المشرق او المغرب لانه لايراهم ولايطمع فيهم ثم لايقطع الطمع عنهم الا بالقناعة فمن قنع شبع واستغنى عن غيره ومن هنا ورد لا يكمل ايمان احدكم حتى يكون الخلق عنده كالاباعر (ثم الاولى) فى باب العلاج (كراهية المدح وحب الذم) فان معالجة الفساد انما تكون بالاضداد (فورد ويل للصائم ويل للقائم ويل لصاحب الصوف الامن تنزهت نفسه من الدنيا وابغض المدحة واستحب المذمة) كذا فى الاحياء وقال مخرجه لم اجده هكذا وذكر صاحب الفردوس من حديث انس ويل لمن لبس الصوف فخالف فعله قوله ولم يخرجه ولده فى مسنده (ثم التسوية) اى تسوية المدح والذم بان لاتغمه المذمة ولاتسره المدحة قال بعض السلف اذا قيل لك نعم الرجل انت فكان احب اليك ان يقال بئس الرجل انت فانت والله بئس الرجل وهذا قد يظن بعض العباد بنفسه ويكون مغرورا به ان لم يمتحن نفسه فى حال انسه (ويعرف) استواء المدح والذم (بتسوية المادح والذام فى استثقال جلوسهما) عنده (والفرح بسرورهما والغتم بمصيبتهما) وحزنهما ونحوه من المنع والعطاء فى فعلهما والسعى فى قضاء حاجتهما وما ابعد ذلك عن قلوب اكثر العباد من العلماء والعباد

والزهاد

والزهاد فان وجد فهو الكبريت الاحمر يتحدث به ولايرى ومنهم من اذا سمع المدح لم يسر به ولم يغتم ولكن لم يؤثر فيه فهذا على خير كثير وان كان قد بقى عليه بقية من الاخلاص الذى هو سبب الخلاص من المناص (ثم عكس الاول) الذى ذكر فى المرتبة الاولى وهى ان يحب المدح ويكره الذم فى الضمير (دون اظهار قول وفعل) فى وجههما بضرب وشتم اوثناء وعطاء (ثم باظهارهما) اى اظهار القول والفعل فى مقابلة المدح والذم فيقابل الذام بالشتم والضرب والمادح بالثناء والعطاء وهو حال اكثر الخلق (وحب المدح كحب الجاه حرمة) ان كان بارتكاب ذنب (واباحة) ان كان بامر مباح (ونفعا) اى كان لدفع شر (وضرا) ان كان بجلب نفع محرم كما سبق مفصلا (والسبب) لحب المدح ثلاثة (الشعور بكمال النفس) اى استشعار الكمال بسبب قول المادح فطريقك فيه ان ترجع الى عقلك الراجح وتقول لنفسك هذه الصفة التى يمدحك بها انت متصفتها ام لا فان كنت متصفة بها فهى اما ان تكون صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع فينبغى ان لا تفرح بها لان الخاتمة غير معلومة واما صفة لا تستحق المدح كالمال والجاه فالفرح بها كالفرح بنبات الارض مما تذروه الرياح ولاينبغى ان يفرح الانسان بعروض الدنيا وان فرح فلا ينبغى ان يفرح بمدح المادح بل بوجودها فالمدح ليس هو سبب وجودها وشهودها فلا يجب ان يفرح به بل سبب وجودها هو الله سبحانه فهو المستحق للحمد والثناء تبارك وتعالى ومنه قوله عز وعلا * قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون * وان كان الصفة التى مدحت بها وفرحت بسببها انت خالية عنها ففرحك بمدحه غاية الجنون عند اهل الفنون اذ مثال ذلك مثال من يهزؤ به انسان ويقول سبحان الله ما اكثر العطر الذى فى احشائك وما اطيب المسك الذى فى اعضائك وانت تعرف نفسك بكثرة الاقذار والفتن فى اثوابك واجزائك (والاستيلاء على المادح) فان المدح يدل على تسخير قلب المادح (واستمالة قلوب السامعين) فهذا يرجع الى حب الجاه وعلاجه يقطع الطمع وطلب المنزلة عند الله (فيقوى) اى حب المدح اذا حصل (من المعتبر) علما وعملا اكثر واظهر من غيره (والمرتفع) قدره فى الجاه والمال وفى نسخة المترفع اى من اهل التصدر فى المجالس والمحافل وان لم يكن من ذوى الفضائل (وفى الملأ اقوى) من الخلاء وفيه خطر للممدوح ولذا قال عليه السلام للمادح ويحك قطعت ظهره اوسمعك ما افلح الى يوم القيمة (والعلاج) اى علاج حب المدح شيئان (علاج الجاه) اى حبه وقد تقدم حكمه (وعلمه) اى الممدوح (ان الصفة الممدوح بها ان فقدت) بان يكون كذبا (فاستهزاء) وهذا كثير فى قصائد الشعراء للاغنياء والامراء وقد ورد اذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب وهو كناية عن الخيبة اوايماء الى دفع شرهم بباب

من الابواب وسبب من الاسباب من اعطاء الدراهم والدنانير والثياب فقد ورد ماوقى به العرض فهو صدقة (وان وجدت) اى تلك الصفة بان يكون صادقا فى قوله (فالدنيوية) من المال والجاه (كمال وهمى والدينية) من العلم والعمل (موقوفة على الخاتمة) اى حسنها وهى غير معلومة فانما الاعمال بالخواتيم كما ورد (والاولى) فى علاج حب الجاه (اظهار البغض للمادح قطعا للفتنة) ومن هنا كان الصحابة على وجل عظيم من المدح وفتنته ومايدخل على القلب من السرور بمدحته ومايتفرع عليه من محنته حتى ان بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شئ فقال يا امير المؤمنين انت خير منى واعلم فغضب وقال انى لم آمرك ان تزكينى وقيل لبعض الصحابة لن يزال الناس بخير ما ابقاك الله فيهم فغضب وقال انى لاحسبك عراقيا وقال بعضهم لما مدح اللهم ان عبدك تقرب الى بمقتك فاشهدك على مقته وانما كرهوا المدح خيفة ان يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق فكان اشتغال قلوبهم باحوالهم عند الله يبغض اليهم مدح الخلائق لان الممدوح على الحقيقة هو المقرب عند الله تعالى والمذموم على الحقيقة هو المبعد عن الله الملقى فى النار مع الاشرار فى دار البوار فهذا الممدوح ان كان عند الله من اهل النار فما اعظم جهله اذا فرح بمدح غيره وان كان من اهل الجنة فلا ينبغى ان يفرح الا بفضل الله وبرحمته وليس امره بيد الخلق ومهما علم ان الآجال والارزاق بيد الله قل التفاته الى مدح الخلق وذم من سواه وسقط من قلبه حب مدحه واشتغل بمايهمه من امر دينه وحب ربه (وسبب كراهة الذم النقايص المذكورة) اى الاسباب المسطورة (فى حب الجاه) من الشعور بكمال النفس واستيلاء المدح واستمالة قلوب السامعين (والعلاج) لكراهة الذم (علم ان الصفة المذموم بها ان وجدت) فيك سواء قصد القائل به النصيحة او التعنت والفضيحة (فتبصير العيوب) وهو مطلوب اهل القلوب (وفيه الفرح) بالاطلاع على الصفة الذميمة (والشغل بالازالة) اى بازالة الصفة المذمومة عن نفسك ان قدرت عليها وليس للكراهة مجال لديها فعن عمر رضى الله عنه رحم الله من اهدى الى بعيوب نفسى (وان فقدت) تلك الصفة بان يكون القائل كاذبا فى المذمة (فكفارة الذنوب) اى لبقية مساويك فكأنه رماك بعيب انت برئ منه وطهرك عن عيب انت متلوث به (وفيه الشكر له تعالى) اذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما انت برئ منه وماستر الله من عيوبك اكثر فتدبر (والترحم عليه) اى على الذام (حيث اهلك نفسه) بذمك فالمسكين جنى على دينه حتى سقط من عين ربه واهلك نفسه بافترائه وتعرض لعقابه الاليم يوم جزائه فلاينبغى ان يغضب عليه مع غضب الله لديه ويقول اللهم اهلكه ونحوه فيشمت الشيطان بك وبه بل ينبغى لك ان تقول رغما للشيطان وحزبه اللهم اصلحه اللهم

تب عليه اللهم ارحمه اللهم اهده (وورد) فى دلائل النبوة للبيهقى (اللهم اهد قومى فانهم لايعلمون دعا) اى النبى عليه السلام (لقوم) من كفار قريش (كسروا سنه عليه السلام) اى رباعيته وشجوا رأسه وذلك باحد ودعا ابراهيم ابن ادهم لمن شج رأسه بالمغفرة فقيل له فى ذلك فقال اعلم انى مأجور بسببه فلا ارضى ان يكون هو معاقبا بسببى ومما يهون عليك كراهة المذمة قطع الطمع فان من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم اثر ذلك فى قلبك واصل الدين القناعة بما اعطاه الله من المال وبها ينقطع الطمع عن الجاه والمال واما ما دام الطمع قائما فكان حب المدح والجاه يغلب فى قلب من طمعت فيه دائما *

الباب الثانى عشر فى التواضع وذكر المنة

اى فى مدحهما وذم ضدهما وهما الكبر والعجب (بسم الله الرحمن الرحيم) الذى يتواضع له العرش الكريم (ورد) فى الحلية لابى نعيم عن ابى هريرة (من تواضع لله رفعه الله) ومفهومه من تكبر على الله وضعه وللبيهقى فى الشعب عن ابن عباس اذا تواضع العبد رفعه الله الى السماء السابعة وللاصفهانى فى الترغيب والترهيب من حديث انس ان التواضع لايزيد العبد الا رفعة ولمسلم فى اثناء حديث لابى هريرة وما تواضع احد لله الارفعه الله ولاحمد والبيهقى فى الشعب باسناد صحيح من حديث عبد الله ابن عمر ومن كان فى قلبه مثقال حبة من كبر اكبه الله فى النار على وجهه وللترمذى وحسنه من حديث سلمة بن الاكوع لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين فيصيبه ما اصابهم وللترمذى من حديث اسماء بنت عميس بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الاعلى بئس العبد عبد تجبر واختال ونسى الكبير المتعال بئس العبد عبد سها ولها ونسى المقابر والبلى بئس العبد عبد عتى وبغى ونسى المبدأ والمنتهى ورواه الحاكم فى مستدركه وصححه (الشرف التواضع) فلابن ابى الدنيا الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى وعن عروة بن الورد التواضع احد مصائد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها الا التواضع وقال الفضيل التواضع ان تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبى قبلته منه ولو سمعته من اجهل الناس قبلته وعن ابن المبارك التواضع ان تضع نفسك عند من دونك فى نعمة الدنيا حتى تعلمه انه ليس عليك بدنياك فضل وان ترفع نفسك على من هو فوقك فى الدنيا حتى تعلمه انه ليس له بدنياه عليك فضل وقال قتادة من اعطى مالا اوجمالا اوثناء اوعلما ثم لم يتواضع فيه كان عليه يوم القيمة وبالا (وضده التكبر وهو اتباع الكبر) واظهاره كما ان التواضع اتباع الصفة واظهار المسكنة بان يرى نفسه دون غيره فى صفة الكمال فمن تكبر على امثاله فهو متكبر فى حاله ومن تأخر عنهم فهو متواضع فى مقام كماله (وهو) اى الكبر (ان يرى نفسه فوق غيره

فى صفة الكمال فيحصل به نفخة) اى انتفاخ الكبر فى نفسه وعن ابن عباس فى قوله تعالى * ان فى صدورهم الا كبر ماهم ببالغيه * فقال عظمة لم تبلغوها وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر وعن ثابت بلغنا انه قيل يارسول الله ما اعظم تجبر فلان فقال اليس بعده الموت البيهقى فى الشعب هكذا مرسلا ويروى انه خرج يونس وايوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن التواضع ان تخرج من منزلك فلا ترى مسلما الارأيت له عليك فضلا وقال الجنيد التواضع عند اهل التوحيد تكبر وفى الاحياء لعل مراده ان المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها والموحد لايثبت نفسه ولايراها شيئا حتى يضعها ويرفعها (وورد اعوذبك من نفخة الكبر) روى ابوداود وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم مرفوعا اعوذبالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه فنفخه الكبر ونفثه الشعر او السحر وهمزه الوسوسة فى السر (وآثاره) اى علامات الكبر ثلاثة عشر (الترفع فى المجلس) على الاقران اى من غير استحقاق له به (والتقدم فى الطرق) على الاخوان مع استحقاقهم به قال ابو الدرداء لايزال العبد يزداد من الله بعدا مامشى خلفه وكان عبد الرحمن بن عوف لايعرف من عبيده اذكان لايتميز عنهم فى صورة ظاهرة ومشى قوم خلف الحسن البصرى فمنعهم وقال ما يبقى هذا من قلب العبد وكان عليه السلام فى بعض الاوقات يمشى مع الاصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشى فى الغمار اما لتعليم غيره واما لنفى وسواس الشيطان بالكبر والعجب كما انتزع الثوب الجديد فى الصلوة ولبس الخلق لاحد هذين المعنيين كذا فى الاحيـاء والمعروف نزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق ونزع الخميصة ولبس الانبجانية كما تقدم والله اعلم وللديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابى امامة بسند ضعيف جدا انه خرج يمشى الى البقيـع فتبعه اصحابه فوقف وامرهم ان يتقدموا ومشى خلفهم فسئل عن ذلك فقال انى سمعت خفق نعالكم فاشفقت ان يقع فى نفسى شئ من الكبر (والنظر) الى الغير (بالماق) اى بطرف العين تكبرا وتجبرا قال تعالى * يعلم خائنة الاعين وماتخفى الصدور (وعين الاستحقار) بان يستنكف عن جلوس غيره بالقرب منه الا ان يجلس بين يديه فعن ابن وهب جلست الى عبد العزيز بن ابى رواد فمس فخذى فخذه فنحيت نفسى عنه فاخذ بثوبى فجرنى الى نفسه وقال لم تفعلون بى ما تفعلون بالجبابرة انى لا اعرف منكم رجلا شرا منى وقال انس كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلاينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت وقد تقدم تخريجه ومن ذلك ان يتوقى فى مجالسة المرضى والمعلولين وعنهم يتحاشى فكان ابن عمر لايحبس عن طعامه مجذوما ولا ابرص ولامبتلى الا اقعدهم على مائدته وقد ثبت اكله عليه السلام مع مجذوم وقال له قل

بسم الله ثقة بالله رواه ابو داود والترمذى وابن ماجه من حديث جابر (وتعويج العنق مع تحريك الاطراف (والطراف الرأس) فروى ان عمر بن عبد العزيز حج قبل ان يستخلف فنظر اليه طاوس وهو يختال فى مشيته فغمز جنبه باصبعه ثم قال ليست هذه مشية من فى بطنه خرء فقال عمر كالمتعذر ياعم لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها وعن الحسن ان فى كل عضو من الاعضاء لله نعمة وللشيطان به لعنة ورأى محمد بن واسع ولده يمشى يختال فدعاه فقال اتدرى من انت اما امك فاشتريتها بمائتى درهم واما ابوك فلا اكثر الله فى المسلمين مثله ولاحمد والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله وهو عليه غضبان ولعله مقتبس من قوله تعالى * ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا * ومن قوله * ولا تمش فى الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا * وفى الصحيحين من حديث ابى هريرة لا ينظر الله الى من جر ازاره بطرا وفى لفظ مسلم خيلاء (والاتكاء) اى الميل الى احد جوانبه بحضور اقاربه واجانبه من غير ضرورة وعارضة فى بابه وكذا حكم التربع المشير الى الترفع (وقيام الناس بين يديه فجاء) اى فى الخبر او الاثر (ان من قعد والناس بين يديه قيام) واقفون بامره (فهو من اهل النار) والحديث معروف بلفظ من احب ان يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار احمد وابو داود والترمذى عن معاوية وفى الشمائل للترمذى عن انس لم يكن شخص احب اليهم من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكانوا اذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهيته لذلك وقال الفضيل من احب الرياسة لم يفلح ابدا وقال الشبلى من رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع حظ والتحقيق ان من رأى انه خير من اخيه واحتقر اخاه وازدراه ونظر اليه بعين الاستصغار او رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق ومن انف من ان يخضع لله ويتواضع له بطاعته واتباع رسله فقد تكبر بينه وبين الحق (والمشى) اى الخروج (راكبا مع المشاة بين يديه (وترك الخروج) من منزله ولو الى المسجد للجمعة والجماعة (الا بشخص او اشخاص (عقيبه وكان عليه السلام يمشى بين الجمع غير متقدم) كما تقدم (وعمل البيت) اى وتركه وهو خلاف التواضع ومخالف لفعله عليه السلام ففى مسند احمد عن عائشة انه عليه السلام كان يخيط ثوبه ويخصف نعله ويعمل ما يعمل الرجال فى بيوتهم وللبيهقى فى الشعب من حديث ابى هريرة من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر وبالجملة فمجامع حسن الاخلاق يؤخذ من سيرته عليه السلام واتباعه من اصحابه الكرام ولما عوتب عمر فى بذاذة هيئته عند دخول الشام قال انا قوم اعزنا الله بالاسلام فلا نطلب العز من غيره (وحمل السلعة) اى وتركه (فورد من حملها) اى سلعته وفى رواية بضاعته

(فقد برئ من الكبر) البيهقى عن ابى امامة ولابى يعلى الموصلى عن ابى هريرة انه عليه السلام حمل سروالا اشتراه لنفسه وابى ان يحمله غيره وقال صاحب المتاع احق بحمله وعن على كرم الله وجهه *

* لا ينقص الكامل من كماله * ماجرّ من شئ الى عياله *

وكان ابوعبيدة بن الجراح وهو امير يحمل سطلا له من خشب الى الحمام وقال ثابت بن مالك رأيت اباهريرة اقبل من السوق ويحمل حزمة من حطب وهو يومئذ خليفة لمروان فقال اوسع الطريق للامير يا ابن مالك وعن الاصبغ بن ابى بنانة قال كأنى انظر الى عمر معلقا لحما فى يده اليسرى وفى يده اليمنى الدرة يدور فى الاسواق حتى دخل رحله وقال بعضهم رأيت عليا يشترى لحما بدرهم نحمله فى ملحفته فقلت له احمل عنك يا امير المؤمنين فقال لا ابو العيال احق ان يحمل ويروى ان عبدالله بن سلام حمل حزمة حطب فقيل له يا ابايوسف قد كان فى غلمانك وبنيك مايكفونك فقال اجل ولكنى اردت ان اجرب نفسى هل تنكر ذلك منى فلم يقنع منها بما اعطيه من العزيمة على ترك الانفة حتى يجربها اهى صادقة ام كاذبة وروى ان عمر بن الخطاب حمل قربة على عنقه فقال له اصحابه يا امير المؤمنين ماحملك على هذا فقال ان نفسى اعجبتنى فاردت ان اذلها وروى ان اباموسى قيل له ان اقواما يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم فلبس عباءة صلى فيها بالناس (واحتمال الاذى) اى وتركه (فهو) اى احتمال الاذى من السب وغيره (هو الاصل) الذى عليه مدار حسن الخلق والتواضع للحق (المأثور) المروى عن السلف والخلف خلافا لاكلة الحشيش والعلق وقد قدمنا مانقل عنهم فى ذم الغضب ومايتعلق به من الادب (ولباس الدون) اى وترك اللباس الخشن او الخلق او المرقع (فورد من ترك زينة لله ووضع ثيابا حسنة) اى دفعها مع القدرة عليها (تواضعا لله وابتغاء وجهه) اى لا للرياء والسمعة فى حقه (كان على الله) اى واجبا بمقتضى وعده (ان يدخره عبقرى الجنة) اى ديباجها من سندسها واستبرقها ابوسعد المالينى فى مسند الصوفية وابونعيم فى الحلية من حديث ابن عباس من ترك زينة الدنيا لله الحديث وقد ورد البذاذة من الايمان ابوداود وابن ماجه من حديث ابى امامة بن ثعلبة وقال هارون سألت عن معنى البذاذة فقيل هو الدون من اللباس وقال زيد بن وهب رأيت عمر بن الخطاب خرج الى السوق وبيده الدرة وعليه ازار فيه اربعة عشر رقعة بعضها من ادم اى جلد وعوتب على فى ازار له مرقوع فقال يقتدى بى المؤمن ويخشع له القلب وقال عيسى عليه السلام جودة اللباس خيلاء القلب وقال طاوس انى لاغسل ثوبى هذين فانكر قلبى ماداما نقيين وقيل لسلمان الاتلبس ثوبا جيدا فقال انما انا عبد فاذا اعتقت يوما لبست اشار به الى العتق فى

الآخرة

الآخرة وما اعد الله لعبيده من الثياب الفاخرة (ونزع عليه السلام الجديد) اى من الشراك الخميصة (ولبس العتيق) منهما (للتعليم) اى لتعليم غيره (اوالبعد عن الوسوسة) فى نفسه على ماتقدم (الا للنظافة) اى بقصدها فانه حينئذ لابأس بترك الدون من اللباس ولبس الثوب الفاخر كسائر الناس (فوردنفى الكبر فى حسن الثياب لمعرفة حال السائل) اى لمعرفته عليه السلام لحال السائل ومقاده من المرام ففى الطبرانى من حديث ثابت ابن قيس بن شماس انه سأل النبى عليه السلام وقال انى امرؤ قد حبب الى من الجمال ماترى فهل من الكبر فقال لا ولكن من سفه الحق اى جهله وانكره وغمص الناس اى حقرهم رواه احمد من حديث عقبة بن عامر وفى رواية مسلم عن ابن مسعود الكبر من بطر الحق وغمط الناس وفى رواية الترمذى من بطر الحق وغمص الناس وقال حسن صحيح وفى رواية ابن بكار عن ابن مسعود قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال انه ليعجبنى ان يكون ثوبى غسيلا ورأسى دهينا وشراك نعلى جديدا وذكر اشياء حتى ذكر علاقة سوطه افمن الكبر هذا فقال عليه السلام لاهذا من الجمال والله يحب الجمال لكن الكبر من سفه الحق وظلم الناس (ويعرف) اى حال من يلبس للنظافة اوكونه مظهرا للغنى شكرا للنعمة اوكونه فقيرا يرى نفسه غنيا للعفة (بتسوية الخلاء والملاء) عنده فى لباسه للنظافة ونحوها بان يلبس فى الخلاء للصلوة وغيرها كما يلبس فى الملاء عند حضور الجماعة ونحوها ثم المحبوب الوسط المطلوب فللنسائى وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير اسراف ولا مخيلة (والغضب) بالرفع عطف على الترفع اى ومن آثار الكبر الغضب (على من لايبدأ بالسلام) اولا يبادر بالقيام ونحوه من انواع الاكرام (والاهتمام) بالرفع اى والاغتمام (باصابة الخصم المناظر) اى المجادل فى منقوله (والانكار عليه) اى وبانكار الخصم عليه فى معقوله وتوضيحه ان يناظر فى مسئلة مع واحد من اقرانه فان ظهر شىء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه واخراجه الحق فذلك يدل على ان فيه كبرا دقيقا فليتق الله واليشتغل بعلاجه اما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خبية نفسه وخطر عاقبته وان الكبر لايليق الا بالله تعالى واما بالعمل فبأن يكلف نفسه ماثقل عليه من الاعتراف بالحق فيطلق لسانه بالحمد والثناء ويقر على نفسه بالعجز فى الاداء ويشكره على الاستفادة ويقول ما احسن مافطنت له من الافادة وقد كنت غافلا عنه فجزاك الله عنى خيرا على مانبهتنى له فالحكمة ضالة المؤمن فاذا وجدها ينبغى ان يشكر من دله عليها (وآفاته) اى الكبر ستة (منازعته تعالى) اى فى مشاركته سبحانه فى بعض صفاته

(فورد) فى صحيح مسلم وغيره (الكبرياء ردائى) اى بمنزلته فى اظهار ملكى وجبروتى (والعظمة ازارى) اى بمنزلته فى اسرار ملكوتى والمعنى انهما صفتان مختصتان بى كما ان رداء الانسان وازاره يختصان به ولا يشاركه احد فى لبسه (فمن نازعنى فيهما) اى واحدا منهما كما فى رواية (قصمته) اى اهلكته وفى رواية عذبته وفى اخرى القيته فى جهنم وفى اخرى قذفته فى النار (وبغضبه تعالى) اى له فى الدنيا والاخرى (فورد) فى التنزيل (انه لايحب المستكبرين) ومفهومه انه يحب المتواضعين (وعمى القلب) بمعرفة الرب (فورد) فى التنزيل (سأصرف عن آياتى) اى المنصوبة فى الآفاق والانفس من مصنوعاتى وقيل فى التفسير سادفع فهم القرآن عن قلوبهم (الذين يتكبرون) تمامه * فى الارض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا * وفى بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن مشاهدة ملكى وملكوتى وعجائب قدرتى وغرائب جبروتى وقال ابن جريج سأصرفهم عن ان يتفكروا فيها ويعتبروا بها ولذا قال عيسى عليه السلام ان الزرع ينبت فى السهل لافى الوعر وكذلك الحكمة تعمى فى قلب المتواضع دون المتكبر الايرى انه من تمشخ برأسه الى السقف شجه ومن طأطأ اظله واكنه (ويطبع الله على كل قلب متكبر) بالاضافة ودونها (جبار) مبالغ فى الفساد من قهر العباد وكسر البلاد (والذل) اى الذلة فى العاقبة والمهانة فى الآخرة وللترمذى وحسنه من رواية عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده المتكبرون يوم القيمة فى صور الذر يطؤهم الناس لهوانهم على الله وعن حاتم اجتنب الموت على ثلاثة على الكبر والحرص والخيلاء فان المتكبر لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يريه الهوان من ارذل اهله وخدمه والحريص لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يحوجه الى كسرة اوشربة ولايجد مساغا والمختال لايخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يمرغه ببوله وقذره (والبعث) اى التحريض والحث (على النمايم) من صفات البهائم (كتغير الخلق) من اثر سوء الخلق كالبشاشة الى العبوسة (والجحد عن الحق) اى بانكاره وعدم اقراره وقد سبق فى الحديث تفسير الكبر المذموم به ومنه البعد عن اهل الحق فقد قالت قريش لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كيف نجلس اليك وعند هؤلاء الفقراء فنزل قوله تعالى * ولاتطرد الذين يدعون ربهم * رواه مسلم وابن ماجه (والحجب) اى ومنعه (عن الفضائل) وحجزه عن حسن الشمائل (كالتواضع) للحق (والحلم) عن الخلق (والنصيحة) للعامة من غير الفضيحة (والامر بالمعروف) اى وكذا النهى عن المنكر (ولايستلزمه) اى الامر بالمعروف التكبر (فالعبد الرقيب) بامر الحبيب (يضرب ولد المولى عند الاساءة ويتواضع له) مع ذلك بعد تلك الحالة (ثم التخاسس) اى طلب

الخسة المسمى بالضعة وهو الافراط فى التواضع (كتأخر العالم عن الخصاف) ونحوه من النداف والعلاف فى المجلس اوالطريق (مذموم ايضا كعكسه) وللبغوى وابن قانع والطبرانى والبزار من حديث انس طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة وانفق مالا جمعه فى غير معصية ورحم اهل الذل والمسكنة وخالط اهل الفقه والحكمة ومن ذلك حديث من تواضع لغنى لغناه ذهب ثلثا دينه البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود من قوله من خضع لغنى ووضع له نفسه اعظاما له وطمعا فيما قبله ذهب ثلثا دينه وذلك لان آلة العبادة قلب ولسان واركان وفى تعظيم الغنى لابد من استعمال اللسان والجوارح وله عن انس بلفظ من اصبح حزينا على الدنيا اصبح ساخطا على ربه ومن اصبح يشكو مصيبة فانما يشكو ربه ومن دخل على غنى فتضعضع له ذهب ثلثا دينه واخرج الديلمى فى حديث ابى ذر لعن الله فقيرا تواضع لغنى من اجل ماله من فعله ذلك منهم فقد ذهب ثلثادينه وكذا ابو داود ولم يصب ابن الجوزى فى ذكره فى الموضوعات كما قاله السيوطى ومن التخاسس بل اخسه ان يمشى العالم خلف الظالم ولذا قيل بئس الفقير على باب الامير ونعم الامير على باب الفقير وعن يحيى بن معاذ التكبر على ذى التكبر عليك بما له تواضع ويقال التواضع فى الخلق كلهم حسن وفى الاغنياء احسن والتكبر فى الخلق كلهم قبيح وفى الفقراء اقبح وكان بشر الحافى يقول سلموا على ابناء الدنيا بترك السلام (فالتواضع معه بعدم الاستحقار) فعن الصديق لايحقرن احدكم احدا من المسلمين فان صغير المسلمين عند الله كبير ولمسلم من حديث ابى هريرة بحسب امرئ من الشر ان يحقر اخاه المسلم (واظهار البشر) وفق مرامه (والرفق) بحسب مقامه (واجابة الدعوة) فكان عليه السلام يجيب دعوة المملوك ونحوه (والسعى فى الحاجة) لقوله تعالى * وتعاونوا على البر والتقوى * وحديث * من كان فى عون اخيه المؤمن كان الله فى عونه * فالعدل ان يعطى كل ذى حق حقه فقد ورد اذا اتاكم كريم قوم فاكرموه (لكن التكبر افحش) من التخاسس اذ ورد عن بعض المشايخ ما يقار به وكأنه كان فى مقام المعالجة (والسبب) اى سبب الكبر الحقيقى (العجب فقط) اى العجب سبب الكبر والكبر سبب التكبر فسبب سبب الشئ سبب لذلك الشئ وهو مذموم قال تعالى * ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم * ذكر ذلك الاخبار فى معرض الانكار ولابى داود والترمذى وحسنه وابن ماجه اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك وللبزار والبيهقى فى الشعب من حديث انس لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو اكبر من ذلك العجب العجب وعن مطرف لان ابيت نائما واصبح نادما احب الى من ان ابيت قائما واصبح معجبا وكان بشر بن منصور من الذين اذا رأوا ذكر الله

فاطال الصلوة يوما ورجل جالس خلفه ينظر ففطن له بشر فلما انصرف من الصلوة قال لايعجبك ما رأيت منى فان ابليس قد عبد مع الملائكة مدة طويلة ثم صار الى ما صار اليه وقيل لعائشة متى يكون الرجل مسيئا قالت اذا ظن انه محسن وكأنه مقتبس من قوله تعالى * وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا * وفى الصحيحين بينما رجل يتبختر فى برديه قد اعجبته نفسه خسف الله به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيمة (ويطلق) اى الكبر (مجازا) اى بطريق المجاز (لوجود آثاره) اى آثار الكبر من اسراره (على المنبعث من غيره) اى على الكبر المنبعث من غير العجب (كالحقد) فى الباطن (والحسد) اعم (والرياء) فى الظاهر (ويختص هذا) الاخير وهو الكبر المنبعث من غير العجب (بالملاء) دون الخلاء والمعنى ان الرياء يختص بالملاء دون الحقد والحسد والعجب فان الذى يتكبر بها يستوى عنده الخلاء والملاء والحاصل ان آثار الكبر اذا ظهرت من الكبر يسمى تكبرا حقيقة واذا ظهرت من غير الكبر كالحقد والحسد والرياء يسمى تكبرا مجازا لاحقيقة لانها ليست من نتايج الكبر لكن لما كانت صورتها صورة الكبر الحقيقى سميت تكبرا مجازا ثم اعلم ان العجب انما هو بالاسباب التى بها يتكبر وقد يعجب بما لايتكبر به كعجبه بالرأى الخطأ الذى تزين له بجهله وثمرته الاستبداد بالرأى وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين لرأيه (والعلاج) اى علاج الكبر خمسة اشياء (ذكر ما ورد فيه) اى فى ذم الكبر من الاخبار (واحوال السلف) الاخيار وما صدر عنهم من الآثار فى ترك الكبر واختيار التواضع (ومواظبة اخلاق المتواضعين) من العلماء الابرار والمشايخ الكبار (والتكلف فيه) اى فى رفع العجب بدفع الحجب اوالتكلف فى تحصيل اخلاق المتواضعين بالتشبه فى افعـــالهم والتزين باحوالهم والتصنع باعمالهم فان المجاز قنطرة الحقيقة والرياء قنطرة الاخلاص ويشير اليه حديث ان لم تبكوا فتباكوا والعلم بالتعلم والحلم بالتحلم (وقلع العجب) اى استيصاله من اصله وقطعه من مادة فرعه وفصله من وصله ولايحصل اصل قلعه الا بقلع الحقد والرياء والحسد من قلبه (وهو) اى العجب (استعظام النفس) اى عدها عظيمة برؤية قدرها فوق قدر غيرها (وخصالها التى هى النعم) فيها جسيمة ووسيمة (مع الركون اليها) اى الى النفس وما صدر منها وظهر عليها (ونسيان الاضافة) اى نسبة النعم (اليه تعالى) وهو المنعم بجميع النعم على جميع الامم (والامن من الزوال) لتوهم انه من اهل الكمال (فمن رأى النعمة منه تعالى) ابتداء (وفرح بها من حيث انها منه) اى من الله تعالى ويستوجب عليه حمدا وثناء (وخاف عليه الزوال) اى زوال تلك النعمة انتهاء (لايكون معجبا) وان كان مستعظما لها (وهو) اى العجب (غير الادلال فهو) اى الادلال (عجب مع رؤية حق النفس عنده تعالى) على مظنة ان لهـــا الكمال فلا مدل

الا

الا وهو معجب ورب معجب لايكون مدلا اذالعجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء والادلال لا يتم لامع توقع جزاء (فورد ان صلوة المدل لا ترفع فوق رأسه) وهوكناية عن عدم قبولها والحديث كذا فى الاحياء وقال مخرجه لم اجد له اصلا وقال قتادة فى قوله تعالى * ولا تمنن تستكثر * اى لاتدل بعملك قيل ولان تضحك وانت معترف بذنبك خير من ان تبكى وانت مدل بعملك اوبعلمك (ويعرف) اى الادلال والمدل (بالتعجب) اى بعجبه (عن رد دعائه) حال استدعائه فى كشف بلائه او استجلاب عطائه بناء على ظن انه من اهل ولائه (واستقـامة حال مؤذيه) اى ويعرف ايضا بتعجبه عن استقامة اهل ايذائه (وغيرالكبر) اى والعجب ليس عين الكبر بل غيره (لكونه) اى الكبر (اثره) اى العجب والاثر غير المؤثر (واستدعائه) اى ولاستدعاء الكبر (المتكبر عليه) بخلاف العجب فانه يتصور بغيره حيث لايستدعى غير المعجب به (وهو) اى العجب (مذموم) لما تقدم (وآفاته) اى العجب ثمانية (الهلاك فهو) اى العجب (عد من المهلكات) فقد ورد ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه البزار والبيهقى والطبرانى فى الاوسط عن ابن عمر (ونسيان الذنوب) فانه لوذكرها لما اعجب مع وجود العيوب وعن عيسى عليه السلام كم من سراج قد اطفأه نسيان الذنوب وكم من عمل قد افسده العجب (واستحقارها) اى استصغار الذنوب وهوقد عد من كبارها (وترك التدارك) اى لما فاته من الطاعات والعبادات وحقوق الآدميين والحيوانات (وتفقد آفات العمل) اى وترك تفقدها وتعهدها (على زعم انه مغفور) اى بناء على توهم انه غيرمأ خوذ بنقصها (والامن من مكره تعالى) ولو بالكرامات وخوارق العادات * فانه لايأمن مكر الله الا القوم الخاسرون (والاستنكاف) اى العار (من التعلم) عن الابرار وهذا من كمال جهله (والاتعاظ) اى ومن الاتعاظ بغيره وقد ورد كفى بالموت واعظا والسعيد من وعظ بغيره والشقى من وعظ به غيره (وتزكية النفس) اى ومن آفات العجب ثناؤها ومدحها (وورد) فى التنزيل (فلا تزكوا انفسكم) تمامه * هواعلم بمن اتقى * وقال تعالى * ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقويها قد افلح من زكيها وقد خاب من دسيها * وقال عليه السلام اللهم آت نفسى تقويها وزكها انت خير من زكيها انت وليها ومولاها قال ابن جريج معنى قوله لاتزكوا انفسكم اذا عملت خيرا فلاتقل عملت وقال زيد بن اسلم لاتبروها اى لاتعتقدوا انها بارة وهو معنى العجب (وضده) مبتدأ اى ضد العجب (وهو ذكر توفيقه تعالى) جملة معترضة مفسرة للمنة التى هى ضد العجب (فرض) اى حتم لازم (ان حدث داعية العجب فى خاطره والا فنفل) فى امر باطنه وظاهره (والسبب) اى سبب العجب (خبث الطبع وهو) اى خبث الطبع (داء) معنوى (معضل) اى مشكل لا دواء له (والجهل بالحقايق

واعتقاد كمال النفس) اى بحقايق النفس ودقايقها وهوانها من اى شئ خلقت ابتداء وما تكون فى عاقبة امرها انتهاء فانه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم انه اذل من كل ذليل واقل من كل قليل فانه لايليق به الا التواضع والسكنة واذاعرف ربه علم انه لايليق العظمة والكبرياء الابالله وحده ثم معرفة ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وهو الى علم المكاشفة يؤل واما معرفة نفسه فيكفيه ان يعرف معنى آية واحدة فى كتاب ربه ففيه علم الاولين والآخرين لمن فتح عين بصيرته ورفع حجاب قلبه فقد قال تعالى * قتل الانسان ما اكفره من اى شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم اماته فاقبره ثم اذا شاء انشره * وفى الاحياء هنا كلام طويل فيه تنبيه جزيل (والعلاج) للعجب (قلع السبب) له (بالنظر) اى بالتأمل (فى حقارة النفس) وخساستها (فاولها النطفة) اى المذرة كما قال تعالى * فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب (وآخرها الجيفة) اى القذرة وهو فيما بينهما يحمل العذرة وعن الحسن العجب لابن آدم يغسل الخراء بيده كل يوم مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السموات وكان الاحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره فجاءه يوما ومصعب ماد رجليه فلم يقبضهما وقعد الاحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى اثر ذلك فى وجهه فقال عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين وقيل فى قوله تعالى * وفى انفسكم افلا تبصرون * هوسبيل الغائط والبول وفى قوله تعالى * كانا يأكلان الطعام * ايماء الى انهما يبولان ويغوطان * انظر كيف نبين الآيات ثم انظر انى يؤفكون * اى يصرفون عن الحق ولا يعرفون انهما لايستحقان الربوبية مع ماظهر فيهما من اثر العبودية ولابن ماجه والحاكم وصحح اسناده من حديث بشربن جحاش ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع اصبعه عليها وقال يقول الله ابن آدم اتعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى اذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللارض منك وئيد اى رزانة وثقالة جمعت ومنعت حتى اذا بلغت التراقى قلت اتصدق وانى اوان الصدقة منك ويروى ان مطرف بن عبدالله بن الشخير اى المهلب بن ابى صفرة وهو يتبختر فى جبة خز فقال يا ابا عبدالله هذه مشية يبغضها الله ورسوله فقال له المهلب اما تعرفنى فقال بلى اعرفك اوّلك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وتحمل بين ذينك عذرة فمضى المهلب وترك مشيته وقال مجاهد فى قوله تعالى * ثم ذهب الى اهله يتمطى * اى يتبختر ثم قال عزوعلا * ايحسب الانسان ان يترك سدى الم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى (وانه) اى وبالنظر فى انه (لواستأذن) للدخول (على امير البلدة ربما لايأذن له) اى لحقارته عنده فاىّ فائدة فى عجبه بنفسه والامير من اذل الخدام على باب الملك العلام وقد اذن الله سبحانه حتى يعبده لديه ويثنى عليه ويتوجه اليه ويرضى بركعتيه مع

معايبهما ووعد من ثواب الجزيل على ادائهما فى اقل مراتبهما (واحوالها) اى وبالنظر فى احوال النفس (الهاجمة) اى الآتية بغتة بالورود عليها والوجود لديها (كالمحن والشدائد) المتوجهة اليها من الفقر والمرض وسائر المصائب فربما يتعجب من تفاوت المراتب اذ رزقه الله عقلا وافقره وافاض على غيره المال مع كونه جاهلا واقدره فيقول منعنى من قوت يومى وانا الفاضل العاقل وافاض على غيرى وهو الجاهل الغافل حتى يكاد يرى هذا ظلما كما يشير اليه قوله عليه السلام كاد الفقر ان يكون كفرا ولايدرى المغرور بعلمه المعذور فى جهله بانه لوجمع له بين العقل والمال جميعا لكان ذلك بالظلم اشبه فى ظاهر الحال اذ يقول الجاهل الفقير يارب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتنى منهما فهلا جمعتهما لى اوهلا رزقتنى احدهما والى هذا اشار على كرم الله وجهه حيث قيل له ما بال العقلاء فقراء فقال ان عقل الرجل محسوب عليه من رزقه والعجب ان العاقل الفقير ربما رأى الجاهل الغنى احسن حالا من نفسه ولوقيل له هل تؤثر جهله وغناه عوضا من عقلك وفقرك لامتنع من ذلك ومن هنا قال تعالى * نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحيوة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات * الآيات وقال عز وعلا * كل حزب بما لديهم فرحون * وفى الحديث اللهم قنعنى بما رزقتنى ولله در القائل *

* رضينا قسمة الجبار فينا * لنا علم وللاعداء مال *

* فان المال يفنى عن قريب * وان العلم يبقى لايزال *

وقال عز وجل * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا * اى ممنوعا من احد من خلقه وقال * ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا * فيعلم من يصلح للفقر ومن يصلح للغنى ومن يصلح للجمع بينهما وقد رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رجلا غنيا جلس لجنبه فقير فانقبض منه وجمع اليه ثيابه فقال عليه السلام اخشيت ان يعدو عليك فقره رواه احمد وقال ابوذر كنت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فدخل المسجد فقال لى يا اباذر ارفع رأسك فرفعت رأسى فاذا رجل عليه ثياب جياد ثم قال ارفع رأسك فرفعت رأسى فاذا رجل عليه خلقان فقال يا اباذر هذا خير عند الله من قراب الارض مثل هذا رواه ابن حبان فى صحيحه (واعمالها) اى وبالنظر فى اعمال النفس اى من اعمالها واهمالها (فاجرة اجير يعمل طول النهار اويحرس) ذلك الاجير (طول الليل درهمان) اى لذلك الاجير اولكل منهما اذ يعلم به ان اعمال العباد انما صارت ذات قيمة لما وقع من الله فى موقع الرضاء والقبول والا فاجره اجر الاجير المعمول وبه يعرف نقصان كمالها فيضعف حينئذ بعض دلالها (وانما يعطى المال الخسيس بالاستغدام على الدوام) فى العمل النفيس (والالقاء فى الاخطار) كالغوص فى الماء وتعليق البناء من جانب الهواء فى جو السماء

وانت تصلى ركعتين فى غمضة العين بقوة ما اعطاك الله من النعم الظاهرة والباطنة وتطمع ما وعدك من الدرجات الفاخرة فى الدار الآخرة فتعجب منهما وتستعظمهما وليس هذا شان العاقل (وكرمه تعالى) اى وبالنظر الى كرمه ولطفه (بالتوفيق) اى بالاعانة على الطاعة والعبادة (ووعده) اى وبوعده سبحانه (الثواب المخلد) اى المؤبد مما لاعين رأت ولا اذن سمعت ولاخطر على قلب بشر كما ورد فى الخبر (على ساعة من العمل المعيوب) فى حد ذاته المخلوط بسائر سيئاته (والنظر) اى وكرمه بنظره (اليه) واقباله عليه وهو حقير ذليل فى مقداره (مع جلاله) اى عظمة الله فى جماله (الذى عجز العالمون) من الانبياء والاولياء (عن ادراكه) اى ادراك كنه كماله (وبمعرفة) عطف على بالنظر اى وبعلم (ان الكمال الدنيوى) من النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الانصار من الرجال (وهمى) لزواله بالموت فى مآله (كما سبق) فى حب الجاه (والدينى) من العلم النافع والعمل الصالح (ينافيه) اى العجب (فالعلم النافع) فى الدنيا والاخرى (ما يزيد خوفا منه تعالى) كما قال تعالى * انما يخشى الله من عباده العلماء * وورد انا اعلمكم بالله واخشاكم منه ومن لم يزدد من العلم زهدا لم يزدد من الله الا بعدا (ولاعبرة لغيره) اى لغير العلم النافع فقد تعوذ منه عليه السلام حيث قال اسألك علما نافعا واعوذ بك من علم لاينفع واعلم ان العلم هو معرفة العبودية والربوبية واما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والنحو والشعر وفصل الخطاب وطريق المجادلات فاذا تجرد الانسان لها حتى امتلاء بها كبرا وشقاقا بل كفرا ونفاقا وهذه العلوم تسمى صناعات اولى من ان تسمى علوما (ولاعمل) موجود (دونه) اى بدون العلم (فهو) اى العلم (شرطه) اى العمل صحة وكمالا فلايستقيم لغيره فى جميع عمره (هذا) الكلام مضى اوامفظ هذا (ولا يصلح النسب) المجرد على الحسب (للتعويل) اى الاعتماد عليه والاستناد اليه (فهو تعزز بالغير) اى بغيره سبحانه فروى من تعزز بالعبيد اذله الله ولابى داود والترمذى وحسنه وابن حبان من حديث ابى هريرة ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحما فى جهنم اوليكونن اهون على الله من الجعلان الذى تدوف بانانا فهما القذر وتفاخرت قريش عند سلمان يوما فقال لكنى خلقت من نطفة قذرة ثم اعود جيفة منتنة ثم مآلى الى الميزان فان ثقل فانا كريم وان خف فانا لئيم وروى ابن المبارك عن ابى ذر قال قاولت رجلا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء فقال عليه السلام يا اباذر طف الصاع طف الصاع اعيرته بامه ليس لابن بيضاء على ابن سوداء فضل قال ابوذر فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدى ولله در القائل

* لئن فخرت بآباء ذوى شرف * لقد صدقت ولكن بئس ماولدوا *

(وورد) فى التنزيل (فلاانساب بينهم) تمامه * يومئذ ولايتساءلون فمن ثقلت موازينه الآيات (يافاطمة بنت محمد وياصفية بنت عبدالمطلب اعملا لانفسكما فانى لا اغنى) اى لاارفع (عنكما شيئا) اى من العذاب (حين) اى خاطبهما حين (نزل قوله وانذر عشيرتك الاقربين) ففى الصحيحين من حديث ابىهريرة وفى مسلم من حديث عائشة لما نزل قوله تعالى * وانذر عشيرتك الاقربين * ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال يافاطمة الحديث وفيه الا ان لكما رحما سأبلها ببلالها والطبرانى من حديث عمران بن حصين يامعشر بنى هاشم يأتى الناس بالاعمال يوم القيمة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم وقال اترجو سليم شفاعتى ولا يرجوها بنو عبد المطلب الطبرانى فى الاوسط من حديث عبد الله بن جعفر (ولا الجمال) اى ولايصلح للتعويل الجمال الظاهر المتغير فى المآل (فالاعتبار للباطن) والقلب من الكمال (وهما مملوان بالاقذار) الحسية (والرذائل) المعنوية وخاليان عن الفضائل العلمية والفواضل العملية وللديلمى والقضاعى عن على مرفوعا آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء (ولا المال) لانه سريع الزوال (ولاالقوة) اذلاحول ولاقوة الا بالله ثم لوسلبه الذباب شيئا لم يستنقذه منه وان بقة لودخلت انفه اونملة دخلت اذنه لقتلته وان شوكة لودخلت رجله لاعجزته وان حمى يوم تأخذ من قوة عديدة ما لاتنجبر فى مدة مديدة ثم ان اقوى انسان لايكون اقوى من حيوان فاى افتخار بين ارباب العظايم بما سبق به البهايم وقد حكى الله عن قوم عاد اذ قالوا من اشد منا قوة * اولم يروا ان الله الذى خلقهم هو اشد منهم قوة * وكما انكل عوج على قوته واعجب بها فاقتلع جبلا ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام فثقب الله تلك القطعة من الجبل حتى صارت فى عنقه كالخرزة وقد ورد ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب والحاصل ان القوة المحمودة هى التى تصرف فى العبادة التى هى وسيلة للسعادة (ولاالاتباع) اى الاشياع الملتزمين للاتباع (فورد) فى التنزيل (حتى اذافرحوا) اى فرح بطر (بما اوتوا) اى من كثرة المال وقوة الحال وغلبة الرجال (اخذناهم بغتة) فجأة (الآية) فاذاهم مبلسون * اى آيسون متحيرون * وقالوا نحن اكثر اموالا واولادا وما نحن بمعذبين (فقال لصاحبه وهو يحاوره) اى يخاطبه ويناظره (الآية) اى * انا اكثر منك مالا واعز نفرا * حتى اجابه صاحبه بقوله * ان ترن انا اقل منك مالا وولدا فعسى ربى ان يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا اويصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا * ومن ذلك تكبر قارون وتجبر كما اخبر سبحانه عنه بقوله * فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحيوة الدنيا ياليت لنا مثل

ما اوتى قارون * الآيات (يوم يفر المرء من اخيه وامه وابيه الآية) اى وصاحبته وبنيه
لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (ولا العمل) اى المجرد عن القبول (فورد) فى التنزيل
(وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا) و افمن زين له سوء عمله فرآه حسنا * وبدا لهم
من الله مالم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما عملوا * وبالجملة من جوز ان يكون
شقيا عند الله فماله سبيل ان يتكبر على من سواه ويشير اليه قوله تعالى * والذين يؤتون
ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون * اى يؤتون الطاعات ويخافون من عدم
قبولها فالكبر دليل الامن والامن مبعد والتواضع دليل الخوف وهو مسعد (ولا العلم)
اى المجرد من العمل الظاهر والباطن (فالاطلاع على الذنوب والباطنة صعب) والخلاص
منها بعد الاطلاع عليها لايمكن الا اذا كان هناك كسب ووهب ومن هنا ورد اشد الناس
عذابا يوم القيمة عالم لم ينفعه الله بعلمه وقد تقدم وفى الصحيحين يؤتى بالعالم يوم القيمة
فيلقى فى النار فيندلق اقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به اهل النار
فيقولون مالك فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وانهى عن الشر وآتيه وقد مثل الله من يعلم
ولايعمل بالحمار والكلب فقال * مثل الذين حملوا التورية ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل
اسفارا * وقال فى بلعام بن باعورا * واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا * الى قوله *
فمثله كمثل الكلب قال ابن عباس اوتى بلعام كتابا فاخلد الى شهوات الارض اى سكن
حبه اليها فمثله بالكلب ان تحمل عليه يلهث اوتتركه يلهث * اى سواء آتيته الحكمة اولم
اوته فلا يدع شهوته ومن هنا كان بعض الصحابة يقول ياليتنى لم تلدنى امى ويأخذ
الآخر تبنة من الارض ويقول ياليتنى كنت هذه التبنة ويقول الآخر ياليتنى كنت طيرا كل
ذلك خوفا من خطر العاقبة كما اشار اليه المصنف بقوله (والخاتمة مع هذا مستورة)
والروايات بان المدار على الخاتمة مشهورة فينبغى للعالم ان يعلم ان التكبر لايليق الا بالله
وحده وانه اذا تكبر صار ممقوتا عند الله بغيضا وقد احب الله منه ان يتواضع وقال له ان لك
عندى قدرا مالم تر لنفسك قدرا واذا نظر الى العاقبة تيسر له ان يتواضع للفسقة
والمبتدعة بل للكفرة فكم من مسلم نظر الى عمر بن الخطاب قبل اسلامه فاستحقره للكفر
وقد رزقه الايمان وفاق اكثر اهل الايقان فاذا حق العبد ان لايتكبر على احد بل ان
نظر الى جاهل قال انه قد عصى الله بجهل وانا عصيت الله بعلم فهو اعذر منى وان نظر الى
عالم قال قد علم مالم اعلم وان نظر الى كبير قال قد اطاع الله قبلى وان نظر الى صغير
قال قد عصيت الله قبله وان نظر الى مبتدع اوكافر قال مايدرينى لعله يختم له بالاسلام
ويختم لى بما هو عليه الآن من سوء المقام فليس دوام الهداية الى كما لم يكن ابتداؤها
الى وكل ذلك بان يعلم ان الكمال فى سعادة الآخرة والقرب من الله فى المرتبة الفاخرة

الباقية لافيما يظهر للناس من الدنيا من الامور الفانية (والمعصية المستعقبة ندما) اى ندامة وحسرة (خير من الطاعة المستعقبة عجبا) اى غرورا وغفلة (لاضمحلالها) اى لذهاب المعصية (مع حصول الندامة) وبقاء العجب بالطاعة من غير الملامة وهو اكبر من كل سيئة وفى الحكم معصية اورثت ذلا واستصغارا خير من طاعة اورثت عزا واستكبارا (وورد ما منكم من احد ينجيه عمله) اى من غير قبوله بفضله (ولا انا) اى ولا ينجيني عملى ايضا (الا ان يتغمدنى الله برحمته) متفق عليه من حديث ابى هريرة هذا وفى الاحياء قد صلى حذيفة بقوم فلما سلم قال لتلتمسن اماما غيرى اولتصلين وحدانا انى رأيت فى نفسى انه ليس فى القوم افضل منى فاذا كان مثل حذيفة لا يسلم من هذا فكيف يسلم الضعفاء من متأخرى هذه الامة فما اعرف على بساط الارض عالما يستحق ان يسمى عالما ثم انه لايحركه من العلم وخيلاؤه فان وجد ذلك فهو صديق زمانه فلا ينبغى ان يفارق بل يكون النظر اليه من العبادة فضلا عن الاستفادة من انفاسه واحواله ولو عرفنا ذلك ولو فى اقصى الصين لسعينا اليه رجاء لان تشملنا بركته وتسرى الينا سيرته وسجيته وهيهات فانى يسمح آخر الزمان بمثلهم فهم ارباب الاقبال واصحاب الدول وقد انقرضوا فى القرن الاول ومن يليهم من اهل العلم والعمل بل يعز فى زماننا عالم يختلج فى نفسه الاسف والحزن والحسرة على فوات هذه الخصلة فذلك ايضا اما معدوم اوعزيز ولولا بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله سيأتى على الناس زمان من تمسك بعشر ما انتم عليه نجا كما رواه الترمذى من حديث ابى هريرة واحمد عن ابى ذر لكان جديرا بنا ان نقتحم والعياذ بالله ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء اعمالنا ومن لنا بالتمسك بعشر ما كانوا عليه وليتنا نتمسك بعشر عشره ونسأل الله تعالى ان يعاملنا بما هو اهله وان يستر علينا قبايح اعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله *

﴿ الباب الثالث عشر فى الاخلاص والنية والصدق ﴾

اى الصدق فى الاخلاص الذى هو تصحيح النية وتخليصها عن الرياء والسمعة (بسم الله الرحمن الرحيم) الذى به يحصل المناص فى الدنيا والخلاص فى العقبى (الاخلاص تجريد النية) وهى الارادة المتوسطة بين العلم والعمل ويطلق عليها القصد (عن الشوب) اى خلطة الرياء والسمعة اى عن شائبة مخالطة النفس بها ومن شوائبها ومعايبها ان تدعى ترك الدعوى على التواضع مع ادعائها انها قد بلغت رتبتهم او تتعجب بكمالها حيث ترك هذه الدعوى باستقلالها وله مراتب عند اهل المناقب (فالاعلى) اى اعلى مراتب الاخلاص للمولى (ارادة وجهه تعالى) اى قصد رضاه فى الدنيا والاخرى

دون جلب الثواب وخوف العقاب كما قال تعالى * يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه * وقال عز وجلا * وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى * وقال انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا * وقال * فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا * نزلت فيمن يعمل لله ويحب ان يحمد عليه الحاكم من حديث طاوس مرسلا قال رجل انى اقف الموقف ابتغاء وجه الله واحب ان يرى موطنى فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية وللبزار من حديث معاذ من صام رياء فقد اشرك وفيه انه عليه السلام تلا هذه الآية وعن رابعة وحقك ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا فى جنتك الا ابتغاء وجهك (ويعرف) اى الاخلاص الاعلى (بالتفكر فى صفاته وافعاله) اى فى مصنوعاته (والمناجاة) مع ربه فى جميع اوقاته وقد قال بعضهم: فى اخلاص ساعة نجاة الابد ولكن الاخلاص عزيز قال عز وجل الا لله الدين الخالص * وللديلمى من حديث معاذ اخلص العمل يجزك منه القليل ولابن عدى من حديث ابى موسى من عبد يخلص لله اربعين يوما الاظهرت ينابيع الحكم من قلبه على لسانه وكان معروف الكرخى يضرب نفسه ويقول يانفس اخلصى تخلصى وقال يعقوب المكفوف المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته وقال ابو سليمان طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لايريد بها الا الله تعالى * ويشير اليه قوله تعالى * وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما (ثم ارادة نفع الآخرة) سواء اراد النجاة من النار اودرجات الابرار (فهو حظ النفس) اى فى الجملة فهو حظ عن مرتبة الاحرار (وورد فى حقيقته) اى حقيقة الاخلاص اوفى تحققه فى الاشخاص (ان تقول ربى الله ثم تستقيم كما امرت) اى لاتعبد هواك ونفسك ولاتعبد الا ربك وتستقيم فى عبادته كما امرت باستقامته فى الاحياء سئل عليه السلام عن الاخلاص فقال ان تقول ربى الله ثم تستقيم كما امرت قال مخرجه لم اره بهذا اللفظ وللترمذى وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى قلت يارسول حدثنى بامر اعتصم به قال قل ربى الله ثم استقم وهو عند مسلم بلفظ قل لى فى الاسلام قولا لااسأل عنه احدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم والكل مقتبس من قوله تعالى * ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا * الآيتين ومن قوله عز وعلا * فاستقم كما امرت (خالص الاعمال) اى وورد خالص الاعمال اى العمل الخالص (هو الذى تعمله لله لاتحب ان يحمد عليه احد) ولم اعرف له اصلا فى المرفوع نعم ورد عن عيسى عليه السلام انه قال الحواريون ما الخالص من الاعمال قال الذى يعمل العمل لله لايحب ان يحمده عليه احد وهذا المعنى فى سبب نزول الآية السابقة قد تقدم ولايبعد ان تكون الجملة من مبتدأ وخبر فى تعريف الاخلاص وتكون معترضة وقد قال بعضهم كنت تصدقت بصدقة بين الناس فاعجبنى

نظرهم

نظرهم الى فوجدته لاعلى ولالى قال سفيان لما سمع هذا ما احسن حاله لديه اذ لم يكن عليه فقد احسن اليه وقال يحيى بن معاذ الاخلاص تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم وقال سهل الاخلاص ان يكون سكون العبد وحركته لله خاصة قال السوسى الاخلاص فقد رؤية الاخلاص لان من يشاهد فى اخلاصه الخلاص فقد احتاج فى اخلاصه الى اخلاص والى القامين يشير قوله تعالى * الا عبادك منهم المخلصين * بكسر اللام وفتحها وقال رويم الاخلاص فى العمل هو ان لا يريد صاحبه عليه عوضا فى الدارين وقيل لسهل اى شئ اشد على النفس فقال الاخلاص اذ ليس لها فيه نصيب وقال ابو عثمان الاخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر الى الحق وقيل الاخلاص ما استتر عن الخلائق وصفى عن العلائق وقال الجنيد الاخلاص تصفية الاعمال من كدورات الاحوال وقال الفضيل ترك العمل لاجل الناس رياء والعمل لاجل الناس شرك والاخلاص ان يعافيك الله عنهما وهذا افضل ما قيل فى هذا الباب (وفى فضله) اى وورد فى فضل الاخلاص فى التنزيل (وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين) اى له الدين فتقييد العبادة بالاخلاص يشير الى فضله الخاص (الاخلاص) اى وورد فى الحديث القدسى والكلام الانسى الاخلاص (سرى استودعته قلب من احببت من عبادى) رواه القشيرى فى رسالته من حديث على كرم الله وجهه (واصله) اى اصل الاخلاص (النية) اى تصحيحها وتحسينها (وهى) اى النية (الارادة الباعثة) اى الداعية (للاعمال المنبعثة) اى تلك النية (عن المعرفة) بالاحوال فمعنى الارادة انبعاث القلب الى ما يراه موافقا لغرضه المعروف بعوضه اما فى الحال واما فى المآل (كشهوة الطعام الحاصلة من المعرفة بتحققه) اى الطعام (ودفعه) ان وعن المعرفة بدفع الطعام (الجوع الباعثة) بالجر صفة بعد صفة للشهوة اى الداعية (لامتداد اليد اليه) فان امتداد اليد الى الطعام انما يكون بعد المعرفة بتحقق الطعام وبانه دافع للجوع عن الانام لان الارادة اثر والاثر لا يدخل تحت الاختيار (فلا تدخل) اى النية (تحت الاختيار) بل الداخل تحت الاختيار انما هو المؤثر وتوضيحه ان كل عمل اختيارى فانه لا يتم الا بثلاثة امور علم وارادة وقدرة لانه لا يريد الانسان ما لا يعلمه فلابد ان يعلم ولا يعمل ما لم يرد فلابد من الارادة بعد خلق الانسان بحيث يوافقه بعض الامور ويلايم غرضه ويخالفه بعض الامور وينافيه فاحتاج الى جلب الملائم الموافق لقلبه الهائم (فمن وطئ) المرأة (لغلبة الشهوة) عليه فى تلك الحالة (انى ينفعه قوله الحسى) اى اللسانى (او النفسى) اى الجنانى (نويت به) اى بالوطئ (اقامة السنة وتكثير الامة) ومن هنا ورد الشرك اخفى فى قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء فى الظلمة الظلماء على الصخرة الصماء رواه احمد وغيره ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة الطاعات اذ لم يحضرهم تصحيح

النيات لعلمهم بان النية روح العمل وان العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا باعث قرب حتى ان ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصرى وقال ليس تحضرنى نية ومات حماد بن ابى سليمان وكان من اكابر علماء الكوفة وشيخ ابى حنيفة فقيل للثورى الا تشهد جنازته فقال لوكان لى نية لفعلت وكان اذا سئلوا عملا من اعمال البر قالوا ان رزقنا الله تعالى نية فعلنا ذلك وحكى ان داود بن المحبر لما صنف كتاب المعتقد جاءه احمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه احمد صفحا فرده فقال له مالك قال فيه اسانيد ضعاف فقال داود انالم اخرجه على الاسانيد فانظر فيه بعين الخبر انما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت قال احمد فرده على حتى انظر فيه بالعين التى نظرت بها اليه فاخذه ومكث عنده طويلا ثم قال جزاك الله خيرا قد انتفعت به وقال بعضهم انا فى طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لى بعد وقال عيسى بن كثير مشيت مع ميمون ابن مهران فلما انتهى الى باب داره انصرفت فقال له ابنه الا تعرض عليه العشاء فقال ليس من نيتى (وهى) اى النية (احد جزئى العبادة) اى ركنيها وهما النية والعمل (فهى) اى العبادة (تتوقف عليها) اى على النية (توقفها) اى مثل توقف النية (على العمل) لان العبادة بدون النية لاتسمى عبادة فالنية خيرهما ويتوقف العمل عليها دون العكس (وورد) اى فى الصحيحين من الروايات (انما الاعمال بالنيات) اى معتبرة بها فى جميع الحالات (ولكل امرئ ما نوى) اى من الخير والشر فى المباحات وتمامه فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة يتزوجها فهجرته الى ماهاجر اليه (وغيرهما) اى والنية افضل جزئى العبادة (لورود نية المؤمن خير من عمله) رواه البيهقى فى الشعب عن انس به مرفوعا وذلك لان النية عمل السر ولا رياء فيها والعمل يخالطه الرياء ولانها تمتد الى ما لانهاية له والعمل محصور فى محصوله ولانها بانفرادها تصير عبادة يترتب عليها الثواب بخلاف اعمال الجوارح فانها انما تكون عبادة اذا صاحبت النية لحديث من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة متفق عليه ولانها تبقى بخلاف العمل ولذا قيل الخلود فى الجنان والنار جزاء النية ولان مكانها مكان المعرفة اعنى قلب المؤمن قال سهل بن عبد الله التسترى قدس الله سره العلى ماخلق الله تعالى مكانا اعز واشرف عنده من قلب عبد المؤمن وما اعطى كرامة للخلق اعز عنده من معرفته فجعل الاعز فى الاعز فما نشأ من اعز الامكنة يكون اعز مما نشأ من غيره قال سهل فتعس عبد اشغل المكان الذى هو اعز امكنة عنده تعالى بغير معرفته سبحانه وفى خبر انا عند المنكسرة قلوبهم والمندرسة قبورهم وما وسعنى ارضى ولاسمائى ولكن يسعنى قلب عبدى المؤمن اشعار بذلك وقيل نية المؤمن خير من عمله وعمل المنافق خير

من

من نيته وقيل نية المؤمن خير من عمله بغير نية ثم قيل للقلب عملان النية والندامة فالنية تجعل المعدوم موجودا والندم يجعل العصيان الموجود معدوما ومما ورد فى نفع النية بدون العمل حديث انس ان بالمدينة اقواما ماقطعنا واديا ولا وطئنا موطئا يغيظ الكفار ولا انفقنا نفقة ولا اصابتنا مخمصة الا شركونا فى ذلك وهم بالمدينة قالوا وكيف ذلك يارسول الله وليسوا معنا قال حبسهم العذر فشركونا بحسن النية البخارى مختصرا وابو داود (وتوقف) اى ويتوقف (نفع العمل) اى تأثيره طاعة اومعصية (عليها) اى النية (دون العكس) اذ لا يتوقف نفع النية على وجود كل عمل (فورد فى القاتلين) اى فى حقهما (ان القاتل والمقتول فى النار وبين) اى النبى عليه السلام (علة المقتول) اى فى دخوله النار (انه قصد الرياء) كذا فى النسخ والظاهر انه قصد قتل اخيه لا دفعه عن نفسه اواراد بالقاتل الكافر وبالمقتول المسلم المرائى ويؤيد ما اخترناه حديث الاحنف عن ابى بكرة اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار قالوا يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال لانه اراد قتل صاحبه متفق عليه ولابن ابى الدنيا من حديث عمر انما يبعث المقتتلون على النيات ولمسلم من حديث جابر يبعث كل عبد على مامات عليه ويؤيده ما فى الاصل حديث اكثر شهداء امتى اصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله اعلم بنيته احمد من حديث ابن مسعود (وفيمن) اى وورد فيمن (تمنى ان لو اصاب مالا ينفق فى المعصية) اى مقدرة (انه شريك المنفق فيها) اى فى المعصية حقيقة (فى الوزر) اى فهما فى الوزر سواء ومفهومه ان لو اصاب مالا ينفق فى الطاعة انه شريك المنفق فيها فهما فى الاجر سواء فقد ورد الناس اربعة رجل آتاه الله علما ومالا فهو يعمل بعلمه فيقول رجل لو آتانى الله كما آتاه لعملت كما يعمل فهما فى الاجر سواء ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يتخبط بجهله فى ماله فيقول رجل لو آتانى الله مثل ما آتاه لفعلت كما يفعل فهما فى الوزر سواء ابن ماجه والترمذى (وكون الشراب) اى واكون شرب المعجون (لعلاج المعدة انفع من الطلاء على الصدر) لسرعة تأثير الاول وبطؤ الثانى فى العمل ووجه كونه علة لمشابهة الشراب الداخل فى المعدة بالنية الداخلة فى القلب من حيث انهما من الامور الباطنة ولمشابهة الطلاء الظاهر على الصدر بالعمل الظاهر على الجوارح من حيث انهما من الامور الظاهرة (بل) اضراب عن قوله وغيرهما (هى) اى النية (الاصل) وما سواها الفرع (لكون المقصود من العمل تأثر القلب بالميل اليه تعالى عن الغير) اى عما سوى الرب وذلك التأثر بالميل الى الله تعالى حاصل بالنية دون مجرد العمل فهى الاصل (فورد) فى التنزيل (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) وهى انما تكون فى القلب كما قال عليه السلام (والتقوى ههنا) واشار الى

صدره وفى الخبر ايضا ان الله لاينظر الى صوركم ولا اعمالكم ولكن ينظر الى قلوبكم ونياتكم (ووقع الاجماع على اثم المجامع امرأته على قصد انها غيرها) اي غير امرأته (بخلاف المجامع غيرها) اى غير امرأته (على قصد انهاهى) اى امرأته ولاحمد من حديث صهيب من تزوج امرأة على صداق وهو لاينوى اداءه فهو زان (واثم المصلى) اى والاجماع على اثم المصلى (المتوضئ على ظن انه محدث بخلاف المحدث) اى المصلى (على ظن انه متوضئ وهى) اى النية التى معناها القصد (اما واحد وهو الخالص) من المشاركة (كالقيام للاكرام) اى اكرام المسلم حال السلام من غير نظر الى سائر اوصافه الفخام (واما متعدد كالتصدق للفقير والقرابة) ونحوهما من استحقاق الصدقة (فاما) اى ثم المتعدد اما (لا يستقل كل شئ) اى من المقصود بنفسه عند انفراده فى باعث العطاء (ويعرف) عدم الاستقلال المذكور (بالامتناع) اى بامتناع النية والقصد (عند انفراد احد من المقاصد) اى عن الآخر فلا يعطى للغنى القريب بمجرد قرابته ولا للفقير الاجنبى بمجرد فقره وعند الاجتماع لايمتنع عن العمل فيعطى الفقير القريب (اويستقل) كل من القصود (متساويا) بان يكون كل واحد داعيا الى القصد (اومتفاوتا) فى مراتب القصد اومناقب الاستقلال فيكون بعضها مستقلا وبعضها لايكون مستقلا (كقوة فرحة المصلى عند حضور الناس) اى بمجرد باعث الرياء وهو الفرحة فى قول المصنف (مع انه لولم يرج الثواب لماصلى) وتوضيحه ان يكون للانسان ورد فى الصلوات وعادة فى الصدقات فاتفق ان حضر فى وقتها جماعة من الناس فصار الفعل اخف عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه انه لوكان منفردا لم يفتر عن الصلوة وعلم ان عمله لولم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء بعمله فهو شوب تطرق الى النية وتشوش فى تحسين الطوية (ويتعدد الجزاء) اى الثواب (بتعددها) اى بمقدار تعدد النية (خيرا كان) المتعدد فى النية (كالدخول فى المسجد) اى مسجد كان (للزيارة) اى لزيارة بيت الله اوالله فيه فعنه عليه السلام من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور اكرام زائره ابن حبان من حديث سلمان وفى الصحيحين من حديث ابى هريرة من غدا الى المسجد اوراح اعدالله له الجنة نزلا كلما غدا اوراح (وانتظار الصلوة) اى لادائها بالجماعة فى وقتها وقدعد من الرباط فى قوله تعالى * ورابطوا * وفى الخبر انتظار الصلوة صلوة (والاعتكاف) وهو من جملة العبادات الفاضلة فتارة مستحبة نافلة واخرى سنة مؤكدة كاملة وان كان بمكة فزيادة الطواف وان كان بالمدينة فزيادة الزيارة المندوبة بلاخلاف (والانزواء) اى الاعتزال عن الاشتغال بالسوى (والتجرد للذكر) من التهليل والتمجيد والتحميد والثناء (وترك الذنوب) ولوكان من باب الحياء فان من

العصمة

العصمة ان لا تقدر على الجفاء (أو شرا) اى او كان المتعدد شرا (كالقعود فيه) اى فى المسجد (للتحدث بالباطل) فان كلام الدنيا فى المسجد تبطل الحسنات فى العقبى (وملاحظة النساء) اى ومخالطة المردان مع الاشتهاء (والمناظرة للمباهاة) اى المفاخرة (والمراثاة) اى المجادلة للسمعة والرياء وكذا قصد التنزه فى الليلة القمراء وسماع ما فيه من الذكر والشعر المشابه بمجلس السمراء (ويجعل غيرها) اى غير النية (المباح عبادة كالتطيب) الذى فى اصله مباح بوقوعه (يوم الجمعة لاقامة السنة وتعظيم المسجد) فقد قال تعالى * وطهر بيتى * قيل فى معناه بخره (واليوم) اى وتعظيمه فانه افضل ايام الاسبوع بلاخلاف وقيل افضل الايام مطلقا وهو عيد المؤمنين وحج المساكين (ودفع الاذى بالنتن) اى الريح الخبيثة عن نفسه وغيره لاسيما الملائكة الحاضرون فى وقته (والاسرار بالعرف) بفتح العين اى وبتفريح من بجنبه بالريح الطيبة (وسد باب الغيبة بالروايح الكريهة (وربما تفضله) اى النية المباح (من محضها) اى فيصير المباح بالنية افضل من العبادة المحضة (فالترفه) اى التنعم والاسراء (بنومة) قليلة نحو قيلولة (أودعابة) اى مزاح ومطايبة (مباحة لرد نشاط الصلوة افضل منها) اى من الصلوة (فى الملال) اى فى حال الكسالة فعن ابى الدرداء انى لاستجم نفسى باللهو ليكون ذلك عونا على الحق ويؤيده قول ابى مدين

* لا تنكر الباطل فى طوره * فانه بعض ظهوراته *

وقال على رضى الله عنه روحوا القلوب ساعة فساعة فانها اذا اكرهت عميت ومن هنا حرم الصوم فى بعض الاوقات وكذا الصلوات فى الازمنة المكروهات (وشرها) اى تجعل شر النية المباح (معصية كالتطيب) المباح فى اصله (للتفاخر باظهار الثروة) اى الغنى والنعمة على وجه الكثرة فانه يصير به معصية ففى الخبر من تطيب لله جاء يوم القيمة وريحه اطيب من المسك ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيمة وريحه انتن من الجيفة ابو الوليد الصفار مرسلا (والتزين) اى وكالتزين المباح فى اصله (للرياء) فانه معصية كما انه للعبادة طاعة لقوله تعالى * يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد * وللطبرانى باسناد جيد من حديث ابن مسعود من هاجر يبتغى شيئا فهوله هاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر ام قيس وللنسائى من حديث عبادة بن الصامت من غزا وهو لا ينوى الاعقالا فله مانوى ولابى داود باسناد جيد من حديث يعلى بن امية انه استأجر اجيرا للغزو وسمى له ثلاثة دنانير فقال عليه السلام وما اجد له فى غزوته هذه فى الدنيا والآخرة الادنانيره التى سمى وقال بعض السلف (رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية * وقال داود الطائى (من كان اكثر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوما الى نية صالحة وكذا الجاهل بعكس ذلك وقال ابوهريرة (مكتوب

فى التورية ما اريد به وجهى فقليله كثير وما اريد به غير وجهى فكثيره قليل* وكان الفضيل بن عياض اذا قرأ * ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم * يبكى ويردها ويقول (انك ان بلوتنا فضحتنا وهتكت استارنا (ولاتؤثر) اى النية (فى الحرام فلا يباح شرب الخمر لموافقة الاخوان) ولا لموافقة حكام الزمان فقد ورد (لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق*وكالذى يغتاب انسانا مراعاة لقلب غيره اويطعم فقيرا من مال ظلم به اويبنى مسجدا اومدرسة اورباطا ونحوه بمال حرام وقصد الخير به ومن هنا قال سهل (ماعصى الله بمعصية اعظم من الجهل* قيل يااحمد هل تعرف شيئا اشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل ويسمى هذا الجهل المركب وكذا افضل ما اطيع الله به العلم ورأس العلم العلم بالعلم فان من لايعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما اكب عليه الناس من العلوم المزخرفة التى هى من وسائلهم الى الدنيا وذلك هومادة الجهل ومنبع فساد العلم والمقصودان قصد الخير بمعصيته عن جهل فهو غير معذور قال تعالى * فاسئلوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون * وقال عليه السلام (لايعذر الجاهل على الجهل ولايحل للجاهل على ان يسكت على جهله ولا للعالم ان يسكت على علمه* كما رواه الطبرانى فى الاوسط من حديث جابر ثم لايجوز امداد المتعلم بنوع علم تمكن به من الوصول الى شهواته والحصول فى مقام رياساته فلم يزل علماء السلف يتفقدون احوال من يتردد اليهم فاذا رأوا منه تقصيرا فى نفل من النوافل انكروه وتركوا اكرامه واذا رأوا منه فجورا هجروه ونفوه عن مجالستهم وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه لعلمهم ان من يعلم مسألة ولم يعمل بها فليس يطلب الا آلة الشر وقد تعوذ جميع السلف بالله من الفاجر العليم بالسنة وما تعوذوا من الفاجر الجاهل وقد هجر احمد بعض اصحابه الملازم له سنين بان طين حائط داره لما اخذه من الطريق قدر سمك الطين والحاصل ان الشيطان لايسلم منه احد الا من دق فى نظره وسعد بعصمة الله وقدره وحفظ من خطره والا فالعدو ملازم م للمشعرين بعبادة الله لايغفل عنهم لمحة حتى يحملهم على الرياء فى سكون اوحركة حتى فى كحل العين وقص الشارب ونحوهما مما هو صورة العبادة ولذا قال تعالى * ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير * وقال عز وعلا حكاية عنه انه * قال فبما اغويتنى لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم * اى من امور الدنيا والآخرة * وعن ايمانهم وعن شمائلهم * اى من طريق الحسنات والسيئات * ولاتجد اكثرهم شاكرين * ولذا قيل ركعتان من عالم افضل من عبادة الف سنة من جاهل وفى الخبر لفقيه واحد اشد على الشيطان من الف عابد (وكماله) اى كمال الاخلاص وجماله (الصدق) فى نيته وقوله وعمله فمن جمع له هذا يكون صديقا مبالغة الصادق والا فهو صادق اضافى عند ذوى الحقائق والدقائق

ويدل عليه حديث إن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا متفق عليه (فورد
فى التنزيل (واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا) اى قبل النبوة (نبيا) اى مخبرا
عن الله حال الرسالة ثم الصدق لا ينافى المعاريض الصادرة عنه المعبر عنها بثلاث
كذبات لصورتها لأن العبرة بمعانيها لا بمبانيها وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم
اذا توجه فى سفر ورى بغيره كما فى الصحيحين من حديث كعب ابن مالك وذلك
كيلا ينتهى الخبر الى عدوه وقد ورد فى الصحيحين ايضا من حديث ام كلثوم ليس بكاذب من
اصلح بين اثنين وقال خيرا اوتمنى خيرا ورخص فى النطق على وفق المصلحة فى ثلاثة
مواضع من اصلح بين اثنين ومن كان له زوجتان ومن كان فى مصالح الحرب فالصدق
ههنا يتحول من القول الى النية فلا يراعى فيه الاصدق الطوية فمهما صدقت نيته وتجردت
للخير ارادته كان صادقا وصديقا كيف ما كان لفظه توفيقا (ان الرجل) اى وورد فى الحديث
ان الرجل (ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا وادنى رتبه) اى اقل
مراتب الصدق (فى القول) مع الخبر (فى كل حال) من الامن والخوف والنفع والضر والغضب
والرضاء (والكمال) اى وكمال الصدق فى القول (بترك المعاريض حذرا عن تفهيم
غير الحق وكسب القلب صورة كاذبة) الا ان الضرورات تبيح المحظورات وقد ورد ان
فى المعاريض لمندوحة عن الكذب وقد حكى عن بعضهم انه كان يطلبه بعض الظلمة
وهو فى داره فقال لزوجته خطى باصبعك دائرة وضعى الاصبع فى الدائرة وقولى ليس
هو هنا (ورعايته) اى ومراعاة العبد الصدق (معه) اى مع الحق (تعالى فمن قال وجهت
وجهى لله) اوللذى فطر السموات والارض حنيفا (وكان فى قلبه سواه واياك نعبد) اى
نخصك بالعبادة (وهو يعبد الدنيا فهو كاذب) فى دعواه اختصاص عبادة مولاه فان قلبه
اذا كان منصرفا عن الله مشغولا باماني الدنيا وشهواتها فهو كاذب فى دعواه وعن مالك
بن دينار لولا ان هذه الآية اى * اياك نعبد واياك نستعين * امر من الله لما قرأتها
لعدم صدق فيها وروى ان العبد اذا قرأ هذه الآية يقول الله تعالى له كذبت لو كنت
اياى تعبد لم تطع غيرى ولم تلتفت الى سوائى ولو كنت بى تستعين لم ترفع حوائجك
الى ذليل مثلك ولم تكن الى مالك وكسبك وكقوله انا عبد الله ان لم يتصف بحقيقة
العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا ولو طولب يوم القيمة بالصدق فى
قوله انا عبد الله لعجز عن تحقيقه لانه ان كان عبدا لنفسه او عبدا للدنيا او عبدا لشهواته
لم يكن صادقا فى قوله وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام يا عبيد
الدنيا وقال نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم
وعبد الخميصة رواه البخارى وانما العبد الحق لله من اعتق اولا نفسه عن غير الله فصار

حرا مطلقا فاذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا فخلت فيه العبودية لله فيشغله بالله وبمحبته وتقيد ظاهره وباطنه لطاعته وعبادته فلا يكون له مراد الا الله تعالى ثم يجاوز هذا الى مقام آخر اسنى منه يسمى الحرية وهو ان يعتق ايضا عن ارادته لله من حيث هو هو بل يقنع بما يريد الله له من تقريب اوتبعيد كما قيل

* اريد وصاله ويريد هجرى * فاترك ما اريد لما يريد *

وهذا عبد اعتق عن غير الله فصار حرا ثم عاد واعتق عن نفسه وصار حرا عن نفسه وصار مفقودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه ان حركه تحرك وان سكنه سكن وان ابتلاه رضى ولم يبق فيه متسع لطلب والتماس واغراض واعواض بل هو بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل وهذا منتهى الصدق فى العبودية وفق ما تقتضيه الربوبية وهذا عزيز الوجود فى متن دائرة الشهود فقد قيل

* اتمنى على الزمان محالا * ان ترى مقلتاى طلعة حر *

(ثم فى النية) اى ثم اعلى من الصدق فى القول الصدق فى النية (بتمحيضها) اى تخليصها (لله تعالى فالشوب) اى الخلط بغيره فى النية (يفوته) اى هذا المقام من الاخلاص اوالصدق (يقال هذا صادق الحلاوة اى محضها) يعنى خلصها (ثم فى العزم) اى ثم الصدق فى العزم اعلى مما ذكر (وهو جزم قوى على الخير) اى فعله وجزم على ترك الشر (كالتصدق والعدل ان نال مالا او ولاية) وتوضيحه ان الانسان قد يعزم على العمل فيقول فى نفسه ان رزقنى الله مالا لتصدقت بجميعه اوبشطره وان اعطانى الله ولاية عدلت فيها ولم اعص الله بظلم وميل عن الحق الى الخلق وهو قد يكون صادقا فى عزمه وقد يكون كاذبا فى عزمه ومن الاول قول عمر رضى الله عنه لان اقدم فيضرب عنقى فى غير حد احب الى ان اتأمر على قوم فيهم ابوبكر اللهم الا ان تسول لى نفسى عند القتل شيئا لا اجده الآن لانى لا آمن ان يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها اشار بذلك الى شدة الوفاء بالعزم ومن الثانى قول مجاهد رجلان خرجا على ملأ الناس قعود فقالا ان رزقنا الله مالا لنصدقن فرزقهما الله فبخلا به فنزلت * ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين * الآية (ثم فى الوفاء فالنفس قد تسمح) اى تسخى (بالعزم) عند البيان اى ثم الصدق فى الوفاء اقوى مما ذكر (وتتوانى) اى تتأخر وتتباعد (بالوفاء) عند الامتحان (وورد) فى التنزيل (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) وقد وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم احد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه * رواه ابونعيم فى الحلية وفى البخارى مجملا ان هذه الآية نزلت فى

انس

انس بن النضر وفى الترمذى وقال حسن صحيح عن انس ان عمه انس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال اول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه والله لئن ارانى الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما اصنع فشهد احدا من العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال له يا اباعمرو الى اين فقال واها لريح الجنة انى لاجدها دون احد فقاتل حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون مابين رمية وضربة وطعنة فقالت بنت النضر اخته ما عرفته الا ببنانه ونزلت هذه الآية * رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه * اى نذره (ثم فى العمل) اى الصدق فى العمل اعلى (وهو) اى الصدق فى العمل (تسوية السر والعلانية) بان يكون باطنه مثل ظاهره وظاهره مثل باطنه ولذا قال عيسى عليه السلام اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى واجعل علانيتى صالحة وقال زيد بن الحارث اذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف اى العدل وان كانت سريرته افضل من علانيته فذلك الفضل وان كانت علانيته افضل من سريرته فذلك الجور والخطل وانشدوا *

* اذا السر والاعلان فى المؤمن استوى * فقد عز فى الدارين واستوجب الثنا *

* فان خالف الاعلان سرا فما له * على سعيه فضل سوى الكد والعنا *

* كما خالص الدينار فى السوق نافق * ومغشوشه المردود لا يقتضى المنا *

وقال معاوية بن قرة من يدلنى على بكاء بالليل بسام بالنهار وكان ابو عبد الرحمن الزاهد يقول الهى عاملت الناس فيما بينى وبينهم بالامانة وعاملتك فيما بينى وبينك بالخيانة (فالما شى على هدوٌ) بضمتين وقد يدغم وفى نسخة على هدء بفتح فسكون ومعناهما على سكون فى الظاهر (وان خلا الباطن) اى باطن الماشى (عن الوقار) اى السكون والثبوت (غير صادق) فيما بينه من الاظهار (وورد فيه) اى فى حق الصادق فى العمل (ان تكون سريرته خيرا من العلانية) اى علانيته يعنى على نيته واوحى الله تعالى الى داود عليه السلام من صدقنى فى سريرته صدقته عند المخلوقين فى علانيته (ثم) اى ثم الصدق (فى مقامات الدين) من احوال اهل اليقين اعلى (ففى الخوف) اى صدقه فيه يتحقق (بصفرة الوجه وقلق الباطن) اى اضطرابه فى الحالات (وترك المعاصى واللذات) اى المناهى والشهوات التى فيها الشبهات (واقامة الطاعات) فى انواع العبادات (وعلى هذا) القياس (فى غيره) اى غير الخوف من سائر المقامات كالرضا فهو بعدم الحزن بفوت شئ من الجاه والمال والنفس ومن الاولاد والاتباع من الرجال وعدم الشكاية الى المخلوق فى جميع الاحوال (والصديق المطلق هو المتصف بالجميع) اى بجميع انواع الصدق عند اهل الحق وقال بشر بن الحارث من عامل الله بالصدق استوحش من الخلق وقال ابو سليمان اجعل

الصدق مطيتك والحق سيفك والله غاية طلبك وقال رجل لحكيم مال رأيت صادقا فقال لو كنت صادقا لعرفت الصادقين ويؤيده قوله تعالى * واتقوا الله وكونوا مع الصادقين * وقال الثورى فى قوله تعالى * ويوم القيمة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة * قال هم الذين ادعوا محبة الله ولم يكونوا فيها صادقين وقال محمد بن سعيد المروزى اذا طلبت الله بالصدق افادك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شئ من عجائب الدنيا والآخرة وقال ابوبكر الوراق احفظ الصدق فيما بينك وبين الحق والرفق فيما بينك وبين الخلق وقيل لذى النون هل للعبد الى اصلاح اموره سبيل فقال

* قد بقينا مذبذ بين حيارى * نطلب الصدق ما اليه سبيل *

* فدعاوى الهوى تخف علينا * وخلاف الهوى علينا ثقيل *

وعن الجنيد فى قوله تعالى * ليسأل الصادقين عن صدقهم * قال يسأل الصادقين عند انفسهم عن صدقهم عند ربهم وهذا امر على خطر عظيم وهذر جسيم (وضده) اى الاخلاص (الرياء) اى رؤية الخلق وفى معناه السمعة وان كان فى اصل المادة فرق بينهما فان الرياء مشتق من الرؤية والسمعة من السماع وفى الصحيحين من حديث جندب بن عبد الله من رائى رائى الله به ومن سمع سمع الله به وللطبرانى من حديث ابن عمر بلفظ من سمع الناس سمع الله به مسامع خلقه وحقره وصغره وكذا لاحمد وابن المبارك وابن منيع من حديث ابن عمرو (وهو) اى الرياء (طلب المنزلة) اى الوجاهة والمرتبة بالرؤية او السمعة (عند غيره تعالى بالعبادة) اى لا بالامور المباحة وفق العادة (وهو حرام) لقوله تعالى * فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤن * وقوله * والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد * قال مجاهد هم اهل الرياء ولاحمد والبيهقى فى الشعب من حديث محمود بن لبيد عن رافع بن خديج ان اخوف ما اخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر يا رسول الله قال الرياء يقول الله عزوجل يوم القيمة اذا جازى العبيد باعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤن فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء (فيختص) الرياء (بعمل الظاهر) اى بما تتعلق به الرؤية او السماع وذلك لامكان نظر الخلق اليه واطلاعهم عليه دون عمل الباطن فانه لارياء لديه قال عكرمة ان الله يعطى العبد على نيته مالايعطيه على عمله لان النية لارياء فيه (امانحو قصد الحمية) اى الاحتماء بترك ما يضره من الاكل (فى الصوم) مع قصد التقرب (والتبرد) اى وقصد تبرد الاعضاء (فى الوضوء) وكذا قصد النظافة فيه وفى العمل مع التقرب (والتفرج) اى وقصد طلب الفرج والخلاص من الهم والغم بالتنزه (والتوحش) اى الملالة (عن الاهل) اى القرابة او اهل القرية صداقة اوعداوة وكذا قصد صحة المزاج فى السفر

والتجارة

(والتجارة) اى وقصدها (فى الحج) اى ادائه مع التقرب (والخلاص) اى قصد (عن المؤنة) اى مؤنة نفقة المملوك (وسوء الخلق) من المالك او المملوك من جهة التربية (فى العتق) اى عتق عبد اوجارية (فغير) اى فغير الرياء لعدم تعلق نظر الخلق اليه (ويفوت به) اى بقصد المذكورات (الاخلاص) فى تلك العبادات لان فيه شوب نفع نفسه وحظ انفسه والاخلاص تجريد النية عن شوب الارادة النفسية (ويكون) الرياء (بالبدن) اى من جهة البدن باظهار الخشوع واكثار الحزن (والهيئة) اى السمت الصالح (والزى) اى لبس الصلحاء (والقول) اى نقل كلام الاولياء (والعمل) اى واعمال الاصفياء (وغيرها) كالمال والاتباع والبيوت وانواع الاستمتاع (كاظهار النحول) هذا وما بعده نشر للف المتقدم مرتبا والمراد بالنحول ضعف البدن فى مشيه وصوته ونظره ليوهم بذلك شدة الاجتهاد فى العبادة وكثرة الحزن على امر الدين وغلبة خوف الآخرة وليدل بالنحول على قلة الاكل وبالصفار على سهر الليل وكذا بتشعث الشعر ليشعر على استغراقه فى الامر ولذا قال عيسى عليه السلام اذا صام احدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفته ويرجل شعره ويكحل عينه وكذا روى عن ابى هريرة وكذا قال ابن مسعود اصبحوا صياما مدهنين (وابقاء اثر السجود) على الجبهة والطراق الرأس فى المشية اوالهدؤ فى الحركة (ولبس الصوف) وغلظ الثياب وتشميرها الى قريب الساق وقصر الاكمام وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقا من غير ترقيع ومنه التقنع بالازار فوق العمامة ونحوها وقد يلبس الاصواف الرقيقة من الاصناف المنيعة اذا كان يدخل عند الاغنياء او على الامراء فقيمة ثوبه قيمة الاغنياء ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء فيلتمس القبول عند الفريقين فى مقام الرياء ولو كلف ان يلبس ثوبا وسطا نظيفا مما كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذبح (والوعظ) اى التذكير والنصيحة والنطق بانواع الحكمة وحفظ الاخبار وآثار الاخيار وتحريك الشفتين بمحضر الناس وامثالها (وتطويل الصلوة) بطول القيام والركوع والسجود والطراق الرأس وترك الالتفات وتسوية القدمين واليدين وكذا فى الصوم والزكوة والحج وسائر العبادات وبقية المعاملات (وكثرة التلاميذ) للعلماء وكثرة المريدين للصلحاء وكثرة الزائرين من الاجانب والاقرباء (وما) مبتدأ اى والرياء الذى (طلب بغير العبادة ككثرة المال) والانصار من الرجال (وحفظ الاشعار فخارج) عن حد الرياء كما سبق فى تعريفه فحينئذ (لايحرم) طلب تلك المنزلة (اذا لم يؤد الى رذيلة) اى خصلة مذمومة (كالتكبر) على الناس (كما سبق فى الجاه) اى فى ذمه وهو قوله هناك نحرام اى فالجاه حرام ان كان بارتكاب ذنب كالكذب وههنا ايضا كذلك (وكذا التزين لاستمالة قلوب الاخوان) حال مخالطتهم (والتعامى) اى السلامة

(عن ملامتهم) والمعنى ان تحسين الثوب الذى يلبسه الانسان عند الخروج الى الناس مراقاة ليس بحرام لانه ليس رياء بالعبادة بل بالدنيا وعلى هذا فقس كل تجمل للناس وتزين لهم (والمروى) لابن عدى فى الكامل عن عائشة (من تزينه عليه السلام) اى حين اراد ان يخرج الى اصحابه الكرام فكان ينظر فى جب الماء ويسوى عمامته وشعره فقالت اوتفعل ذلك يا رسول الله قال نعم ان الله يحب من العبد ان تزين لاخوانه اذا خرج اليهم فهذا كان منه عليه السلام (عبادة لانه) حينئذ (مأمور بالدعوة) اى بدعوة الخلق وترغيبهم فى اتباع الحق واستمالة قلوبهم بالرفق (فلو اسقط نفسه عن قلوبهم) بسقوطها عن اعينهم لترك تزينه لهم (لما حصل المقصود) ولم يرغبوا فى اتباعه المطلوب من المعبود وهو اجابة الحق من الخلق فكان يجب عليه ان يظهر لهم محاسن احواله كيلا تزدريه اعينهم فى اقباله فان اعين الخلق تمتد الى الظواهر دون السرائر (وآفاته) اى الرياء (التلبيس) اى المكر والتدسيس الحاصل من وسوسة ابليس (باراءة ما ليس فيه) متحقق فى الخارج موجود فى الواقع لانه خيل اليهم انه مخلص مطيع لله وانه من اهل الدين وليس كذلك (فهو) اى التلبيس (بالامر الدنيوى حرام) ايضا حتى لوقضى دين جماعة وخيل الى الناس انه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته لاثم بذلك لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالمكر والخديعة بخلاف ما اذا انفق الرجل ماله على جماعة من الاغنياء لا فى معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس انه سخى فهذه مرآة وليس بحرام وكذا امثاله (فبالدينى اولى) اى فالتلبيس بالامر الدينى اولى ان يكون حراما لانه محض العبادة (والاستهزاء عليه تعالى) اى ومن آفاته الاستخفاف بالنسبة اليه سبحانه وهو (بايثار رضاء غيره) اى اختياره (على رضاه) اى على ايثار رضاه سبحانه وتعالى والمعنى انه مهما قصد بعبادة الله رضاء ما سواه فهو مستهزئ بالله ولذا قال قتادة اذا رائى العبد قال الله لملائكته انظروا اليه كيف يستهزئ بى ومثاله ان يمثل بين يدى ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة وقوفه ويكون وقوفه لملاحظة جارية من جوارى الملك اوغلام من غلمانه فان هذا استهزاء بالملك اذ لم يقصد التقرب الى الملك بخدمته بل قصد عبدا من عبيده فاى استخفاف يزيد على ان يقصد العبد بطاعة الله مراعاة عبد ضعيف لا يملك له ضرا ولانفعا وهل ذلك الا انه ظن ان ذلك العبد اقدر على تحصيل اغراضه من الله وانه اولى بالقرب اليه من الله اذ آثره على ملك الملوك فجعل مقصود عبادته واى استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى (وتعظيم نفسه) اى وبايثار تعظيمها (فى القلوب على تعظيمه تعالى) تعظيم علام الغيوب وتوضيحه ان الرياء لولم يكن فيه الا انه يركع ويسجد لغير الله فكان فيه كفاية فانه اذا لم يقصد التقرب الى الله تعالى فقد قصد غير الله ولعمرى

لوعظم

لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفرا جليا الا ان الريـاء هو الكفر الخفى لان المرائى
عظم فى قلبه الناس فاقتضت تلك العظمة ان يركع ويسجد فكان الناس هم المعظمون بالسجود
من وجه فمهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقى تعظيم الخلق فى الشهود كان ذلك قريبا
من الشرك المعهود الا انه ان قصد تعظيم نفسه فى قلب من عظم عنده باظهاره من نفسه
صورة التعظيم لله فمن هذا كان شركا خفيا لاشركا جليا وذلك غاية الجهل والنقصان ولا
يقدم عليه الامن خدعه الشيطان واوهم عنده ان العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه
واجله ومصالح حاله ومنافع آماله اكثر مما يملكه الله تعالى فلذلك عدل بوجهه عن الله
تعالى اليوم فاقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم اليه ولو وكله الله سبحانه اليوم
فى الدنيا والآخرة الكان ذلك اقل مكافاة له على صنعه فان العباد كلهم عاجزون عن انفسهم
لايملكون لانفسهم ضرا ولانفعا ولايملكون موتا ولاحيوة ولانشورا فكيف لغيرهم وهذا
فى الدنيا فكيف فى العقبى يوم لايجزى والد عن ولده ولامولود هو جاز عن والده شيئا بل
تقول الانبياء فيه نفسى نفسى فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند
الله بالدرجات الفاخرة ما يرتقبه بطمعه الكاذب فى الدنيا من الناس فلا ينبغى ان يشك
فى ان المرائى لطاعة الله فى سخط الله من حيث النقل والعقل وهذا معنى قوله (والاحتراز)
اى وبايثار المرائى الاحتراز (عن مقت غيره) سبحانه (عليه) اى على الاحتراز (من مقته)
تعالى فقد سأل رجل سعيد بن المسيب فقال احدنا يصطنع المعروف ويحب ان يحمد ويؤجر
قال له ايحب ان يمقتك الله قال لاقال اذا عملت لله عملا فاخلصه (ورد العمل) اى ومن آفاته
عدم القبول (فورد) اى فى الحديث القدسى (انى لا اقبل الاماكان خالصا) لم اجده
بهذا اللفظ ولكن ورد معناه وهو مارواه مالك من حديث ابى هريرة يقول الله من عمل
عملا اشرك فيه غيرى فهوله كله وانا اغنى الاغنياء عن الشرك ويؤيده قوله تعالى * انما
يتقبل الله من المتقين (واللوم) اى ومن آفاته الملامة (بين الملائكة فورد) فى الحديث
الانسى (يقال عند صعودهم بالعمل) المخبوط بالرياء (ردوه الى سجين) لقوله تعالى * ان
كتاب الفجار لفى سجين * وهو موضع فى اسفل سافلين مكان الشياطين وقيل هو كتاب اعمال
المشركين (فانه لم يردنى) اى بعمله خالصا له الدين ولابن المبارك فى الزهد ومن طريقة
ابن ابى الدنيا وابو الشيخ فى حديث طويل ان الله تعالى يقول للملائكة ان هذا لم يردنى
بعمله فاجعلوه فى سجين (وفى القيمة) اى ومن آفاته الملامة والندامة يوم القيمة (فورد
فى ندائه) اى المرائى (فيها) اى فى القيمة (ياكافر) حقيقة اوحكما بكفران النعمة
(يافاجر) اى يافاسق بترك الاخلاص فى الطاعة (ياغادر) اى ياماكر للخلق اوللحق
ايضا على زعمه الباطل (ياخاسر) اى الذى خسر الدنيا والآخرة والحديث رواه ابن

ابي الدنيا ومن رواية جبلة اليحصبي عن صحابي لم يسم ان المرائي ينادى يوم القيمة
باربعة اسماء يا كافر يافاجر ياغادر ياخاسر ضل عملك وحبط اجرك اذهب فخذ اجرك ممن
عملت له فلا اجر لك عندنا (والحرمان عن الاجر) اى ومن آفاته حرمان ثواب العمل
(فورد يقال) اى المرائي يوم القيمة (التمس الاجر) اى اطلب الثواب (ممن كنت تعمل له)
من الخلق كما تقدم (الم يوسع عليك فى المجالس الم تكن رئيس الدنيا الم يرخص بيعك
الم تكرم) اى بالقيام والسلام وانواع من الاكرام وقد روى عن على ان الله عز وجل
يقول للفقراء يوم القيمة الم يكن يرخص عليكم السعر الم تكونوا تبدؤن بالسلام الم تقض
لكم الحوائج وفى الحديث لا اجر لكم قد استوفيتم اجوركم والمعنى وكان هذه الاشياء
قصدك من اظهار الطاعة فقد جزيت بها فى الدنيا فلم يبق لك اجر فى العقبى كما قال
تعالى * من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون
اولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون
(والعذاب) اى ومن آفاته عذاب الآخرة (فورد اهل الرياء يعذبون فى النار) لم اره
بهذا اللفظ وللترمذى وابن ماجه من حديث ابي هريرة استعيذوا بالله من جب الحزن قيل
وما هو قال واد فى جهنم اعد للقراء المرائين (والافحش) متبدأ اى الاغلظ والاشد فى الرياء
(باعتبار نفسه) اى نفس الرياء واصله ولهذا الرياء اربع درجات (ان لايريد الثواب
اصلا) اى لايكون مراده الثواب قطعا كالذى يصلى بين الناس ولو انفرد كان لايصلى بل ربما
يصلى من غير طهارة مع الناس فهذا جرد قصده للرياء (وهو) اى المرائي (فى غاية المقت)
من الله وغضبه وكذا من يخرج الصدقة خوفا من مذمة الناس وهو لايقصد الثواب ولو خلى
بنفسه لما اداها وهذا غالبا لايتصور الامن المنافق فالنفاق يبطل العمل من اصله والرياء
يوجب رده والمن والاذى يحبطان الصدقة اصلا وعند بعض المشايخ ببطلان اضعافها
واما الندامة فيحبط العمل فى قولهم جميعا والعجب يذهب اضعافه والتهاون يخفف العمل
فيذهب رزانته (ثم ما فيه ارادتان) ارادة الاجر والرياء (والرياء غالب) وقصد الاجر
ضعيف بحيث لوكان فى الخلوة لكان لايفعله ولايحمله ذلك القصد على العمل ولو لم يكن
قصد الاجر لكان قصد الرياء يحمله على العمل كمن يريد الصلوة لوجه الله تعالى ارادة
ضعيفة لاتنهضه عليها فاتفق مجئ جماعة عنده فظهر داعية الرياء فى قلبه مع بناء ارادة
وجه الله فانهضه عليها ولولم يكن الرياء ماكان ينهضه مجرد ارادة وجه الله ولولم يكن
ارادة وجه الله لكان ارادة الرياء تنهضه (وهو يقربه) اى هذا النوع من الرياء يقرب
الافحش وهو الاول الذى ليس فيه ارادة الثواب اصلا فهذا يقرب ما قبله فى المقت
لكن لما فيه شائبة قصد الثواب لايستقل بحمله على العمل ولا ينفى عنه المقت والاثم

ثم

(ثم ما استوتا) اى ثم الافحش باعتبار نفس الرياء ما استوى الارادتان او القصدان (فيه) اى فى ذلك العمل بحيث لوكان كل واحد منهما خاليا عن الآخر لم يبعثه على العمل فلما اجتمعا انبعثت الرغبة اوكان كل واحد منهما لوانفرد لاستقل بحمله على العمل فهذا قد افسد مثل ما اصلح (فالمرجو) اى المأمول من فضل الله وكرمه (ان لايكون له) اى لصاحب الارادتين المستويتين نفع وثواب (ولا عليه) ضر وعقاب بل يسلم رأسا برأس اويكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب ويؤيده ما روى عن معاذ قال لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم * فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا * شق على القوم واشتد عليهم فقال افلا افرجها عنكم قالوا بلى يارسول الله قال هى مثل الآية التى فى الروم * وما آتيتم من ربوا ليربوا فى اموال الناس فلايربوا عند الله * فقال عليه السلام من عمل رياء لايكتب له ولا عليه كذا فى الجامع الكبير للسيوطى (لكن اطلاق الاخذ فى الادلة يشمله) اى ظواهر الاخبار من ادلة ذم الرياء يشمل هذا النوع فيحصل له الاثم ويدل على انه لايسلم (ثم) اى ثم الافحش باعتبار نفس قصد الرياء (ما ترجح فيه قصد الثواب) بان يكون طلب الاجر غالبا ويكون اطلاع الناس مقويا ومرجحا لنشاطه ولولم يكن لما كان يترك العبادة ولو قصد الرياء وحده لما اقدم (فالمظنون) اى الذى نظنه والعلم عند الله سبحانه (فيه) اى فى هذا النوع (النقصان) اى نقصان الثواب (لا البطلان) اى لانحكم على العمل ببطلانه بالكلية لان العبرة بالغلبة فى الاحكام الجزئية (والثواب) اى على قدر ما اخلص فى نيته (والعقاب) على قدر الرياء (بحسب القصدين) اى المتقدمين (والاصل ان القرب منه تعالى بالميل اليه تعالى) اى بسبب الاقبال عليه والحضور لديه (والبعد عنه تعالى بالذهول) اى الغفلة عنه لقوله تعالى * ولاتطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هويه وكان امره فرطا (وما ورد) اى فى حديث (انا اغنى الاغنياء من الشرك) وفى نسخة من الشركاء (ونحوه) اى مما يدل على البطلان (فمحمول على الاول) اى مما لا يريد الثواب اصلا اوعلى ما تساوى القصدان اوكان قصد الرياء ارجح فان لفظة الشركة مطلقة للتسوية (وباعتبار ما به رياء) اى والافحش من الرياء باعتبار ما يقع به الرياء من العبادات هو الرياء (باصل الايمان) وقيل هو يدل من قوله به باعادة الجار وما قدرناه اولى بالاعتبار وذلك بان يظهر كلمتى الشهادة باللسان من غير تصديق بالجنان لكنه يرائى احيانا لظاهر الامر فى بعض الاركان (وهو اغلظ ابواب الرياء) كما يشير اليه قوله تعالى * يراؤن الناس ولايذكرون الله الاقليلا مذبذبين بين ذلك * اى متحيرين هنالك * لا الى هؤلاء * المسلمين * ولاالى هؤلاء * المشركين * ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا * اى مخلصا ودليلا فلم يكن مخلصا بل يكون دائما حقيرا ذليلا

(وفيه الخلود بالنار) فى دار البوار كما قال تعالى * ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار * وذلك لانهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر فحال هؤلاء اشد من حال الكفار المجاهرين ولان ضررهم للمسلمين اكثر من ضرر المشركين وكان النفاق فى بدء الاسلام يكثر ممن يدخل فى ظاهر الاسلام ويعمل ببعض الاحكام لغرض فاسد اوعوض كاسد وذلك مما يقل فى زماننا حيث لاباعث عليه هنالك ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطنا فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ميلا الى قول الملاحدة اويعتقد طى بساط الشرع والاحكام ميلا الى اهل الاباحة اويعتقد كفرا اوبدعة وهو يظهر خلافه فهؤلاء من المنافقين المرائين المخلدين فى النار وليس وراء هذا الرياء رياء (ثم) اى ثم الافحش بعده الرياء (باصل فرائض سواه) اى غير الايمان وذلك بان يكون مال الرجل فى يد غيره فيأمره باخراج الزكوة خوفا من الذمة والله يعلم من باطنه انه لوكان فى يده لما اخرجها اويدخل وقت الصلوة وهو فى جمع فيصلى وعادته ترك الصلوة فى الخلوة وكذا يحضر الجمعة ولولاخوف المذمة لما كان يحضرها وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهى خلوة من الخلق ليفطر اويصل رحمه اويبر والديه لاعن رغبة ولكن خوفا من المذمة اويغزو اويحج كذلك (وفيه المقت) اى اشد الغضب من جانب الرب الا انه ليس بكافر عند اهل السنة والجماعة وذلك لانه مراء فى الاركان ومعه اصل الايمان فيعتقد ان الله لامعبود سواه ولو كلف ان يعبد غيرالله اويسجد لما عداه لم يفعل ولكنه يترك العبادات للكسل الطارى فى الاوقات وينشط عند اطلاع الناس وفق العادات فتكون منزلته عند الخلق احب اليه من منزلته عند الخالق وخوفه من مذمة الناس اعظم من خوفه من عقوبة الله ورغبته فى محمدتهم اشد من رغبته فى مثوبة الله وهذا غاية الجهل بالرب وما اجدر صاحب هذا بالمقت الذى هواشد الغضب (ثم) اى ثم الافحش بعده الرياء (باصل السنن) المؤكدة (والنوافل) المستحبة التى لوتركها لا يعصى ولكنه يكسل عنها فى الخلوة لفتور رغبته فى ثوابها ولايثار لذة الكسل على ما يرجى من ثواب العمل ثم يبعثه الرياء على فعلها وذلك كحضور الجماعة فى الصلوة وعيادة المريض واتباع الجنازة وغسل الميت وكالتهجد بالليل وصيام يوم عاشوراء ونحوه فقد يفعل المرائى هذه الجملة خوفا من المذمة وطلبا للمحمدة ويعلم الله تعالى من ضميره انه لوخلى بنفسه لمازاد على اداء فرائضه فهذا ايضا عظيم فى نفسه لكن كما قال (وفيه) اى فى هذا النوع من الرياء (نصفه) اى نصف المقت اوبعضه باختلاف تفاوت احواله فى الرغبة باعماله وذلك (لايثار رضاء غيره تعالى على رضاه سبحانه دون ايثار الاحتراز عن مقت غيره سبحانه عليه) اى على المرائى (من مقته تعالى) فان الذى قبله آثر حمد الخلق على حمد الخالق وهذا

ايضا قد فعل ذلك واتقى ذم الخلق دون ذم الخالق فكان ذم الخلق اعظم عنده من عقاب الخالق واما هذا فلم يفعل مافعل ذلك لانه لم يخف عقاب الله على ترك النافلة لوتركها ولكنه عوقب على الشطر الاول فلذا عقابه نصف عقابه فتأمل (ثم بالاوصاف) اى ثم الافحش بعده الرياء باوصاف العبادات لا باصولها من الفرائض المهمات (فبالواجب كتعديل الاركان) من الركوع والسجود والقومة بتسكين الجوارح والاعضاء فيها حتى يطمئن فانه يرائى بفعل ما فى تركه نقصان العبادة كالذى غرضه ان يخفف الركوع والسجود والقومة فان رآه الناس احسن افعالها ومد القعود بين السجدتين وامثالها فقد قال ابن مسعود من فعل ذلك فهى استهانة يستهين بها ربه يعنى انه ليس يبالى باطلاع الله عليه فى الخلوة كما فى الجلوة فاذا اطلع آدمى عليه احسن الصلوة ومن جلس بين يدى انسان متربعا اومتكئا فدخل غلامه فاستوى فى الجلسة واحسن كان ذلك تقديما للغلام على السيد واستهانة بالسيد لا محالة وهذا حال المرائى بتحسين الصلوة فى الملأ دون الخلاء وكذا الذى يعتاد اخراج الزكوة من الدنانير الردية فاذا اطلع عليه غيره اخرجه من الجيد خوفا من الملامة وكذا الصائم يصون صومه عن الغيبة اكمالا لعبادة الصوم خوفا من المذمة فهذا ايضا من الرياء المحظور لان فيه تقديم الخلق على الخالق لكنه دون الرياء باصول التطوعات كذا فى الاحياء والظاهر انه دون الرياء باصول العبادات من الفروض لان اصول التطوعات دون اصول الواجبات وكذا يجوز ترك التطوعات رأسا ولا يجوز ترك الواجبات اصلا نعم بترك الفرائض تبطل العبادات بخلاف ترك الواجبات فانه يوجب الاثم والنقصان فى وصف العبادات (ثم المكمل) اى ثم الافحش بعده الرياء بفعل مالا نقصان فى تركه لكن فعله فى حكم التكملة والتتمة لعبادته فهو ماكان وجوده خيرا من عدمه (كتطويلها) اى الصلوة بتطويل الركوع والسجود ومد القيام واطالة القراءة (وتحسين الهيئة) فى رفع اليدين ووضعهما مع اظهار تزيين النية المشعر بتحسين الطوية وحفظ العين عن الالتفات واطراق الرأس فى الحالات ليستدل بذلك على غاية خشوعه ونهاية خضوعه وكل ذلك مما لو خلى ونفسه لكان لايقدم عليه بمقتضى طبعه ومراعاة شرعه (ثم الزائد) اى بعده الرياء بزيادة خارجة عن نفس النوافل ايضا (كالبكور فى المسجد) اى كحضور الجماعة قبل القوم (وقصد الصف الاول) وتوجهه الى يمين الامام وما يجرى مجراه من الاحكام وكل ذلك مما يرأى به الانام ويعلم الملك العلام انه لوخلى بنفسه لكان لايبالى اين وقف ومتى حضر (وباعتبار ماله) اى والافحش باعتبار ما يقع الرياء لاجله ماله فيه (قصد المعصية) وقيل انه بدل من ضمير ماله والاولى ماقدرناه لحسن مآله وذلك بان يكون مقصوده التمكن من معصيته (كتقلد الوقف للمداهنة) اى كالذى يرائى

بالعبادات ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل من الطاعات والامتناع عن اكل الشبهات وغرضه ان يعرف بتأدية الامانات فيؤتى تولية القضايا او الاوقاف او الوصايا اومال الايتام فيأخذها اويسلم اليه تفرقة الزكوة والصدقات ليستأثر بما يقدر عليه منها فى الحاجات اويودع الودايع فيأخذها ويجحدها فى بعض الحالات وهؤلاء ابغض المرائين الى الله لانهم جعلوا طاعة ربهم سلما الى معصيته واتخذوه آلة ومتجرا وبضاعة لهم فى فسقهم (ثم المباح) اى قصده بالرياء (كنكاح الشريفة) او المرأة الجميلة فيكون غرضه بالرياء نيل حظ من حظوظ الدنيا من مال اوجمال فيظهر الحزن بالبكاء ويشتغل بالوعظ فى الصباح والمساء لتبذل له الاموال وترغب فى نكاحه النساء فهذا رياء محظور لانه طلب بطاعة الله متاع الحيوة الدنيا ولكنه دون الاوّل فان المطلوب بهذا مبـاح فى نفسه (ثم التميز عن العامة) بالمشى والزى وترك اكل اللحم ونحوه كى يعد من الخاصة كالزهاد والعباد فيما بين العباد من اهل البلاد فيظهر عبادته لالقصد نيل حظ دنيوى من مال اونكاح بل خيفة من ان ينظر اليه بعين النقص ويعتقد انه من جملة العامة كالذى يمشى مستعجلا فى طريق فيطلع عليه الناس فيحسن المشى ويترك العجلة كيلا يقال انه من اهل اللهو والسهو لا من اهل الوقار والسكون وكذلك الذى يسبق اليه الضحك اويبدر منه المزاح فيخاف أن ينظر اليه بعين الاحتقار لا بعين الوقـار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء واظهار الحزن والبكاء ويقول ما اعظم غفلة الآدمى عن نفسه والله يعلم منه انه لوكان فى خلوة هنالك لما كان يثقل عليه ذلك (وقد يخفى) اى الرياء فانه كما تقدم اخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء (كالفرح باطلاع الغير) على طاعته فرب عبد مخلص فى عمله لا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده عن نفسه ويتمم العمل كذلك ولكن اذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة وهذا السرور يدل على رياء خفى فيه يترشح السرور منه (والتعريض للاظهار) يعنى ثم اذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهيته فيصير ذلـك قوتا وغذاء للعرق الخفى من الرياء فيتقاضى تقاضيا خفيا ان يتكلف سببا يطلع عليه بالتعريض والقاء الكلام عرضا بالاظهار وقـد حكى ان رجـلا اضاف الثورى واصحابـه فقال لاهـله هاتوا الطبق الذى جئت بـه فى الحجة الاولى فنظر سفيان وقال مسكين قـد افسد عليه بهذا حجته (وتحسين الاداء فى الخلاء) وجعله عادة له (لئلا يخالف فى الملاء) ظنا منه انه يتخلص بهذا عن الرياء ولم يعرف انه يتكرر منه الرياء فى الخلاء والملاء (وللتزين) كذا فى النسخ والظاهر ان يقول والتزين فى الاعين اى اعين اهل المـلاء (بظهور الخشوع فى الاعضاء) كاظهار النحول والصفار

وخفض الصوت ويبس الشفتين وآثار الدمع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد والحاصل انه مهما ادركت النفس تفرقة بين ان يطلع على عبادته انسان اوبهيمة ففيه شعبة من الرياء وقد روى لايكمل ايمان احدكم حتى يكون الخلق عنده كالاباعر (وتأثيره) اى الرياء فى العمل بالاحباط والاثبات (انه اذا هجم) اى غلب الرياء (بعد التمام) اى تمام العمل الخالص (بالفرح) متعلق بهجم اى بفرحه (على الظهور) من غير قصده (او الاظهار) بقوله (لايبطل) ثواب العمل المؤدى بالاخلاص (لعدم بطلان الثواب المتقدم بالعمل الطارى) اى الحادث بعده (وفيه الثواب) على عمله الذى مضى (والعقاب) على مراآته بطاعة الله بعد الفراغ منها (وحمل ماورد) اى فى الحديث من نفى العمل تغليظا (ما صمت ولاافطرت فيمن قال صمت) اى فى حق من قال صمت (دائما) والمحفوظ صمت الدهر يارسول الله ثم المعروف فى مسلم من حديث ابى قتادة قال عمر يارسول الله كيف بمن يصوم الدهر قال لاصام ولاافطر فهذا حمل (على كراهة صوم الدهر) اى لاعلى ابطاله بالرياء لاظهار اعماله ولانه يكون فى قوله نوع كذب (لدخول العيدين) اى عيد الفطر والاضحى (والتشريق فيه) اى فى قوله صمت الدهر وصوم هذه الايام الخمسة حرام باتفاق الائمة الاربعة واخرج ابن جرير كما فى الجامع الكبير عن ام كلثوم قالت قيل لعائشة تصومين الدهر وقد نهى عليه السلام عن صيام الدهر قالت نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن صيام الدهر ولكن من افطر يوم الفطر ويوم النحر فلم يصم الدهر وقال بعضهم انما قال عليه السلام زجراله عن اظهاره (وماجاء) اى وحمل ماورد عن ابن مسعود (ذلك) اى اظهارك (حظك) ولفظ الاحياء حظه (منها) اى من القراءة (فيمن قال قرأت البارحة) اى الليلة المتقدمة (سورة البقرة على) اى حمل على (عدم خلو القلب عنه) اى عن الرياء (حالة القراءة) لانه هجم بعد تمامها (بدلالة الاظهار) كيف ماكان فيحتمل ان يكون ذلك من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن ابن مسعود استدلالا على ان قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده لما ان ظهر منه التحدث به اذ يبعد ان يكون مايطرؤ بعد العمل مبطلا لثواب العمل بالكلية نعم يبطل كمال ثوابه فى القضية (واذاهجم) اى غلبه الرياء (فى الاثناء) اى اثناء العبادة (متجردا) عن الاخلاص فى قصد الثواب (وبعث على العمل) اى على اتمامه (وختم) العمل (به) اى بالرياء المتجرد عن قصد الثواب (كما لوتذكر ضالة) فى اثناء الصلوة (اوحدث نضارة) اى فرجة ونزهة فى اثنائها (فاتم العمل لحضور الغير عنده لولاه) وفى نسخة لولا هواى ذلك الغير (لقطع) ذلك العمل وطلب الضالة اويفرح على النضارة (يبطل) جواب اذاهجم اى يبطل هذا الرياء ثواب العمل لكن (فى عمل ذى اركان) اى اجزاء

(يتعلق صلاح بعضها ببعض كالصلوة والصوم والحج) والظاهر ان الغزو كذلك لكن قال الطبرى اذا كان الباعث اولا اعلاء كلمة الله لايضره ماعرض له بعد ذلك على مانقله عنه السيوطى فى حاشية البخارى (فورد العمل كالوعاء اذا طاب اوله طاب آخره) هكذا فى الاحياء ورواه ابن ماجه من حديث معاوية بلفظ اذا طاب اسفله طاب اعلاه وعلى كل تقدير فظاهره لايوافق المدعى الا ان يراد مفهوم الحديث كما لايخفى (من رائى بعمله ساعة حبط عمله الذى كان قبله) كذا فى الاحياء قال مخرجه لم اجد بهذا اللفظ وللشيخين من حديث جندب من سمع سمع الله به من رائى رائى الله به (دون غيره) اى بخلاف عمل ليس بذى اركان يتعلق صلاح بعضها ببعض (كالصدقة والتلاوة) وانما لم يبطل هذا النوع من العمل كله بالرياء (اذ كل جزء) من كل منهما (منفرد) اى من جزء آخر حيث انه مستقل بنفسه لاتعلق له بغيره فعن بعض الصالحين قال كنت ليلة وقت السحر فى غرفة لى اقرأ سورة طه فلما ختمتها غفوت غفوة فرأيت شخصا نزل من السماء بيده صحيفة فنشرها بين يدى فاذا فيها سورة طه واذا تحت كل كلمة عشر حسنات مثبتة الاكلمة واحدة فانى رأيت مكانها محوا ولم ار تحتها شيئا فقلت والله لقد قرأت هذه الكلمة ولم ارلها ثوابا ولم ارها اثبتت فقال الشخص صدقت قد قرأتها وكتبناها الا انا سمعنا مناديا ينادى من قبل العرش امحوها واسقطوا ثوابها فمحوناها قال فبكيت فى منامى بكاء شديدا وقلت ام فعلتم ذلك قال مر رجل فرفعت بها صوتك لاجله فذهب ثوابها وهذا يدل على ان الرياء فى الاوصاف مبطل لثواب العمل رأسا (والطارى) اى الحادث من الرياء (لايبطل الماضى) من العمل بل يبطل الباقى وفيه مخالفة لماروى من ان الشخص اذا ذكر العمل السرى مرة ينقل الى العلانية واذا ذكره ثانيا ينقل الى الرياء (واذا لم يتجرد) الرياء عن الاخلاص وقصد الثواب (بل غلب) الرياء عليه (كغلبة الفرح باطلاع الغير) اى بمشاهدة غيره اليه (فالغالب فيه) اى الظن الغالب فى هذا النوع من العمل (الفساد ان انقضى) على حالة الرياء (ركن) من اركان ذلك العمل مع غلبة قصد الرياء (ولم يعاوده) اى العامل الركن او المصلى (الباعث الاصلى للصلوة) وهو الاخلاص (لانا نستصحب نية البداءة) اى نعطى النية السابقة التى كانت خالصة لقصد المثوبة حكم استصحاب الحال والمعنى نحكم عليها بالاخلاص الى تمام العمل فى المآل (بشرط ان لايطرأ) اى لايحدث بعد النية السابقة فى اثناء العمل من الرياء اللاحقة (ما) اى الرياء (لو قارن ابتداء لمنع) الباعث الاصلى الذى هو الاخلاص (وان احتمل) اى ولو احتمل (الجواز) اى صحة العمل (لبقاء قصد الثواب الموجود حال العقد) من التحريمة المقرونة بالنية وتوضيحه مافى الاحياء اذا كان واراد الرياء بحيث لايمنعه من قصد الاستتمام لاجل الثواب كما لوحضر جماعة فى اثناء صلاته ففرح بحضورهم فاعتقد الرياء وقصد تحسين الصلوة لاجل نظرهم وكان لولا حضورهم لكان يتمها

ايضا فهذا رياء قد اثر فى العمل وانتهض باعثا على الحركات فان غلب عليه حتى انمحق معه الاحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبــادة مغمورا فهذا ايضا ينبغى ان يفسد العبادة مهما مضى ركن من اركانها على هذا الوجه لانا نكتفى بالنية السابقة عند الاحرام بشرط ان لايطرأ ما يغلبها ويغمرها ويحتمل ان يقال لايحبط العبادة نظرا الى حالة العقد والى بقاء اصل الثواب وان ضعف بهجوم قصد هو اغلب منه والله اعلم بالصواب وذهب الحارث المحاسبى الى الاحباط فى امر اهون منه قال اذا لم يرد الامجرد السرور باطلاع الناس يعنى سرورا هو لحب المنزلة والجاه قال وقد اختلف الناس فى هذا فصارت فرقة الى انه محبط لانه قد نقض العزم الاول وركن الى حمد المخلوقين ولم يختم عمله بالاخلاص وانما يتم العمل بخاتمته ثم قال ولا اقطع عليه بالحبط ان لم تزد فى العمل ولا آمن عليه وقد كنت اقف فيه لاختلاف الناس فالاغلب على قلبى انه يحبط اذا ختم عمله بالرياء ثم قال فان قيل فقد قال الحسن البصرى انما هما صورتان فان كانت الاولى لله لاتضره الثانية وقد روى ان رجلا قال يارسول الله اسر عملى لااحب ان يطلع عليه فيطلع عليه فيسرنى قال لك اجران اجر السر واجر العلانية رواه البيهقى والترمذى وابن حبان من حديث ابى هريرة ثم تكلم المحاسبى على الاثر والخبر فقال اما الحسن فانه اراد بقوله لاتضره اى لايدع العمل ولايضره الخطرة وهو يريد الله ولم يقل اذا اعتقد الرياء بعد عقد الاخلاص لم يضره واما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل يرجع حاصله الى ثلاثة اوجه احدها انه يحتمل انه اراد بظهور عمله بعد الفراغ وليس فى الحديث انه قبل الفراغ وثانيها انه اراد انه يسر به لاقتداء الناس به ونحوه من سرور محمود لاسرورا بحسب حب المحمدة والمنزلة بدليل انه جعل له به اجرا ولا ذاهب من الامة الى ان للسرور بالمحمدة اجرا وغايته انه يعفى عنه فكيف يكون للمخلص اجر وللمرائى اجران وثالثها انه قال اكثر من يروى هذا الحديث يرويه غير متصل الى ابى هريرة بل اكثرهم يوقفه على ابى صالح السمان وفيهم من يرفعه فالحكم بالعمومات الواردة اولى (وان اتصل) الرياء (بالعقد) اى بالتحريمة وابتداء النية (متجردا) من قصد الثواب (واتم) العمل حتى سلم (عليه) اى على الرياء المتجرد عن قصد الثواب (يعيد) ذلك العمل (اتفاقا) اى وهو اثم اجماعا (وان رجع) المصلى عن الرياء الى الاخلاص وندم على ما قصده (قبل التمام) اى تمام العمل (فكذلك) يعيد ذلك العمل اتفاقا (لفقد الانعقاد) على الاخلاص (وضعف القول) اى ولضعف قول القائل (بوجوب اعادة الافعال) الصادرة عن الرياء (لفسادها) اى لبطلان تلك الافعال (دون التحريمة) اى من غير وجوب اعادتها (فهى) اى التحريمة (عقد) له ثبوت واستقرار (والرياء خطرة لاتخرجها) اى التحريمة (عن الانعقاد) والمعنى

ان قول المصلي اصلي لله تعالى عقد نيته على الاخلاص لله كالاقرار باللسان عقد ثابت والرياء خطرة لاتبطل العقد كما ان اقرار المنافق باللسان لايبطل نفاقه بالجنان بل يثبت حكمه فى الدنيا فكذا هنا فقوله فهى عقد الخ دليل وجوب الاعادة واما دليل القول الاول المضعف للثانى فقوله (لان الافعال الفاسدة من الركوع والسجود) اذا لم تصح فهى (زائدة فيها) اى فى الصلوة (فتبطلها) اى تلك الافعال الصلوة (وبوجوب الاستغفار) اى ولضعف القول بوجوب الاستغفار (قلبا والاتمام) اى وبوجوب اتمام العمل (مخلصا) اى متجردا عن الرياء (لاعتبار الختم) تعليل لوجوب الاستغفار والاتمام مخلصا اى لاعتبار خاتمة العمل (كما لوختم بالرياء وابتداء بالاخلاص) لكان يفسد عمله (وكون العمل) اى ويكون العمل او ولاعتبار كون العمل (له تعالى) لالغيره (والا) اى فلو لم يكن العمل خالصاله بان صلى لغيره (لكفر) كما كفر من يسجد للصنم ونحوه (وزوال عارض لرياء) اى وبزواله او ولاعتبار زواله (بالتوبة لانه) دليل لضعف وجوب الاستغفار والمعنى لان الرياء (قادح فى النية وحالة البداءة) اى الاولى (اولى بالرعاية) فى الاخلاص من الحالة الثانية لان المدار عليها فى الافعال الباقية فقد فات ذلك فيبطل العمل وتجب الاعادة وتوضيحه ما فى الاحياء من ان الرياء الذى يقارن حال العقد بان يبتدئ الصلوة على قصد الرياء فان تم عليه حتى سلم فلا خلاف فى انه يعصى ولايعتد بصلاته وان ندم عليه فى اثناء صلاته واستغفر ورجع قبل التمام ففيما يلزمه ثلاثة اوجه قالت فرقة لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنفه وقالت فرقة يلزمه اعادة الافعال كالركوع والسجود وتفسد افعاله دون تحريمة الصلوة لان التحريم عقد والرياء خاطر فى قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقدا وقالت فرقة لايلزمه اعادة شئ بل يستغفرالله بقلبه ويتم العبادة على الاخلاص والنظر الى خاتمة العبادة كما لوابتدأها بالاخلاص وختمها بالرياء لكان يفسد عمله وقالوا ان الصلوة والركوع والسجود لا يكون الالله فان سجد لغيرالله كان كافرا ولكن اقترن به عارض بالرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار الى حالة لايبالى بحمد الناس وذمهم فيصح صلاته قال ومذهب الفريقين الاخيرين خارج عن قياس الفقه جدا خصوصا من قال يلزمه اعادة الركوع والسجود دون الافتتاح لان الركوع والسجود اذا لم يصح صارت افعالا زائدة فى الصلوة فتبطل الصلوة وكذا قول من يقول لوختم بالاخلاص صح نظرا الى الآخر فهو ايضا ضعيف لان الرياء يقدح فى النية واولى الاوقات بمراعاة احكام النية حال الافتتاح فالذى يستقيم على قياس الفقه هوان يقال ان كان باعثه مجرد الرياء فى ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الامر لم ينعقد الافتتاح ولم يصح ما بعده وذلك فيمن اذا خلا بنفسه لم يصل فهذه الصلوة لانية فيها

اذا

اذ النية عبارة عن اجابة باعث الدين وهنا الا باعث ولا اجابة واما اذا كان بحيث لولا الناس ايضا لكان يصلى الا انه ظهر له الرغبة فى المحمدة ايضا فاجتمع الباعثان وهذا معنى قوله (وان لم يتجرد) الرياء من قصد الرياء من قصد الثواب (ففيما لا يقبل الفساد) وهو العمل الذى ليس بذى اركان (كالصدقة) والقراءة والصوم والحج (يثاب) على قصد الاخلاص حيث اطاع باجابة باعث الثواب (ويعاقب) على قصد الرياء حيث عصى باجابة باعث الرياء وعدل عن طريق الصواب (فورد) فى التنزيل (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) اى يرجزاءه فى الدنيا او الاخرى (الآية) اى * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره * فله ثواب بقدر قصده الصحيح وعليه عقاب بقدر قصده الفاسد ولا يحبط احدهما الآخر (وفى غيره) اى وفى غيرما لا يقبل الفساد وهو فيما يقبل الفساد وهو عمل ذو اركان (كالصلوة) فانها تقبل الفساد بتطرق خلل الى النية ففرق بين الفرض والنفل حيث قال (لا يبطل النفل حتى يصح الاقتداء) والمعنى ان حكمه ايضا حكم الصدقة فقد عصى من وجه واطاع من وجه اذ اجتمع فى قلبه الباعثان ولا يمكن ان يقال صلاته فاسدة والاقتداء به باطل حتى ان من صلى التراويح وتبين من قرائن حاله ان قصده الرياء باظهار حسن القراءة ولولا اجتماع الناس خلفه وخلا فى البيت وحده لما صلى لا يصح الاقتداء به فان الصبر الى هذا بعيد جدا بل يظن بالمسلم انه يقصد الثواب ايضا بتطوعه فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ويصح الاقتداء به (ولا يسقط الفرض ان لم يستقل قصد الثواب) بان اقترن به قصد آخر هو عاص به فاجتمع الباعثان وكان كل واحد لا يستقل وانما يحصل الانبعاث بمجموعهما فهذا لا يسقط الواجب عنه لان الايجاب لم ينتهض باعثا فى حقه بمجرده واستقلاله (وان استقل) اى قصد الثواب بمقتضى ظاهر كلام المصنف والاظهر ان استقل كل من القصدين الباعثين حتى لو لم يكن باعث الرياء لأدى الفرض ولو لم يكن باعث الفرض لانشأ صلوة التطوع لاجل الرياء (فوجهان) اى ففيه احتمالان احدهما (السقوط) اى سقوط الفرض واعتباره للامتناع (بالنية المستقلة) واقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه كما لو صلى فى دار مغصوبة فانه وان كان عاصيا بايقاع الصلوة فى الدار المغصوبة فانه مطيع بامتثال الصلوة ومسقط للفرض عن نفسه (وعدمه) اى وثانيهما نفى سقوط الفرض (لان الواجب) فى تأدية الفرض (هو الخالص) من الرياء لقوله تعالى * وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين * وقد فات ذلك باتصال الرياء (وان كان) باعث الاخلاص مستقلا ثم تعارض الاحتمال فى تعارض البواعث انما هو فى اصل الصلوة وان كان اتصل الرياء (فى المبادرة) مثلا دون اصل الصلوة مثل من بادر بالصلوة فى اول الوقت لحضور الجماعة ليقولوا انه مبادر الى الخيرات ومسارع الى الطاعات والمبرات ولو خلا لاخر الى وسط الوقت او آخره ولولا الفرض لكان لا يبتدئ

صلوة لاجل الرياء فهذا مما يقطع بصحة صلوته وسقوط الفرض عن ذمته (ففيه فوت الفضيلة) وهى تصحيح النية فى المبادرة (والمعصية لقصد الرياء فى المبادرة (اما المغلوب) من الرياء (الغير المؤثر) اى اذا لم يبلغ اثره الى حيث يؤثر فى العمل كالذى لم يحمله على تطويل الصلوة (مثلا كمجرد الفرحة) باطلاع الغير (فالغالب) من جهة الظن (فيه) اى فى ذلك الرياء المغلوب الغير المؤثر (الجواز) اى صحة العمل (لعدم اعتبار غير المؤثر) دفعا للحرج (واحتمل ان الواجب) على العبد (هو الخالص) من العمل عن الرياء (والمخلط) بالرياء (غير مؤدى) حق الاداء (ومن ثم توقف الحارث المحاسبى مائلا الى الفساد) اى فساد العمل بالرياء غير المغلوب كما قدمناه (وقيل بالفساد باقل خطرة) فيما كان من اركان العمل (مطلقا) اى سواء بلغ اثره الى حيث يؤثر فى العمل ام لا وقيل مطلقا اى رياء كان اوغيره (حرصا) لطلبه الرب (فى تصفية القلب) عما عداه سبحانه لاسيما حال العبادة هو مذهب الثورى والجنيد (والمسألة) اى مسالة الرياء (غامضة) اى مشكلة من حيث ان الفقهاء لم يتعرضوا لها فى فن الفقه والذين خاضوا فيها وتصرفوا من ارباب التصوف لم يلاحظوا قوانين الفقه من صحة الصلوة وفسادها بل حملهم الحرص على تصفية القلوب ومرادها وطلب الاخلاص على افساد العبادات بادنى الخواطر والارادات (والعلم عنده تعالى) فى جميع الحالات والمقامات ومما يؤيد القول بابطال الرياء فى جميع الطاعات اطلاق قوله تعالى * يا ايها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس * الآية ورواية ابى داود من حديث ابى هريرة ان رجلا قال يا رسول الله رجل يبتغى الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضا من عرض الدنيا فقال عليه السلام لا اجر له وللنسائى من حديث ابى امامة باسناد حسن ارأيت رجلا غزا يلتمس الاجر والذكر ماله فقال لا شئ له فاعادها ثلاث مرات يقول له لا شئ له ثم قال ان الله لايقبل من العمل الا ما كان خالصا وابتغى به وجهه نعم قد يقال الحكم للاغلب والله تعالى اعلم (والعلاج) اى دواء داء الرياء اربعة (قلع حب الجاه والمدح) اللذين هما سببه (وكراهة الذم والطمع) مما فى ايدى الناس اى وقلع كراهتها والطمع (بماسبق) ذكره من الاشياء ومما يشهد للرياء بهذه الاسباب وانها الباعثة للمرائى ماروى ابوموسى ان اعرابيا سأل النبى عليه السلام فقال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية ومعناه انه يأنف ان يقهر اويذم بانه مقهور مغلوب قال والرجل يقاتل لذى مكانة وهذا هو طلب لذة الجاه والرجل يقاتل للذكر وهذا هو طلب الحمد باللسان فقال عليه السلام من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا متفق عليه وعنه عليه السلام من غزا لايبغى الا عقالا فله مانوى رواه النسائى وهذ اشارة الى الطمع (واخفاء العمل متكلفا) اى مجتهدا مبالغا فيه بان يعود نفسه اخفاء العبادات كما يخفى السيئات (وذكر فوائد الاخلاص

وآفات الرياء) على ما تقدم والحاصل ان قوة المعرفة بحسب قوة الايمان ونور الايقان وضعف المعرفة بسبب حب الدنيا وحب الغفلة ونسيان العقبى وقلة التفكر فيما عند المولى من الدرجات وعدم التأمل فى آفات الدنيا وعظم نعيم الاخرى واصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو رأس كل خطيئة ومنبع السيئات فان حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا الفانية هى التى تغمر القلب وتميله عن الرب وتحول بينه وبين التفكر فى العاقبة الباقية والاستبصار بنور الكتاب والسنة الثابتة وانوار العلوم النافعة واسرار الاعمال الرافعة (فما اقبح من لايكتفى بنظره تعالى على ساعة من العمل المعيوب) عنك (وهو تعالى مع جلاله) اى جلالة قدره وعظمة شانه (يكتفى بنظره) اى بنظر عبد وتأمله فى خلق سمائه وارضه ونزول امره (فورد) فى التنزيل * الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن (لتعلموا ان الله على كل شئ قدير الآية) اى * وان الله قد احاط بكل شئ علما (ومن) اى وما اقبح من (باع عمله بخسيس فان واعرض عن بيعه بثواب الدارين) من نفيس باق ليس له ثان (فورد) فى التنزيل (من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) فليطلبهما من عنده فانه لايوجد واحد منهما عند غيره (وذكر ما ورد فيه) اى فى الاخلاص من الفضيلة وفى ذم الرياء من الرذيلة ويكفى فى ذلك قوله سبحانه * فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه احدا * والاخبار فى هذا الباب كثيرة والآثار شهيرة (ويحمد الفرحة بالظهور) اى بسبب ظهور الطاعة من غير قصد فى اظهارها (على حسن لطفه تعالى) اى شكرا (باخفاء الذنوب) اى ستر السيئات (واظهار الطاعات فورد) فى التنزيل (قل بفضل الله وبرحمته) من الايمان والقرآن (فبذلك فليفرحوا) اى لابغير ماذكر (هو خير مما يجمعون) من حطام الدنيا الفانية وفى الدعاء يا من اظهر الجميل وستر القبيح (اودلالته) اى اويحمد الفرحة بالظهور على دلالته (على انه تعالى يفعل كذلك) من اظهار الحسنات وستر السيئات (فى الآخرة) اى آخر الحالات (فورد) فى صحيح مسلم من حديث ابى هريرة (ما ستر الله على عبد فى الدنيا الا وستره عليه فى الآخرة) وفى معناه انشدوا *

* لقد احسن الله فيما مضى * كذلك يحسن فيما بقى *

فيكون الاول فرحا بالقبول فى الحال من غير ملاحظة للاستقبال والثانى التفات الى حال المآل وحسن المنال (اوانه) اى يحمد بالفرحة اوبالظهور على ان من ظهر عمله (يقتدى به فيضاعف الاجر) بسبب ظهوره (او) اى اويحمد بالفرحة على (ان المطلعين على عمله يثابون بمحبته) اى بمحبة صاحب العمل (والثناء عليه) فى مقام رضاه ففى الخبر افضل الاعمال الحب فى الله (ويعرف الاخير) وهو صدق دعوى فرحه باثابة الناس اوفرحه

باقتدائهم فى عمله (بتسوية مدحه ومدح صالح غيره) فانه حينئذ دل على ان فرحه محمود لامذموم ومردود (ومنه) اى ومن الفرح المحمود (ما ورد لك اجران اجر السر واجر العلانية فيمن قال) على طريق السؤال (اخفى العمل) خوفا من الرياء (فاذا ظهر افرح) بظهور الثناء فللبيهقى فى شعب الايمان عن ابن مسعود ان رجلا قال اسر العمل لا احب ان يطلع عليه فيطلع عليه فيسرنى فقال عليه السلام لك اجران اجر السر واجر العلانية ورواه الترمذى وابن حبان من رواية ابى هريرة ولفظه قال قلت يارسول الله بينا انا فى مصلاى دخل على رجل فاعجبنى الحال التى رآنى عليها فقال عليه السلام رحمك الله يا اباهريرة لك اجران اجر السر واجر العلانية والحديث فى المشكوة (والاظهار) اى ويحمد اظهار العمل (للترغيب) اى لترغيب غيره فيه (فورد) فى صحيح مسلم من حديث جرير بن عبدالله البجلى (من سن سنة حسنة) اى فعمل بها كما فى رواية (فله اجرها واجر من عمل بها الى يوم القيمة) وسبب وروده ان انصاريا جاء بصرة فتتابع الناس بالعطية لما رواه للبيهقى من حديث ابن عمر عمل السر افضل من عمل العلانية والعلانية افضل لمن اراد الاقتداء وله من حديث ابى الدرداء ان عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفا وله من حديث عائشة يفضل اويضاعف الذكر الخفى الذى لايسمعه الحفظة على الذى يسمعه بسبعين ضعفا (وبه) اى وبالاظهار (امر الانبياء عليهم السلام) ويفهم منه انه يحسن الاظهار (بشرط ان يكون) المظهر (ممن يقتدى به) من العلماء والصلحاء ليتم فائدة الاظهار الذى دون الاسرار قال الحسن قد علم المسلمون ان السر احرز العملين ولكن فى الاظهار ايضا قد يكون فائدة فلذا اثنى الله على السر والعلانية فقال تعالى * ان تبدوا الصدقات فنعماهى وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم * قلت وقد قال ايضا * الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم اجرهم عند ربهم * الآية قال على رضى الله عنه تصدقت بدرهم فى ليل وآخر فى نهار وآخر سرا وآخر علانية عملا بالآية (ويبالغ) اى وبشرط ان يبالغ (فى الاحتراز عن الرياء) ليصل الى مقام اهل الاختصاص من الاخلاص فربما يكون فيه رياء فى غاية خفاء فيدعوه الى الاظهار بعذر اقتداء فيهلك هنالك وهو لايشعر بذلك (ويعرف) احترازه اويعرف المظهر للترغيب دون الرياء (بانه لوقدر) اى فرض (اقتداء الناس بغيره) من العلماء فى عمله حال ظهوره (وعرفانه) اى وقدر معرفة هذا المظهر (باستواء اجر السر والعلانية) فضلا عن كون عمل السر افضل (لمارغب) المظهر (فيه) اى فى اظهار عمله لان غرضه حصل من عمل غيره فمهما وجد الثقل فى نفسه اورغب فى اظهار العمل مع وجود اظهاره من الغير فهو كاذب فى دعواه طالب لمقتضى هواه (والذكر) اى ويحمد ذكر العمل (بعده) اى بعد فراغ العمل ليقتدى به كقول عثمان

مانقيت ولا تمنيت ولامسست ذكرى بيمينى منذ بايعت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا فى الاحياء ولابى يعلى الموصلى فى معجمه من روايه انس عنه فى اثناء حديث وان عثمان قال يارسول الله فذكره بلفظ منذ بايعتك قال هو ذاك عثمان اوتحدثا بنعمة ربه (وهو) اى الذكر انما جاز (لمن قوى باطنه) فى المعرفة بعدم الالتفات الى سوى الله (وتم اخلاصه) عن الرياء (وخطره) اى خطر الذكر بعد العمل (اصعب) من خطر الظهور (لخفة المؤنة) اى الكلفة فى ذكره ببعض الكلمة (وزيادة المبالغة) اى ولزيادتها فى ذكر العمل بان يقول مانمت البارحة مع انه لا يخلو من نوع من النوم ولو بالنعاس (ولذة النفس) فى اظهار الدعاوى (واخف) اى اهون على الظهر فى التأثر وان يطرق فى الذكر بعد العمل (لان اللاحق) من ذكر العمل (لايبطل السابق) من نفس العمل مع الاخلاص (وكتمان المعاصى) اى ويحمد كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس على العيوب (لا) اى لا يحمد (لان يعتقد فيه) اى فى الكاتم (الورع رياء بل) يحمد لثمانية اشياء (للتعامى عن الهتك) اى للمحافظة على هتك ستره وظهور امره من ذنبه خوفا من سقوط وقع المعاصى من النفس وجرأتها عليها فان للنفس متى الفت ظهور الذنوب زاد انهماكها واسترسلت فى شهواتها بارتكابها وما بالت بعدم اجتنابها (ففيه) اى فى الهتك فى الدنيا (خوفه) اى خوف العبد اوخوف الهتك (فى الآخرة) اى فى القيمة بالكرة الآخرة عكس ما تقدم فى قوله *

* لقد احسن الله فيما مضى * كذلك يحسن فيما بقى *

(اولان الستر) اى كتمان المعاصى (مأموربه) اى فى باب استحبابه (فورد) فى حديث من ستر الله عليه فى الدنيا ستر الله عليه فى الآخرة باعتبار مفهومه وكذا (من ارتكب شيئا من هذه القاذورات) اى السيئات (فليستتر بستر الله تعالى عليه) رواه الحاكم (ويعرف صحة هذا المقام (بكراهة ظهورها) اى المعاصى (من الغير) ففى الخبر لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه (اولئلا يتألم بالذم) اى بذم الناس فان الذم مؤلم للقلب وتألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الانسان بعاص (فهو) اى التألم (مباح لكونه جبليا) كما ان الضرب يؤلم الجوارح بالطبع فاذا تألم القلب بالذم ربما يصير مانعا من الخشوع والخضوع فى العبادة لفوات عقله بسبب الغضب الناشى عن تألمه (والترك) اى ترك التألم (كمال) فان كمال الصدق فى ان يزول عنه رؤية الخلق فيستوى عنده ذامه ومادحه لعلمه ان الضار والنافع هو الله وان العباد كلهم عاجزون مقهورون تحت قدره وقضائه فللترمذى من حديث البراء وحسنه بلفظ قام رجل فقال ان حمدى زين وان ذمى شين فقال كذبت ذاك الله ولاحمد من حديث الاقرع بن حابس وهو قائل ذلك دون قوله كذبت ورجاله

ثقات (اولان الناس شهداؤه) اى شهداء الله تعالى كما قيل السنة الخلق اقلام الحق (فورد) فى مسند احمد والصحيحين والنسائى عن انس (من اثنيتم) ايها الصحابة او ايها الامة (عليه خيرا وجبت له الجنة ومن اثنيتم عليه شرا وجبت عليه النار انتم شهداء الله فى الارض ثلاثة) اى قاله ثلاث مرات وهو المستفاد من قوله سبحانه * وكذلك جعلناكم امة وسطا* اى عدلا * لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا (اولان الذام بصير عاصيا) اى بسبب ذمه او بالمعاصى او بتجاوزه عن الحد فى الذم فيذم بما ليس فيه (ويعرف تصحيح هذا المقام اويعرف هذا الكتمان (بتسوية ذمه وذم غيره) يعنى كما يتألم بذمه كذلك بذم غيره والفرق بين هذا التألم والذى قبله ان هذا يوجد فى الانسان اذا ظهرت المعصية عن غيره ايضا كما يوجد اذا ظهر منه والذى قبله انما يوجد فى الشخص اذا ظهرت منه المعصية دون غيره (اوالخوف ان يقصد بسوء) من محتسب وغيره وهذا وراء الذم فان الذم مذموم من حيث يشعر القلب بنقصانه وان كان ممن يؤمن شره وهذا يخاف شر من يطلع على ذنبه فيتغير عليه من جهة قلبه (اوللحياء فهو من كرم الطبع) ولا يلزم منه الرياء (وورد الحياء خير كله) مسلم من حديث عمران بن حصين (الحياء شعبة من الايمان) متفق عليه من حديث ابى هريرة وفى الخبر الحياء لايأتى الا بخير متفق عليه من حديث عمران بن حصين ويعرف الكتمان للحياء بعدم الكتمان فيمن لايستحيى منه كالاجانب بخلاف باقى الاسباب فان صاحبها يحب الكتمان فى الاجانب والاقارب (اولان لايقتدى به الغير) فى معصيته فينبغى ان يخفى العاصى معصيته من ولده وعبده ايضا (وحب) اى ويحمد حب (محبته الناس) كان الظاهر ان يقال محبة الناس ليكون اضافة المصدر الى فاعله والمفعول محذوف اى اياه لكنه قلب الكلام وقال محبته الناس بالاضافة الى المفعول والناس فاعلها (لان يعلم منه) اى من حب الناس له (محبته تعالى) رياء (فمن احبه تعالى جعله محبوبا فى قلوبهم) اى قلوب الخلق اجمعهم لقوله تعالى * ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا * ولقوله عليه السلام اذا احب الله عبدا دعا جبريل فقال انى احب فلانا فاحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى السماء فيقول ان الله يحب فلانا فاحبوه فيحبه اهل السماء ثم يوضع له القبول فى الارض الحديث رواه مسلم عن ابى هريرة (ثم الطاعة التى يلتذ بها العامة كالصلوة والصوم) والصدقة (يترك بمحضر الغير ان هجم الرياء) متجردا عن باعث آخر اوعن الاخلاص (فى الشروع) اى فى ابتداء شروعه فى العمل (حتى اندفع الرياء) اى الى ان يندفع الرياء ويطرأ باعث الاخلاص (ويشرع فى العمل (مجاهدا) نفسه فى رفع الرياء وتحصيل الاخلاص بالمعالجة والدواء (ان هجم باعثان) فى وقت الشروع (ويتم) اى مجاهدا (كذلك) اى كما اتم فى هجوم باعثين

ان

(ان هجم) باعث الرياء (بعده) اى بعد الشروع (ولا يترك) اى ريـاء الشروع في العمل مع هجوم الرياء لوجهين (لانه موافقة الشيطان) فـانه يحب ترك العمل من اصله فـانه يدعوك اولا الى ترك العمـل فـاذا لم تجبه واشتغلت بالعمـل فيدعوك الى الرياء فاذا لم تجبه ودفعته بقى يقول لك هـذا العمل ليس بخالص وانت مراء وتعبك ضايع فاى فائدة لك في العمل الذى لااخلاص فيه حتى تدلك على ترك العمل بخوفك فاذا تركته حصلت غرضه بل يجب عليه حينئذ ان يعمل العمل ويطلب الاخلاص من الله تعالى فان الرياء قنطرة الاخلاص (ولان الاشتهار باخفائها) اى الطاعة (ليعلم اخلاصه رياء والاحتراز عن النسبة الى الرياء رياء) كما قال الفضيل العمل لغير الله شرك وترك العمل لاجل الخلق رياء والاخلاص ان يخلصك الله منهما (وترك النخعى التلاوة لدخول شخص) لم يكن لمجرد اخفاء الطاعة بل (لما علم انه يحتاج اليه بالاشتغال به) فبادر الى ترك التلاوة قبل دخوله (لكونه) اى التبادر (ابعد من الرياء) فرأى اى عدم اشتغاله بالقراءة ابعد من الرياء وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود اليها بعد ذلك والحاصل ان تركه لم يكن لهجوم الباعثين عند الشروع اوهجوم باعث الرياء بعد الشروع (وان زاد) اى المصلى مثلا (على المعتاد) في ورده كمية اوكيفية (بحدوث النشاط في العبادة (عند رؤيته متعبدا) اى عند رؤيته لمتعبد آخر فان الصحبة تأثيرا بليغا ولذا شرع الجمعة والجماعة (فان كان) مازاد على المعتاد (غبطة) في العبادة (لزوال الغفلة والكسل بمشاهدته) اى المتعبد (فيفعل الزيادة) على العادة وان ظن انه رياء (دافعا وسوسة انه رياء بخلاف ما اذا كان نشاطا لاستمالة قلبه) اى قلب المتعبد الآخر فلا يفعل الزيادة لانه رياء محض لاثواب له بل عقاب عليه (ويعرف) هذا المقام وهو النشاط لاجل الغبطة (بانه) اى بان العابد الذى يزيد على المعتاد غبطة (لو رأى) اى المنشط المتعبد (بحيث لم يره) المتعبد المنشط (رغب) العابد (فيه) اى في العمل الزائد فانه حينئذ يصدق انه مخلص وباعث الزيادة حصول الغبطة (اماما تلتذ به العامة) من الطاعة (فالاعلى الخلافة) اى الامامة الكبرى (فورد) في الطبرانى والبيهقى من حديث ابن عباس (ليوم من امام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين سنة) وفي رواية عاما وللاصفهانى في الترغيب والترهيب من حديث ابى سعيد الخدرى اقرب الناس منى مجلسا يوم القيمة امام عادل (وخطرها) اى آفة الخلافة (اعظم لتحريكها) اى الخلافة (الباطن في محبة الجاه) وهو اعظم بلاء الدنيا فلاحمد والبزار وابى يعلى والطبرانى من حديث ابى هريرة مامن والى عشرة الاجاء يوم القيمة يده مغلولة الى عنقه لا يفكها الا اذا غفرله وفي الصحيحين من حديث معقل بن يسار مامن عبد يسترعيه الله رعية لم يحطها بنصيحة الالم يرح رائحة

الجنة وعن الحسن ان رجلا ولاه النبي عليه السلام فقال خر لى يارسول الله قال اجلس رواه الطبرانى ورواه ايضا من حديث ابن عمر بلفظ الزم بيتك وفى الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الامارة وللبخارى من حديث ابى هريرة انكم تحرصون على الامارة وانها حسرة يوم القيمة وندامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة ورواه ابن حبان فبئست المرضعة وبئست الفاطمة وفيهما من حديث ابى موسى انا لانولى امرنا من سألنا (والافضاء) اى واتصال الخلافة وانجرارها (الى ارتكاب الذنب لنموه) اى لزيادة الجاه فان كل ماذما جاهه وغلب على النفس حبه صارت الولاية محبوبة عنده فيحتاج الى حفظها ويوشك ان يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح فى جاهه وان كان حقا (ومن ثم احترز عنها) اى عن الخلافة (الاتقياء) من اكابر الامة لكن لابد لاحد ان يقوم بامرها (فيحترز عنها الضعيف) اى العاجز عن السياسة (دون القوى) القادر على الرياسة (لعدم تاثيرها) اى تأثير الخلافة اومحبة الجاه (فيه) اى فى القوى (الا اذا علم القوى) اى خاف (الانقلاب) عن حالة القوة الى حالة الضعف (عند التقليد) اى عند قبول الخلافة لما قدمنا من الخطر والآفة (فالصحيح) الاحوط (فيه) اى فى هذا الحال من خوف الانقلاب (الاحتراز اذالنفس خداعة يخاف عليها عند الجزم) اى عند عزمها وجزمها (بالثبات فعند الخوف) من عدم الثبات (اولى) ان يخاف عليها (والامتناع) عن المنصب (اهون من العزل) كما هو المشاهد فى اهل العدل يشير اليه مافى حديث البخارى نعمت المرضعة وبئست الفاطمة (ثم القضاء) وخطره ايضا ادنى من خطر الخلافة ولمسلم من حديث ابى ذر لاتأمرن على اثنين ولاتلين مال يتيم ولاصحاب السنن من حديث بريدة القضاء ثلاثة اثنان فى النار وواحد فى الجنة رجل علم الحق فقضى به فهو فى الجنة ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار ورجل عرف الحق فجار فى الحكم فهو فى النار ولهم من حديث ابى هريرة من جعل قاضيا فقد ذبح بغير سكين وفى رواية من ولى القضاء واسناده صحيح (ثم الوعظ) للناس (والدرس) للطلبة (والفتوى) لارباب الحاجة (فى الفضل) لانها عبادات متعدية (والخطر) لاتساع الجاه فيها وعظم القدر بها فخطر ما فيها عظيم بقدرها (واشتراط القوة) بان يحول التعليم خالصا لوجه الله الكريم (ومدافعة السلف) مبتدأ (فيها) اى فى المذكورات (مشهورة) قال بعضهم كان السلف يتدافعون اربعة اشياء الامانة والوديعة والوصية والفتوى (وتعرف القوة) فى كل منهم (بعدم كراهة ظهور آخر) احسن منه علما وعملا (بتقلده) اى بالقيام فى امره (فان عدم القوى) فى مقام التقوى (الكامل) فى العلم بالفتوى (يتعين اقوى الناس مجتهدا) اى حال كونه مبالغا (فى الاحتراز عن آفاته) اى آفات ما ذكر من الخلافة وغيرها فى جميع حالاته ومقاماته وبالجملة

ما

ما يتعلق بالخلق من الطاعة وللنفس فيه لذة فهو مثار الآفات ومنبع البليات فالاحب للقوى ان يعمل ويدفع الآفة بالعلم فان عجز فلينظر وليجتهد وليستفت قلبه وليستخر ربه وليزن ما فيه من الخير بما فيه من الشر وليفعل ما يدل عليه نور العلم بالشرع دون الميل اليه بالطبع اذ ما بعده اخف على قلبه واهون اليه يكون فى الاكثر اضر عليه لان النفس لاتشير الابالشر قلماتشير بمحض الخير وهذه امور لايمكن الحكم على تفاصيلها بنفى واثبات نظراالى تعاليلها بل هى مركولة الى اجتهاد القلب المشحون بذكر الرب لينظر فيه لدينه وتحقيق يقينه ويدع ما يريبه الى ما لا يريبه ومن جرب آفات مناصب العلم وما يترتب عليها من الحرام والشبه علم انها بالولايات والحكومات اشبه وان الحذر منها فى حق الضعيف اسلم والله سبحانه اعلم *

الباب الرابع عشر فى التفويض وقصر الامل وذكر الموت والانتباه

اى اليقظة من نوم الغفلة بالتوبة والاستقامة (بسم الله الرحمن الرحيم) وافوض امرى الى ربى الكريم (الخطر) وهو الاشراف على الهلاك ان لم يكن مقرونا بالحذر وفق القدر (خطران) اى نوعان احدهما (خطر الفساد) بان لايستيقن فيه الصلاح (ويحتاج فيه الى التفويض) اى التسليم الى امر الله وما قدره وقضاه فيما اراد من الصلاح والفساد فان المراد للعباد ثلاثة مراد يعلم يقينا انه شر وفساد كالنار والعذاب والحجاب وفى الافعال كالكفر والبدعة والمعصية فلا سبيل لك الى ارادة ذلك ومراد يعلم قطعا انه خير وصلاح كالجنة والايمان والطاعة والسنة فلك ارادتها بالحكم لا موضع للتفويض فيه اذ لا خطر فيه ومراد لايعلم يقينا ان لك فيه صلاحا ام فسادا فهذا موضع التفويض فليس لك ان تريدها قطعا الا بالاستثناء او شرط الخير والصلاح فان قيدت ارادتك بالاستثناء فهو تفويض وان اردت دون الاستثناء فهو مذموم ومنهى عنه فموضع التفويض اذا كل مراد فيه الخطر وهو ان لايستيقن صلاحك فيه (وهو) اى التفويض (ارادة حفظه تعالى للمفوض فيما) اى فى عمل (لا امن فيه عن الفساد) وقال بعض المشايخ هو ترك اختيار ما فيه مخاطرة الى المختار المدبر العالم بمصالح العباد من الصلاح والفساد وعبارة الشيخ السنجرى هو ترك اختيارك المخاطرة على المختار ليختار لك ماهو خير لك ويؤيده كلام الامام الشاذلى (لاتختر فان تختر فاختر ان لاتختار فربك يخلق مايشاء ويختار) ومن هنا لما قيل لابى يزيد ماتريد قال (اريد ان لا اريد) وقال الشيخ ابو عمر هو ترك الطمع اى من الحق والطمع ارادة الشىء المخاطر بالحكم وعن الشاذلى اقطع طمعك عن الله ان يعطيك غير ما قسم لك فهذه عبارات القوم وما ذكره المصنف هو اختيار الامام الغزالى بعينه وهو ان

التفويض ارادة ان يحفظ الله عليك مصالحك فيما لا تأمن الخطر فيه لاجلك (قيل هو) اى العمل الذى لا امن فيه من الفساد (مايكون دونه نجاة) فالايمان ليس لغيره نجاة وكذا الواجبات والمحرمات (ويمكن ان يجامعه ذنب) فالاستقامة التى هى حمل النفس على طريق السلامة من اخلاق القرآن والسنة من غير الشك والشبهة لايجامعها ذنب اذالسنة لايجامعها بدعة لان البدعة الذميمة هى التى تزاحم السنة الكريمة (فيختص) التفويض (بالنوافل والمباحات) دون الواجبات والمحرمات والمكروهات (وقيل) المراد بالعمل الذى لا امن فيه من الفساد (ما) اى عمل (يمكن ان يعترض عليه) اى يطرأ ويحدث على شروعه (ما يكون الاشتغال به اولى فيعم الفرض) اى ونحوه واكثر المشايخ واختيار الامام فى منهاج العابدين ان الفرض ليس موضع التفويض وبه قال القشيرى حيث قال فى هذه المسألة ان الذى افترض الله عز وجل على عبده من الصلوة والصيام والحج ونحوها ففيها صلاح العبد لامحالة وصحت ارادتها بالحكم البتة انتهى وقال بعضهم ان الله عز وجل لايأمر العبد بشىء الا وفيه صلاح اذا تجرد عن العوارض ولايضيق عليه فعلا فرضا بحيث لايعدل عن ذلك الا وفيه صلاح له وانه ربما يسبب عذرا لاجله يكون العدول عن احد الفرائض اولى من الاشتغال بالآخر فيكون العبد فى ذلك معذورا بل مأجورا لكن لايترك هذا الفرض بل يفعل الفرض الذى هو اولى اولا (اذ من قصد اداء صلوة ضاق وقتها وعنده غريق اوحريق) اواعمى اوصغير يريد ان يرتمى فى بئر (يمكن انقاذه) اى تخليصه بترك اداء الصلوة او بقطعها وتأخيرها (فهو اولى) من ادائها واتمامها لان ذلك هو فرض الوقت الذى يوجب تركه المقت (ولا بد منه) اى من التفويض لامرين (لاطمئنان القلب فى الحال) فان الامور اذا كانت خطرة مبهمة لا يدرى صلاحها من فسادها فيكون مضطرب القلب متردد النفس فى مرادها لا يدرى يقع فى صلاح او فساد فاذا فوضت الامر الى الله وما قدره وقضاه علمت انك لاتقع الا فى خير وصلاح ونفع وفلاح فتكون آمنا من الخطر والآفة والمخافة مطمئن البال فى الحال وهذه الطمانينة والامن والراحة فى القلب غنيمة عظيمة فى المنال فكان يقول بعض المشايخ فى مجالسه كثيرا (دع التدبير الى من خلقك تسترح * (وحصول الصلاح) اى الخير والنفع (فى الاستقبال) وذلك لان الامور بالعواقب مبهمة فكم من شر فى صورة خير وكم من نفع فى حلية ضر وكم من سم فى طينة شهد وانت جاهل بالعواقب واسرار المراتب واما اذا فوضت الامر اليه وتوكلت عليه وسلمت نفسك لديه وسألته ان يختار لك ماهو صلاحك (فلايفعل رب العباد (فى المفوض) اى فى امر المفوض للمراد (الفساد) بل لم يلق الا الخير والرشاد ولايقع الا الصلاح والسداد (فورد) فى التنزيل حكاية عن مؤمن آل فرعون (وافوض امرى

الى الله

الى الله الى فوقيه الله الآية) ان الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب * فالمرجو هو المتيقن بالصلاح (واما الاصلح) للعبد (فربما لا يفعل) الله فى المفوض (حتى نام عليه السلام مع اصحابه) الكرام (عن صلوة الفجر) حين عرس عليه السلام وقت سحر فى حال سفر والحديث فى الصحيحين بطوله (وله) اى وللمفوض (اختار الافضل) اى فى طلبه من الله بغير استثناء منه وهو لا يقدح فى تفويضه الذى هو كمال تسليمه (كقول المريض) المفوض (للطبيب) الذى بمنزلة الحبيب (اجعل دوائى ماء السكر لا ماء الشعير اذا كان الصلاح فيهما) بحسب التدبير (مع الرضاء بالمفضول) وهو ماء الشعير (ان اختيرله) اى اختار الطبيب المفضول (له) للمريض بحسب التقدير وانما قيد بكونه مع الرضاء لانه لو لم يرض به لكان المفضول مكروها وكان الافضل حينئذ هو الفاضل (بخلاف الاصلح فهو مجهول) اى لا يعرف احد من العباد جهة الصلاح وجهة الفساد حتى يختار الاصلح فيما اراد وتوضيحه ما فى الاحياء فان قيل هل يجب ان يفعل بالمفوض ما هو الافضل فاعلم ان الايجاب مستحيل فى حق الله تعالى ولا يجب لعباده عليه شىء وقد يفعل بالعبد الاصلح دون الافضل لحكمة فى فعله الا ترى انه قدر للنبى عليه السلام واصحابه ان ناموا طول الليل فى بعض الاسفار حتى فاتهم صلوة الفجر والصلوة افضل من النوم وربما يقدر للعبد الغنى والنعمة فى الدنيا وان كان الفقر افضل باعتبار العقبى ويقدر له الاشتغال بالاولاد والازواج وان كان التجرد لعبادة الله افضل فانه بعباده خبير بصير فالمقصود للعبد النجاة من الهلاك لا الفضل والشرف مع الفساد والاهلاك فان قيل فلما ذا كان للعبد ان يختار الافضل وليس له ان يختار الاصلح فاعلم ان الفرق بينهما ان العبد يعرف الافضل من المفضول ولا يعرف الصلاح من الفساد ليريده بالحكم ثم معنى اختياره الافضل ان يريد من الله ان يجعل صلاحه فيما هو الافضل ويختاره ذلك ويقدره هنالك لا ان للعبد تحكما فى شىء لقوله تعالى * ليس لك من الامر شىء * فهذه جملة من دقائق هذا العلم واسراره وحقائقه وانواره ولولا ان الحاجة مست اليه لما تعرضنا بالايراد عليه لانه يلاطم بحار علوم المكاشفة ونحن فى ساحل علوم المعاملة (وضده) اى ضد التفويض (الطمع) من الحق بمعنى الرجاء (وهو) اى الطمع (محمود ان قيد بشرط الصلاح) فيما لا امن فيه عن الفساد (او باين) اى ان فارق المطموع (الخطر) اى خطر الفساد (فورد) فى التنزيل حكاية عن ابراهيم (والذى اطمع ان يغفرلى خطيئتى) يوم الدين وعن السحرة (انا نطمع ان يغفرلنا ربنا خطايانا) ان كنا اول المؤمنين * وكذا قوله تعالى حكاية عن المؤمنين * ومالنا ان لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع ان يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين * فالطمع الوارد فى هذه الآيات مثال ما باين الخطر (والا فمذموم) اى وان لم يقيد بشرط الصلاح اولم

يباين الخطر فالطمع مذموم ففى الخبر اياكم والطمع فانه فقر حاضر وقيل صلاح الدين الورع وفساده الطمع (فهو) اى الطمع المذموم (سكون القلب الى منفعة مشكوكة) وقيل هو ارادة الشيء المخاطر بالحكم وهذه الارادة تقابل التفويض لا غير فاعلم ذلك واما مصن التفويض فهو ذكر خطر الامور وامكان الهلاك والفساد منها ومصن حصنه ذكر عجزك من الاعتصام من ضروب الخطر والامتناع من الوقوع فيها لجهلك وغفلتك وضعفك فالمواظبة على هذين الذكرين يحملك على تفويض الامور كلها الى الله تعالى والتحفظ عن الحكم فيها والامتناع عن ارادتها الا بشرط صلاحها وهذا غاية التحقيق والله ولى التوفيق (وخطر عدم الكون) بالرفع عطف على قوله فى اول الباب خطر الفساد اى الخطر خطر ان خطر الفساد وخطر عدم الكون اى عدم وجود الامر (ويحتاج فيه) اى فى خطر عدم الكون (الى قصر الامل) اى وتقريب الاجل وتكثير العمل (وهو) اى قصر الامل (ان لا يراد امر يشك فى كونه) اى وجوده (الا بالاستثناء بذكر المشيئة) اى بقيد ان شاء الله كما قال تعالى * ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله (او العلم) اى او بذكر علم الله فيقول ان علم الله انى افعل ذلك الفعل فافعل (قلبا) اى يكفى فى الذكر والعلم خطور القلب وحضور الجنان ولا يلزم فيها النطق باللسان فى عالم البيان (فورد) فى قصر الامل خطابا لابن عمر (اذا اصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء) اى بادراكه (واذا امسيت فلا تحدث نفسك بالصباح) وتمامه وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك فانك يا عبد الله لا تدرى ما اسمك غدا وصدر الحديث كن فى الدنيا كأنك غريب او عابر سبيل وعد نفسك من اصحاب القبور رواه ابن حبان ورواه البخارى من قول ابن عمر ولابن ابى الدنيا من حديث على مرفوعا قال ان اشد ما اخوف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الامل فاما اتباع الهوى فانه يعدل عن الحق واما طول الامل فانه يورث الحب للدنيا ثم قال الا ان الله يعطى الدنيا من يحب ويبغض واذا احب عبدا اعطاه الايمان الا ان للدنيا ابناء وللدين ابناء فكونوا ابناء الدين ولا تكونوا ابناء الدنيا الا ان الدنيا قد ارتحلت مولية الا ان الآخرة قد اظلت مقبلة الا وانكم فى يوم عمل ليس فيه حساب الا وانكم توشكون ان تكونوا فى يوم حساب ليس فيه عمل (والامل) اى وضد التفويض الامل ايضا (هو الارادة) امر يشك فى كونه (بالحكم) اى بالقطع لا بالاستثناء وقيد المشيئة (وفيه) اى فى الامل (التفاوت من امل البقاء ابدا) كما للكفار من الدهرية والى الالف كما قال تعالى * ومن الذين اشركوا يود احدهم لو يعمر الف سنة * وفى الصحيحين من حديث ابى هريرة قلب الشيخ شاب على حب اثنين طول الحيوة وحب المال (والى الهرم) اى الكبر وهو حال الاكثر (والسنة) وهو قريب

الى

الى السنة فانه عليه السلام كان يدخر لعياله قوت سنة لكفاية مالهم من ماله (والفصل) من الفصول الاربعة (والشهر) فلابن ابى الدنيا والطبرانى وابى نعيم والبيهقى عن ابى سعيد اشترى اسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار الى شهر فسمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول (الاتعجبون من اسامة اشترى الى شهر) ان اسامة لطويل الامل والذى نفسى بيده ما طرفت عيناى الاظننت ان جفنى لايلتقيان حتى يقبض الله روحى ولارفعت طرفى وظننت انى واضعه حتى اقبض ولالقمت لقمة الاظننت انى لا اسيغها حتى اغص بها من الموت ثم قال يابنى آدم ان كنتم تعقلون فعدوا انفسكم من الموتى والذى نفسى بيده انما توعدون لآت وما انتم بمعجزين (ولابن المبارك وابن ابى الدنيا والبزار من حديث ابن عباس كان يخرج عليه السلام بريق الماء فيتمسح بالتراب فاقول الماء منك قريب فيقول ما يدرينى لعلى لا ابلغه وكان عليه السلام يقول فى دعائه اللهم انى اعوذبك من دنيا تمنع خير الآخرة واعوذ بك من حيوة تمنع خير المماة واعوذ بك من امل يمنع خير العمل ابن ابى الدنيا من رواية حوشب وقال مطرف بن عبد الله لوعلمت متى اجلى لخشيت على ذهاب عقلى ولكن الله تعالى من على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ما تهنأ بالعيش ولاقامت بينهم الاسواق وقال بعضهم لولا الحمقى لخربت الدنيا وقال الثورى الزهد فى الدنيا بقصر الامل ليس بأكل الغليظ ولبس العباء وقيل للحسن الا تغسل قميصك قال الامر اعجل من ذلك ورأى وهب بن منبه فى حجر منقور ابن آدم انك لورأيت ما بقى من اجلك لزهدت فى طول املك وارغبت فى زيادة عملك ولقصرت عن حرصك وحملك انما يلقاك غدا ندمك لوقد زلت قدمك واسلمك اهلك وحشمك وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب فلاانت الى دنياك عائد ولا فى حسناتك زائد فاعمل ليوم القيمة قبل الحسرة والندامة ومن داود الطائى من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ومن طال امله ضعف عمله وكل ما هو آت قريب وكل ما يشغلك عن ربك فهو مشؤم وان اهل الدنيا جميعا من اهل القبور انما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون فما ندم عليه اهل القبور فاهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند ربهم يختصمون وروى ان معروف الكرخى اقام الصلوة فقال لاحمد بن ابى توبه تقدم فقال ان صليت لكم هذه الصلوة لم اصل بكم غيرها فقال معروف وانت تحدث نفسك ان تصلى صلوة اخرى اعوذ بالله من طول الامل فانه يمنع خير العمل وكان الحسن يقول فى موعظته المبادرة فانما هى الانفاس لو حبست انقطعت عنكم اعمالكم التى تتقربون الى الله تعالى عز وجل رحم الله عبدا نظر لنفسه وبكى بعد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية * انما نعد لهم عدا * يعنى الانفاس آخر العد خروج نفسك عن نفسك واجتهد ابو موسى الاشعرى قبل موته اجتهادا

شديدا فقيل له لو امسكت ورفقت بنفسك بعض الرفق فقال الحبل اذا ارسلت فقاربت رأس مجاريها اخرجت جميع ما عندها والذى بقى من عمرى اقل من ذلك فلم يزل على ذلك حتى مات وكان يقول لامرأته شدى رحلك فليس على جهنم معبر وقال ابن عمر خرج عليه السلام والشمس على اطراف السعف وقال ما بقى من الدنيا الامثل ما بقى من يومنا هذا الى ما مضى منه ابن ابى الدنيا والترمذى وحسنه وعن انس قال عليه السلام مثل الدنيا مثل ثوب شق من اوله الى آخره فبقى معلقا بخيط فى آخره فيوشك ذلك الخيط ان ينقطع رواه ابن ابى الدنيـا ومر داود الطائى فسأله رجل عن حديث فقال دعنى انما ابادر خروج روحى وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى * ولكنكم فتنتم انفسكم * قـال بالشهوات واللذات * وتربصتم * قال بالتوبة * وارتبتم * قال شككتم * حتى جاء امر الله * قال الموت * وغركم بالله الغرور (واليوم) فعن عيسى عليه السلام لاتهتموا برزق غد فان يكن غد من آجالكم فسيأتى فيه ارزاقكم وان لم يكن من آجالكم فـلا تهتموا لآجال غيركم وهو يؤخذ من قوله تعالى * وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا (والساعة) النجومية واللغوية الشاملة للحظة والغمضة ويؤخذ هذا من قوله تعالى * اذا جاء اجلهم لايستأخرون ساعة * ومن قوله * ولن يؤخر الله نفسا * اى ولو نفسا * اذا جاء اجلها * وفى الاحياء ومنهم من يكون الموت نصب عينه كأنه واقع به فهو ينتظره وهذا الانسان هو الذى يصلى صلوة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ لما سأله عليه السلام عن حقيقة ايمانه فقال ما خطوت خطوة الا ظننت انى لا اتبعها اخرى رواه ابونعيم فى الحلية وكما نقل عن الاسود وهو الحبشى انه كان يصلى ليلا ويلتفت يمينا وشمالا فقال قائل ما هذا قـال انتظر ملك الموت من اى جهة يأتينى يعنى وفى اى صفة يحضرنى وهل اكون من اصحاب اليمين او اصحاب الشمال فخوف الرجال من هذا الحال لامن انتهاء الآجال وفى منهاج العابدين قال اكثر علمائنا ان الامل ارادة الحيوة للوقت المتراخى بالحكم وقصر الامل ترك الحكم فيه بان تقيده بالاستثناء بمشيئة الله وعلمه فى الذكر او بشرط الصلاح فى الارادة فاذن ان ذكرت حياتك بانى اعيش بعد نفس ثان او ساعة ثانية او يوم ثان بالحكم والقطع فانت آمل وذلك معصية اذ هو حكم على الغيب وان قيدته بالمشيئة والعلم من الله فقلت اعيش ان شاء الله وان علم الله انى اعيش بعد خرجت عن حكم الامل وكذلك ان اردت حيـاتك للوقت الثانى قطعا فانت آمل وان قدرت ارادتك بشرط الصلاح خرجت عن حكم الامل ووصفت بتقصير الامل حيث تركت الحكم فى ذكر البقاء وارادته والمراد بالذكر ذكر القلب ثم المراد منه التوطين على ذلك وتثبيت القلب على ما هنالك (ويظهر) هذا التفاوت (بالادخار) اى بوضع ذخيرة

الارزاق (والتاهب) اى التهيؤ لاسباب المعاش فى الارفاق (وآفاته) اى آفات الامل ومضراته سنة (ترك الطاعة) رأسا (والكسل) فى العبادة والملل (والتسويف) اى تأخير العمل بان يقول سوف اعمل (والحرص) على الدنيا (ونسيان الآخرة) وما فيها من لقاء المولى (والقسوة) اى قساوة القلب ومنه قوله تعالى * ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة اواشد قسوة * وقوله سبحانه * فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله * ومن علامة القساوة عدم الرقة وقلة البكاء على الغفلة (فورد) فى التنزيل * الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل (فطال عليهم الامد) اى زمان الاجل (فقست قلوبهم) بسبب طول الامل وفى آية اخرى * ذرهم يأكلوا ويتمتعوا (ويلههم الامل) اى يشغلهم الامل عما خلقوا له من العمل (فسوف يعلمون) غاية جهلهم فى طول املهم وقصر عملهم وتوهم تأخير اجلهم (والسبب) اى سبب الامل شيئان (حب الدنيا) فانه يوجب كراهة مجئ الاجل (والجهل بالحقايق) اى حقايق ما يرد على الانسان من موت الفجاءة وقتل البغتة ومن مقدمات الموت كالحمى والصداع ونحوهما فانه لايكون الاغفلة قال تعالى * وكم من قرية اهلكنا فجاءها بأسنا بياتا وهم نائمون * اى اوهم قائلون اى مستريحون بالقيلولة (وعلاج كل) من سببيه (ماعرف فى موضعه وذكر فجاءة الموت) اى ومن علاجه تصورها فى الجنان وتقريرها باللسان (فذكره) اى الموت مطلقا (يوجب التاهب له) اى يقتضى التهيؤ والاستعداد للموت قبل مجيئه (والتجافى) اى التباعد (عن دار الغرور) وهى الدنيا فانها غدارة مكارة كما قال تعالى * فلا تغرنكم الحيوة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور * اى الشيطان المانع عن سلوك سبيل العقبى (فورد) فى الحديث (نعم من يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة) والظاهر ان يقول فى كل ساعة اللهم بارك لى فى الموت وفيما بعد الموت ويحتمل ان يذكره فى اليوم عشرين مرة وفى الليلة عشرين مرة اوفى اليوم عشرة وفى الليل عشرة متوالية او متفرقة والمقصود منها الكثرة (حين قيل هل يحشر مع الشهداء احد) والحديث تقدم وقال المخرج لم اقف له على اسناد قلت روى الطبرانى فى الاوسط عن عائشة قالت قلت يا رسول الله ليس الشهداء الا من قتل فى سبيل الله قال ياعائشة ان شهداء امتى اذن لقليل من قال فى يوم خمسا وعشرين مرة اللهم بارك لى فى الموت وفيما بعد الموت ثم مات على فراشه اعطاه الله اجر شهيد وفى السنن الاربعة عن ابى هريرة اكثروا ذكر هادم اللذات الموت وفى رواية اكثر ذكر الموت يسلبك عما سواه وفى رواية اكثروا ذكر هادم اللذات فانه لا يكون فى كثير الاقلله ولا فى قليل الا اجزأه وفى رواية فانه لم يذكره احد فى ضيق من العيش الا

وسعه عليه ولاذكره فى سعة الاضيقها عليه وفى رواية اكثروا ذكر الموت فانه يمحص الذنوب ويزهد فى الدنيا فان ذكرتموه عند الغنى هدمه وان ذكرتموه عند الفقر ارضاكم بعيشكم وللبيهقى فى الشعب من حديث ام حبيبة الجهنية لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما اكلتم منها سمينا ولابن ابى الدنيا عن عطاء الخراسانى مرسلا انه عليه السلام مر بمجلس قد استعلاه الضحك فقال شربوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات قالوا وما مكدر اللذات قال الموت وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اكثروا من ذكر هادم اللذات فوالذى نفسى بيده لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا رواه ابن ابى الدنيا من حديث ابن عمر وفيه ايماء الى قوله تعالى * فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا * وللطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث عمار بن ياسر كفى بالموت واعظا وفى رواية مفرقا قال ابن عمر اتيت النبى صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الانصار من اكيس الناس واكرم الناس يارسول الله فقال اكثرهم ذكرا للموت واشدهم استعدادا له اولئك هم الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة ابن ابى الدنيا بسند جيد وقيل فى تفسير قوله تعالى * ايهم احسن عملا * ايهم اكثر ذكرا للموت واشدهم استعدادا قبل الفوت وقال بعضهم احذر الموت فى هذه الدار قبل ان تصير الى دار تتمنى فيها الموت ولاتجده وقال كعب من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها وقالت صفية ان امرأة شكت الى عائشة قساوة قلبها فقالت اكثرى ذكر الموت يرق قلبك ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضى الله عنها وقال عبد الله بن ثعلبة تضحك ولعل اكفانك قد خرجت من عند القصار (وحقه) اى وحق ذكر الموت (ان يذكر رغبة) اى ميلا ومحبة (الى لقائه تعالى) فى الجنة (وبعثا) اى تحريضا وحثا (للخوف الموجب سرعة التدارك) اى تلافى مافات منه من الطاعات (دون التأسف) اى الحسرة (على فوات الدنيا) اى من لذاتها وشهواتها (فهو) اى التأسف المذكور (مبعد عنه تعالى) لقوله عليه السلام من اسف على الدنيا فاتته اقترب من النار مسيرة الف سنة اخرجه الرازى فى مشيخته عن ابن عمرو (فورد) فى الحديث (من احب لقاء الله احب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) رواه الشيخان وغيرهما وفى رواية زيادة والموت دون لقاء الله والمراد بلقاء الله المصير الى دار الآخرة وطلب ما عند الله من المراتب الفاخرة وليس الغرض به الموت لان كلا يكرهه فمن ترك الدنيا وابغضها احب لقاء الله ومن اختارها وآثرها وركن اليها كره لقاء الله لانه يصل اليه بالموت وقوله والموت دون لقاء الله يبين ان الموت غير اللقاء ولكنه معترض دون الغرض المطلوب وهو الوصول الى قرب المحبوب فيجب ان يصبر عليه ويحتمل مشاقه لديه حتى يصل الى الفوز باللقاء كذا فى النهاية وفى شرح مسلم للنووى

ليس

ليس معنى الحديث ان حبهم لقاء الله سبب لحب الله لقاءهم ولا ان كراهتهم سبب لكراهته بل الغرض بيان وصفهم بانهم يحبون لقاء الله حين احب الله لقاءهم انتهى وتوضيحه ان المحبة صفة الله ومحبة العبد ربه تابعة لها ومنعكسة منها ومتفرعة عليها كظهور عكس الماء على الجدار ويؤيده ماروى انه عليه السلام قال اذا احب الله عبدا عشقه عليه وفى تقديم يحبهم على يحبونه فى القرآن اشارة اليه ودلالة عليه فمعنى الحديث من احب لقاء الله فهو سبب للاخبار بان الله يحب لقاءه اذاقنا الله حلاوة محبته واقاقنا بمزيد عنايته كذا فى شرح المشارق فالاول صفة المحبين والآخر صفة من يخاف عقاب الله على ذنوبه من المؤمنين او صفة الكافرين والمفهوم من ظاهر ما ذكر فى المصابيح ان الآخر صفة الكفرة فقط حيث قال عليه السلام هذا الحديث فقالت عائشة انا لنكره الموت قال عليه السلام ليس ذلك ولكن المؤمن اذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شئ احب اليه مما امامه فاحب لقاء الله واحب الله لقاءه وان الكافر اذا حضره الموت بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شئ اكره اليه مما امامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه وفى القرآن يشير الى المقامين حيث قال تعالى * ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الاتخافوا ولاتحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون * الآيات وقال عزوجلا * يوم يغشيهم العذاب من فوقهم ومن تحت ارجلهم ويقول ذوقوا ماكنتم تعملون (والمراد بالمحب) اى لقاء الله اى فى الحديث انما هو (العارف) بذات الله وصفاته وبدايع مصنوعاته (المشتاق اليه) لزيادة مالديه (فالموت موعده) اذ لايتصور لقاؤه دونه كما فى حديث مسلم انكم لن تروه حتى تموتوا وهذا مجمل جوابه تعالى لموسى عليه السلام * لن ترانى * اى فى الدنيا بالعين الفانية وانما ترانى فى العقبى بالعين الباقية وهذا مجمل قوله عليه السلام تحفة المؤمن الموت ابن ابى الدنيا والطبرانى والحاكم من حديث عبد الله بن عمر بسند حسن وعلامة المحب العارف ان لاينسى قط موعد لقاء الحبيب بل يستبطئ مجئ الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل الى جوار رب العالمين كماروى من حذيفة انه لما حضرته الوفاة قال حبيب جاء على فاقة لاافلح من ندم اللهم ان كنت تعلم ان الفقر احب الى من الغنى والسقم احب الى من الصحة والموت احب الى من العيش فسهل على الموت حتى القاك فاذا التائب معذور فى كراهة الموت وهذا مشكور فى حب الموت واعلى منهما رتبة من فوض امره الى الله فصار لايحب لنفسه موتا ولاحيوة بل يكون احب الاشياء اليه حبه الى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء الى مقام التسليم والرضاء وهو غاية المنتهى وهو معنى قول المصنف فيما يأتى (وبالكاره) اى والمراد بالكاره لقاء الله (الراغب الى الدنيا) مالا وجاها ومنالا كما قدمنا (بخلاف الخائف هجومه) اى هجوم الموت ومأتاه بغتة (قبل تمام التوبة) وتدارك اوقات

الغفلة فى الحوبة (واصلاح الزاد) ليوم المعاد (فهو انما يكره فوت اللقاء) اى لانفس اللقاء وعلامة صدق هذا ان يكون دائم الاستعداد لا شغل له سوى اعداد الزاد للمعاد قال القعقاع ابن حكيم قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فلواتانى ما احببت تأخير شئ منه وقال الثورى رأيت شيخا فى مسجد الكوفة يقول انا فى هذا المسجد منذ ثلاثين سنة انتظر الموت ان نزل بى اواتانى ما امرته بشئ ولا نهيته عن شئ ولا لى على احد شئ ولالى عند احد شئ (والاعلى) اى اعلى المراتب بالنسبة الى ماذكر من الموت وسائر المناقب (ترك الاختيار) اى فى امر الافيما اراد الله منه ان يختاره (والتفويض) بالرفع اى وتفويض امره وتسليمه الى المدبر المختار بقوله تعالى * وربك يخلق مايشاء ويختار * وفى الاخبار عن سيد الاخيار وسند الابرار لايتمنين احدكم الموت فان فعل ذلك لامحالة فليقل اللهم احينى ما كانت الحيوة خيرا لى وتوفنى اذا كانت الوفاة خيرا لى واجعل الحيوة زيادة لى فى كل خير واجعل الموت راحة لى من كل شر وانما كره بعض الانبياء والاولياء الموت فان الدنيا مزرعة الآخرة وطول العمر فى العبادة من كمال السعادة (ويفرغ القلب) اى وان يفرغ قلبه (عن غير الموت) اى استعداده قبل الفوت (ويتفكر دائما تفكر العازم على السفر) هائما من خوف البحر والبر واوضح طريق فيه ان يذكر موت اخوانه واقرانه الذين مضوا قبله ويتذكر مصرعهم تحت التراب ويتفكر صورهم فى مناصبهم ومقام حضورهم وكيف تبددت الآن اجزاؤهم فى قبورهم وكيف ارملوا نساءهم وايتموا بناتهم وابناءهم وضيعوا اموالهم ونقضوا اموالهم وخلت منهم مجالسهم واخبارهم ومساجدهم وآثارهم مع ما كان بهم من طول املهم للعيش والبقاء ونسيانهم للموت والفناء وانخداعهم بمواساة الاسباب وركونهم الى القوة والشباب وميلهم الى الغفلة عما يرادبهم من الموت الذريع والهلاك السريع وانه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله وعقبانه وكيف كان ينطق وقد اكل الدود لسانه وكيف كان يضحك وقد اكل التراب اسنانه وانه كيف كان يريد لنفسه مالايحتاج اليه الى عشرين سنة ونحو ذلك من الاحوال والاهوال فعند ذلك ينظر الى نفسه انه مثلهم فى عاقبة امره قال ابو الدرداء اذا ذكرت الموتى فعد نفسك كاحدهم وقال ابن مسعود (السعيد من وعظ بغيره وقال عمر بن عبد العزيز الاترون انكم تجهزون غاديا ورايحا الى الله عز وجل تضعونه وقد توسد التراب وخلف الاحباب وقطع الاسباب وواجه الحساب ونظر ابن مطيع ذات يوم الى داره فاعجبه حسنها فبكى ثم قال والله لولا الموت لكنت بك مسرورا (والاصل فيه) اى فى ذكر الموت (الانتباه) اى استيقاظ القلب من نوم الغفلة (وهو) اى الانتباه (خلاف الغرور) اى ضده ولذا قيل الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا (وهو) اى الغرور (سكون النفس) والطمئنانها وهى قوة فى الانسان

مائلة الى الشر والفساد كما قال تعالى * ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي * فمن الغرور ميلها (الى مايوافق الهوى والشبهة) ويخالف الهدى والسنة بان تكون ارادتها موافقة الطبع من غير داعية الشرع واما اذا اجتمع الهوى والهدى فهو نور على نور وسرور على سرور ولذا قال تعالى * ومن اضل ممن اتبع هويه بغير هدى من الله * (فورد في التنزيل (لاتغرنكم الحيوة الدنيا) فانها غدارة مكارة غرارة سحارة فقيل انها اسحر من هاروت وماروت (ولا يغرنكم بالله الغرور) اى الشيطان المغرور وفى الترتيب تنبيه نبيه على ان من احب الدنيا يضله الشيطان ومن تركها لم يقدر عليه بالطغيان بل قيل من اراد الدنيا لم يقدر على هدايته جميع الانبياء ومن ترك الدنيا لم يقدر على اضلاله جميع الشيطان واهل الاغواء وقال عز وعلا * وغرتكم الامانى حتى جاء امر الله وغركم بالله الغرور * وفى الحديث حبذا نوم الاكياس وفطرهم كيف يعيبون سهر الحمقى واجتهادهم ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين افضل من على الارض من المغترين كذا فى الاحياء وهو من قول ابى الدرداء بنحوه كما رواه ابن ابى الدنيا وللترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث شداد بن اوس الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها ويتمنى على الله (وانواعه) اى انواع الغرور (كثيرة) واكثرها كبيرة لان الغرور عبارة عن بعض انواع الجهل اذ الجهل هو ان يعتقد الشئ ويراه على خلاف ماهو به فالغرور هو الجهل الا ان كل جهل ليس بغرور بل يستدعى الغرور مغرورا فيه مخصوصا ومغرورا به وهو الذى يغره فمن اعتقد انه على خير اما فى العاجل اوفى الآجل عن شهوة فاسدة او شبهة كاسدة فهو مغرور واكثر الناس يظنون بانفسهم الخير الا ان غرور بعضهم اظهر واشدها غرور الكفار وغرور العصاة والفجار (كايثار الدنيا) اى اختيارها فانه من اقبح انواع الغرور ثم ان اختيارهم الدنيا واغترارهم بها (لكونها نقدا) حاضرة (على الآخرة لكونها نسئة) اى متأخرة غائبة وذلك جهل وغرور (لان النسئة الكثيرة راجحة) على النقد القليل (وان شك فيه) اى فى حصول النسئة الكثيرة وانما يرجح مع وجود الشك فيه (والمريض بترك اللذات) التى هى نقد الحالات (ليصح) زمانا طويلا (فى المستقبل) من الاوقات (والتاجر يخاطر الاموال) اى يوقعها فى الخطر من الاهوال كركوبه فى البحر وسفره فى البر وتحمله شدائد الاحوال (ليربح فيه) اى فى زمان الاستقبال (فالآخرة اولى) بالاختيار من الدنيا (للتيقن بها) اى بالآخرة (وعدم نسبة الدنيا اليها) اى الى العقبى (شدة ودواما) اى كمية وكيفية ونظاما كما قال تعالى * والآخرة خير وابقى * بل قيل لو كانت الدنيا ذهبا فانيا والآخرة خزفا باقيا لكان العاقل اختار الآخرة فكيف والامر بالعكس ولمن غرته الحيوة الدنيا فان اليقين خير من الشك ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك فلا

يترك اليقين بالشك وهذا ونحوه اقيسة فاسدة تشبه قياس ابليس حيث قال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين والى هؤلاء الاشارة بقوله تعالى * اولئك الذين اشتروا الحيوة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون * وعلاج هذا الغرور اما بتصديق الايمان واما بتحقيق البرهان اما الاول فهوان يصدق الله فى قوله * ما عندكم ينفد وما عند الله باق * وقوله * وما عند الله خير وابقى * وقوله * والآخرة خير وابقى * وقوله * وما الحيوة الدنيا الامتاع الغرور * واما الثانى فيعلم مماتقدم والله اعلم وفى هذا المقام قال على كرم الله وجهه لبعض الملحدين ان كنت ما قلته حقا فقد تخلصت وتخلصنا وان كان ماقلنا حقا فقد تخلصنا وهلكت وماقال على هذا عن شك منه فى الآخرة ولكن كلم الملحد على قدر عقله فمن شك فى الآخرة يجب عليه بحكم الحزم ان يقول الصبر اياما قلائل وهى منتهى العمر قريب بالاضافة الى مايقال من امر الآخرة فان كان ماقيل فيه كذبا فما يفوتنى الا التنعم ايام حياتى وقد كنت فى العدم من الازل الى الآن لا اتنعم فاحسب انى بقيت فى العدم وان كان ماقيل صدقا فابقى فى النار ابد الآباد وهذا لا يطاق فيه العباد ولذا قال ابو العلاء المقرى *

* قال المنجم والطبيب كلاهما : * لايحشر الاموات ، قلت اليكما : *

* ان صح قولكما فلست بخاسر * لو صح قولى فالخسار عليكما *

ومن جملة غرور الكفار قول بعضهم فى انفسهم وبالسنتهم ان كان لله من معاد فنحن به احق من غيرنا ونحن اوفر حظا منه واسعد حالا كما اخبر الله عنه من حال الرجلين المتحاورين اذ قال * وما اظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لاجدن خيرا منها منقلبا * وجملة امرهما كما قيل فى التفسير ان الكافر منهما بنى قصرا بالف دينار واشترى بستانا بالف دينار وخدما بالف دينار وزوجة بالف دينار وفى ذلك كله يعظه المؤمن ويقول اشتريت قصرا وبستانا يخرب ويفنى الا اشتريت قصرا وبستانا فى الجنة لا يفنى واشتريت خدما بالف دينار وزوجة بالف دينار الا اشتريت خدما لايموتون وازواجا من الحور العين لايفنون وفى كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول ما هناك شئ وماقيل من ذلك فهو اكاذيب وان كان ليكونن لى فى الآخرة خير من هذا وكذا وصف الله قول العاص بن وائل اذ يقول * لاوتين مالا وولدا * ورد عليه بقوله * اطلع الغيب ام اتخذ عند الرحمن عهدا * وروى عن الخباب بن الارت انه قال كان لى على العاص بن وائل دين فجئت اتقاضاه فلم يقضنى فقلت انى اجده فى الآخرة وقال اذا صرت الى الآخرة فان لى هناك ولدا ومالا فاقضيك منه فانزل الله تعالى * افرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لاوتين مالا وولدا * رواه الشيخان وقال عز وجل * ولئن اذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما اظن الساعة

قائمة

قائمة ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى * الآية وذلك انهم ينظرون تارة الى نعيم الله عليهم فى الدنيا فيقيسون عليها نعم الآخرة وتارة الى تأخر العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة ويقولون كما اخبر الله عن بعضهم * لولا يعذبنا الله بمانقول * الآية واخرى ينظرون الى المؤمنين وهم فقراء شعث غبر فيزدرونهم ويستحقرونهم ويقولون اهؤلاء من الله عليهم من بيننا ويقولون لوكان خيرا ماسبقونا اليه * ولم يعرف هذا المغرور ان الله يحمى عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما يحمى احدكم مريضه الطعام والشراب وهو يحبه كما رواه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه من حديث قتادة بن النعمان وكان ارباب البصائر اذا اقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا ذنب عجلت عقوبته واذا اقبل الفقر قالوا مرحبا بشعار الصالحين فالمغرورون اذا اقبلت عليهم الدنيا ظنوا انها كرامة عند الله واذا صرفت عنهم ظنوا انها هوان كما اخبر الله تعالى عنهم بقوله * فاما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فاكرمه ونعمه فيقول ربى اكرمن واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى اهانن كلا * بين ان ذلك غرور من كل منهما فقد قال الحسن كذبهما جميعا بقوله كلا يقول ليس هذا بكرامتى ولاهذا بهوانى ولكن الكريم من اكرمته بطاعتى غنيا كان اوفقيرا والمهان من اهنته بمعصيتى غنيا كان اوفقيرا (والاعتماد) بالجراى وكالاعتماد (على مجرد الايمان) مع ترك العبادات وارتكاب المحظورات فانه من اعظم الغرور فى الحالات (فورد) فى التنزيل (وانى لغفار لمن تاب) عن الشرك والكفران (وآمن) بالقلب واللسان (وعمل صالحا) لسائر الاعضاء والاركان من ارتكاب الحسنات واجتناب السيئات (ثم اهتدى) بالاستقامة فى الحالات الى المماة فالمغفرة مقيدة بهذه الطاعات وكقوله تعالى * ان رحمت الله قريب من المحسنين * فى العبادات وقيل للحسن قوم يقولون نحن نرجوا الله ويضيعون العمل فقال هيهات هيهات تلك امانيهم من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هربه (والعصر) اى اقسم بصلوة العصر التى هى الصلوة الوسطى اوبعصر المصطفى اوبالدهر الذى هومنبع الخير والشر ومعدن النفع والضر (ان الانسان) اى جميع افراده (لفى خسر) اى خسارة فيماعندهم من تجارة (السورة) اى * الا الذين آمنوا * كالصديق * وعملوا الصالحات * كالفاروق * وتواصوا بالحق * كذى النورين * وتواصوا بالصبر * كالمرتضى (وعلى) اى وكالاعتماد على (انه تعالى كريم) مع ترك الطاعات وارتكاب المنهيات وطلب الدنيا والشهوات فيغفرلى فى الآخرة بكرمه وفضله ويدخلنى فى الجنات ومنشأ هذا قوله تعالى * ياايها الانسان ماغرك بربك الكريم * حيث لقنه بان يقول غرنى ربى كرمك وقد قيل انه تعالى كما انه كريم رحيم متفضل بالثواب شديد العقاب فقد قال تعالى * فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى

ويقولون سيغفرلنا * وقال تعالى * وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا اونصارى تلك امانيهم (فورد) فى التنزيل مايدل على ذم الغرور بارتكاب المحظور (وان ليس للانسان نفع فى العقبى (الاماسعى) من خير فى الدنيا * وان سعيه سوف يرى * قليلا اوكثيرا * فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (وفيه العكس) اى وفى هذا الاعتماد عكس ماينبغى فى الاعتقاد (بترك التعويل) اى الاعتماد على المولى (فى الدنيا) اى فى امورها ومهماتها (مع ورود من) وفى نسخة وورد من (يتوكل على الله فهو حسبه) وحاصله ان المغرور لم يعتمد على كرمه سبحانه فى امر الدنيا مع ورود وعدها فى باب التوكل من غير قيد مباشرة بسبب من اسباب السعى ويعتمد فى باب الآخرة على كرمه مع ان وعدها مقيد بالسعى والعمل وتوضيحه انه يجتهد فى امور الدنيا ويعتمد فى امور الآخرة على كرم المولى مع انه كريم فى الدنيا والآخرة فماله لم يعتمد على المولى فى الدنيا من غير السعى مع انه سبحانه ما كلفه بكسبه ويترك العمل فى الآخرة مع انه عزوجل كلفه به ولم يرض عنه بتركه (والعلاج) اى علاج الغرور (العلم) بالكتاب والسنة وما يقربه من الله وما يبعده عنه وتوضيحه ما فى الاحياء من ان الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والاهانة اما بالبصيرة واما بالتقليد اما بالبصيرة فبأن يعرف وجه كون الالتفات الى شهوات الدنيا مبعدها عن الله ووجه كون التباعد عنها مقربا الى الله يدرك بالالهام فى منازل العارفين والاولياء وشرحه من جملة علوم المكاشفة ولايليق بعلوم المعاملة واما معرفته بطريق التقليد والتصديق فهو ان يؤمن بكتاب الله ويصدق رسوله وقد قال تعالى * ايحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون * وقال * سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * قيل فى تفسيره انهم كلما احدثوا ذنبا احدثنالهم نعمة ليزيد غرورهم وقال تعالى * فتحنا عليهم ابواب كل شىء حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون * وقال تعالى * انما نملى لهم ليزدادوا اثما * وقال * ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار * الى غير ذلك مما ورد فى الكتاب والاخبار (والتفكر) فى احوال الماضين من الامة والمراد بالتفكر احضار القلب العارف فاذا اجتمعت فيه وازدوجت على ترتيب مخصوص انتج ذلك العلم ضروريا وصورته كمن يعلم مثلا ان الابقى بالايثار اولى ثم يعلم ان الآخرة خير وابقى فينتج ان اختيار الآخرة اولى بلغنا الله المقام الاثنى *

﴿ الباب الخامس عشر فى نفى الخواطر والرياضة ﴾

اى نفى الخواطر الدنية وتحصيل رياضة النفس الردية لتهذب بالاخلاق البهية العلية والاحوال السنية الهنية وتندرج فيه عجائب القلب من غرائب خلق الرب (بسم الله

الرحمن

الرحمن الرحيم) استعين به على كل خلق كريم (الاهم) فى امر الدين الاتم (اصلاح القلب) وحفظه عما يفسده لثمانية عشر وجها (لنظره تعالى اليه) واقباله عليه كما انه يصلح بدنه وثوبه ليحسن نظر الخلق اليه (فورد) فى الحديث كما تقدم (ان الله لاينظر) اى نظر عناية ورعاية (الى صوركم واموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم ونياتكم) وفى رواية واعمالكم وفى اخرى واحوالكم ويشير اليه قوله تعالى * انه عليم بذات الصدور * فاذا كان القلب موضع نظر الرب كما يشير اليه حديث لايسعنى ارضى ولا سمائى ولكن يسعنى قلب عبدى المؤمن فواعجبا بمن يهتم بتنظيف وجهه الذى هو منظر الخلق ولا يهتم بتطهير قلبه الذى هو منظر ربه (وتعلق صلاح الجسد بصلاحه) اى لتوقفه ظاهرا على تحققه باطنا وكذا تعلق فساد الجسد بفساده (فورد) فى الحديث كما تقدم (ان فى الجسد لمضغة) اى قطعة لحم مجوفة كأنها ممضوغة (اذا صلحت) بضم اللام ويفتح (صلح الجسد كله) تمامه واذا فسدت فسد الجسد كله (الا) للتنبيه (وهى) اى تلك المضغة (القلب) اى محل تعلقه وسرير ملكه فان القلب ملك مطاع ورئيس متبع والاعضاء كلها له تبع فاذا صلح المتبوع صلح التبع واذا استقام الملك استقام الرعية ولذا قيل الناس على دين ملوكهم (وسعادة الابد) اى وسيادة السرمد (بسلامته) اى بسلامة القلب من نحو الكفر والغل والحقد والحسد (فورد) فى التنزيل (يوم لاينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم) اى من كل خلق سقيم كالشرك والنفاق والشقاق والاغراض الدنيوية والاعواض الدنية وقيل هو ما لا يخطر فيه الا شهود الرب (وكونه) اى ولكون القلب (معدن النفائس) ومنبع الفواضل المستوهبة (من العلم والمعرفة) اى علم الكتاب والسنة ومعرفة الرب التى هى اجل انواع النعمة (وسائر الفضائل) المكتسبة من تحسين الاخلاق وتزيين الشمائل والحاصل ان القلب خزينة نعم الرب فحق لها ان يحفظ ويحرس من الآفات ويكرم ويبجل بضروب الكرامات ثم اعلم ان شرف الانسان وفضله الذى فضله الله على سائر خلقه باستعداده من بين عباده لمعرفة ربه التى هى فى الدنيا جماله وفخره وفى الآخرة كماله وعدته وذخرته وانما استعد للمعرفة بقلبه وجنانه لابعضو آخر من اركانه فالقلب هو العالم بالله وهو العامل لله وهو الساعى المتقرب الى الله وهو المقرب اليه والمشهود عليه والكاشف بما عند الله ولديه وانما الجوارح اتباع وخدم وآلات كالجوانح يستخدمها القلب فى خدمة الرب استعمال الملك المعبيد واستخدام الراعى للرعية والصانع للآلة والقلب هو المقبول عند الله اذا سلم من غير الله وهو المحجوب من الله اذا صار مستغرقا بغير الله وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب وهو المعاقب وهو الذى يسعد بالقرب من الله تعالى فيفلح اذا زكاه وهو الذى يخيب ويشقى اذا دنسه ودساه وهو

المطيع بالحقيقة لله تعالى وانما السارى الذى ينتشر على الجوارح من العبادات انواره وهو العاصى المتمرد على الله سبحانه وانما الطارى الى الاعضاء من الفواحش آثاره وباظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه اذ كل اناء يترشح بما فيه وهو الذى اذا عرفه الانسان فقد عرف نفسه واذا عرف نفسه فقد عرف ربه وهو الذى اذا جهله الانسان فقد جهل نفسه واذا جهل نفسه فقد جهل ربه ومن جهل قلبه فهو لغيره اجهل فمعرفة القلب وحقيقة اوصافه التى هى مظاهر الرب اصل الدين واساس طرق المجتهدين (وقصد العدو اليه) اى ولقصد الشيطان الذى هو اكبر اعدائه دائما الى افوائه (كما ورد به) اى بقصد العدو الى القلب (الخبر) وهو قوله عليه السلام ان الشيطان لجاثم وفى رواية واضع خطمه على قلب ابن آدم فاذا ذكر الله تعالى خنس اى تأخر وخلاه واذا غفل التقم قلبه فحدثه ومناه ابن ابى الدنيا وابويعلى وابن عدى (وكثرة شغله) اى ولكثرة اشتغال القلب واحواله وترتب ما عليها من اقوال الانسان وافعاله (فهو) اى القلب (معترك العقل والهوى) اى موضع عراكهما وقتالهما وهلاكهما فاذا برز خاطر الهوى داعيا الى الشر قابله خاطر العقل ودافعه داعيا الى الخير فتارة يغلب العقل ويعلو علم الهدى واخرى يغلب الجهل فترتفع راية النفس والهوى فالحرب سجال وقد قال الملك المتعال * وتلك الايام نداولها بين الناس * وقد قيل *

فيوم علينا ويوم لنا * ويوم نساء ويوم نسر

وفى الحديث رجعنا من الجهـــاد الاصغر الى الجهـــاد الاكبر ومنه قوله تعالى * والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (وكثرة العوارض) اى ولكثرة الامور الطارية والاحوال السارية (لورود الخواطر) الدنية فى القلوب الفواتر الردية من حب الدنيا والرياسات وحصول اللذات والشهوات واللهوات (مع العجز عن المنع) اى مع عجز السالك عن دفع وقوع ما هنالك فان الخواطر كالسهام لا تزال تقع فى القلب كالمطر لاتزال تنزل عليه ليلا ونهارا لا تنقطع ولا انت تقدر على منعها فتمتنع وليس بمنزلة العين التى هى بين الجفنين حتى تغمض وتستريح او اللسان الذى هو وراء الشفتين حتى تطبق وتصمت والحاصل ان الخواطر لا يقدر احد على منعها ولا على التحفظ عنها مع ان النفس مائلة اليها وهى محبوبة لديها (وسرعة الانقلاب) اى ولسرعة تقلب القلب فى الطاعة والمعصية للرب وسمى بالقلب لتقلبه فى احواله ولذا كان عليه السلام يكثر فى دعائه يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك رواه الترمذى وحسنه من حديث انس والحاكم من حديث جابر وقال صحيح على شرط مسلم ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك وفى رواية قالوا وتخاف يا رسول الله قال ومايؤمننى والقلب بين اصبعين من اصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء وللنسائى فى الـكبرى

وابن ماجه والحاكم وصححه على شرط الشيخين من حديث النواس بن سمعان مامن قلب الابين اصبعين من اصابع الرحمن ان شاء اقامه وان شاء ازاغه (فورد) من حديث ابى عبيدة بن الجراح كما رواه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم والبيهقى فى الشعب (انه) اى القلب (مثل العصفور) وهو الطير الصغير المشهور بالتقلب الكثير (يتقلب فى كل ساعة) اى الى جهة فكذا القلب تارة يميل الى طاعة ويقظة واخرى الى معصية وغفلة ولاحمد والحاكم وقال صحيح على شرط البخارى من حديث المقداد بن الاسود مثل القلب فى تقلبه كالقدر اذا استجمعت غليانا وفى رواية لهما قلب المؤمن اشد تقلبا من القدر فى غليانها وللطبرانى والبيهقى من حديث ابى موسى الاشعرى باسناد حسن مثل القلب كمثل ريشة بارض فلاة تقلبها الرياح ظهر البطن (وفيه) عطف بالمعنى على قوله لنظره لانه فى قوة قولنا ولما فيه اى فى القلب ومحله من الصدر (الانشراح) اى لانبساط والنشاط الموجب للصلاح والفلاح (والانفساح) اى الاتساع والانفتاح (عند عدم النقصان) اى نقصان القلب بارتكاب المخالفة بل يكونان عند كماله فى اكتساب الموافقة فللحاكم فى مستدركه من حديث ابن مسعود انه عليه السلام سئل عن قوله تعالى * افمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه * ما هذا الشرح فقال هو التوسعة ان النور اذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح والمعنى اتسع القلب لتجلى الرب وحفظ السر الذى شاهده فى القلب ولذا قيل صدور الاحرار قبور الاسرار ونعم ما قال بعض الابرار

* من اطلعوه على سر فنم به * لم يأمنوه على الاسرار ما عاش *

(والحجاب) عن رب الارباب وهو اشد العذاب أو الحجاب عن الاكتساب فهو بالجر عطف على النقصان اى عند عدم حجاب الملاهى ونقاب المناهى ويجوز رفعه عطفا على الانفساح اى وفى القلب حجاب المعاصى والشهوات المتراكمة الواردة على وجه القلب المانعة له عن مشاهدة تجليات الرب فان ذلك يمنع من صفاء القلب وجلائه فيمنع ظهور الحق بقدر ظلامه فى اثنائه وقد قال ابو سليمان الدارانى اذا اعتادت النفوس ترك الآثام جالت فى الملكوت ورجعت الى صاحبها بطريف الحكمة ويؤيده حديث لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السماء رواه احمد من حديث ابى هريرة (والمهلكات) التى هى ضد المنجيات (والانصراف) اى عند الانصاف والاعتراف (الى العلم) اى علم الشريعة والطريقة ليعمل به ليصل الى مراتب الحقيقة او المراد بالعلم هو التوحيد المقرون بوصف التفريد من معرفة ذات الحق وصفاته وقدرته فى مصنوعاته والتوجه اليه وترك كل ما يشغل لديه مما يرد عليه وانما زاد الانصراف الى العلم التوحيدى

لحصول الانشراح والانفساح ولم يكتف فى ذلك بعدم النقصان والحجاب والملكات لان المطيع القاهر لشهواته الماهر فى استقامة حالاته من طاعاته وعباداته وان كان قلبه صافيا عن اهوائه وغفلاته فانه لايحصل له الانشراح والانفساح بل ينكشف له ما هو متفكر فيه من دقايق آفات الاعمال ان كان تفكره فيها اومن مصالح المعيشة والاحوال ان كان تفكره فيها واما الانشراح والانفساح فـلا يحصل اذا الا انصرف القلب الى العلم التوحيدى المتعلق بالذات والصفات بشرط عدم النقصان والحجاب والملكات (وهو) اى العلم المترتب على العمل (المراد بالامانة التى حملها الانسان) اى قبلها بقابليته لتحمل التكاليف الشرعية من تصحيح العقائد الدينية الاصلية وارتكاب الفرائض الفرعية واجتناب الامور المنهية وفى الاحياء فيه اشارة الى ان للقلب خاصة تميز بها عن السموات والارضين والجبال وتلك الامانة هى المعرفة والتوحيد وقلب كل آدمى مستعد لحمل الامـانة ومطيق لها فى الاصل انتهى ولايخفى ان جميع الاجزاء من الارض والسماء له قابلية ذلك بل الواقع كذلك عند العارفين بما هنالك كما حقق فى قوله سبحانه * وان من شئ الايسبح بحمده * وغير ذلك من الآيات والاحاديث الثابتات ان الاشياء كلها لها معرفة بصانعها وكذا اهل السموات والارض والجبال من النساء والرجال فالاظهر ان يقال ان الملائكة مظاهر الجمال فلاتتأتى منهم المعصية وما يقتضيه من العقوبة والشياطين مظاهر الجلال فلا يتصور منهم الطاعة ولايترتب عليها من الرحمة فاراد الله سبحانه جمعا يكون لهم مرتبة الكمال بان يكون فيهم نصيب وحظ من الجمال والجلال وتقع فيهم قـابلية للطاعة والرحمة والمعصية والعقوبة ولذا ورد لولم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفرلهم وفى قوله تعالى * نبئ عبادى انى انا الغفور الرحيم وان عذابى هو العذاب الاليم * ايماء الى ذلك وفى قوله * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول * كذلك ثم من افراد هذا الانسان من يكون على الشان بحيث مع انه خلق فيه داعية العصيان جاهد نفسه واطاع ربه وقام بحق الامانة فى ميدان التبيان ومنهم من ترك الطاعة وضيع الامانة بالخيانة من غاية الطغيان فصار المؤمن الكامل من الانسان اعلى مرتبة من ملائكة الرحمن والكافر منهم اخفض منزلة من جنس الشيطان كما يشير اليه قوله تعالى * ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار * فنعوذ بالله من دار البوار وبما قررنا فيما حررنا انكشف وجه قوله سبحانه * انا عرضنا الامانة * اى حملها من غير الخيانة * على السموات والارض والجبال * اى ذواتها وما فيها من سكانها ومتصرفاتها * فابين ان يحملنها * لعدم استعدادهن لها ولكونهن ما خلقن لاجلها * وحملها الانسان * مع كونه ضعيف البنيان فكل ميسر لما خلق له * انه كان ظلوما * على نفسه بتحمله * جهولا * لعاقبة امره وتحمله وهذا حكم عليه باعتبار اغلب افراده ممن لم يميز بين صلاح حاله وفساده فى مآله كما اشار اليه بقوله

ليعذب

* ليعذب الله المنافقين * الآية (وزيادة اليقين) اى وفى القلب مزية الايقان فى امر الدين (والايمان) اى وفيه الايمان الذى سبب الامن والامان وباعث على الاسلام والاحسان فلهما درجات فيها مناقب ادناها التقليد كما لعوام المؤمنين واوسطها الخروج عن التقليد بنوع من استدلال التوحيد كما للمتكلمين واعلاها المشاهدة والمكاشفة كما للعارفين ومثاله كمن اخبر صادق بوجود زيد فى الدار فصدقه من غير شهوده ثم سمع صوته فاستدل به على وجوده ثم رآه وشاهده فالمشاهدة نتيجة المجاهدة ثم المشاهدة ايضا على مراتب كمن يشاهد السلطان جالسا على سريره من وراء الحائط اوحجاب ستره ثم من يشاهده من داخل داره ثم من قريب فى مزاره ثم من هو جالس فى مجلسه ثم من هو جالس قريبا منه بحيث يلاحظ صحفة وجهه وجميع ما خفى عن غيره وقس على هذا تفاوت درجات المشاهدة فى الامور الالهية السبحانية والعلوم التوحيدية الربانية الصمدانية كما يشير اليه قوله تعالى * ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين او ادنى * ثم اكثر العوام ايمانهم تقليد تبع لآبائهم فانهم اذا بلغوا سن التمييز سمعوا وجود الله وعلمه وارادته وقدرته وبعثة الرسول وصدقه فيما جاء به وكما سمعوا قبلوه وثبتوا عليه واطمانوا اليه وهذا الايمان سبب النجاة فى الآخرة عند جمهور المتكلمين واهله من اوائل رتب اصحاب اليمين وليسوا من المقربين لانه ليس فيه كشف وبصيرة وانشراح صدر نور اليقين وقلوب اليهود والنصارى ايضا مطمئنة بما سمعوا من آبائهم الا انهم اعتقدوا ما اعتقدوه خطأ لانه القى اليهم الخطأ والمسلمون اعتقدوا الحق لا لاطلاعهم عليه ولكن لما القى اليهم كلمة الحق (ودرجات العلم) اى وفيه مراتب العلم من علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين اوالمراد بها علم الشريعة التى هى متعلقة بالاعمال الظواهر وعلم الطريقة التى هى مطلوبة فى الاخلاق السرائر وعلم الحقيقة التى هى المواهب بعد تحصيل المكاسب من شرائف المناقب ولطائف المراقب (والنور) اى وفيه النور (المسؤل فى الدعاء الماثور) اللهم اجعل فى قلبى نورا رواه مسلم وغيره (والطبع) اى وفيه الختم قال تعالى * ونطبع على قلوبهم * و * ختم الله على قلوبهم (والرين) اى وفيه السواد الذى بفم الفؤاد (عند الاتصاف بالرذائل) والخلو عن الفضائل (وتراكم الظلام) اى وبتكاثف الظلمات الناشى عن الظلم وسائر السيئات (والاحتجاب منه تعالى) بعدم توفيق الحسنات وهو مأخوذ من قوله تعالى * كلا بل ران * اى غلب وعلا * على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * اى عن رحمته اورؤيته وفى الحديث ان المؤمن اذا اذنب كانت نكتة سوداء فى قلبه فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها واذا زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلكم الران الذى ذكر الله فى كتابه * كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون * اخرجه البغوى فى تفسيره

باسناده (والحقيق) عند اهل التوفيق (انه) اى القلب (هو ذلك الانسان العارف) اى المدرك للجزئيات (العالم) بالكليات (المخاطب) بالامر والنهى (المطالب) باكتساب المأمورات واجتناب المنهيات ليترتب عليهما الثواب والعقاب فى دار الجزاء والحساب * فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم فى جهنم خالدون (يطلق عليه) اى على الانسان (اسم القلب) اى مجازا (لتعلقه) اى الانسان (به) اى بالقلب (بلا واسطة) اى من غير واسطة شئ آخر (وبسائر الحواس) اى ولتعلقه بباقيها (بواسطته) اى القلب (كما يطلق) اى القلب (على المضغة المكية) وهى قطعة لحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الايسر من الصدر وهو لحم مخصوص فى باطنه تجويف وفى ذلك التجويف دم اسود وهو منبع الروح ومعدنه كذا فى الاحياء تبعا للحكماء وهذا القلب موجود للبهايم بل هو موجود للميت الهايم واما قول سهل التسترى القلب هو العرش والصدر هو الكرسى فمراده تشبيه القلب بالعرش والصدر بالكرسى وعن كعب الاحبار قال دخلت على عائشة فقلت الانسان عيناه هاد واذناه قمع اى واع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب ملك فاذا طاب الملك طاب جنوده فقالت هكذا سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول وقال على رضى الله عنه فى تمثيل القلوب ان لله تعالى فى ارضه آنية وهى القلوب فاحبها فارقها واصفاها واصلبها ثم فسره فقال اصلبها فى الدين واصفاها فى اليقين وارقها على الاخوان يعنى المرافقين وهو اشارة الى قوله تعالى * اشداء على الكفار رحماء بينهم * وقوله تعالى * مثل نوره كمشكوة فيها مصباح * قال ابى بن كعب مثل نور المؤمن وقلبه وقوله * او كظلمات فى بحر لجى * مثل قلب المنافق الفاسق وقال زيد بن اسلم فى قوله تعالى * فى لوح محفوظ * هو قلب المؤمن وفى الحديث اذا اراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه الديلمى من حديث ام سلمة باسناد جيد ولاحمد والطبرانى فى الصغير من حديث ابى سعيد القلوب اربعة قلب اجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب منكوس فذلك قلب الكافر وقلب اغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه ايمان ونفاق فمثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فاى المادتين غلبت عليه حكم له بها وفى رواية ذهبت به وفى الحديث القدسى والكلام الانسى لم يسعنى ارضى وسمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الوادع كذا فى الاحياء وقال مخرجه لم ارله اصلا وتعقبه بعض الحفاظ بانه رواه عبد الله بن احمد فى الزهد عن وهب بن منبه بلفظ ان الله فتح السموات لحزقيل حتى نظر الى العرش فقال حزقيل سبحانك ما اعظم شانك يارب فقال الله ان السموات والارض ضعفن عن ان يسعنى ووسعنى قلب عبدى

المؤمن

المؤمن الوادع اللين انتهى ولايخفى ان هذا من الآثار فلاينافى مانفاه المخرج من الاخبار وفى الخبر قيل من خير الناس فقال كل مؤمن محموم القلب فقيل وما محموم القلب فقال هو التقى النقى الذى لاغش فيه ولابغى ولاغدر ولاحسد رواه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر باسناد صحيح وفى الاحياء عن عمر رضى الله عنه رأى قلبى ربى اذا كان قد رفع الحجاب بالتقوى ومن ارتفع الحجاب بينه وبين قلبه تجلى صورة الملك والملكوت فى قلبه فيرى جنة عرض بعضها السموات والارض اما جملتها فاكبر سعة من السموات والارض لان السموات والارض عبارة عن عالم الملك والشهادة وهو وان كان واسع الاطراف متباعد الاكناف فهو متناه على الجملة واما عالم الملكوت وهو الاسرار الغائبة عن مشاهدة الابصار المخصوص بادراك البصائر فلا نهاية له نعم الذى يلوح للقلب فيه مقدار متناه ولكنه فى نفسه وبالاضافة الى علم الله تعالى لانهاية له وجملة عالم الملك والملكوت اذا اخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات اذليس فى الوجود شئ سوى الله تعالى وافعاله ومملكته وعبيده من افعاله فمايتجلى من ذلك للقلب هو الجنة بعينها عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة عند اهل الحق ويكون سعة ملكه فى الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار مايتجلى له من الله تعالى وصفاته وافعاله من مصنوعاته وانما مراد الطاعات واعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه وقد افلح من زكاه ومراده بتزكيته حصول نور الايمان فيه اعنى اشراق نور المعرفة وفى الاحياء * ان القلب لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق عجيب وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسان وهى المدركة العالمة العارفة من الانسان وهو المخاطب والمطالب والمعاتب والمعاقب ولها علاقة مع القلب الجسمانى وقد تحيرت عقول اكثر الخلق فى ادراك وجه علاقته وان تعلقها به يضاهى تعلق الاعراض بالاجسام والاوصاف بالموصوفات انتهى ومن هنا قيل معنى قوله من عرف نفسه فقد عرف ربه تعجيز وفيه تنبيه على ان ليس لاحد من الانسان ان يعرف حقيقة نفسه مع انه بها باكمال انسه هذا وفى اطلاق القلب على الانسان لم يظهر وجه فى ميدان التبيان بل المغايرة بينهما ظاهرة عند الاعيان لقوله تعالى * ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب * الآية فالصحيح ان القلب آلة لمعرفة الرب كما يشير اليه قوله تعالى * افلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها * والفرق بين القلب والنفس والعقل ان القلب يفرق بين الحق والباطل ثم يتقلب فى قبول احدهما ويتردد فى خاطرهما ويترتب عليهما صلاح الجسد وفساده والنفس غالبا مائلة الى الشهوات واللذات كما يشير اليه قوله سبحانه * وفيها ما تشتهيه الانفس * من المأكولات والمشروبات والمشمومات والمسموعات وسائر الملذوذات ثم النفس المذمومة هى التى لا تفرق بين المباحات

والمحظورات ومنه قوله سبحانه * واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى واما من طغى وآثر الحيوة الدنيا فان الجحيم هى المأوى * والعقل الجزئى مشترك بين الحيوان والصبيان وسائر الانسان والعقل الكلى وهو المميز بين الخير والشر فى العاقبة دنيويا او اخرويا وقيل بين خير الخيرين وشر الشرين فهذا عقل المطبوع وهو لاينفع بدون عقل المشروع ولذا ترى الحكماء حجبوا بعقولهم الناقصة وان ادعوا كمالها عن متابعة الانبياء زعما منهم ان الرسل ارسلوا للعامة وانهم من الخاصة فصاروا اجهل من كل جاهل فان المقلد قبل ايمانه وفاز بتقليده درجات جنانه والحكيم بعقله تنزل فى دركات نيرانه (واسم النفس) اى ويطلق على الانسان اسم النفس لقوله تعالى * خلقكم من نفس واحدة * فالنفس جسم كثيف والروح جسم لطيف له سريان شريف فى سائر الاعضاء لطيف كلطافة سريان الهواء فى البدن من قوله * كل نفس ذائقة الموت * و * علمت نفس ماقدمت واخرت * و * علمت نفس مااحضرت * وكالزبد فى اللبن والدهن فى الجوز واللوز وماء الورد فى الورد والقلب داخل النفس وهو الطف واضوء من النفس والسر نور رحمانى آلة للنفس فانها تعجز عن العمل بدونه ولا تفيد فائدة ما لم يكن السر عنده والحاصل ان النفس هنا عبارة عن الهيكل الانسانى المركب من الجسد الجسمانى والروح الربانى اذ المراد من نفس واحدة آدم عليه السلام (فقسمها) اى النفس (التنزيل) اى القرآن بعد اطلاقه النفس على آدم ونحوه وما يتعلق به من الاجزاء (الى مطمئنة) حيث قال تعالى * ياايتها النفس المطمئنة * اى بذكر الله سبحانه وهى النفس المؤمنة ولذا قال * ارجعى الى ربك راضية مرضية * الآية وهو يحتمل ان يراد بها الهيكل المركب الانسانى فالمراد بقوله * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى * اى مع عبادى الصالحين كقوله تعالى حكاية عن الانبياء والمرسلين * توفنا مسلمين والحقنا بالصالحين * وادخلنا الجنة آمنين ويشير اليه قوله سبحانه * الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب * ويحتمل ان يراد بها الروح المجرد عن الجسد فالمراد بقوله * فادخلى فى عبادى * اى فى اجسادهم وعلى كل تقدير اريد بالنفس الجنس (ولوامة) حيث قال * ولا اقسم بالنفس اللوامة * اى كثير الملامة لنفسها لاسيما يوم القيمة ان كانت عملت خيرا قالت هلا زدت وان عملت شرا قالت ليتنى لم افعل وهو قول الفراء فهى شاملة للنفس البرة والفاجرة وقيل تلوم على الخير والشر والنفع والضر وهو قول سعيد بن جبير وعكرمة وقال الحسن هى النفس المؤمنة فان المؤمن والله ما تراه الا يلوم نفسه ما اردت بكلامى ما اردت باكلى وان الفاجر يمضى عليه الدهر لا يحاسب نفسه ولايعاتبها وقال مقاتل هى النفس الكافرة يلوم نفسه فى العقبى على ما

فرط

فرط فى امر الله فى الدنيا وهو يحتمل الاحتمالين السابقين (وامارة) حيث قال تعالى * ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى * اى الامدة رحمة ربى بى اوالامن رحم ربى به ولايخفى انه لايصح اطلاق النفس بهذا الوصف على الانسان المعروف وفى بعض النسخ هنا زيادة وملهمة وهى نسخة مهملة اذلم يعرف فى آية منزلة (كما تطلق) اى النفس (على ما يجمع الرذائل) من سوء الشمائل (فسماها الشارع اعدى الاعداء) كما اخرجه البيهقى عن ابن عباس بسند ضعيف اعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك وهذا الاستعمال هو الغالب على الصوفية فهم يريدون بالنفس الجامع للصفات المذمومة من الانسان فيقولون لابد من مجاهدة النفس وكسرها (واسم الروح) اى ويطلق عليه اسم الروح ايضا بانفراده وفيه البحث الذى تقدم والله اعلم فان الارواح ضد الاشباح والانسان عبارة عن المركب منهما واستدلاله بقوله (فورد) فى التنزيل (قل الروح من امر ربى) ليس فيه دلالة على انه يطلق الروح ويراد به الانسان فان كل موجود ذات كمية ومقدار فهو من عالم الخلق وكل موجود منزه عن الكمية والمقدار فهو من عالم الامر كذا قيل والصواب ان كل ما خلق الله بالتدريج فهو من عالم الخلق وكل ما خلقه بمجرد الامر وهو بتعلق الارادة اوبلفظ كن على اختلاف فيه فهو من عالم الامر كما قال تعالى * اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون * وقال عز وجل * ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام * الى ان قال * الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين (كما يطلقه) اى الروح (الاطباء) من الحكماء (على الجسم المكيف) والصواب التوقف فى سر الروح وامره اذلم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما قاله ابن مسعود كما فى الصحيحين ومالم يتكلم فيه فليس لغيره ان يتكلم فيه وقد قال تعالى * وما اوتيتم من العلم * اى به وبغيره * الا قليلا * لان علم جميع الخلق بالاضافة الى علم الحق كقطرة من البحر والمراد به العلم بانه ما بوجوده الحيوة وبفقده الممات والاقرب فى تعريفه ماقيل من انه جسم لطيف روحانى ربانى منبعه تجويف قلب جسمانى وينتشر بواسطة العروق والضوارب الى اجزاء البدن ثم جريانه فى البدن وفيضان انوار الحيوة والحس والسمع والبصر والشم منه على اعضائه يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار فى زوايا البيت فانه لاينتهى الى جزء من البيت الا ويستنير به فالحيوة مثالها النور الحاصل فى الحيطان والروح مثاله السراج وسريان الروح وحركاتها فى الباطن مثاله مثال حركات السراج فى جوانب البيت بتحريك محركه واما قوله تعالى * فنفخت فيه من روحى * فالمراد به اضافة تشريف لان الروح من جملة مخلوقاته وقد ثبت ان الارواح خلقت قبل الاجساد بالفى عام واول الارواح روح خاتم الانبياء وكذا قوله

* وروح منه * اى من عنده اومن امره وانما اطلق الروح على جبريل الامين لتجرد روحه لان الملائكة كلهم ارواح متجردة ولتخصصه بنزول القرآن المسمى بالروح فانه سبب احياء الروح كما قال تعالى * يلقى الروح من امره على من يشاء من عباده * وقال * اومن كان ميتا فاحييناه * وسمى جبريل ايضا بالروح القدس اى المنزه عن النقصان فى تبليغ امر الحق الى رسل الانسان والله المستعان (واسم العقل) اى ويطلق عليه اسم العقل وفيه النظر السابق وما ذكره من الاستدلال فغير المطابق حيث قال (فورد اول ما خلق الله العقل وقال له اقبل الحديث) اى فاقبل وقال ادبر فادبر ثم قال الله عز وجل وعزتى وجلالى ماخلقت خلقا اكرم على منك: بك آخذ وبك اعطى وبك اثيب وبك اعاقب الحديث كذا فى الاحياء وقال مخرجه رواه الطبرانى فى الكبير والاوسط من حديث ابى امامة وابو نعيم من حديث عائشة باسنادين ضعيفين انتهى وقال ابن تيمية وتبعه الزركشى انه كذب موضوع باتفاق اهل العلم وتعقبه الحافظ السيوطى بما رواه عبد الله ابن الامام احمد فى زوائد الزهد عن الحسن مرفوعا مرسلا بسند جيد بلفظ لما خلق الله العقل الخ وفى الحديث دليل على ان العقل غير العلم فان العلم عرض لايتصور ان يكون اول مخلوق بل لابد ان يكون المحل مخلوقا قبله او معه ولانه لايمكن الخطاب معه (كما يطلق) اى العقل (على الصفة المكيفة) اى الوصف الذى يتميز الانسان به عن سائر البهائم من جنس الحيوان وهو الذى استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذى اراده الحرث بن اسد المحاسبى حيث قال فى حد العقل انه غريزة يتهيأ بها ادراك العلوم النظرية وكانه نور يقذف فى القلب به يستعد لادراك الاشياء وهذا هو الصواب فى تعريفه ونظيره ان الحيوة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والادراكات الحسية ثم العقل كالمرآة التى تفارق غيرها من الاجسام والاكوان فى حكاية الصور والالوان بصفة اختصت بها فى تلك الحالة وهى الصقالة وبها اتصفت بالآلة فعن ابن عباس مرفوعا لكل شىء آلة وعدة وان آلة المؤمن العقل رواه ابن المحبر وكذلك العين تفارق الجبهة فى هيئات وصفات بها استعدت للرؤية فنسبة هذه الغريزة التى هى العقل الى العلوم كنسبة العين الى الرؤية ونسبة القرآن والشرع الى هذه الغريزه فى سياقها الى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس الى البصر وعن على رضى الله عنه (رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع * ولاينفع مسموع * اذا لم يك مطبوع * كما لاينفع الشمس * وضوء العين ممنوع فالاول هو المراد بقوله عليه السلام ما خلق الله خلقا هو اكرم عليه من العقل كما اخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر من رواية الحسن عن عدة من الصحابة والاخير هو المراد بقوله عليه السلام لعلى اذا اكتسب الناس من انواع البر ليقربوا بها الى ربنا عز وجل فاكتسب انت انواع العقل تسبقهم بالزلفة والقربة رواه ابو نعيم فى الحلية وهو المراد ايضا بقوله عليه السلام لابى الدرداء اذا ازددت عقلا ازددت من

ربك

ربك قربا فقال بابى انت وامى فكيف لى بذلك فقال اجتنب محارم الله وأد فرائض الله تكن عاقلا واعمل بالصالحات من الاعمال تزدد فى عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتنل فى آجل العقبى بها من ربك القرب والعزة رواه الترمذى الحكيم وغيره وقال سعيد بن المسيب ان عمر وابى بن كعب وابا هريرة دخلوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا يا رسول الله من اعلم الناس فقال العاقل قالوا من اعبد الناس فقال العاقل قالوا فمن افضل الناس قال العاقل قالوا اليس العاقل من تمت مروته وظهرت فصاحته وجادت كفه وعظمت منزلته فقال عليه السلام * وان كل ذلك لما متاع الحيوة الدنيا والاخرة عند ربك للمتقين * ان العاقل هو المتقى وان كان فى الدنيا خسيسا دنيا رواه ابن المحبر وله من حديث انس من حديث ابن سلام سأل النبى عليه السلام فى حديث طويل فى آخره وصف عظم العرش وان الملائكة قالت يا ربنا هل خلقت خلقا اعظم من العرش قال نعم العقل قالوا وما بلغ من قدره قال هيهات لايحاط بعلمه هل لكم علم بعدد الرمل قالوا لا قال تعالى فانى خلقت العقل اصنافا شتى كعدد الرمل فمن الناس من اعطى حبة ومن النـاس من اعطى حبتين ومنهم من اعطى الثلاث ومنهم الاربع ومنهم من اعطى فرقا ومنهم من اعطى وسقا ومنهم من اعطى اكثر من ذلك ورواه الترمذى الحكيم فى نوادره مختصرا ولهذا انقسم الناس الى بليد لايفهم بالتفهيم الابعد تعب طويل فى التعليم والى ذكى يفهم بالرمز والاشارة من غير حاجة الى العبارة والى كامل ينبعث من نفسه حقايق الامور ودقايقها بدون التعليم * يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار * وذلك مثل الانبياء عليهم السلام وبعض اتباعهم من الاولياء الكرام ويعبر من الاول بالوحى وعن الثانى بالالهام هذا وقد قال عليه السلام يا ايها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا به ما امرتم به وما نهيتم عنه واعلموا انه ينجدكم عند ربكم واعلموا ان العاقل من اطاع الله وان كان دميم المنظر حقير الخطر دنئ المنزلة رث الهيئة وان الجاهل من عصى الله وان كان جميل المنظر عظيم الخطر شريف المنزلة حسن الهيئة نصوحا نطوقا فالقردة والخنازير اعقل عند الله ممن عصاه ولا تغتروا بتعظيم اهل الدنيا اياكم فانهم من الخاسرين رواه داود بن المحبر احد الضعفاء فى كتاب العقل من حديث ابى هريرة وهو فى مسند الحارث بن ابى اسامة عن داود وعن انس قال اثنى قوم على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال عليه السلام كيف عقل الرجل فقالوا نخبرك عن اجتهاده فى العبادة واصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال عليه السلام ان الاحمق يصيب بحمقه اكثر من فجور الفاجر وانما يرتفع العباد غدا فى الدرجات زلفى من ربهم على قدر عقولهم رواه ابن المحبر بتمامه والحكيم الترمذى مختصرا وعن عمر مرفوعا ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه الى هدى او يرده عن ردى وما تم ايمان عبد

ولا استقام دينه حتى يكمل عقله ابن المحبر وعنه الحارث بن ابى اسامة وعن ابى سعيد مرفوعا لكل شئ دعامة (اى عماد) ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته اما سمعتم قول الفجار فى النار * لو كنا نسمع او نعقل ما كنا فى اصحاب السعير * ابن المحبر وعنه الحارث وقال عليه السلام ان الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم له عقله فعند ذلك تم له ايمانه واطاع ربه وعصى عدوه ابليس ابن المحبر من رواية عمر وابن شعيب عن ابيه عن جده به والحديث عند الترمذى مختصرا دون قوله ولا يتم من حديث عائشة وصححه وعن عائشة قالت قلت يا رسول الله باى شئ يتفاضل الناس فى الدنيا فقال بالعقل قلت ففى الآخرة قال بالعقل قلت اليس انما يجزون باعمالهم فقال هل عملوا الا بقدر ما اعطاهم الله من العقل فبقدر ما اعطوا من العقل كانت اعمالهم وبقدر ما عملوا يجزون ابن المحبر والحكيم الترمذى نحوه وقال عليه السلام اتمكم عقلا اشدكم لله خوفا واحسنكم فيما امر به ونهى عنه نظرا وان كان اقلكم تطوعا ابن المحبر من حديث ابى قتادة وفى الاحياء اما العلوم الدينية فهى المأخوذة من الانبياء عليهم السلام بطريق التقليد وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله وسنة رسوله وفهم معانيهما بعد سماع مبانيهما وبه كمال صفة القلب فى معرفة الرب وبه سلامته عن الاعراض والاغراض والادواء والامراض فالعلوم العقلية غير كافية فى سلامة القلب وان كان محتاجا اليها فى معرفة الرب فالداعى الى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل والمكتفى بمجرد العقل عن انوار القرآن والسنة مغرور فاياك ان تكون من احد الفريقين وكن جامعا بين الاصلين فان العلوم العقلية كالاغذية والعلوم الشرعية كالادوية والشخص المريض يتضرر بالغذاء مهما فاته الدواء وكذلك امراض القلب لا يمكن علاجها الا بالادوية المستفادة من الشريعة المصطفوية وهى وظائف العبادات والاعمال التى رتبها الانبياء عليهم السلام لاصلاح القلوب فمن لا يداوى قلبه المريض بمعالجة العبادات الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استضربها كما يستضر المريض بالغذاء ثم قال والعلوم العقلية تنقسم الى دنيوية واخروية والدنيوية كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات والاخروية كعلم احوال القلب وآفات الاعمال والعلم بالله وصفاته وافعاله وهما علمان متنافيان يعنى ان من صرف عنايته الى احدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر ضرورة على الاكثر ولذا ترى الاكياس فى علوم الدنيا جهالا فى امور الآخرة والاكياس فى دقايق علوم الآخرة جهالا فى اكثر علوم الدنيا لان قوة العقل لا تفى بالامرين جميعا فى الغالب فيكون احدهما مانعا من الكمال فى الثانى ولذا قال عليه السلام اكثر اهل الجنة البله رواه الدارمى من حديث انس وقال الحسن ادركنا اقواما لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو رأوكم لقالوا شياطين وقال تعالى * يعلمون ظاهرا من الحيوة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون * فالدنيا والآخرة لا تجتمعان فهما

ضرتان

ضرتان اذا ارضيت احديهما اسخطت الاخرى ومن هنا قال عليه السلام من احب آخرته اضر بدنياه ومن احب دنياه اضر بآخرته فآثروا مايبقى على ما يفنى (ثم الخواطر آثار تحدث فى القلب) وهى التى تعرض فيه من الاذكار والافكار (تبعث على الافعال) اى تارة (والتروك) اى وعليها تارة فان الخواطر هى المحركات للارادات فمبدأ الافعال الخاطر يحرك الرغبة والرغبة تحرك العزم والعزم يحرك النية والنية تحرك الاعضاء والخواطر المحركة تنقسم الى قسمين (فان نفع) اى الخاطر اومايخطر فيه اوالفعل اوالترك (فى الآخرة فخير محض (والاعانة عليه توفيق) اى لطف وهداية من الله سبحانه (وان ضر) ذلك فى الآخرة (فشر والاعانة) اى عليه كما فى نسخة (خذلان) اى ترك نصرة منه واغواء فالاعانة الثانية وقعت بطريق المشاكلة (والفارق) بين الخير والشر (الشرع) ولا عبرة بالطبع (ثم) الفارق (عمل الصلحاء) اى من العلماء (فالموافق خير والمخالف شر ولو) كان (برخصة اوشبهة) لانه لاينفع فى الآخرة اذ التقدير ولوكان ذلك الموافق برخصة والمخالف بشبهة والرخصة مايستباح بعذر مع قيام دليل الحرمة كتناول المضطر مال الغير وترك الخائف على نفسه الامر بالمعروف وحكمه ان الاخذ بالعزيمة اولى (ثم) الفارق (النفس فماتنفرت عنه نفرة طبع لاخشية) اى مخافة من مخالفة غير الله (خير) وقيل نفرة الطبع كنفرة الشخص من البزاق والمخاط ونحوهما ونفرة الخشية كنفرته عن الحيوانات المؤذية فاذا خطر له ان يطوى ميلا الى ثلاثة ايام فى الصوم ولكن يجد فى نفسه نفرة وكراهة من هذا العمل فهذا الخاطر خير لانه لا يهلك بجوع ثلاثة ايام غالبا (وما مالت اليه ميل طبع لارجاء) من الله سبحانه (شر) مثلا خطر الخاطر ان يخرج من البيت ويتفرج المكان الفلانى ولايخطر معه نية خير يرجو ثوابه مثل زيارة اخ فى الله اوعيادة مريض بل خرج لمجرد الخاطر فهو شر لما ورد من حديث من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه (ثم) الخاطر الصادر (من الملك الهام وليس) ذلك الخاطر (سوى الخير) لانه مرشد ناصح هنالك لم يرسل الالذلك (ومن الشيطان وسواس وهو شر) محض غالبا (وقديكون) الوسواس (خيرا) فى الصورة وقصده منه شرا (كما يدعوه الى المفضول بالشغل) اى بسبب اشتغاله بالمفضول ممتنعا (عن الفاضل) كمن يلقى فى قلبه خاطر العبادة من الفعل ليشغله عن العلم الذى هو افضل منها مع الجهل (والجر) عطف على الشغل اى وكما يدعوه الى خير بسبب جره (الى ذنب لايفى خيره) اى لايعدل نفعه بشره وضرره (كالعجب) اوغيره من طلب جاه ونحوه (فوردان القلب مفتون) اى ممتحن (بملك وشيطان يدعوانه) اى الى خير وشر والحديث لم اجد له اصلا فالملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شانه افاضة الخير وافادة العلم والشيطان عبارة عن خلق شانه ضد ذلك وهوالوعد بالشر والامر بالفحشاء والتخويف

عند الهم بالخير بالفقر كما قال تعالى * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا * فنسب فعل الملك الى نفسه تفضلا اونظرا الى الحقيقة من غير الواسطة فان رؤية الاسباب نوع من الحجاب ومن هذا الباب قوله تعالى * ونقلب افئدتهم وابصارهم * وقوله * واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه * وورد القلب بين اصبعين من اصابع الرحمن ان شاء ان يقيمه اقامه وان شاء ان يزيغه ازاغه قال تعالى حكاية عن الراسخين فى العلم حيث يقولون * ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذهديتنا * الآية وقال عليه السلام فى القلب لمتان لمة من الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم انه من الله سبحانه وتعالى فليحمد الله ولمة من العدو ايعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تلا * الشيطان يعدكم الفقر * الآية رواه الترمذى وحسنه من حديث ابى سعيد وقال الحسن انما هما همان يجولان فى القلب هم من الله سبحانه وهم من العدو فرحم الله عبدا وقف عند همه فماكان من الله امضاه وماكان من عدوه جاهده ونهاه ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين ورد قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن اى بين صفتى الجمال والجلال اوتمثيل بسرعة تقلب القلب وتردده بالشئ المأخوذ بين الاصبعين المتحركين ولما كان قلب لايخلو عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول امل الى غير ذلك من الصفات البشرية المتشعبة عن الهوى النفسية لاجرم لايخلو قلب ان يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة ولذا قال عليه السلام مامنكم من احد الاوله شيطان قالوا وانت يا رسول الله قال وانا الا ان الله اعاننى عليه فاسلم فلا يأمرنى الا بالخير رواه مسلم عن ابن مسعود ثم القلب الخالى عن الهوى لايدخله الشيطان ولذا قال تعالى * ان عبادى ليس لك عليهم سلطان * وكل من اتبع هواه فهو عبد الهوى لاعبد الله قال تعالى * افرأيت من اتخذ الهه هواه * وقال جرير بن عبد الله شكوت الى العلاء بن زياد ما اجد فى قلبى من الوسواس فقال انما مثل ذلك مثل البيت الذى يمر به اللصوص فان كان فيه شىء عالجوه والامضوا وتركوه ومن هنا قيل المفلس فى امان الله وقال عثمان بن ابى العاص يارسول الله ان الشيطان حال بينى وبين صلاتى وقراءتى فقال ذلك شيطان يقال له خنزب فاذا احسست فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فاذهبه الله عنى رواه مسلم ولابن ماجه والترمذى من حديث ابى بن كعب ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاستعيذوا بالله منه والحاصل انه لاخلاص من الشيطان الا بالالتجاء الى الرحمن والتبرى من الحول والقوة للانسان واظهار العجز فى ميدان البيان بذكر الله فانه هو المستعان وذلك لايقدر عليه الا المتقون كما يشير اليه قوله سبحانه * ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون * (ومنه) اى من الوارد من عنده تعالى (ابتداء خاطر مطلق) وانما قال

ابتداء

ابتداء لان حدوث الخواطر جميعها فى قلب العبد من الله حقيقة لكن اذا حدثت عقيب دعوة الملك تنسب اليه وتسمى الهاما واذا حدثت عقيب دعوة الشيطان تنسب اليه وتسمى وسوسة واذا حدثت موافقا للطبع يقال له هوى النفس وتنسب اليه واذا حدثت من الله فى القلب ابتداء بلا واسطة الملك والشيطان ولاموافقا لطبع الانسان يسمى خاطرا مطلقا غير مقيد بالواسطة والرابطة (وهو اما خير اعتناء) اى عناية ورعاية لعبده (واما شر ابتلاء) اى امتحانا لعبده (ومن النفس هوى) اى والوارد منها يسمى هوى وهو ضد هدى (وليس الهوى سوى الشر) كما ان الهدى ليس سوى الخير (وقيل كالوسوسة) اى من الشيطان يدعو الى الشر غالبا وقد يدعو الى الخير اليسير ليجره به الى الشر الكثير وذلك كما قال احمد بن ارقم البلخى نازعتنى نفسى بالخروج الى الغزو فقلت سبحان الله ان الله تعالى يقول * ان النفس لامارة بالسوء * وهذه تأمرنى بالخير لايكون هذا ابدا ولكنها استوحشت فارادت لقاء الناس لتتروح اليهم وتتسامع الناس فيستقبلونها بالتعظيم والتكريم فقلت لها لا انزلك العمران ولا انزلك على ذى معرفة فاجابت فاسأت الظن بها فقلت الله اصدق فقلت اقاتل العدو حاسرا اى بلاسلاح فتكونين اول قتيل فاجابت فاسأت الظن بها فعدت اشياء مما ارادها فاجابت الى كل ذلك فقلت يارب نبهنى لها فانى متهمها ومصدق لك فكوشفت كأنها تقول يا احمد تقتلنى كل يوم بمنعك اياى من شهواتى مرات بمخالفتك لى كرات ومايشعر بذلك احد فان قاتلت فقتلت مرة واحدة نجوت منك وتتسامع فيقال استشهد احمد ويكون لى شرف وذكر فقعدت ولم اخرج الى الغزو فى ذلك العام فانظر الى خداع النفس وغرورها ترائى الناس بعد الموت بعمل لم يكن بعد ولقد صدق القائل *

* توق نفسك لاتأمن غوائلها * فالنفس شر من السبعين شيطانا *

(وقيل الا اذا كانت) النفس (مطمئنة) بذكر الله (فليس) خاطرها (سوى الخير وهذا هو الخامس) من الخواطر (المسمى بخاطر القلب) لقوله تعالى * الا بذكر الله تطمئن القلوب * يعنى ولاتميل ابدا الى الذنوب والعيوب (فورد استفت قلبك) تمامه وان افتاك المفتون فالخطاب للمتقى فان قلبه لايخطئ ومن هنا قيل حكى قلبى عن ربى (اما الفرق) بين الخواطر فى الخير والشر (ففى الخير يعرف الخاطر) المطلق الذى يرد من الله (بكونه مصمما) اى ثابتا على حالة واحدة دائما (ومحدثا) اى وبكونه واقعا (عقيب الطاعة اثابة) اى جزاء واكراما (فورد) فى التنزيل (والذين جاهدوا فينا) بالطاعة (لنهدينهم سبلنا) الباقية الموصلة الى قربنا ووصلنا ففى الخبر من عمل بما علم ورثه الله علم ما لا يعلم وهو معنى قوله سبحانه * والذين اهتدوا

زادهم هدى وآتاهم تقويهم * وقوله * واما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى * اى الطريقة السهلة الموصلة الى الحالة الاخرى فى الدنيا والعقبى (وطاريا) عطف على مصمما اى عارضا (فى الاصول) اى الاعتقادات (والاعمال) اى العبادات (الباطنة فلاسبيل لغيره تعالى اليها) فهو عليم بذات الصدور وخفايا الامور (وتنبيها) عطف على اثابة اى للتنبيه من نوم الغفلة فى مقام الاثابة على فعل الطاعة ولا يبعد ان يعطف على مصمما بذكر المصدر وارادة الفاعل اى منبها على الغفلات عن عمل الخيرات (فورد) فى الدعاء (اللهم نبهنا عن نومة الغافلين) لم ازله اصلا (والالهام الملكى يعرف (بكونه) اى الخاطر (مترددا) بين الفعل وتركه غير قوى فى حكمه وقيل مترددا اى يجئ مرة ويذهب اخرى (ومبتدئا) اى لا محدثا بعد عمل عبادة ونحوه (وطاريا) اى عارضا (فى الفروع) العلمية والعملية (والاعمال الظاهرة) الاخروية وقيد الاعمال بالظاهرة لان الملك لاسبيل له الى معرفة باطن العبد فى قول اكثرهم (وحثا على الطاعة) فى الامور الدينية (فورد) فى التنزيل * لايعصون الله ما امرهم (ويفعلون) اى الملائكة (ما يؤمرون) لانهم جبلوا على الطاعة (والوسوسة) من الخواطر يعرف (بكونها مع عجلة) لامع تأن لقوله تعالى * وكان الانسان عجولا * وفى الحديث العجلة من الشيطان والاناءة من الله رواه الترمذى وحسنه من حديث سهل بن سعد وقال عز وجل * ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه (ونشاط) اى فرح وانبساط وهو خفة تحصل للانسان للاقدام على العمل من غير بصيرة وتصور مثوبة (دون خشية) اى من غير مخافة (على اتمامه) اى اتمام العمل انتهاء (وادائه على وجهه) اى وجه العمل وحقه ابتداء (وقبوله تعالى اياه) اى العمل وصاحبه اذ لاعبرة لما سواه (وبصيرة) اى ودون بصيرة (انه) اى ذلك العمل (خير) يرجى عليه الثواب (اوشر) يخاف عليه العقاب وقيل المراد بالبصيرة بصارة العاقبة بان تبصر وتحقق وتيقن انه خير ورشد ويحب لزومه مع قطع النظر عن قصد الثواب والله اعلم بالصواب والحاصل انك ان وجدت نفسك فى ذلك الفعل الذى خطر بقلبك مع نشاط لامع خشية ومع عجلة لامع تأن ومع امن لامع خوف ومع عمى عن العاقبة لامع بصيرة فاعلم انه من الشيطان وان وجدت نفسك مع ضد ذلك بان تكون مع خشية لامع نشاط ومع تأن لامع عجلة ومع خوف لامع امن ومع بصيرة لامع عمى فاعلم انه من الله تعالى اومن الملك وهذا الفرق فى الخواطر فى الخير كله (وفى الشر يعرف الخاطر) المطلق الذى هو من الله سبحانه (بكونه مصمما) اى قويا (ومحدثا) واقعا (عقيب الذنب عقوبة) اى للعقوبة على المعصية (فورد) فى التنزيل (بل ران) اى غلب وعلا (على قلوبهم ما كانوا يكسبون) من السيئات الواقع بعضها

عقيب بعض عقوبة لهم حتى اسودت قلوبهم حيث تراكمت ذنوبهم ومنه قوله تعالى * واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى * اى الطريقة العسرى الموصلة الى مثلها فى الدنيا والاخرى (والهوى) اى ويعرف خاطر هوى النفس (بكونها مطالبة للشهوة) اى للذة التى فيها اللهوة (فورد) فى التنزيل (ما تشتهى انفسكم) حيث نسب الاشتهاء الى النفس التى هى منبع الهوى (ومصرة على معين) اى وبكونها مصممة على شهوة معينة على وجه معين وطريق مبين لاعدول عنه بوجه اصلا وقطعا (فالنفس لاتسكن دون قضاء الشهوة) اى من غير غرضها التى تريده كما قيل

* تريد النفس ان تلقى مناها * ويأبى الله الا ما يريد *

(والوسوسة) تعرف (بكونها مبتدأة) اى ليست عقب طاعة ولا معصية (فى الاكثر) اى اكثر الاحوال اوا كثر الوساوس (ومتردد) فتارة تدعو الى معصية واخرى الى اخرى فهى غير مصممة على حالة واحدة (فالشيطان كلب) اوذئب (اذا طرد من جانب دخل من آخر) اى جانب آخر كما يشير اليه قوله تعالى * بما اغويتنى لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم * والمراد طرق المعاصى جميعها فعن ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا فقال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمين الخط وشماله وقال هذه سبل الشيطان على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ثم تلا * وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله (وباعثة) اى وبكونها محرضة (على غير معين) من انواع المعاصى (فغرضه نفس الاغواء) من اى جهة كان من الاعمال والاحوال (ومسولة) اى وبكونها مزينة ومسهلة (لمعصية) من المعاصى غير متعين (فورد) فى التنزيل (الشيطان سول لهم) اى زين لهم سوء اعمالهم (واملى لهم) اى امهلهم ببسط آجالهم اوالقى فى قلوبهم ما يندمون عليه فى مآلهم قال الحسن بلغنا ان ابليس قال سولت لامة محمد المعاصى فقطعوا ظهرى بالاستغفار فسولت لهم ذنوبا لا يستغفرون الله عز وجل منها وهى الاهواء وقد صدق الملعون فانهم لا يعلمون ان ذلك من الاسباب التى تجر الى المعاصى فكيف يستغفرون منها ومن عظيم حيل الشيطان انه يشغل الانسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس فى المذاهب الاصولية والفروعية والخصومات الدنيوية وقال عبد الله بن مسعود قعد قوم يذكرون الله عز وجل فاتاهم الشيطان ليقيمهم من مجلسهم فيفرق بينهم فلم يستطع فاتى رفقة اخرى يتحدثون بحديث الدنيا فافسد بينهم فقاموا يقتتلون وليس اياهم يريد فقام الذين يذكرون الله واشتغلوا بهم يفصلون بينهم فتفرقوا عن مجلسهم

وذلك مراد الشيطان منهم (ومندفعة) اى وبكونها مرتفعة (بذكره تعالى) ولو بذكر خفية (فورد) فى الحديث (فيه) اى فى حق الشيطان (اذا ذكر) العبد (الله خنس) اى تأخر الشيطان (واذا غفل وسوس) قال مجاهد فى معنى فى قوله تعالى * من شر الوسواس الخناس * قال هو منبسط على قلب الانسان فاذا ذكر الله خنس وانقبض واذا غفل انبسط على قلبه فالتطارد بين ذكر الله ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام وبين الليل والنهار ولتطاردهما قال تعالى * استحوذ عليهم الشيطان فانسيهم ذكر الله * وعن انس قال عليه السلام ان الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فاذا ذكر الله خنس وان نسى الله التقم قلبه ابن ابى الدنيا وابويعلى وابن عدى هذا وكما ان الشهوات ممتزجة بلحم الآدمى ودمه فسلطنة الشيطان ايضا سارية فى لحمه ودمه ولذا قال عليه السلام ان الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع وذلك لان الجوع يكسر الشهوة ومجرى الشيطان الشهوة المانعة عن الطاعات وفيه تنبيه على انه لا يتخلص احد من الشيطان ما دام حيا نعم له سبيل الى دفعه وتضعيف قوته كما قال عليه السلام ان المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى احدكم بعيره فى السفر اى يهزله ويضعفه رواه احمد من حديث ابى هريرة وقال ابن مسعود شيطان المؤمن مهزول وقال قيس قال لى شيطان دخلت فيك وانا مثل الجزور وانا الآن مثل العصفور فقلت ولم ذلك قال تذيبنى بكتاب الله عز وجل وقال ابو هريرة التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر فاذا شيطان الكافر سمين دهين كاس واذا شيطان المؤمن مهزول اشعث اغبر عار فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن مالك فقال انا مع رجل اذا اكل سمى الله فاظل جايعا واذا شرب سمى الله فاظل عطشانا واذا ادهن سمى الله فاظل اشعث واذا لبس سمى الله فاظل عريانا فقال شيطان الكافر اكنى مع رجل لا يفعل شيئا مما ذكرت فانا اشاركه فى طعامه وشرابه ودهنه ولباسه وفى النسائى من حديث سبرة باسناد صحيح ان الشيطان قعد لابن آدم فى طريقه فقعد له فى طريق الاسلام فقال اتسلم وتذر دينك ودين آبائك فعصاه واسلم ثم قعد له بطريق الهجرة فقال اتهاجر وتذر ارضك وسماءك فعصاه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له اتجاهد وهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح نساؤك ويقسم مالك فعصاه وجاهد فقال عليه السلام فمن فعل ذلك ومات كان حقا على الله ان يدخله الجنة واذا عرف هذا فينبغى للعبد ان يشتغل بدفع العدو عن نفسه لا بالبحث عن اصله ونسله ومحله فقد قال تعالى * ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير * وقال عز وعلا * الم اعهد اليكم يابنى آدم ان لاتعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين * وان اعبدونى هذا صراط مستقيم (وقيل يتعذر التمييز) بين الخواطر بشىء من الاشياء

(الا بنور التقوى والمعرفة) بصفات المولى كما قال تعالى * ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا * اى رجعوا الى نور العلم * فاذا هم مبصرون * اى انكشف لهم الاشكال وانحل لهم العقال وتبين لهم غامض الاحوال واما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه الى اذعان الهوى لتلبيسه بمتابعة الهدى ويكثر فيه غلطه وتعجل هلاكه وهو لايشعر به وفى مثلهم قال تعالى * وبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون * قيل هى اعمال ظنوها حسنات فاذا هى سيئات * وفى الاحياء ينبغى ان يعلم ان الخواطر تنقسم الى ما يعلم قطعا انه داع الى الشر فلايخفى كونه وسوسة والى مايعلم انه داع الى الخير فلا شك فى كونه الهاما والى مايتردد فيه ولايدرى انه من لمة الملك اومن لمة الشيطان فان من مكايد الشيطان ان يعرض الشر فى معرض الخير والتمييز فى ذلك غامض واكثر العباد به يهلكون فان الشيطان لايقدر على دعائهم الى صريح الشر فيصور الشر لهم بصورة الخير ولذا روى ان ابليس تمثل لعيسى عليه السلام فقال له قل لا اله الا الله فقال كلمة حق ولا اقولها بقولك وعن النبى صلى الله عليه وسلم كان راهب فى بنى اسرائيل فاخذ الشيطان جارية فخنقها والقى فى قلوب اهلها ان دواءها عند الراهب فاتى بها الى الراهب فابى ان يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها فكانت عنده ليعالجها فاتاه الشيطان فوسوس اليه وزين له مقاربتها فلم يزل به حتى وقع عليها فحبلت منه فوسوس اليه وقال الآن تفتضح يأتيك اهلها فاقتلها فان اتوك فقل ماتت فقتلها ودفنها فاتى الشيطان اهلها فوسوس اليهم والقى فى قلوبهم انه احبلها ثم قتلها ودفنها فاتاه اهلها فسألوه فقال ماتت فالقى اليهم الشيطان انها مدفونة عنده ففتشوا عليها فوجدوها مقتولة فاخذوه فاتاه الشيطان فقال انا الذى اخذتها وانا الذى القيت فى قلوب اهلها فاطعنى اخلصك منهم قال بماذا قال اسجد لى سجدتين فسجد له سجدتين فقال له الشيطان انى برئ منك فهو الذى قال الله تعالى * كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برئ منك * الآية والحديث رواه ابن ابى الدنيا فى مكائد الشيطان وابن مردويه فى تفسيره من حديث عبيد بن رفاعة مرسلا وللحاكم نحوه موقوفا على على بن ابى طالب وقال صحيح الاسناد ووصله معين فى مسنده من حديث على وذكره البغوى فى تفسيره عن ابن عباس وذكر ان الراهب اسمه برصيصا وتعلل بعد قتلها بان جنيها اخذها وراح بها ولم يقدر على دفعه عنها القصة بطولها فانظر الآن الى حيل الشيطان واضطراره الراهب الى هذه الكبائر وكل ذلك لطاعته له فى قبول الجارية للمعالجة وهو امر هين فى المخالطة وربما يظن صاحبه انه خير وحسنة وملاطفة فى المرافقة وحسن عشرة فى المخالقة فيحسن ذلك فى قلبه ويخفى الهوى فى نفسه فيقدم اليه كالراغب فى الخير لديه فيخرج الامر بعد ذلك عن اختياره هنالك ويجر البعض الى البعض بحيث لايجد

محيصا فى الخلاص عن الامر المذكور فنعوذ بالله من تضييع اوائل الامور واليه الاشارة بقوله عليه السلام من حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه متفق عليه من حديث النعمان ابن بشير (واختلف فى الاخذ) اى فى المؤاخذة (بالخواطر) فبعضهم قال بعدم الاخذ مطلقا واستدل بقوله عليه السلام يقول الله تعالى اذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها وبعضهم بالاخذ مطلقا واستدل بقوله تعالى * ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم * (والتحقيق) التفصيل فان اول مايرد على القلب الخاطر كما لوخطرت له مثلا صورة امرأة وانها وراء ظهره فى الطريق بحيث لو التفت اليها ليراها ويسمى حديث النفس والثانى هيجان النفس فى الرغبة الى النظر وهو حركة الشهوة التى فى الطبع وهذا يتولد من الخاطر الاول ويسمى ميل الطبع والثالث حكم القلب بان هذا ينبغى انْ ينظر اليها فان الطبع اذا مال لم تندفع الصوارف فانه قد يمنعه حياء او خوف منْ الله تعالى عن الالتفات وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل وهو على كل حال من جهة العقل ويسمى هذا اعتقادا وهو يتبع الخواطر والميل والرابع تصميم العزم وجزم النية وقيل الارادة ميل الباطن نحو المطلوب والقصد قراره فى القلب على نهج المرغوب والعزم بحيث لا يمكن زواله والجزم بحيث يوجب العمل فى مآله فاذا عرفت هذا فالتحقيق عند اهل التدقيق وارباب التوفيق (عدمه) اى عدم الاخذ بمعنى المؤاخذة (فيما لا اختيار له كحديث النفس) مما يخطر ببالها ويذهب بسرعة زوالها (وميل الطبع) اى الجبلى الذى لا اختيار لصاحبه فى الميل اليه وانت عرفت ان حديث النفس وميل الطبع متغايران وقيل عطف تفسيرى وهو خاطر فعل الذى ما انجر الى العزم والهم (لامتناع التكليف فيه) اى فيما لا اختيار فيه فانه تكليف ما لايطاق وقد قال تعالى * لايكلف الله نفسا الا وسعها (وورد) فى الحديث (عفى ماحدثت به نفوسنا) وهو معنى حديث الصحاح الست عن ابى هريرة ان الله تجاوز لامتى عماحدثت به انفسها مالم يتكلم به او يعمل به وعن ابى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله اذاهم عبدى بسيئة فلاتكتبوها عليه فان عملها فاكتبوا عليه سيئة فان تركها من اجلى فاكتبوها حسنة واذاهم بحسنة ولم يعملها فاكتبوها حسنة فان عمل فاكتبوها عشرة رواه الشيخان (وانما هو) اى الاخذ والمؤاخذة (فى العزم) اى حكم القلب بان هذا ينبغى ان يفعل (والهم) اى المصمم فهو عطف تفسيرى وهو قصد الفعل بعد الخطور ولكن ماافضى الى مباشرة الفعل لمانع من الشرع او العقل او غيرهما فانه قد يكون الفاسق محروما وفسقه مجزوما او الثانى اخص من الاول فتأمل (فورد) فى التنزيل (وان تبدوا مافى انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله) اى ان تظهروا ما فيها من العزم والهم على المعصية او تخفوه يجازكم به كما قال * فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء * ولما نزلت الآية جاء اناس من الصحابة

الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا كلفنا مالانطيق ان احدنا ليحدث نفسه بما لا يحب ان يثبت فى قلبه ثم يحاسب بذلك فقال عليه السلام لعلكم تقولون كما قالت بنوا اسرائيل سمعنا وعصينا قولوا سمعنا واطعنا فانزل الله الفرج بقوله * لايكلف الله نفسا الا وسعها * رواه مسلم من حديث ابي هريرة وابن عباس فظهر به ان كل ما لا يدخل تحت الوسع من اعمال القلوب لايؤاخذ به قال تعالى (ان السمع والبصر الآية) اى * والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا * وقال تعالى * ولاتكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه * وقال * لايؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم * (انما يحشر الناس على نياتهم) رواه ابن ماجه من حديث جابر دون قوله انما وله من حديث ابي هريرة انما يبعث الناس على نياتهم واسنادهما حسن وفى الاحياء ونحن نعلم ان من عزم ليلا على ان يصبح ويقتل مسلما اويزنى فمات تلك الليلة مات مصرا ويحشر على نيته والدليل القاطع فيه حديث اذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار قالوا يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال لانه اراد قتل صاحبه رواه الشيخان (ووقع الاجماع على الاخذ) اى المؤاخذة (بالكبر والعجب والرياء) وخص الثلاثة بالذكر لكونها من اعمال الباطن ولمناسبتها بالخواطر (الا ان يمتنع) عن العمل السوء (بعد العزم) اى القصد والجزم على الفعل (له) اى يكون امتناعه لاجله (تعالى) رجاء اوخوفا (فيمحوه) اى فيمحو الله سبحانه الاخذ بها والعقوبة عليها (لرجحان تاثير الامتناع) عن العمل لاجله تعالى (فى تنوير الباطن لانه) اى الامتناع (يخالف الطبع) ويوافق الشرع فيترجح (على تأثير القصد) اى قصد المعصية والعزم عليها فيكون مؤثرا (فى تسويده) اى تسويد الباطن وتغييره (لانه يوافقه) اى لان قصد المعصية يوافق الطبع ولايلايم الشرع وحاصله الامتناع من حيث انه يخالف الطبع يحتاج الى جد شديد وسعى اكيد وما كان جده اشد وسعيه اهم كان تأثيره اكمل واتم فثبت بهذا ان تأثير الامتناع فى تنوير الباطن اشد من تأثير قصد المعصية فى تسويد الباطن لانه لايحتاج الى سعى بليغ ولما كان جده واجتهاده اقل كان التاثير انقص فتامل وفى الخبر افضل الطاعات احمزها اى اشقها واصعبها (وورد) فى الخبر (فيه) اى فى الامتناع (ان تركها) اى العبد السيئة (فاكتبوها حسنة) وقد تقدم ولابن ابي الدنيا فى مكائد الشيطان وهكذا مرسلا قال ثابت لما بعث النبى صلى الله عليه وسلم قال ابليس لشياطينه لقد حدث امر فانظروا ما هو فانطلقوا ثم جاؤه فقالوا ماندرى قال ابليس انا آتيكم بالخبر فذهب ثم جاء فقال بعث محمد صلى الله عليه وسلم قال فجعل يرسل شياطينه الى اصحاب النبى عليه السلام فينصرفون خائبين فيقولون ماصحبنا قوما قط مثل هؤلاء ليس لنا نصيب منهم ثم يقومون الى صلاتهم فينمحى اثر ذلك فقال

ابليس رويد ابهم عسى الله ان يفتح لهم الدنيا فهناك تصيبون حاجتكم منهم ومما يدل على ان حديث النفس لا يؤاخذ به ما روى عن عثمان بن مظعون حيث قال يارسول الله ان نفسى تحدثنى ان اطلق خولة قال مهلا ان من سنتى النكاح قال نفسى تحدثنى ان اجب نفسى قال مهلا خصاء امتى ذووب الصيام قال نفسى تحدثنى ان اترهب قال مهلا رهبانية امتى الجهاد والحج قال نفسى تحدثنى ان اترك اللحم قال مهلا فانى احبه ولو اصبته لاكلته ولو سألت الله لاطعمنى رواه الترمذى الحكيم فى نوادر الاصول عن سعيد ابن المسيب مرسلا (ثم الواجب الاحتراز) اى الاحتراس (عن الشيطان) وما فيه من الوسواس (لانه عدو كما نطق به القرآن) حيث قال * ان الشيطان لكم عدو مبين * وقال * ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا * الآية (ولان العابد) العالم (يغايظه) اى يغالبه فى غيظه لاجل كونه فى سبيل الله (فتشتد معاداته) اى الشيطان (اياه) اى ذلك العابد ولذا ورد لفقيه واحد اشد على الشيطان من الف عابد ثم من عداوته للانام امره لهم بالآثام ووعده الامان من عذاب الله وعدم حسابه واليأس من ثوابه من غير شبهة فضلا عن حجة ويخوفهم بالفقر فى اعطاء الزكاة ويحثهم على الانفاق فى المحرمات ويخيل لهم حصر اللذات فى الشهوات واللهوات ويدعو من له ازواج وجوار ذات جمال ومزينة ومعطرة فى غاية كمال الى زنا من ليس لها ذلك فى الاحوال ويأمر الامراء بالظلم فى اموال الاغنياء واوقاف الايتام والفقراء مع وفورها لهم ويقتل النفس بادنى خيال مع تمكنهم من الدفع فى حال واستقبال وله ابواب فيها العذاب (والطريق) اى طريق الاحتراز خمسة (الاستعاذة) منه به تعالى (لانه) اى العبد والاستعاذة (مامور بها) فى قوله تعالى * واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله * الآية وسائر الآيات والاخبار الواردات وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلوة الصبح اللهم انك سلطت علينا عدوا من غير انفسنا بصيرا بعيوبنا مطلعا على عوراتنا يرانا هو وقبيله من حيث لانراهم اللهم فآيسه منا كما آيسته من رحمتك وقنطه منا كما قنطته من عفوك وابعد بيننا وبينه كما ابعدت بينه وبين جنتك انك على كل شئ قدير وعن عبد الرحمن بن ابى ليلى قال كان شيطان يأتى النبى صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلى فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب فاتاه جبريل عليه السلام فقال قل اعوذ بكلمات الله التامات التى لايجاوزهن بر ولافاجر من شر ما ذرأ وبرأ فى الارض ومن شر ما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن فتن الليل والنهار وطوارق الليل والنهار الا طارقا يطرق بخير يارحمن فقال ذلك فطفئت شعلته وخر على وجهه رواه ابن ابى الدنيا فى مكائد الشيطان هكذا مرسلا ولمالك فى الموطأ نحوه عن يحيى بن سعيد مرسلا ووصله

ابن

ابن عبد البر فی التمهید من روایة یحیی عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عیاش الشامی عن ابن مسعود ورواه احمد والبزار من حدیث عبد الرحمن ابن حنبش (ولان الكلب ان حاربته تعبت وربما غلبت فالرجوع الى ربه اولى) فی الخلاص من البلوی ومثل الشیطان بالكلب الجایع یقرب منك فاذا لم یكن بین یدیك لحم اوخبز فانه ینزجر بان یقول له اخسأ فمجرد الصوت یدفعه وان كان بین یدیك شیء من ذلك وهو جایع فانه یهجم علیك ولایندفع بمجرد الكلام فالقلب الخالی عن قوت الشیطان یندفع عنه بمجرد الذكر فاما الشهوة اذا غلبت على القلب دفعت حقیقة الذكر الى حواشی القلب فلم یتمكن الذكر من سویدائه فیستقر الشیطان فی سویداء القلب ومثل بعضهم الشیطان بالكلب التركی فانه لایخلص لاحد منه لا بالسیف ولا بالفرار ولا باعطاء اللحم وغیره وانما ینجیه منه همهمة صاحبه من داخل خیمته فیفتر غضب كلبه ونهمته (والمجاهدة) مع الشیطان (بالرد) ای برد الوسوسة ودفعها فی الحالة الانسیة (وقلع المهلكات) ای وازالتها من اصلها وهی الحسد والحرص والغضب والشهوة وحب التزین فی الثیاب والاثاث والدار والشبع من الطعام ولولم یكن من الحرام والطمع فی الانام واخذ كل ما یزید علی قدر القوت والحاجة من الدراهم والدنانیر وسائر اصناف الاموال وخوف الفقر والبخل والتعصب للمذاهب والترصد للمناصب والتفكر فی ذات الله وسوء الظن بالمسلمین ونحو ذلك من الحاجات الكاسدة والمقامات الفاسدة (فهو) ای الشیطان (انما سلط) علی الانسان (للامتحان) فی میدان الطاعة والعصیان فحینئذ یكرم المرء اویهان (وادامة ذكره تعالی لسانا) خفیة اوجهرا (وقلبا) فهو افضل واكثر تأثیرا والجمع بینهما اكمل (لما سبق) من ان العبد اذا ذكر الله خنس الشیطان وتأخر وفی الخبر ما سلك عمر فجا ای طریقا الا سلك الشیطان فی غیر فجه رواه الشیخان من حدیث سعد بن ابی وقاص قال فی الاحیاء وهذا لان قلبه هذا كان مطهرا عن مرعی الشیطان وقوته وهی الشهوات فمهما طمعت فی ان یندفع الشیطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر كان محالا كمن طمع فی ان یشرب الدواء قبل الاحتماء والمعدة مشغولة بغلیظ الاطعمة ویطمع فی ان ینفعه الدواء كما نفع الذی یشربه بعد الاحتماء وتخلیة المعدة فالذكر دواء والتقوی احتماء فاذا نزل الذكر قلبا فارغا عن غیر الذكر اندفع الشیطان عنه كما تندفع العلة بنزول الدواء فی معدة خالیة عن الاطعمة فان قلت الحدیث قد ورد مطلقا بان الذكر یطرد الشیطان قلنا ان عمومات الشرع مخصوصة بشروط یعرفها علماء الدین فانظر الی نفسك فلیس الخبر كالمعاینة وتأمل ان منتهی ذكرك وعبادتك وصلاتك لله فراقب قلبك اذا كنت فی صلاتك كیف یجاذ به الشیطان الی الاسواق وحساب المعاملین وجواب المعاندین وكیف یمر بك

فى اودية الدنيا ومهلكها حتى انك لاتذكر ما نسيته من فضول الدنيا الا فى صلاتك فلا تزدحم الشياطين على قلبك الا اذا صليت والصلوة محك للقلوب فيها مساويها ومحاسنها فالصلوة لاتقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا فلا جرم لاتطرد عنك الشيطان بل ربما يزيد عليك الوسواس فى ذلك الزمان كما ان الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر فى الداء فان شئت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتماء بالتقوى ثم اردفه بدواء الذكر كما يشير اليه قوله تعالى * ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون * فالشرط فى الذكر تقدم التقوى اوكمال الحضور فى ذكر المولى ومن هنا ورد من صلى ركعتين لم يحدث فيهما بشىء من الدنيا غفر له ماتقدم من ذنبه وقد قال وهب بن منبه اتق الله ولاتسب الشيطان فى العلانية وانت صديقه فى السر اى مطيع له فى الباطن وقال بعضهم ياعجبا لمن يعصى المحسن بعد معرفته باحسانه ويطيع اللعين بعد معرفته بطغيانه وعن بعض الحكماء الشيطان يأتى ابن آدم من قبل المعاصى فان امتنع اتاه من قبل النصيحة حتى يلقيه فى البدعة فان ابى امره بالتحرج والشدة حتى يحرم ماليس بحرام فان ابى شككه فى وضوئه وصلاته حتى يخرجه من العلم فان ابى خفف عليه اعمال البر حتى يراه الناس صابرا عفيفا فيميل قلبه اليهم ويعجب بنفسه وبه يهلكه وعنده يشتد لجاجه فانها آخر درجته ويعلم انه لوجاوزه افلت منه الى الجنة (والاستخفاف بدعوته) اى الاستحقار وعدم الاعتبار بدعوة الشيطان (فالكلب ان اعرضت عنه سكت) عنك (وان اشتغلت معه) بالدفع (اتعبك) باللغوا (ومعرفة مكائده) الآتى بيانها (فاللص ان علم احساس صاحب الدار فر) اى شرد واضطر الى الفرار ولم يتمكن من القرار (وهى) اى المكائد سبعة (كالمنع عن العمل) من اصله (والتسويف) اى التأخير عن محله (والعجلة) فى فعله (والرياء) فى قصده (والعجب) بعد فراغه (ورجاء الاظهار منه تعالى) للخلق بعدم الاكتفاء بنظر الحق وهو من الرياء الخفى (وعدم الحاجة الى العمل بناء على قسمة الازل فى السعادة والشقاوة) وهذا لف فى العبارة ونشر باشارة فى قوله (والرد) اى رد المكائد المذكورة (بالحاجة) الى العمل (للتزود) اى لزاد المعاد فى يوم التناد فقد قال تعالى * وتزودوا فان خير الزاد التقوى (وهجوم الاجل) اى مجيئه بغتة قبل حصول العمل (ورجحان القليل) من العمل (التام) اى الكامل بالتأنى (على الكثير) من العمل (الناقص) بالعجلة (وكفاية رؤيته تعالى) لقوله سبحانه * الم يعلم بان الله يرى * وقوله عز وجل * اليس الله بكاف عبده (وذكر منته والتفويض اليه) اى التسليم بين يديه (فى الاظهار والاخفاء) فى العبادة بل ينبغى ان يميل الى الاخفاء لانه ابعد من الرياء وفى الخبر افضل امتى الاتقياء الاخفياء (وفرضية امتثاله) اى امتثال

امره

امره على عبده ثم ان كنت شقيا فانا محتاج الى العمل لكيلا الوم نفسي يوم القيمة فانى لو ادخلت النار وانا مطيع احب الى من ان ادخلها وانا عاص لخفة العذاب وان كنت سعيدا فانا محتاج الى زيادة الثواب (وحقية وعده الادنى) اى الاقرب بالاثابة على الطاعة والاجابة (ثم) الافضل (الاقتصار على التكذيب) اى تكذيب الشيطان فيما يوسوسه (وترك الجدال) فانه يردد قلب العبد ويشوشه ولان المجادلة شاغلة عن العبادة الكاملة (ثم الاستمرار على ما كان عليه) من العبادة والاستقرار من غير تكذيب ولا جدال لان التكذيب ايضا شاغل كالجدال وان كان قليلا فان المقصود الاعلى هو الحضور مع المولى (ثم الزيادة) اى زيادة الاجتهاد (فى ضده) اى اضداد ماذكر من المكائد اوفى ضد كيد الشيطان (ففيه اغضابه) اى اغضاب الشيطان وارضاء الرحمن كما حكى عن ابراهيم بن ادهم انه لما اراد ان يدخل البادية اتاه الشيطان فخوفه بان هذه بادية مهلكة هاوية ولا زاد معك ولا سبب ولا راوية فعزم على نفسه ان يقطع البادية على تجرده ذلك وان لا يقطعها حتى يصلى الف ركعة تحت كل ميل من اميالها هنالك وقام بما عزم عليه من الهمة وبقى عليه فى البادية اثنتى عشرة سنة ويروى عن الفضيل ابن غزوان انه قيل له ان فلانا ذكرك بسوء فقال والله لاغيظن من امره قيل من امره قال الشيطان ثم قال اللهم اغفرله انى لاغيظنه بان اطيع الله فيه ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة ان تزيد فى حسناته وهو خلاف ماله من الارادة (واختلف) اى اختلف العلماء (فى امن الاقوياء) كالانبياء والاصفياء من الاولياء (منه) اى من الشيطان فقال قوم معصومون ومحفوظون عنه لقوله سبحانه * ان عبادى ليس لك عليهم سلطان * وقوله * الا عبادك منهم المخلصين (والحق من الاقوال (عدمه) اى عدم امنهم من الشيطان فى جميع الاحوال (لقصة آدم عليه السلام) فى اكل الشجرة فانه صريح فى المرام ونص فى الكلام حيث قال * وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتبيه ربه فتاب عليه وهدى * ولقوله تعالى * واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله * والخطاب لنبينا عليه السلام وقد روى انه عليه السلام نظر الى علم ثوبه فى الصلوة فلما سلم رمى ذلك الثوب وقال شغلنى عن الصلوة ولقوله سبحانه * وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى * اى قرأ * القى الشيطان فى امنيته * اى قراءته * فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته (وورد) فى صحيح مسلم وغيره (انه) اى الشان (ليغان) اى ليحجب (على قلبى) فيمنعنى عن ذكر ربى مع ان شيطانه اسلم فلا يأمر الا بخير وتمام الحديث وانى لاستغفر الله فى اليوم مائة مرة وفيه انه ليس فى هذا الحديث مايدل على مدعى المصنف من اغواء الشيطان له فان المراد بالغين حجاب يقع من كثرة مشاهدة غبار الغير فى مقام البين فيمنع عن مشاهدة العين فيستغفر ربه من الذنب اللائق

به فان سيئات المقربين الاحرار حسنات المطيعين الابرار ومادمت فى هذه الدار لاتستغرب وقوع الاكدار (وفى) اى وكذا اختلف فى (منافاة الترصد) اى التحفظ للحذر من الشيطان (التوكل) بالنصب مفعول منافاة (والحق) من الاقوال المختلفة (عدمها) اى عدم المنافاة (فاخذ السلاح) من الدرع والمغفر وسائر الاسلحة (وجمع العسكر) للمقاتلة (وحفر الخندق) فى المقابلة (ما قدحت فى توكله) اى ما طعنت فى توكله (عليه السلام) واصحابه الكرام بل ورد الامر من الله سبحانه بأخذ السلاح فى قوله تعالى * وليأخذوا حذرهم واسلحتهم * وقال * واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل * وفى الحديث الا ان القوة الرمى (وفى) اى وكذا اختلف فى (كيفية الحذر) عن الشيطان فقوم قالوا اذا حذرنا الله تعالى عن العدو فينبغى لنا ان نستغرق فى ترصده ولا يكون شئ اغلب على قلوبنا من ذكره وفكره وقال قوم لاينبغى لنا ان نجمع بين ذكر الله سبحانه وبين ذكر عدوه فضلا ان يكون ذكره غالبا ففى الخبر من احب شيئا اكثر ذكره وقال قوم غلط الفريقان لان كلا من القولين لا يخلو عن نوع من النقصان كما سيأتى له البيان (فالاولى تقرير عداوته) اى احكام عداوة الشيطان واثباته (على القلب) فاذا تقرر عداوته فى القلب لزم ترك الالتفات اليه (والاستغراق فى ذكره تعالى) اى وتمام التوجه الى ذكر الرب (بجمع الهمة) من غير الالتفات الى ذكر الشيطان ومكره بسبب حضور القلب فى طاعة ربه (والاشتغال بالدفع) اى بدفع الشيطان (عند الانتباه بوروده) اى بدخول الشيطان فى القلب بالوسواس ونحوه لدخوله فى الانسان مجرى الدم فى لحمه (اما الاستغراق فى الترصد) اى فى التحفظ عن الشيطان المحذر (فينا فى الذكر) المطلوب لذاته (وهو) اى الاستغراق المذكور ونفى الذكر (اسراره) اى ايقاع الشيطان فى السرور وايثاره لانه مراده فى مقام اختياره (والجمع) اى وينافى جمع الهمة اومقام الجمع اوجمع الجمع وهو ان لايمنع الكثرة عن الوحدة ولايحجب الوحدة عن الكثرة والجمع بين ذكر الرحمن وبين ترصد الشيطان (ينقص الحضور) فى ميدان المشاهدة والعيان على قدر اشتغال القلب بذكر الشيطان فان الله سبحانه امر الخلق بذكره ونسيان غيره (وورد) فى التنزيل (قل الله) اى ولا سواه ولا نعبد ولا نشهد الا اياه (ثم ذرهم) اى اترك الخلق من الشيطان وغيره فهم (فى خوضهم) اى اباطيلهم من الاشتغال بغير الحق (يلعبون) كالبهايم والاطفال والمجانين كما قال فى موضع آخر * ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون * اى جزاء عملهم اومضمون قوله سبحانه * وماخلقت الجن والانس الاليعبدون * اى ليوحدون اولا ثم يطيعون ثانيا ثم يذكرون على الدوام ثالثا ثم يعرفون حق المعرفة رابعا (وعن النفس) عطف على قوله عن الشيطان اى ثم الواجب الاحتراز عن النفس الامارة بالسوء

لانها

لانها اشد الاعداء وبلاؤها اصعب البلاء (فعلاجها اعسر) من علاج الشيطان واشد الاشياء وداؤها اعضل الداء ودواؤها اشكل الدواء لاربعة امور (لانها محبوبة) لصاحبها مع انها اعدى عدوه (والحب يعمى) العين (عن رؤية العيب) فى محبوبه (ويصم) الاذن (عن سماع الملامة) فى مطلوبه ففى الخبر حبك الشئ يعمى ويصم رواه احمد وغيره عن ابى الدرداء والحاصل ان للانسان عمى عن عيب محبوبه لايكاد يبصر عيبا فى مطلوبه كما قال قائل فى شعره *

* وعين الرضا عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدى المساويا *

فاذا يستحسن الانسان من نفسه كل قبيح ولايكاد يطلع على عيب لها الا ويقول انه مليح وهى فى عداوته مستقرة وفى غوايته مستمرة فما اوشك ان توقعه فى هلاك وفضيحة ويتوهم انه خلاص ونصيحة وهو لايشعر به الا اذا حفظه الله سبحانه بفضله وكرمه (وعدو) اى ولانها عدو (داخلى) اى باطنى (فلص البيت) اى ممن يدخل فيه ويخرج منه (تعز فيه الحيلة) اى يعسر فى دفعه الخلاص من المكيدة ولذا قال تعالى * لا تتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا (ولا تنفك) اى النفس عن الانسان (الابالموت) بخلاف الشيطان فانه ينفك بالاستعاذة والمجاهدة (ولا تندفع) النفس وشرها (بالذكر) اى بذكر الله بخلاف الشيطان فانه يندفع بالذكر لما سبق من حديث اذا ذكر الله خنس (وتشكو النفس يوم القيمة ممن وافقها فى الدنيا) فللحاكم عن انس مرفوعا عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيمة يقول يارب اليس وعدتنى ان لاتظلمنى قال بلى قال فانى لااقبل على شهادة شاهد الامن نفسى فيقول اوليس كفى بى شهيدا وبالملائكة الكرام الكاتبين فيردد هذا مرات فيختم على فيه ويكلم اركانه بما كان يعمل فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت اجادل واما ما فى الاحياء من انه عليه السلام قال كف اذاك عن نفسك ولا تتابع هواها فى معصية الله تعالى اذن تخاصمك يوم القيمة فيلعن بعضك بعضا الا ان يعفو الله ويستر فقال مخرجه لم اجده بهذا السياق (ومنها) اى من النفس (نشا ذنب ابليس بالكبر والحسد) حيث قال انا خير منه وامتنع عن حكم ربه فكفر بسببه بعد قضاء الله السابق فى حقه فغرق فى بحر الضلال بعد عبادة ثمانين الف سنة فى بعض الاقوال ولم يكن هناك دنيا ولاخلق ولاشيطان آخر بل كانت النفس وحدها فعملت ما عملت من جهدها (وقابيل بالشح) اى بسبب بخله على اخيه فى اخته فانكر على ابيه فوقع فى الكفر بسببه لا بسبب قتل اخيه (وهاروت) وصاحبه ماروت وقعا فيما وقعا من البلية (بالشهوة) التى ادت الى الزنا ونحوه من المعصية قيل وآدم وحواء بالحرص على الدوام والبقاء حتى اغترا بقول ابليس * هل ادلكما على شجرة الخلد وملك لايبلى * فسقطا بذلك من جوار المولى

الى هذه الدنيا الدنية الحقيرة النكدة الفانية ولقى اولاده من الامور المهلكة ثم هلم جرا الى يوم القيمة لاتجد فى الخلق فتنة ولافضيحة ولامحنة ولا ضلالا ولا معصية الا واصلها النفس وهواها والا كان الخلق فى سلامة وخير فى مبدأ الامور ومنتهاها واذا كان العدو بهذا الضرر كله فحق على العاقل ان يهتم بامرها فى حقه فان قيل بين لنا طريق دفع هذه النفس فيقال (والطريق) اى طريق تذلل النفس وتكسر هواها اوطريق الاحتراز عن النفس ومشتهاها ثلاثة (منع الشهوات) ودفع اللموات ورفع اللذات عنها (فالحرون) اى الصعب من الدواب (يلين بنقص العلف) عن عادته مع حبسه فى مربطه (وحمل اعباء العبادة) اى اثقالها واشغالها (فالحمار) الجموح (ينقادبزيادة الحمل) على ظهره (والاستعانة به تعالى) اى التضرع اليه ليهون امرها عليه والا فلا مخلص لديه (فورد) فى التنزيل (ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى) اى من رحمه اومدة رحمته (والاصل فيه) اى فى طريق الاحتراز اوفى طريق تذلل النفس (الرياضة) اى وفق الشريعة المرضية ففى تحفة الملوك لاتحل الرياضة بتقليل الاكل الى ان يضعف عن اداء العبادة ولو واصل اربعين يوما فمات مات عاصيا ولو مرض وترك المعالجة توكلا على الله فمات لم يمت عاصيا والتنعم بانواع الفاكهة يباح وتركه افضل والجمع بين الاطعمة حرام اى ممنوع ومكروه كراهة تنزيهية اوحرام فى طريق الصوفية ثم الاصل المهم فى المجاهدة والوفاء بالعزم على المعاندة فاذا عزم على ترك شهوة وتيسر اسبابها ابتلاء من الله فينبغى ان يصبر عنها ويستمر عليها فانه ان عود نفسه كسر العزم الفت بعد ذلك عدم الجزم وفسدت لفقد الحزم واذا اتفق منه بعض العزم فينبغى ان يلزم نفسه عقوبة عليه وجزاء لديه (وهى) اى الرياضة اوالمقصود من الرياضة المستحسنة بالاتفاق (تهذيب الاخلاق فورد) فى الحديث (انى رأيت البارحة عجبا) اى امرا غريبا (رأيت رجلا من امتى جاثيا) اى جالسا على ركبتيه (وبينه وبين الله حجاب فجاء حسن الخلق) من باب (فادخله على الله تعالى) من غير حساب ولا عقاب والحديث رواه الخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث عبدالرحمن بن سمرة (اثقل مايوضع فى الميزان حسن الخلق) رواه ابوداود والترمذى وصححه من حديث ابى الدرداء ولابى داود والترمذى من حديث ابى الدرداء ما من شىء فى الميزان اثقل من حسن الخلق وللطبرانى فى الاوسط من حديث عمار بن ياسر حسن الخلق خلق الله الاعظم ولاحمد والحاكم والبيهقى من حديث ابى هريرة بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ولاحمد من حديث عائشة الشوم سوء الخلق ولابن حبان وغيره سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل وللخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث عائشة اليمن حسن الخلق وللطبرانى فى الصغير من حديث عائشة مامن شىء الا وله توبة

الاصاحب سوء الخلق فانه لايتوب من ذنب الاعاد فى شر منه وذكر شيخ مشايخنا الجلال السيوطى حديث احسن الحسن الخلق الحسن رواه الحسن عن الحسن عن ابى الحسن عن جد الحسن بسند حسن (وهو) اى حسن الخلق (ضبطه) اى حفظه وربطه (تحت الشرع والعقل) فى قضية الطبع (وهو) اى تحسين الاخلاق (ممكن) بالاتفاق (لصيرورة الصيد الوحشى اهليا) كالظبى والحمام (والجموح منقادا) كالفرس والبعير (والكلب معلما) وكذا سائر الجوارح من الصيود حتى يصير آلة للصيد فى مقام القيد (وورد) فى الحديث (حسنوا اخلاقكم) رواه ابن لال فى مكارم الاخلاق من حديث معاذ يامعاذ حسن خلقك للناس ولاحمد من حديث عائشة اللهم حسنت خلقى فحسن خلقى وللطبرانى من حديث جابر ان اقربكم منى مجلسا يوم القيمة احاسنكم اخلاقا هذا والخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الافعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى روية وفكر ثم ان كانت الهيئة بحيث يصدر منها الافعال الجميلة شرعا وعقلا سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا حسنا وان كان الصادر منها الافعال القبيحة بسهوله سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا وكما ان حسن الصورة الظاهرة لايتم الا بحسن جميع اعضائه فكذا فى الباطن اربعة اركان لابد من الحسن فى جميعها وهى قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل بين هذه الثلاثة ويعبر عن حسن القوة الغضبية بالشجاعة وعن حسن قوة الشهوة بالعفة والمراد بالعدل هو اعتدال القوتين بين الافراط والتفريط فان الامر المحمود فى كل شئ هو التوسيط فالجبن والتهور مذمومان كما ان البخل والاسراف منهيان والشره والجوع مشغلان وقد ورد خير الامور اوساطها رواه البيهقى فى شعبه وقال تعالى فى ذم التبذير والتقتير * والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما * قال * ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا * وقال تعالى * كلوا واشربوا ولا تسرفوا * وقال * اشداء على الكفار رحماء بينهم * وقال * اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين * فالاعتدال مطلوب فى جميع الاحوال فان العقيدة الحميدة هى التوسط بين التشبيه والتعطيل وبين القدر والجبر وبين النصب والرفض وهو الصراط المستقيم والدين القويم الذى لا عوج له ولا ميل الى احد الجانبين الزايغ عن الجادة قال تعالى * وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله * وقال * واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا ولما كان الوسط الحقيقى بين الطرفين فى غاية الغموض بل هو ادق من الشعر واحد من السيف فلاجرم من استوى على هذا الصراط المستقيم فى الدنيا جاز على مثل هذا الصراط فى العقبى وقل ما ينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم اعنى الوسط حتى لايميل الى احد الجانبين فيكون قلبه متعلقا بالجانب الذى مال اليه فكذا

لاينفك عن عذاب ما واجتياز عن النار وان كان مثل البرق قال تعالى * وان منكم الا واردها
كان على ربك حتما مقضيا * ولاجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد ان يدعو الله
فى كل يوم سبعة عشر مرة بقوله * اهدنا الصراط المستقيم * ومن هنا قال
عليه السلام استقيموا ولن تحصوا اى لن تطيقوا حق الاستقامة وهى الموصوفة
بنعت الاستدامة فينبغى للعبد ان يجتهد ان يصل الى القرب من الاستقامة ان لم يقدر
على حقيقتها فان ما لا يدرك كله لا يترك كله والمقصود عجز الانسان كما يشير اليه قوله
تعالى * كلا لما يقض ما امره * هذا وقال يحيى بن معاذ فى سعة الاخلاق كنوز الارزاق
وعن الحسن من ساء خلقه عذب نفسه وقال الكتانى التصوف خلق فمن زاد عليك
فى الخلق زاد عليك فى التصوف وقال يحيى بن معاذ سوء الخلق سيئة لا ينفع معها كثرة
الحسنات وحسن الخلق حسنة لايضر معها كثرة السيئات ثم قال الحسن حسن الخلق بسط
المحيا وبذل الندى وتحمل الاذى وقال الواسطى هو ان لايخاصم ولايخاصم من شدة معرفته بالمولى
وقال الحسين بن منصور هو ان لايؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق (فالاسرع
علاجا) اى الاهون مداواة (من غفل عن اعتقاد وتميز) من جهة اعتماد كالصبيان
والنسوان والبله من الانسان وجماعة التركمان ومن هنا ورد اكثر اهل الجنة البله (ثم
من عرف القبيح) اى واعتقده سيئا فانه قابل للعلاج فى تركه (ثم من اعتقده) اى القبيح
(حسنا) وذلك كالمبتدعة ونحوهم قال تعالى * افمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله
يضل من يشاء ويهدى من يشاء (وهو اصعب) لان علاجه باخراجه عن اعتقاده وفيه غاية
من التعب وفى مثله قيل من التعذيب تهذيب الذيب (والطريق) مبتدأ اى طريق تهذيب
الاخلاق (عند فقد الكمال الفطرى) اى الجبلى الذى لايحتاج الى التكلف الطبيعى
(كما للانبياء عليهم السلام) وكذا لبعض الاصفياء والاولياء من اتباعهم الكرام (والجذبة)
اى وعند فقد الجذبة (الالهية كما للسحرة) اى سحرة فرعون (وعمر رضى الله عنه) فانه
آمن بغتة (التكلف) خبر المبتدأ اى تكلف السالك (فى اعتياد الاضداد) اى تعود اضداد
الاخلاق السيئة (بالتدريج) اى بالتأنى فى المعالجة (والمجاهدة) بالرفع عطف على التكلف
ويجوز جره عطفا على التدريج اى المبالغة فى المعالجة (فيه) اى فى الاعتياد (حتى يعتاد)
السالك (الطاعة) بوصف الدوام (ويلتذ بها) اى بالطاعة (التذاذ المريض بالطعام بعد العلاج)
اى بعد علاج المريض (والمتعلم) اى والتذاذه (بالعلم على الدوام) متعلق بالتكلف كذا
قيل والاظهر انه متعلق بيلتذ (لا احيانا) اى متساوية نعم قد يفيد المجاهدة اذا كان
فى اكثر الاحوال الواردة وقد مثل عدم افادة بعض الاوقات فى الذكر والفكر والطاعات
بايقاد النار تحت البرمة فانها لاتفور ابدا اذا كان الامر مترددا بين الحالات هذا وقد

توهم

توهم عبارة المصنف ان صاحب الجذبة لايحتاج الى سلوك المجاهدة وليس كذلك فان الجهاد لابد لجميع العباد غاية ما فى الباب ان ارباب السلوك على نوعين منهم سالك مجذوب وهو اغلب احوال المريدين ومنهم مجذوب سالك وهو قليل من بين المرادين ويشير الى الطائفتين قوله تعالى * الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب * واختلفوا فى ايهما افضل والجمهور على ان السالك المجذوب اكمل هذا والانبياء عليهم السلام ايضا فى مقام الترقى لايستغنون عن زيادة المجاهدة لكمال المشاهدة فقد قال تعالى * وقل رب زدنى علما * وفى دعائه عليه السلام اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى اى زد فى تحسين خلقى والا فكان عليه السلام خلق على خلق عظيم ثم كان خلقه القرآن وقد قال له * خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين * وفسر العفو بان تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عن من ظلمك وكان من دعائه عليه السلام اللهم اهدنى لاحسن الاخلاق لايهدينى لاحسنها الا انت واصرف عنى سيئها لايصرف عنى سيئها الا انت رواه مسلم من حديث على

(فالمقصود منه) اى من حسن الخلق اومن رياضة الخلق (رسوخ حبه تعالى) اى ثبوته (فى القلب وقلع حب الدنيا عنه) اى عن القلب فانهما لايجتمعان كما يشير اليه قوله تعالى * ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه * وورد من احب آخرته اضر بدنياه ومن احب دنياه اضر بآخرته فاثروا ما يبقى على مايفنى وقد مثل على كرم الله وجهه الدنيا والآخرة بالضرتين اذا ارضيت واحدة اسخطت الاخرى وبكفتى الميزان اذا اثقلت واحدة خفت الاخرى وبالمشرق والمغرب فمهما توجهت الى المشرق بعدت عن المغرب وكذا بالعكس فكل قلب مال الى حب شئ سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله الا اذا احب الشيء لكونه معينا له على حب الله ودينه قال تعالى * فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا * قال على رضى الله عنه الايمان يبدو لمعة فى القلب بيضاء وكلما ازداد الايمان ازداد ذلك البياض فاذا استكمل العبد الايمان ابيض القلب كله وان النفاق ليبدو فى القلب نكتة سوداء فكلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فاذا استكمل النفاق اسود القلب كله وفيه تنبيه على ان الخلق الحسن من نتيجة الايمان والعرفان والسئ من ثمرة النفاق والكفران ثم اعلم ان اصل الاشياء وموجدها ومخترعها الذى جعلها اشياء هو الله تعالى فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله سبحانه فكانه لم يعرف شيئا وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله احبه ومن احبه لايؤثر عليه الدنيا ولاغيرها من المحبوبات كما قال تعالى * قل ان كان آباؤكم وابناءكم الى قوله * احب اليكم من الله ورسوله * الآية فمن كان عنده شيء احب اليه من الله ورسوله فقلبه مريض كما ان كل معدة صار الطين احب اليها من الخبز والماء او سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهى مريضة محتاجة الى الدواء (وهو) اى الطريق الذى يتعرف به الانسان عيوب نفسه او التكلف باعتبار الاضداد انما يحصل بخمسة اشياء (بالاستفادة من

شيخ) اى ولو شاب تائب من الذنوب (بصير بالعيوب) اى الظاهرة والباطنة (مطلع على الخفايا) من احوال المريد كالعجب والرياء (وهو عزيز الوجود) فى ميدان الشهود كما يشير اليه قوله تعالى * الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم * وقوله * وقليل من عبادى الشكور * وورد الناس كابل مائة لاتجد فيها راحلة واخبر تقله وقال الشاعر

اتمنى على الزمان محالا * ان ترى مقلتاى طلعة حر

والمراد بالحر من لا يستعبده هواه ولا تسترقه دنياه فالاطباء هم العلماء وقد استولى المرض عليهم وغلب حب الدنيا لديهم فلايفيد للسالك التردد اليهم بل اندرس هذا العلم وهو معرفة احوال القلوب الخفية وانكر وجودها بالكلية واقبل الخلق على اعمال ظاهرها عبادات وباطنها مراياة وعادات نعم كان يكثر وجودهم فى الصحابة واكابر التابعين وبعض المتأخرين كالسرى والجنيد والشبلى رضى الله عنهم اجمعين وقد قال الشبلى للحصيرى ان كان يخطر بقلبك من الجمعة الى الجمعة التى تأتى شئ غير الله عز وجل فحرام عليك ان تاتينى (او صديق) اى صاحب صديق (ينبه) صديقه (عليها) اى على عيوبه (كما روى من السلف) ومنهم عمر رضى الله عنه حيث قال رحم الله من اهدى الى بعيوبى وكان يسأل سلمان عن عيوبه كلما قدم عليه وقال ما الذى بلغك عنى ما كرهته فاستعفى والح عليه فقال سمعت انك جمعت بين ادامين على مائدة وان لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل فقال هل بلغك غير هذا فقال اما هذان فقد كفيتهما وكان يسأل حذيفة ويقول انت صاحب سر رسول الله فى المنافقين فهل ترى على شيئا من آثار النفاق وقد قال تعالى * يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين * قال بعضهم كن مع الله فان لم تطق فكن مع من يكون مع الله وهذا ايضا عزيز فيقل فى الاصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب اويترك الحسد فلايزيد على قدر الواجب ولذا كان داود الطائى قد اعتزل عن الناس فقيل له لم لاتخالط الناس فقال ما اصنع باقوام يخفون عنى عيوبى فكان شهوة ذوى الدين من السلف المجتهدين ان يتنبهوا على عيوبهم بتنبيه غيرهم وقد آل الامر الى امثالنا ان ابغض الخلق الينا من ينصحنا ويعرفنا بعيوب احوالنا ويشبه ان يكون هذا من قساوة القلب التى ثمرتها كثرة العصيان واصل ذلك كله ضعف الايمان (او عدو) حاذق عاقل (فعين السخط) بفتحتين وبضم فسكون اى عدم الرضاء (تبديها) اى تظهر العيوب وتكشف الذنوب كما تقدم فى قول الشاعر *

* فعين الرضا عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدى المساويا *

فلعل انتفاع الانسان بعدو مشاحن يذكره عيوب نفسه اكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ويخفى عنه عيوبه (او مخالطة الناس) اماما او مأموما (وترك

ما رأى مذموما) لئلا يكون مذموما وما يراه محمودا يطالب نفسه به ليصير مسعودا فان المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن مؤدب لانفسهم وقيل لعيسى عليه السلام من ادبك فقال ما ادبني احد رأيت جهل الجاهل فجانبته (او الكتاب والسنة) اى العمل بهما (وهو) اى الاعتصام بهما (الانفع) بل هو النافع ويؤيده قوله تعالى * والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا * وحديث من عمل بما علم ورثه الله علم ما لا يعلم (والاصل) فى تهذيب الاخلاق اوفى رسوخ حبه سبحانه (ترك التمتع بما لا ينال) اى لا تحصل منفعته (فى القبر) الذى هو البرزخ بين الدنيا والاخرى فينبغى ان لا يتمتع (الا بقدر الضرورة) فى معيشة الدنيا من اللقمة والخرقة ونحوهما ويتعين ترك التمتع باللذات والشهوات من غير الضرورات فقد قال وهب بن منبه ما زيد على الخبز فهو شهوة وقال يزيد الرقاشى السلام على الماء البارد ما دمت فى الدنيا لعلى لا احرمه فى الاخرى وقال السرى منذ اربعين سنة يطالبنى نفسى ان اغمس جزرة فى دبس فما اطعمتها (لئلا يحصل الانس بالدنيا المؤدى الى حبها) والى نسيان الاخرى وذلك انه اذا تمتع بشئ منه انس به وألفه واذا مات تمنى الرجوع الى الدنيا بسببه ولا يتمنى الرجوع الى الدنيا الامن لاحظ له فى الاخرى (فهو) اى حب الدنيا (رأس كل خطيئة) كما رواه البيهقى عن الحسن البصرى مرسلا وقال تعالى * اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى * قيل نزع عنهم محبة شهوات الدنيا وقال عليه السلام المؤمن بين خمس شدائد مؤمن يحسده ومنافق يبغضه وكافر يقتله وشيطان يضله ونفس تنازعه رواه ابو بكر بن لال من حديث انس وقال عليه السلام لقوم قدموا من الجهاد مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر فقالوا وما الجهاد الاكبر يارسول الله قال جهاد النفس رواه البيهقى فى الزهد وللترمذى فى اثناء حديث وصححه وابن ماجه من حديث فضالة بن عبيد المجاهد من جاهد نفسه وقال سفيان الثورى ما عالجت شيئا اشد على من نفسى مرة لى ومرة على وكان ابو العباس الموصلى يقول يانفس لا فى الدنيا مع ابناء الملوك تتنعمين ولا فى طلب الآخرة مع العباد تجتهدين كأنى بك بين الجنة والنار تحبسين الا يانفس ما تستحيين وقال يحيى بن معاذ الرازى جاهد النفس باسياف الرياضة والرياضة على اربعة اوجه القوت من الطعام والغمض من المنام والحاجة من الكلام واحتمال الاذى من الانام فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات ومن قلة المنام صفوة الارادات ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ومن احتمال الاذى البلوغ الى الدرجات وليس على العبد اشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الاذى فاذا تحركت من النفس ارادة الشهوات والآثام وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جردت عليها سيف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام وضربتهما بايدى

الخمول وقلة الكلام حتى ينقطع من الظلم والانتقام فتأمن بوائقها فى سائر الايام وتضيئها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها فتصير عند ذلك روحانية لطيفة ونورانية حقيقة فتجول فى ميدان الخيرات وتسير فى مسلك الطاعات والمبرات كالفارس الفار فى الميدان وكالملك المنزه فى البستان وقال ايضا اعداء الانسان ثلاثة دنياه وشيطانه ونفسه فاحترس من الدنيا بالزهد فى نعمتها ومن الشيطان بمخالفته ومن النفس بترك شهواتها وقال جعفر بن حميد اجمعت العلماء والحكماء ان النعيم لايدرك الابترك النعيم وقال ابو يحيى الوراق من ارضى الجوارح بالشهوات فقد غرس فى قلبه شجرة الندامات وقال وهب بن الورد من اراد شهوات الدنيا فليتهيأ للذل فى العقبى وقال الجنيد ارقت ليلة فقمت الى وردى فلم اجد الحلاوة التى كنت اجدها فاردت ان انام فلم اقدر فقعدت فلم اطق القعود فخرجت فاذا رجل ملتف فى عباءة مطروح على الطريق فلما احس بى قال يا اباالقاسم الى الساعة فقلت ياسيدى من غير موعد قال بلى سألت الله محرك القلوب ان يحرك الى قلبك قلت قد فعل فما حاجتك قال متى يصير داء النفس دواءها فقلت اذا خالفت النفس هويها صار داؤها دواءها فاقبل على نفسه فقال اسمعى قد اجبتك بهذا سبع مرات فابيت ان تسمعيه الا من الجنيد قال فانصرف وما عرفته وكان مالك بن دينار يطوف فى السوق فاذا رأى الشىء يشتهيه قال لنفسه اصبرى فوالله ما امنعك الا من كرامتك على وقال ابراهيم الخواص كنت فى جبل لكام فرأيت رمانا فاشتهيته فاخذت منه واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركت الرمان فرأيت رجلا مطروحا قد اجتمع عليه الزنابير فقلت السلام عليك فقال وعليك السلام يا ابراهيم فقلت كيف عرفتنى قال من عرف الله لايخفى عليه شىء فقلت له ارى لك حالا مع الله فلو سألته ان يحميك من هذه الزنابير قال وارى لك حالا مع الله فلو سألته ان يحميك من شهوة الرمان فان لذغ شهوة الرمان يجد الانسان المه فى الآخرة ولذغ الزنابير يجد الانسان المه فى الدنيا فان قيل التنعم بالمباح مباح فكيف يكون سبب البعد من الله فيقال هذا خيال ضعيف او المباح الخارج عن الحاجة من الدنيا وحب الدنيا رأس كل خطيئة كما ورد كذا يؤيده حديث اشبعكم فى الدنيا اجوعكم فى العقبى وللطبرانى فى الكبير وابى نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس ان اهل الجوع فى الدنيا هم اهل الشبع فى الآخرة وللديلمى من حديث ابى هريرة مرفوعا نور الحكمة الجوع والتباعد من الله عز وجل الشبع ولاحمد والحاكم والبيهقى باسناد جيد انه عليه السلام نظر الى رجل سمين البطن فاومأ الى بطنه باصبعه وقال لوكان هذا فى غير هذا لكان خيرا لك وللبيهقى فى الشعب من حديث عائشة انه عليه السلام قال لها اياك والاسراف فان اكلتين فى يوم من السرف ولابى الشيخ

عن ابن عمر مرفوعا ايما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بهـا على نفسه غفر الله له ثم اعلم ان الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب وورد من نوقش فى الحساب عذب كما فى الصحيحين فعند الصباح يحمد القوم السرى فترك الشهوة يثقل على المريد فى البداية ثم يتنعم فى النهاية ونظيره الطفل فى الفطام عند الرعاية وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامة المؤمن والمنافق فقال ان المؤمن همته فى الصلوة والصيام والعبادة والمنافق همته فى الطعام والشراب كالبهيمة وقـال حاتم الاصم المؤمن مشغول بالفكر والعبر والمنافق مشغول بالحرص والأمـل والمؤمن آيس من كل احد الا من الله والمنافق راج كل احد الا الله والمؤمن آمن من كل احد الا من الله والمنافق خائف من كل احد الا من الله والمؤمن يقدم ماله دون دينه والمنافق يقدم دينه دون ماله والمؤمن يحسن ويبكى والمنافق يسئ ويضحك والمؤمن يحب الوحدة والخلوة والمنافق يحب الخلطة والجلوة والمؤمن يزرع ويخشى الفساد والمنافق يقلع ويرجو الحصاد والمؤمن يأمر وينهى للسياسة والمنافق يأمر وينهى للرياسة واولى ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الاذى واحتمال البلوى ومن شكى من سوء خلق غيره فدل ذلك على سوء خلقه لان حسن الخلق احتمال اذى الخلق وقال عيسى عليه السلام جوعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم وقال سهل ما صار الابدال ابدالا الا باربع خصال اخماص البطون والسهر والصمت والاعتزال عن الناس وقد قيل فى صفة الابدال ان اكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة *

الباب السادس عشر فى التوبة والمرابطة والتقوى

قد ورد التوبة ندم رواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابن مسعود وقال تعالى * يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون * ومعنى التوبة ندم اى معظم اركان التوبة الندامة كما ورد الحج عرفة والافمن اركانها ترك المعصية مباشرة والعزم على ان لايعود اليها ابدا والتدارك لما امكنه من حقوق الله وحقوق العباد (بسم الله الرحمن الرحيم) المستعان به فى امر الدنيا والاخرى (التوبة) فى اللغة الرجعة وفى الشرع الرجوع من المعصية الى الطـاعة ومن الغفلة الى الحضرة وقال بعضهم هى (تنزيه القلب عن الذنب) اى عن اختياره (وقيل الرجوع من البعد) اى من كل ما يبعد العبد عن المولى (الى القرب) اى الى قرب الرب فى الدنيا والاخرى فيختص بتحصيل كل فضيلة جليلة تقربه الى الله وبـالرجوع عن كل خصلة رذيلة تبعده من الله فى دنيـاه وآخرته فيعم الذنوب الظاهرة والعيوب الباطنة والاخلاق الذميمة والغفلة عن الاذكار الكريمة وقيل فى حد التوبة ذوبان الحشاء لما سبق من الخطاء وقيل هو نـار فى القلب تلتهب وصدع فى الكبد لا يتشعب وقيل هو خلع لبـاس

الجفاء ونشر بساط الوفاء وقال سهل التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة فكأنه اخذ من قوله تعالى * الا من تـــاب وآمن وعمل عملا صالحافاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات * على مـا ذهب اليه بعض المفسرين ومن معـانيها ترك المعاصى فى الحال والعزم على تركها فى الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير فى ماضى الاحوال (وهى) اى التوبة (واجبة) اى فريضة لازمة لـكل من المكلفين (لورود قوله تعالى * توبوا الى الله) اى * جميعا ايه المؤمنون لعلكم تفلحون * وفى نسخة * توبة نصوحا * اى خالصة لله من دون رياء وسمعة واغراض فاسدة والامر فى الآيتين للوجوب بناء على اصله (ودلالة الاجماع) المنعقد من الامة على ان التوبة من المعصية فريضة (والعقل) اى ودلالة العقل (فالواجب) من طريق العقل مع قطع النظر من ورود النقل (ماتعلق بفعله السعادة) العظمى (وبتركه الشقاوة) الكبرى اذبها الوصول الى سعادة الابد من قرب المولى والنجاة من هلاك السرمد الذى هو الحجاب من اللقاء فى العقبى (وهو) اى التعلق بهما (متحقق فيها) اى ثابت فى التوبة بلا خلاف عند العقلاء (وجدواها) اى فائدة التوبة ومنفعتها وثمرتها ونتيجتها اربعة اشياء (حبه تعالى اياه فورد) فى التنزيل (ان الله يحب التوابين) وفى الحديث (التائب حبيب الله) رواه ابن ابى الدنيا وابو الشيخ من حديث انس بلفظ ان الله يحب الشاب التائب ولعبد الله بن احمد فى زوائد المسند من حديث على ان الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب ولاحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة ولابن ماجه من حديث ابن مسعود التائب من الذنب كمن لا ذنب له وللشيخين من حديث ابن مسعود وانس الله افرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل فى ارض دوية مهلكة فقد راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى اذا اشتد عليه الحر والعطش اوماشاء الله قال ارجع الى مكانى الذى كنت فيه فانام حتى اموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فالله اشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته زاد مسلم فى حديث انس ثم قال من شدة الفرح اللهم انت عبدى وانا ربك اخطأ من شدة الفرح هذا وايضا من علامات حب العبد لله ان يتوب عما يشغله عن مولاه ويطيعه فيما يأمره وينهاه كما قيل *

تعصى الاله وانت تظهر حبه * هذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لاطعته * ان المحب لمن يحب مطيع

ويشير اليه قوله تعالى * قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله * ويفيد ايضا الملازمة بين المحبتين كما يومى اليه قوله تعالى سبحانه * يحبهم ويحبونه * ولولا محبته

السابقة لما وجدت محبتنا اللاحقة (والتوفيق) اى جعله تعالى اسبابا موافقة للاعانة (على الطاعة) فى كل وقت وساعة (فقيد الذنوب) التى بمنزلة القيود والاغلال من العيوب (يمنع عنها) اى عن الطاعة وتوفيقها (ولان الاصرار) اى الاقامة على المعاصى من غير تخلل التوبة بالرجوع الى الرب (يقسى القلب) اى يسوده ويشدده (ويجر الى الشقاوة الكبرى) فان المعصية بريد الكفر وقد قال تعالى * والذين اذا فعلوا فاحشة اوظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون (ولان المتلطخ بالنجاسة) اى المتلوث بنجاسة المعصية (لايقرب) الى بساط الرب بل يبعد ويحجب (فورد اذا كذب العبد) وهو من اهون اسباب البعد (تنحى الملكان) اى تبعد اللذان معه من الكرام الكاتبين من عنده لكمال نزاهتهما وجمال طهارتهما (عن نتن ما يخرج من فيه) اى من فمه وهو الكذب والحديث رواه الترمذى وحسنه وابو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر ولفظه اذا كذب العبد كذبة تباعد عنه الملك ميلا من نتن ماجاء به (وحلاوتها) اى لذة الطاعة التى لولم يكن للمطيع جزاء لعمله الا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الانس بمناجاة ربه لكان ذلك كافيا فكيف بما ينضاف اليه من نعيم الآخرة كما يشير اليه قوله تعالى * فلاتعلم نفس مااخفى لهم من قرة اعين جزاء بما كانوا يعملون افمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون * الآية وفى الخبر القدسى اعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وتقسيم هذه اللذة لايكون فى ابتداء التوبة بل التوبة فى اولها مرة كانفطام الصبى ثم يصير حلوة بعد ماصبر على مرارة ترك العادة مدة مديدة ومعالجة شديدة والنفس قابلة ماعودتها تتود (فالمصر لايجدها) اى تلك اللذة اذ من لم يذق لم يعرف ان ترك اللذة الفانية هى اللذة الباقية (وقبولها) اى قبول الطاعة قال تعالى * انما يتقبل الله من المتقين (فرب الداين لايقبل هدية المديون المماطل) الممتنع من اداء الدين فمن الفضول تضييع الاصول (ولان الغضب) المترتب على معصيته بالعقاب الصادر عن تجلى صفة الجلال (ينافى القبول) اى قبول طاعته المترتب عليه بالثواب الوارد عن تجلى نعت الجمال (وهى) اى التوبة (واجبة على الكل) من الانبياء والاولياء فلاتظن ان التوبة اختصت بآدم عليه السلام حيث قال تعالى * وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتبيه ربه فتاب عليه وهدى * بل هو حكم ازلى مكتوب على جنس البشر لايمكن فرض خلافه ما لم تتبدل السنة الالهية التى لامطمع فى تبديلها فالرجوع فى حق كل انسان يكون ضروريا نبيا كان او غبيا وليا اوغويا

فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها * سجية نفس كل غانية هند

ويشير اليه حديث كلكم خطاؤن وخير الخطائين التوابون كما رواه احمد فى غيره

من انس (فى كل حال) اى على الدوام (لعموم الادلة) كقوله تعالى * وتوبوا الى الله جميعا * وذلك لان كل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه اذ لم يخل عنه الانبياء الاخيار كما فى القرآن والاخبار من خطاياهم وتوبتهم وبكائهم فان خلا احد فى بعض الاحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب فى القلب فان خلا عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله وبصفاته وافعاله وكل ذلك نقص وله اسباب وترك اسبابه بالتشاغل باضدادها رجوع عن الطريق الى ضده وانما يتفاوتون فى مقادير النقصان لا فى اصله (وعلى الفور) واجبة من غير تراخ ومهلة (لوجوب الانتهاء) اى الامتناع (عن المعاصى كذلك) اى على الفور من غير التراخى (وحرمة التسويف) اى ولحرمة تأخير التوبة (فورد) فى التنزيل (وليست التوبة الآية) اى * للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال انى تبت الآن (اكثر صياح اهل النار من التسويف) كذا فى الاحياء وقال مخرجه لم اجده اصلا وقال لقمن لابنه يابنى لاتؤخر التوبة فان الموت يأتى بغتة فكل ايمان لم يثبت فى اليقين اصله ولم ينتشر فى الاعمال فرعه لم يثبت على عواصف الاحوال عند ظهور ناصية ملك الموت وسائر الاهوال وخيف عليه سوء الخاتمة الا ماسقى بماء الطاعات حتى توالى الايام والساعات واما قول العاصى للمطيع انى مؤمن كما انك مؤمن فهو كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر انى شجرة وانت شجرة وما احسن جواب الصنوبر اذ قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم اذا عصفت رياح الخريف فعند ذلك تنقطع اصولك وتتناثر اوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة فى اسم الشجر مع الغفلة عن اسباب ثبات الاشجار *

* سوف ترى اذا انجلى الغبار * افرس تحتك ام حمار *

وهذا امر يظهر عند الخاتمة نسأل الله العافية ولقد صدق ابو سليمان الدارانى فى قوله لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره الا على فوت مامضى منه فى غير طاعة الله وامره لكان خليقا ان يحزنه ذلك الى الممات فكيف من يستقبل مابقى من عمره بمثل مامضى من جهله فيما سبق من الحيات وقال بعض العارفين ان ملك الموت اذا ظهر للعبد اعلمه انه قد بقى من عمرك ساعة وانك لاتستأخر عنها طرفة عين فيبدو للعبد من الاسف والحسرة مالو كانت له الدنيا بحذافيرها يخرج منها على ان يضم الى تلك الساعة ساعة اخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد اليه سبيلا وهو اول مايظهر من معانى قوله تعالى * وحيل بينهم وبين مايشتهون * واليه الاشارة بقوله سبحانه * وانفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتى احدكم الموت فيقول رب لولا اخرتنى الى اجل قريب فاصدق واكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء اجلها * اى ولانفسا هذا وما مثال المسوف الامثال من احتاج

الى

الى قلع شجرة فرآها قوية لاتنقلع الابمشقة شديدة جلية فقال اؤخرها سنة ثم اعود اليها وهو يعلم ان الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة فى الدنيا اعظم من حماقته اذ عجز مع قوته من مقاومة ضعيف فاخذ ينتظر الغلبة عليه اذا ضعف هو فى نفسه وقوى الضعيف (وهى) اى التوبة اذا استجمعت شرائطها (مقبولة لا محالة (فورد) فى التنزيل (وهو الذى يقبل التوبة الآية) اى * عن عباده فوعده حق وقوله صدق لايجوز خلفه ولايتصور تبديله (قابل التوب) فهو من صفاته كقوله * غافر الذنب (ان الله يبسط يده بالتوبة حتى تطلع الشمس من مغربها) وفى الاحياء ان الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسىء الليل الى النهار ولمسىء النهار الى الليل حتى تطلع الشمس من مغربهـا قال مخرجه رواه مسلم من حديث ابى موسى بلفظ يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار الحديث وفى رواية الطبرانى لمسىء الليل ان يتوب بالنهار وبسط اليد كناية عن طلب التوبة ومبالغة فى قبولها اذ الطالب ابلغ من القابل فرب قابل ليس بطالب ولا طالب الا وهو قابل ولابن ماجه من حديث ابى هريرة لو اخطأتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم اى قبل توبتكم اورجع عليكم بالرحمة والمغفرة ولابن المبارك فى الزهد عن الحسن مرسلا ان العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة قيل كيف ذلك يارسول الله قال يكون نصب عينيه تائبا منه فارا حتى يدخل الجنة ولابى نعيم فى الحلية من حديث ابى هريرة ان العبد ليذنب الذنب فاذا ذكره احزنه فاذا نظر الله اليه انه احزنه غفر له الحديث ولاحمد وابى يعلى والحاكم وصححه من حديث ابى سعيد ان الشيطان قال وعزتك يارب لا ازال اغوى عبادك ما دامت ارواحهم فى اجسادهم فقال وعزتى وجلالى لا ازال اغفر لهم ما استغفرونى وقال سعيد بن المسيب نزل قوله تعالى * انه كان للاوابين غفورا * فى الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب وقال طلق بن حبيب ان حقوق الله اعظم من ان يقوم بها العبد ولكن اصبحوا تائبين وامسوا تائبين ويروى ان نبيا من انبياء بنى اسرائيل اذنب ذنبا فاوحى الله اليه وعزتى وجلالى لئن عدت لاعذبنك فقال يارب انت انت وانا انا وعزتك لئن لم تعصمنى لاعودن فعصمه الله وقال بعضهم ان العبد ليذنب الذنب فلايزال نادما تائبا حتى يدخل الجنة فيقول ابليس ياليتنى لم اوقعه فى الذنب يعنى لاهلكه بالعجب ويروى انه كان فى بنى اسرائيل شاب عبد الله عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر فى المرآة فرأى الشيب فى لحيته فساءه ذلك ثم قال الهى اطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فان رجعت اليك اتقبلنى فسمع قائلا يقول ولايرى الشخص : احببتنا فاحببناك وتركتنا فتركناك وعصيتنا فامهلناك فان رجعت الينا قبلنـاك » وقد قال تعالى * وان عدتم عدنا * وورد * ما اصر من استغفر وان عاد فى اليوم سبعين مرة

(وايضا) اى وفى العقل ايضا دلالة على ان التوبة مقبولة لامحالة فانها (تزول ظلمة الذنب) وبخارها (عند سطوع نور التوبة) وآثارها (زوال الدنس) اى كزوال الوسخ والدرن من الثوب والبدن (بالصابون) ونحوه من الاشنان (والصداء) اى وكزوال صداء الحديد من المرآة ونحوها (بالصيقل) وتوضيحه ان نار الندم تحرق غبرة الذنب ونور الحسنة يمحو من وجه القلب ظلمة السيئة وانه لاطاقة لظلام السيئات مع نور الحسنات كما لاطاقة لظلام الليل مع نور النهار وكما لاطاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون فكما ان الثوب الوسخ لايقبله الملك لان يكون لباسه فالقلب المظلم لايقبله الله لان يكون فى جواره فكما ان استعمال الثوب فى الاعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لامحالة فاستعمال القلب فى الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره فكل قلب زكى طاهر فهو مقبول كما ان كل ثوب نظيف فهو مقبول والقبول له حسب القضاء السابق الازلى مبذول والحاصل ان من توهم ان التوبة تصح ولاتقبل فهو كمن يتوهم ان الشمس تطلع والظلام لايقلع وان الثوب يغسل والوسخ لايزول نعم اذا غاص الوسخ لطول تراكمه فى تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه من اصله ومثاله ان تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب فمثل هذا القلب لايتوب ولايرجع الى الرب وربما يقول باللسان قد تبت من العصيان فيكون ذلك كقول القصار قد غسلت الثوب هذا وقد ورد ان للقلوب صداء كصداء الحديد وجلاؤها الاستغفار رواه الحكيم الترمذى وابن عدى عن انس ثم لما كان المصنف استشعر سؤالا وهو ان يقال لا ينبغى ان يجوز الشك فى القبول لانه يخالف اخبار الله والرسول اجاب بقوله (وانما يشك التائب فى قبول توبته وحصول اوبته (لشكه فى تحقق الشروط) المعتبرة فى باب التوبة (والاركان) اللازمة فى حصول الاوبة كما سيأتى بيانها فى محلها اللائق بها ومجملها الندم والقلع والعزم والتدارك بالجزم (فهى) اى الشروط والاركان (دقيقة) ادراكها فلايجزم بكونها حقيقة (شك) اى مثل شك (شارب المسهل) فى حصول شروط الاسهال فى الدواء باعتبار الوقت والحال وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقره وادويته والافلاشك فى تأثيره وخاصيته (بخلاف القصار اذ شروطه) من الماء والصابون والدلك (جلية) وليست فى نظر صاحبه خفية ثم اعلم ان التوبة ترك الذنوب ولا يمكن ترك الشيء الابعد معرفته واذا كانت التوبة واجبة كان مالايتوصل اليها الابه واجبا فمعرفة الذنوب اذا واجبة ولذا قال المصنف (والذنب مايخالف امره تعالى من فعل) للطاعات (اوترك) للسيئات (وينقسم الى حقه تعالى) وهو اقرب الى العفو كترك الصلوة والصوم ونحوهما (وحق العبد) اى والى حقه كترك الزكوة وقتل النفس وامثالهما (وهو) اى

حق

حق العبد (اغلظ) اى اشد وعن العفو ابعد (فورد) فى الحديث (انه) اى حق العبد (لايترك) اى لايعفى الا ان العبد يرضى ولذا قيل حق الكافر اشد من حق المسلم واقوى وحق الحيوان اشد من حق الكافر كما لايخفى ولاحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة الدواوين ثلاثة ديوان يغفر وديوان لا يغفر وديوان لا يترك فالديوان الذى يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى واما الديوان الذى لايغفر فالشرك واما الديوان الذى لايترك فمظالم العباد اى لابد ان يطالب بها حتى يتخلص عنها (وايضا) ينقسم (الى) معصية (كبيرة وصغيرة) كما جاء فى القرآن * ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم (وورد فى البعض انه) اى ذلك البعض (من الكبائر) ففى البخارى من حديث عبد الله بن عمر مرفوعا الكبائر: الاشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس، وفى الصحيحين من حديث ابى هريرة اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يارسول الله وماهى قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق، واكل الربوا واكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ولهما من حديث ابى بكرة الاانبئكم باكبر الكبائر: الاشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور وقول الزور ولهما من حديث ابن مسعود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم اى الذنب اعظم قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم اى قال ان يقتل ولدك مخافة ان تطعم معك قلت ثم اى قال ان تزنى حليلة جارك وللطبرانى من حديث سلمة بن قيس انما هى اربع لاتشركوا بالله شيئا ولاتقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ولاتزنوا ولا تسرقوا وفى الاوسط للطبرانى من حديث ابن عباس الخمر ام الفواحش واكبر الكبائر وللبزار من حديث ابن عباس باسناد حسن ان رجلا قال ما الكبائر قال الاشراك بالله والاياس من روح الله والقنوط من رحمة الله وللحاكم من حديث عبيد بن عمير عن ابيه الكبائر تسع فذكر منها استحلال البيت الحرام وللطبرانى من حديث واثلة ان من اكبر الكبائر ان يقول الرجل على مالم اقل وله ايضا من حديثه ان من اكبر الكبائر ان ينتفى الرجل من ولده ولمسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلوة ولمسلم من حديث عبد الله بن عمر ومن الكبائر شتم الرجل والديه ولابى داود من حديث سعيد بن زيد ان من اربى الربوا الاستطالة فى عرض المسلم بغير حق وفى الصحيحين من حديث ابن عباس انه عليه السلام مر على قبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير وانه لكبير اما احدهما فكان يمشى بالنميمة واما الآخر فكان لايستبرئ من بوله الحديث ولاحمد فى هذه القصة من حديث ابى بكرة اما احدهما فكان يأكل لحوم الناس الحديث ولابى داود والترمذى من حديث انس عرضت على ذنوب امتى فلم ارذنبا اعظم من سورة من القرآن اوآية اوتيها رجل ثم نسيها

وللديلمى من الكبائر السبتان بالسبة وقد اختلف الصحابة والتابعون فى عدد الكبائر من اربع الى سبع الى تسع الى احدى عشرة فما فوق ذلك قال ابن مسعود هى اربع وقال ابن عمر هى سبع وقال ابن عمرو هى تسع وقال ابن عباس اذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع يقول هى الى سبعين اقرب منها الى سبع (واختلف) على اقوال (فى حصرها) اى الكبائر (على مانهى) اى على ذنب ورد عنه نهى نهيا (مخصوصا فالتخصيص) بالذكر فى القرآن (للتعظيم) اى لتعظيم العصيان وقد قال ابن عباس كل مانهى الله عنه فهو كبيرة ويشير اليه قوله تعالى * ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه * اذا كانت الاضافة بيانية (وما) اى على ذنب (اوعد) اى ورد الوعيد (عليه بالنار لعظم العقوبة) فقد قال جماعة من الصحابة كل ما تواعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر (وما) اى وعلى ذنب (وجب عليه حد) من رجم وجلد وقتل وقطع (فالتعجيل) لعقوبة المذنب (للتغليظ) فى حق ذنب فقد قال بعض السلف كل ما اوجب الحد فى الدنيا فهو كبيرة (وما) اى وعلى ذنب (استصغر) اى استحقر وعد صغيرا وحقيرا (كما ان الصغيرة ما استعظم) اى عد عظيما وكبيرا (فورد لاصغيرة مع الاصرار ولاكبيرة مع الاستغفار) رواه الديلمى عن ابن عباس به مرفوعا وعن انس موقوفا وعن ابى سعيد الخدرى وغيره من الصحابة رضى الله عنهم انكم لتعلمون اعمالا هى ادق فى اعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر رواه احمد والبزار بسند صحيح وقال ابن مسعود لما سئل عن الكبائر فقال اقرأ من اول سورة النساء الى رأس ثلاثين آية منها عند قوله * ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم * فكل ما نهى الله عنه فى هذه السورة الى ههنا كبيرة وقال قائلون لاصغيرة بل كل مخالفة لله فهو كبيرة وضعف هذا القول لقوله تعالى * ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه * وقوله * الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم * اى الصغائر وفى الحديث * ان تغفر اللهم فاغفر جما * فاى عبد لك لا الما (وقيل الاصح انها) اى الكبيرة (مبهمة) اذ ربما قصد الشرع بابهامها كون العباد على وجل منها (كليلة القدر وساعة الجمعة) وكذا الصلوة الوسطى ليعظم جد الناس فى طلبها وعدم الاكتفاء بها من غيرها (لانها) اى والدليل على كون الكبيرة مبهمة ان المراد بها (ما) اى ذنب (لايكفره الصلوات الخمس) اى ونحوها من المكفرات للسيئات (فورد) فى الحديث (الصلوات الخمس يكفرن ما بينهن) اى من الصغائر ولم يبق عليه شئ من الذنوب حينئذ (ان اجتنبت الكبائر) وليس المعنى ان اجتناب الكبائر شرط لكون الصلوات ونحوها تكفر الصغائر بل ان كان عنده الصغائر والكبائر فتكفر الصغائر والا فتخفف الكبائر وان كان محفوظا من الكبائر والصغائر فتكون سببا لرفع الدرجات العالية

والزلفات الغالية (او الا الكبائر) شك من الراوى اواختلاف الروايات فالاخير رواية مسلم وللحاكم من حديث ابي هريرة وصححه الصلوة الى الصلوة كفارة ورمضان الى رمضان كفارة الا من ثلاث اشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة قيل وما ترك السنة قال الخروج من الجماعة ونكث الصفقة ان يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله (وهو) اى حكم الكبيرة اوالتكفير وهو الاظهر (يتعلق بالآخرة فالابهام اولى تحذيرا عن الكل) اى كل المعاصى لئلا يقع احد فى مخالفة المولى لاحتمال ان يكون كل ذنب اقدم عليه بارتكابه كبيرة فيتخلص من الكبائر والصغائر جميعهما ومطلوب الرب من العبد ان لا يقع فى مطلق الذنب ليحصل له كمال القرب وتوضيحه ان كل ما لايتعلق به حكم فى الدنيا فيجوز ان يتطرق اليه الابهام (ولاتكليف فيها) اى لاتكليف بما لايطاق فى معرفة الكبائر للاجتناب عنها لان دار التكليف هى دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لاحكم لها فى الدنيا من حيث انها كبيرة بل لها تعلق فى حكم العقبى (فموجبات الحدود معلومة) باساميها كالسرقة والزنا والقتل وغيرها وفى الاحياء وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى * ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم * ولكن اجتناب الكبيرة انما يكفر الصغيرة اذا اجتنبها مع القدرة والارادة كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فكف نفسه عن الوقاع بها واقتصر على نظر ولمس منها فان مجاهدة نفسه فى الكف عن الوقاع اشد تأثيرا فى تنوير قلبه من اقدامه على النظر من اظلامه فهذا معنى تكفيره فان كان عنينا ولم يكن امتناعه الا بالضرورة للعجز اوكان قادرا ولكن امتنع لخوف امر آخر فهذا لا يصلح للتكفير اصلا فكل من لايشتهى الخمر لطبعه ولو ابح له لما شربها فاجتنابها لايكفر عنه الصغائر التى هى من مقدماته كسماع الملاهى والاوتار نعم من يشتهى الخمر وسماع الاوتار فيمسك نفسه عن الخمر ويطلقها فى السماع فمجاهدة النفس بالكف ربما يمحو عن قلبه الظلمة التى ارتفعت اليه من معصية السماع (ورد الشهادة) فى الحكومة (لايختص بها) اى بالكبيرة بل ولا بالصغيرة (فالاكل فى الطريق) من السوق ونحوه (يوجبه) اى رد الشهادة (مع كونه مباحا) وفى الاحياء لاخلاف فى ان من يسمع الملاهى ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب من اوانى الذهب والفضة لاتقبل شهادته ولم يذهب احد الى ان هذه الامور من الكبائر فكل الذنوب تقدح فى العدالة الا ما يخلو الانسان عنه غالبا لضرورة مجارى العادات كالغيبة والتجسس وسوء الظن والكذب فى بعض الاحوال وسماع الغيبة وترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر واكل الشبهات وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائدا على حكم المصلحة واكرام السلاطين الظلمة ومصادقة الفجرة والتكاسل عن تعليم الاهل والولد جميع ما يحتاجون اليه فى امر الدين فهذه ذنوب لاينفك الشاهد عن قليلها اوكثيرها الا بان يعتزل الناس ويتجرد لامر الآخرة

ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك ولو لم يقبل الاقول مثله لعز وجوده وبطلت الاحكام والشهادات وليس لبس الحرير ونحوه من قبيل هذه المذكورات (وقيل الاصح انها) اى الكبيرة (اسم اضافى) كما ان الزنا كبيرة بالنسبة الى المعانقة مع التجريد عن الثياب فى الجانبين والمعانقة كبيرة بالنسبة الى اللمس واللمس كبيرة بالنسبة الى النظر بالشهوة والنظر صغيرة بالنسبة الى الهم والعزيمة وقطع يد المسلم كبيرة بالاضافة الى ضربه وصغيرة بالاضافة الى قتله (والمطلق) اى الفرد الذى اذا اطلق الكبيرة ينصرف اليه (هو الكفر) اذ لا كبيرة فوقه وقد قال تعالى * ان الشرك لظلم عظيم * ولهذا لايغفر بالاجماع او الذنب المطلق هو الكفر وباقى الذنوب مقيد بالاضافة ولما كان هذا القول يفيد انه لا كبيرة الا الكفر وهو مفرد وقد جاء فى القرآن بلفظ الجمع قال فى دفع هذا الاشكال (والجمع) مبتدأ اى وقوع لفظ الكبيرة جمعا (فيما ورد) فى التنزيل (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) وقد قرئ كبير ماتنهون عنه فيكون المراد به الكفر او اريد به الجنس (والذين يجتنبون كبائر الاثم لتنوعه) خبر المبتدأ اى لوقوع افراد الكفر انواعا كعبادة الصنم والشمس والقمر وكفر اليهود والنصارى والمجوس وامثالها (اوتعدد المخاطب) فوقع مقابلة الجمع بالجمع او لان كفر زيد غير كفر عمرو (فالمغفرة) للصغيرة والكبيرة وهى العفو من غير التوبة (تتعلق بالمشيئة لا غير) اى لا غيرها من الاشياء المكفرة (فورد) فى التنزيل (ويغفر مادون ذلك) اى غير الشرك والكفر بجميع انواعه (لمن يشاء) اى لمن تعلقت مشية الله تعالى بمغفرته وكان مطرف بن عبد الله يقول اللهم ارض عنا فان لم ترض عنا فاعف عنا فان المولى قد يعفو عن عبده وهو غير راض عن فعله والحاصل ان الرضاء يتعلق بالطاعة والعفو والمغفرة بالمعصية (ثم هو) اى الذنب ولو صغيرة (يعظم) فى الكيفية حتى يصير كبيرة بسبب اربعة اشياء (بالاصرار) وهو الاستمرار على الذنب والاستقرار (لانه) اى الاصرار (سبب تراكم الظلام) اى ظلمات الآثام فى قلوب الانام (فورد لا صغيرة مع الاصرار) وتمامه ولا كبيرة مع الاستغفار وقد تقدم فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها بمثلها لو تصور وجودها لكان العفو عنها ارجى من صغيرة يواظب العبد عليها الا ان الكبيرة قل ما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر فقل ما يزنى الزانى بغتة من غير مراودة ومطالبة ومطالعة وقل ما يقبل القاتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة سالفة فكل كبيرة يتبعها صغائر سابقة ولاحقة (والمباهاة) اى وبالمباهاة والمفاخرة (والاستحقار) بعدم المبالاة (فهما) لفان ونشرهما مرتبا (سبب التألف) اى تألف الذنب والالفة شديدة الاثر فى القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده

بالسيئات فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة عند الرب وعظم اثرها في تسويد القلب (وورد المنافق يرى ذنبه كذباب مر على انفه فاطاره) اى عن نفسه وتمامه والمؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف ان يقع عليه رواه البخاري من رواية الحارث بن سويد عن ابن مسعود مرفوعا وموقوفا ولايخفى ان هذا الحديث يصلح ان يكون شاهدا لعدم المبالاة لا بوجود المباهاة فكان حقه ان يؤخر عن قوله (ونسيان حلمه) وهو بالجر عطف على التألف اى وسبب نسيان حلمه (وكرمه تعالى) وستره وعدم كشف حاله (فهو) اى ما ذكر من النسيان (سبب الامن من المكر) الالهى من استدراج العبد بالنعمة واخذه بالبغتة للنقمة (وورد) فى التنزيل (انما نملى لهم) اى نمهلهم اياما (ليزدادوا اثما) اى آثاما وقال بعضهم الذنب الذى لايغفر قول العبد ليت كل شئ عملته مثل هذا فانما يعظم الذنب فى القلب لعلمه بعظمة الرب فاذا نظر الى جلال من عصى رأى الصغيرة كبيرة وقد اوحى الله تعالى الى بعض الانبياء لاتنظر الى قلة الهدية وانظر الى عظم مهديها ولا تنظر الى صغر الخطيئة وانظر الى كبرياء من واجهته بها وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين الابرار لا صغيرة بل كل مخالفة فهى كبيرة وبهذا السبب يعظم من العالم مالا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العامى فى امور لايتجاوز فى امثالها عن العارف لان المخالفة تكثر بمعرفة قدر المخالف كما يشير اليه قوله سبحانه * يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها اجرها مرتين واعتدنا لها رزقا كريما * فوزرهن مضاعف كاجرهن ومن هنا قال تعالى خطابا لعلماء اهل الكتاب * يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته * وقال * الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذا يتلى عليهم * الى ان قال * اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا * الآية (والاظهار) اى وباظهار المعاصى للفجار (فهو) اى الاظهار (يؤدى الى ذنوب اخر كهتك الستر) بنفسه لنفسه والله سبحانه هو الستار (وترغيب الغير) الى مثل فعله فيكون عليه ذنب التسبب فى عمله ففى حديث مسلم من حديث جرير بن عبد الله من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الحديث (وورد كل الناس معافون) بضم الميم وفتح الفاء اى يقربون الى العفو (الا المجاهر بالذنب) فانه بعيد عن العفو وتمامه يبيت احدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح ويكشف ستر الله فيحدث بذنبه والحديث فى الصحيحين من حديث ابى هريرة بلفظ كل امتى وقال بعضهم لا تذنب فان كان ولابد فلا ترغب فيه غيرك فتذنب ذنبين ولذا قال تعالى * المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف * وقال بعض السلف ما انتهك المرء من اخيه حرمة اعظم

من ان يساعده على معصية ثم يهونها عليه فسبحان من يظهر الجميل ويستر القبيح وقال تعالى * ونكتب ما قدموا وآثارهم * والآثار مايكتب بعد انقضاء العمل والعامل فاذا كان المذنب المظهر عالما يقتدى به وهو يلبس الحرير ويركب سرج الذهب ويأخذ مال الحرام ويدخل على الظلمة من بين الانام طمعا فى المناصب العظام كثر له الآثام فطوبى لمن اذا مات ماتت ذنوبه معه ولم تجاوز غيره فعن ابن عباس ويل للعالم من الاتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحتملها الناس فيذهبون بها فى الآفاق وقال بعضهم مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة وتغرق اهلها وفى الاسرائيليات ان عالما كان يضل الناس بالبدعة ثم ادركته التوبة فعمل فى الاصلاح دهرا فاوحى الله الى نبيهم ان قل له ان ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن قد اضللت من عبادى فادخلتهم النار (وحقها) اى حق التوبة على صاحب المعصية (ان يتندم) اى يظهر الندامة فى القلب (فورد) فى الحديث كما تقدم (الندم) وهو توجع القلب بمخالفة الرب (توبة) اى معظم اركانها هى الندامة على فعل المعصية من حيث انها معصية وتكون خالصة لله من الرياء والسمعة ويتبعها قلع المعصية فى الحال والعزم على تركها فى الاستقبال وفى الاسرائيليات ان الله سبحانه قال لبعض انبيائه وقد سأله النبى قبول توبة عبد بعد ان اجتهد سنين فى العبادة ولم ير اثر قبول توبته فى مقام السعادة فقال وعزتى وجلالى لو شفع فيه اهل السموات والارض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه فى قلبه فلابد فى التوبة من مرارة المعصية بدلا من حلاوتها فيلتذ بترك اللذة ويشير اليه قوله عليه السلام ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا الحديث وينبغى ان يجد مثل هذه المرارة فى جميع الذنوب وان لم يرتكبها قبل فتكون مرارة المعصية وحلاوة الطاعة بالطبع الموافق للشرع فتكون المعصية عنده كالسم والطاعة كالعسل هذا وفى حديث الندم توبة ايماء الى انه مقدور مرغوب فيه وكذا فى قوله تعالى * وتوبوا * والا فيكون الامر بما لايطاق وهو ما وقع فى الشرع بالاتفاق على خلاف فى جوازه وعدمه (وقيل هو) اى الندم (غير مقدور) للبشر وفى الاحياء فان قلت تألم القلب امر ضرورى لايدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب فاعلم ان سببه العلم بفوات المحبوب وله سبيل الى تحصيل سببه وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنى ان العلم يخلقه العبد ويحدثه فى نفسه فان ذلك محال بل العلم والندم والفعل والارادة والقدرة للقادر والكل من خلق الله وفعله * والله خلقكم وما تعملون هذا هو الحق عند ذوى البصائر وما سوى هذا ضلال (ويتدارك) اى وحق التوبة ان يتدارك ويتلافى ما فاته من الطاعة وما سبق له من المعصية (وهو) اى التدارك (فى حقه تعالى القضاء) بدل الاداء (والكفارة) بدل المعصية

وقصد

وقصد دوام الطاعة ودوام ترك المعصية الى الموت مع استدراك الفوت (محتاطا) اى حال كونه يحتاط فى امره من اوله الى آخره برد فكره الى اول يوم بلغ فيه بالسن اوالاحتلام فيفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما ونفسا نفسا وينظر الى الطاعات ما الذى قصد عليه فيها والى المعاصى ما الذى قارفه منها فان كان قد ترك صلوة اوصلاها مع ثوب نجس اوصلاها بنية غير صحيحة اوترك فيها شيئا من الواجبات كتعديل الاركان ونحوها فيقضيها من آخرها فان شك فى عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن انه اداه ويقضى الباقى وله ان يأخذ فيه بغالب الظن ويصل اليه على حسب التحرى والاجتهاد وكذا امر الصوم والزكوة والحج وسائر فرائض الاسلام وشرايع الاحكام فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات واما بحثه عن السيئات فيتفكر من اول بلوغه الى آخر امره عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ثم ينظر فى جميع ايامه وساعاته وينشر عند نفسه ديوان سيئاته حتى يطلع على جميعها قليلها وكثيرها وصغيرها وكبيرها ثم ينظر فيه فما كان من ذلك بينه وبين الله من حيث لايتعلق بمظالم العباد كنظر الى غير محرم وقعود فى المسجد مع الجنابة ومس المصحف من غير طهارة واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع آلة فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها ثم اعلم ان حب الدنيا رأس كل خطيئة واثر اتباع الدنيا فى القلب السرور بها والالفة لها والحنين اليها فلا جرم ان كل اذى يصيب المسلم ثم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون ذلك كفارة لداء القلب يتجافى بالغموم عن دار الهموم فورد من الذنوب ذنوب لا يكفرها الا الهموم وفى لفظ آخر الا الهم بطلب المعيشة رواه الطبرانى فى الاوسط وابو نعيم فى الحلية من حديث ابى هريرة ولاحمد من حديث عائشة اذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له اعمال يكفرها ابتلاه الله بالحزن فيكون كفارة لذنوبه ويقال الهم الذى يدخل على القلب والعبد لايعرفه هو ظلمة الذنوب والهم بها وروى ان جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام فى السجن فقال له يوسف كيف تركت الشيخ الكئيب فقال قد حزن عليك حزن ما به ثكلى قال فما له عند الله قال اجر مائة شهيد والطبرانى والحاكم عن ابى الدرداء مرفوعا ان الله يحب كل قلب حزين (وفى حق العبد) اى والتدارك فى حق العباد ثلاثة اشياء (رد المال محتاطا) اى فى قدره (الى المالك) ان كان حيا (او الوارث) ان كان ميتا (مبالغا) اى غاية الاجتهاد (فى التبليغ) اى ايصال حق العباد (بالطوف) اى السير والتردد (فى البلاد) رجاء ان يلقى المالك هنالك فيرد اليه حقه اويستحل منه (ان امكن له) السفر (والافالتصدق) على الفقراء والمساكين (اوالصرف الى مصالح المسلمين) من بناء مسجد وعمارة وجسر ومدرسة (اوالتسليم الى

القاضى الامين) ليصرفه فى امور الدين (والدية) عطف على رد المال اى وفى حق العبد اداء الدية الى مستحقها اذا وقع القتل او القطع خطأ (والقصاص) اذا وقع عمدا (فى النفس) وكذا فى الاطراف فيجب عليه ان يعترف عند ولى الدم ويحكمه فى روحه فان شاء عفا عنه وان شاء قتله ولايسقط عهدته الابهذا ولايجوزله الاخفاء وليس هذا كما لوزنى اوشرب اوسرق او قطع طريقا او باشر ما يجب فيه الحد لله فانه لا يلزمه فى التوبة ان يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالى استيفاء حق الله بل عليه ان يستر بستر الله ويقيم حد الله على نفسه بانواع المجاهدة فان رفع امره الى الوالى حتى اقام عليه الحد وقع فى موقعه ويكون توبته صحيحة مقبولة عند الله (والاستعفاء) اى طلب العفو والاستحلال عند العجز عن رد المال اوالدية اوالقصاص (نفسا كان) حق العبد (اومالا وعند العجز) اى عدم القدرة على الاستعفاء (فتكثير الحسنات) متعين (بحسب المظالم) اى مراتبها فى مقام السيئات وذلك بان يحسب مقدارها من حيث الكثرة ومن حيث المدة ويحاسب نفسه على الحبات والذرات من اول يوم حياته الى يوم توبته قبل ان يحاسب يوم القيمة ويناقش نفسه قبل ان يناقش وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فانهم لايقدرون على طلب المعاملين كلهم ولاعلى طلب ورثتهم ولكن على كل منهم ان يفعل منه ما يقدر عليه فان عجز فلا يبقى له طريق الا ان يكثر من الحسنات حتى يقبض منه يوم القيمة فتؤخذ حسناته وتوضع فى موازين ارباب المظالم ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فانه ان لم تف بها حسناته حمل من سيئات ارباب المظالم على سيئاته فتهلك بسيئات غيره (وفى) اى والتدارك فى (نحو الغيبة) وكذا النميمة (والسب) اى الشتم واللعن (والايذاء) باللسان او بالاركان ومنه الزنا بحليلة المسلم اوجاريته اوبقرابته (فالاستعفاء) متعين لعدم وجوب المال وجواز القصاص فى امثالها (والذكر المفصل) بفتح الصاد اوكسرها بان يذكر الغيبة ونحوها مبينة معينة (الا ان يزداد التأذى) لصاحب الحق (بالاظهار فالمبهم) اى فالاستعفاء المبهم متعين (تحاميا عن ذنب آخر) فان مثل هذا الاعتذار اشد من الذنب عند اهل الاعتبار ولانه يصير سببا لعدم عفو الذنب الاول (والجبر) اى جبر نقصان الاستعفاء المبهم (بالحسنات) ولوكان حيا موجودا حاضرا (كما لوكان) صاحب الحق (ميتا اوغائبا) لم يمكن الاجتماع به (والمبالغة) اى حينئذ (فى الاستعفاء بالتلطف) فى طريق المحو (والتودد) اى اظهار المحبة بالقيام والاكرام (والاحسان) بالهدية والضيافة والانعام لا بالاكراه والابرام فانه غير مفيد عندالله (فان عفا) اى صاحب الحق وفى نسخة فان عفى اى عن المذنب بالاستعفاء فيها (والا فيحاسب) فى القيمة بحسناته (فى مقابلته) اى مقابلة سيئاته كما قدمنا (فالكل مأثور)

وعن السلف مذكور والحاصل ان الانسان عبد الاحسان وكل من نفر قلبه بسيئة مال بحسنة فاذا طاب قلبه بكثره تودده وتلطفه سمحت نفسه بالاحلال عن فعله فان ابى الا الاصرار فليكن تلطفه واعتذاره اليه من جملة حسناته التى ممكن ان يجبر بها فى القيمة جنايته وليكن قدر سعيه فى فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه فى ايذائه حتى اذا قاوم احدهما الآخر اوزاد عليه اخذ ذلك عوضا منه يوم القيمة بحكم الله عليه كمن اتلف فى الدنيا مالا فجاء بمثله وامتنع من هوله من القبول وعن الابراء فان الحاكم يحكم عليه بالقبض والابراء عنه شاء ام ابى فكذلك يحكم الله فى صعيد القيمة احكم الحاكمين واعدل المقسطين (ويتبع) وهو مرفوع وقيل منصوب اى وحق التوبة ان يتبع (الحسنة بحسب السيئة) اى بقدرها كمية وكيفية (فسماع الملاهى) من انواع الاوتار المناهى يتبع (بسماع القران) ومجالس الذكر الالهى (والقعود فى المعصية) كقعود فى المسجد جنبا (بالاعتكاف) فيه مع الاشتغال بالعبادة وكذا مس المصحف محدثا باكرام المصحف وكثرة تقبيله وبان يكتب مصحفا ويجعله وقفا (وشرب الخمر بالتصدق بشراب حلال لذيذ) اى حلو بارد (والقتل بالاعتاق) اى وقتل النفس عمدا اوخطاء باعتاق رقبة لان ذلك نوع احياء اذ العبد مفقود بنفسه موجود بسيده فالاعتاق ايجاد لايقدر الانسان على اكثر منه فيقابل الاعدام بالايجاد (والغيبة) ونحوها من الايذاء (بالثناء) على صاحب الحق او على اهل الدين والخير فى الحضور او الغيبة (والغصب بالصدقة ونحوها) عطف على سماع الملاهى اى وكذا نحو المذكورات فعد جميع المعاصى غير ممكن فى العبارات والعاقل يكفيه بعض الاشارات والمقصود سلوك طريق المضادة فان المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت الى القلب بمعصية فلا يمحوها الانور يرتفع اليه بحسنة تضادها والمتضادات هى المتناسبات فلذا ينبغى ان يمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكى تضادها فان البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة وهذا التدريج والتحقيق من التلطف فى طريق المحو فالرجاء فيه اصدق والثقة به اكثر من ان يواظب على نوع واحد من العبادات وان كان ذلك ايضا مؤثرا فى المحو هذا وسلوك طريق المضادة فى التكفير والمحو مشهود له فى الشرع حيث كفر القتل باعتاق الرقبة (فورد) فى التنزيل (ان الحسنات) اى جميع الطاعات (يذهبن السيئات) اى يمحونها (اتبع السيئة) اى وورد اتق الله حيث كنت واتبع السيئة من باب الافعال اى اعقب السيئة (الحسنة تمحها) رواه الترمذى من حديث ابى ذر وصححه وللبيهقى فى الشعب من حديث معاذ اذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية (ويستغفر) اى وحق التوبة ان يستغفر (فورد ما اصر من استغفر وان عاد فى اليوم سبعين مرة) رواه ابو داود والترمذى

عن ابى بكر (والستر احب) اى من الاظهار فى حق الله (ولو اقر لاقامة الحد) اى فى حقوق الله الخالصة (فلا قدح) اى لاذم ولامنع كما تقدم (فورد فى ما عز رضى الله عنه) حيث اعترف بالزنى ورجم (لقد تاب توبة لوقسمت بين الامة) وفى رواية بين الخلايق (لوسعتهم) اى لكفتهم وهو عبارة عن كثرة ثوابها والحديث رواه مسلم من حديث بريدة ابن الحصيب وكذا حديث الغامدية واعترافها بالزنى ورجمها وقوله عليه السلام لقد تابت توبة لوتابها صاحب مكس لغفر له (ويؤكد العزم) اى وحق التوبة ان يشدد العزم ويقوى الجزم (على ان لايعود) بمثل الذنب الذى تاب منه ابدا قال بعضهم من صدق فى ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرات لم يبتل بها وقال آخر من تاب من ذنب فاستقام عليه سبع سنين لم يعد اليه ابدا (ويخلص النية) اى وحقها ان يصحح النية ويخلص الطوية فى ترك المعصية الجلية الخفية (فمن ترك المعصية (لذهاب مال) كما فى القمار ونحوه (اوجاه) من سقوط اعتباره عند الخلق (اوعدم اسباب) معينة له على المعصية (لايكون تائبا) وقيل من العصمة الاان تقدر (ثم) اى بعد ذلك حق التوبة على التائب (ان يغسل الثياب) التى عصى الله فيها (ويغتسل) فان طهارة الظاهر عنوان طهارة الباطن وفى رواية ويتوضأ واختيار الغسل اشعار بالتوبة عن الكل (ويصلى اربع ركعات) تنبيها على جهات اربع تشهد له يوم القيمة كما قال تعالى * يومئذ تحدث اخبارها بان ربك اوحى لها * (فى موضع خال) عن اشغال وعن توهم الرياء والسمعة فى بال (ويضع الوجه) اى وان يضع جبينه (على الارض) تواضعا لله (والتراب) لزيادة الخشوع عند رب الارباب (وللتذكر) اى اصله ومرجعه فى هذا الباب كما يشير اليه قوله تعالى * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى * (بدمع حار) اى مع بكاء فى الندامة فان دمع الندامة والخوف حار ودمع الفرح والسرور بارد ولذا ورد قرة عين وقرى عينا (وقلب حزين) على ماسبق له من المعصية (وصوت على) اى رفيع فى البكاء والافالدعاء والاذكار اولى ان تكون بالاخفاء (ويذكر الذنوب) اى وان يتذكر ذنوبه (واحدا واحدا) جنسا وفردا (ويلوم النفس) اى وان يعيبها ويذمها (ويوبخها) اى يضربها ويقرعها (ويرفع يديه) الى كتفيه اواذنيه حتى يرى بياض ابطيه مبالغة فى التضرع الى الله والالتجاء اليه (ويحمد الله) على آلاء الله ونعمائه الظاهرة والباطنة عليه ويقول الحمد لله على كل حال ونعوذ بالله من حال اهل النار (ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم) لانه شفيع المذنبين (ويدعو لنفسه) لقبول التوبة وحصول المغفرة والرحمة (ولوالديه) فيقول رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا (والمسلمين) فيقول رب اغفرلى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب * ويكثر الاستغفار لاسيما ماورد عن سيد الابرار نحو قوله

رب

* رب ظلمت نفسى وعملت سوءًا فاغفرلى ذنوبى * وكذا يكثر من سيد الاستغفار (وجاء فى الاثر اذا اتبع الذنب بعزم التوبة) اى بالتوبة على وجه العزم والجزم (وخوف العقاب) عند مناقشة الحساب (ورجاء العفو) من رب الارباب (واداء ركعتين فى المسجد) فانه افضل الاماكن واشرفها ويشهد له بما عرفه (والاستغفار سبعين مرة) لما ورد فى بعض طرق الاحاديث ولو زاد حتى صار مائة مرة فهو افضل واكمل (والتسبيح والتحميد مائة مرة) اى كل واحد منهما اويقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة وينبغى ان يكون التكبير والتهليل كذلك لتجتمع الباقيات الصالحات بل ويضم اليها * لاحول ولاقوة الا بالله * كذلك (والتصدق سرا وعلانية) وكذا نهارا وليلا ليدخل فى قوله تعالى * الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم اجرهم عند ربهم * وليكون تصدقه مكفرا لجميع انواع معاصيه من السيئات السرية والعلانية والليلية والنهارية (وصوم يوم) فانه من جملة الحسنات المكفرات للسيئات (فالعفو) عن الذنب حينئذ (ارجى) اى اكثر رجاء وفى الاحياء ان فى الآثار مايدل على ان الذنب اذا اتبعت بثمانية اعمال كان العفو عنه مرجوا اربعة من اعمال القلب وهى التوبة اوالعزم على التوبة وحب الاقلاع عن الذنوب وخوف العقاب عليها ورجاء المغفرة لها واربعة من اعمال الجوارح وهى ان تصلى عقيب الذنب ركعتين ثم يستغفرالله بعدهما سبعين مرة ويقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ثم يتصدق بصدقة ثم يصوم يوما وفى بعض الاخبار يصلى ركعات قال مخرجه اثران من مكفرات الذنب ان يسبغ الوضوء ويدخل المسجد ويصلى ركعتين رواه اصحاب السنن من حديث ابى بكر الصديق مامن عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ثم يستغفر الله الاغفر الله له هذا لفظ ابى داود وهو فى الكبرى للنسائى مرفوعا وموقوفا وحديث التكفير بصلوة اربع ركعات ذكره ابن مردويه فى التفسير والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل يهوى امرأة الحديث وفيه فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فاذا هومثل الهدبة فقام نادما فاتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكرله ذلك فقال له عليه السلام صل اربع ركعات فانزل الله عزوجل * واقم الصلوة طرفى النهار * الآية واسناده جيد وفى هذا الحديث دلالة على ان توبة العنين صحيحة وفى الصحيحين ان رجلا قال يارسول الله انى عالجت امرأة فاصبت منها كل شئ الا المسيس فامض على بحكم الله فقال عليه السلام اوما صليت معنا صلوة الغداة فقال بلى فقال عليه السلام ان الحسنات يذهبن السيئات وهذا يدل على ان مادون الزنى من معالجة النساء صغيرة اذجعل الصلوة كفارة له بمقتضى قوله عليه السلام الصلوات الخمس كفارة لما بينهن الا الكبائر كذا فى الاحياء وقال مخرجه

حديث الرجل متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله اوما صليت معنا صلوة الغداة رواه مسلم من حديث انس وفيه هل حضرت معنا الصلوة قال نعم ومن حديث ابى امامة وفيه ثم شهدت الصلوة معنا قال نعم الحديث (والطريق) الموصل الى التوبة عشرة اشياء (ذكر ماورد فيها) اى من الكتاب والسنة فى فضل التوبة كقوله تعالى * ان الله يحب التوابين * وكقوله عليه السلام ليتمنين اقوام لو اكثروا من السيئات الذين بدل الله عز وجل سيئاتهم حسنات رواه الحاكم فى مستدركه عن ابى هريرة وهو مقتبس من قوله تعالى * الامن تاب وآمن وعمل عملا صالحا فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات (وقبح الذنب) فعن ابن مسعود ينسى المرء بعض العلم بالمعصية وتلا آية * فنسوا حظا مما ذكروا به * ولانه مخالفة الرب وقد تجر الى الكفر كقصة ابليس اوله ذنب وآخره كفر وكذا قضية قابيل وبلعم بن باعوراء اوله شهوة وآخره شقوة (وشدة العقوبة) اى وذكر شدتها الناشئة من غضب الله وسخطه الذى لاطاقة لاحد به (وضعف النفس عن الاحتمال) اى تحمل اهوال يوم القيمة فقد قال تعالى * فما اصبرهم على النار * فان من لا يحتمل حر شمس ولطمة شرطى كيف يحتمل غدا حر نارجهنم وضرب مقامع الزبانية ولسع حيات اعناقها كاعناق البخت وعقارب كالبغال خلقت من النار فى دار الغضب والبوار نعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سخط الواحد القهار (وشرف الآخرة) اى وذكر شرفها فانها خير وابقى (وخساسة الدنيا) من سرعة فنائها وقلة بقائها وكثرة عنائها وخسة شركائها (وقرب الموت) كما قيل *

* كل امرئ مصبح فى اهله * والموت ادنى من شراك نعله *

(ولذة المعرفة) فانها لاتجامع المعصية فقد اجمع السلف على ان كل من عصى الله فهو جاهل (والمناجاة) لانها تختص باهل العبادات والمناداة (وخوف الاملاء) بالرفع عطف على ذكر اى وخوف الامهال (بعدم الاخذ الحالى) بتشديد الياء نسبة الى الحال ضد الماضى والاستقبال فقال تعالى * انما نملى لهم ليزدادوا اثما (والاستدراج) اى وخوف الاستدراج (بالاحسان) اى باحسان الرب (بعد الارتكاب) اى ارتكاب الذنب وذلك بمزيد العطية وقت صدور الخطية (وقلع اسبابه) عطف على ذكر ما ورد اى وقطع اسباب الذنب (وهى) اسبابه ثلاثة (الغرور) قال تعالى * وما الحيوة الدنيا الامتاع الغرور * فلا تغرنكم الحيوة الدنيا * وهو سكون النفس الى دليل فيه شك وشبهة كمن يذنب وتسكن نفسه الى ان الله تعالى غفور فهذا تمن وغرور بخلاف من يطيعه ويرجو ثوابه من اللقاء والحضور او الجنة والحور والقصور (وحب الدنيا) فانه رأس كل خطيئة كما ورد (وطول الامل) فانه مانع من العمل ومسوفه الى آخر الاجل فقلع اسبابه (بما فى موضعها) من علاج هذه الاشياء بتمامها

(والتحقيق) فى وجوب التوبة عن كل معصية بلامهلة اوفى قلع الاسباب علمك (ان ترادف المعاصى) اى تواردها وتتابعها باصرارها من غير تخلل توبة فى اثنائها (سبب تراكم ظلام القلب) اى تكاثف ظلماته (وبه يحصل الرين) فى قوله تعالى * كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون (والطبع) اى الختم فى قوله سبحانه * ان لونشاء اصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون * وقال مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة كلما اذنب ذنبا انقبضت اصبعه حتى تنقبض الاصابع كلها فيشتد عليه الفعل فذلك هو القفل يعنى فيما قال تعالى * افلايتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها * وقال بعض السلف ليست اللعنة سوادا فى الوجه انما اللعنة ان لايخرج من ذنب الاوقد وقع فى مثله او اشر منه وقال ابو سليمان الدارانى لايفوت احدا صلوة جماعة الابذنب يذنبه وفى الخبر ما انكرتم من زمانكم فبما تركتم من اعمالكم رواه البيهقى فى الزهد من حديث ابى الدرداء (وهو) اى تراد فها (داء عضال) اى صعب فى غاية اشكال عجز عنه اطباء القلوب الا ان يريد دواءه علام الغيوب (واختلف فى صحتها) اى التوبة (عن بعض الذنوب) ففى الاحياء ومن مهمات التائب اذا لم يكن عالما ان يتعلم مايجب عليه فى المستقبل ومايحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة ثم ان لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة الاان يتوب من بعض الذنوب كالذى يتوب عن الشرب والزنى واللواطة والغصب مثلادون غيره وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس ان هذه التوبة لاتصح وقال قائلون تصح ولكن لفظ الصحة فى هذا المقام مجمل (والحق) اى الذى لامحيص عنه ان فى التوبة عن بعض المعاصى (افادة نقصان العقوبة لانها) اى العقوبة (بحسب الذنب) كثرة وقلة (دون النجاة) اى دون افادة النجاة من النار (لانها) اى النجاة انما تحصل (بترك الكل) اى جميع المعاصى وتوضيحه ان يقال لمن قال لاتصح ان عنيت به ان ترك بعض الذنوب لايفيد اصلا بل وجوده كعدمه فما اعظم خطأك فانا نعلم ان كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته ويقال لمن قال تصح ان اردت به ان التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولا يوصل الى النجاة اوالفوز فهذا ايضا خطأ بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر فلسنا نتكلم فى خفايا اسرار عفو الله فهو اعلم بالسرائر (فان قلت انما الترك) اى ليس مراد القائل الاول بعدم الصحة عن البعض الاترك بعض الذنب وهو شرب الخمر مثلا (لكونه) اى ذلك البعض الذى تاب منه وهو الشرب (ذنبا لابعينه) اى لالكونه شرب الخمر بذاته (وهو) اى كونه ذنبا اوعلة تركه (مشترك فيه) اى يشترك فى هذا المعنى جميع الذنوب شامل بين جميع المعاصى لان من ترك الخمر لكونها معصية وتوقعه فى عقوبة وجب عليه ان يترك سائر المعاصى لكونها معصية وموقعة فى العقوبة (فكيف تتصور) التوبة (عن البعض) دون البعض فاذا

ثبت انها لاتصح من البعض بهذا المعنى فوجب ان يتوب عن الجميع دون البعض (قلت) التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو اما ان تكون من الكبائر دون الصغائر او بالعكس اوعن كبيرة دون كبيرة اما الاول فانه ممكن ويقال (يجوز الترك) لبعض الذنوب (لكونه) اى ذلك البعض (افحش) اى اغلظ واعظم واجلب لسخط الله وغضبه (والعقاب عليه اصعب) اى اشد واقوى وابقى والصغيرة اقرب الى تطرق العفو اليه فلا يستحيل ترك الكبيرة بهذه العلة ومثاله كمثل عبد يترك ضرب ولد السيد لعظم العقوبة ويضرب دابته لظن ان السيد ربما يسامحه فى ذلك وكالمريض يحذره الطبيب عن اكل الحلو تحذيرا شديدا فيتوب المريض عن العسل دون السكر واما الثالث وهو ان يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا ايضا ممكن لاعتقاده ان بعض الكبائر اشد عند الله من بعض كمن ترك شرب الخمر مثلا لكونه مفتاح الشر ولانه اذا زال عقله ارتكب سائر المعاصى فيجتنبها دون الزنا (او التدارك) اويكون تدارك ذلك البعض (اشق) اى اتعب كالذى يترك القتل او النهب ومظالم العباد لعلمه ان التدارك فيه اصعب ولان ديوان العباد لايترك يوم المعاد ويرتكب مابينه وبين الله كترك الصلوة فانه متسارع العفو اليه واما الثانى وهو ان يتوب عن الصغائر وهو مصر على كبيرة يعلم انها كبيرة وهذا ايضا ممكن كالذى يترك الغيبة او النظر الى غير المحرم ومايجرى مجراه وهو مصر على شرب الخمر لان ميل النفس اليها اكثر (اوميل النفس اليه) اى الى ماترك من الصغائر (اقل) فيكون تركه اهون واسهل ووجه امكان ذلك انه مامن مؤمن الا وهو خائف على المعاصى نادم على فعله ندما ضعيفا اوقويا ولكن ميل نفسه فى تلك المعصية اقوى من الم قلبه فى الخوف منها لاسباب توجب الخوف من الجهل والغفلة واسباب توجب قوة الشهوة فيكون الخوف موجودا لكن لا يحمل على ترك الذنب فان سلم من شهوة هى اقوى منه بل لم يعارضه الا ما هو اضعف منه فهو اى ذلك الخوف الضعيف ملك الشهوة التى هى اضعف منه ودفعها وان لم يسلم من شهوة هى اقوى منه كشرب الخمر لم يقدر على الدفع فمثاله كمثل رجل له عدوان احدهما ضعيف والآخر قوى فاذا واجه الضعيف غلب عليه واذا واجه القوى صرعه القوى ولان التوبة على حسب المعصية وتوبة ذنب لاتتوقف على توبة ذنب آخر وهذا لان توبة ذنب احسان فى العبودية وتوبة ذنب آخر احسان آخر وصحة احسان لايتوقف على صحة احسان آخر (هذا) هو التحقيق اوخذ هذا على طريق التوفيق (ولم يشترط الكل) اى لم يشترط التوبة عن جميع المعاصى (فيما ورد) من الكتاب والسنة فى التوبة كقوله تعالى * ان الله يحب التوابين * حيث لم يقل عن جميع الذنوب وكقوله عليه السلام التائب من الذنب كمن لا ذنب له ولم يقل عن

جميع

جميع الذنوب وقوله الندم توبة ولم يقل عن جميع المعاصى وايضا يقاس على الطاعات من نحو الصوم والصلوة والزكوة حيث لا تتوقف صحة طاعة على وجود اخرى اجماعا (وفى صحتها) اى وكذا اختلف فى صحة التوبة (عن العاجز) الذى لم يقدر على المعصية (كالعنين) بوزن سكين وهو من لم يقدر على الجماع (عما زنى) اى كتوبته عما قارفه (قبل العنة) اى حدوثها (والاقرب) اى القول الاقرب الى الصحة او الصواب (العدم) اى عدم صحته (لامتناع الترك فى غير المقدور) لان التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله واما ما لايقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لابتركه اياه (لكن قد يقال (لو تندم) العنين (وتألم القلب) بالزنى (بحيث لو فرضت الشهوة) اى قدرت شهوة الزنى (لقهرها) اى لغلبها وتركها (فالرجاء) اى المأمول من كرمه سبحانه (القبول) اى قبول توبته (على حسب اطلاعه تعالى على الضمائر) اى على ما يخفى على غيره من السرائر (كما لو تاب) العنين عن الزنى (قبل طريان العنة) اى حدوثها (ومات قبل هيجان الشهوة) اى شهوة الزنى او الجماع (وتيسر اسباب قضائها) اى قضاء الشهوة ومباشرتها لكان من التائبين اتفاقا فبعد طريان العنة لو تندم بما تقدم لكان من التائبين ايضا حيث لافرق بينهما (وفى) اى واختلف ايضا فى (ان الافضل من مجاهد شهوته) ويمنع معصيته (او من انقطعت شهوته) وسكنت نفسه عن الميل الى معصية فقال احمد بن ابى الحوارى واصحاب ابى سليمان الدارانى ان المجاهد افضل لان له مع التوبة فضل المجاهدة ويؤيده ما اخرجه الامام احمد فى الزهد عن مجاهد انه قال كتب الى عمر يا امير المؤمنين رجل لا يشتهى المعصية ولايعمل بها افضل ام رجل يشتهى المعصية ولايعمل بها فكتب عمر ان الذين يشتهون المعصية ولايعملون بها اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة واجر عظيم * ويقربه ان جنس البشر افضل من جنس الملك لماتقدم والله اعلم وقال علماء البصرة ذلك الاجر افضل لانه لو فتر فى توبته كان اقرب الى السلامة من المجاهد الذى هو فى عرضة القصور عن المجاهدة (والحق ان الثانى اسلم مطلقا) سواء كان انقطاع شهوته من المجاهدة اوضعف البنية (وافضل) اى الثانى مقيدا بقيد وهو انه (ان كان انقطاعها) اى الشهوة (لقوة اليقين) فى مقام المشاهدة (وسبق المجاهدة) مع النفس فى دفع الشهوة على سبيل المعصية (فالمظفر) اى المنصور على العدو (اولى من المجاهد) المشغول فى صف القتال ولا يدرى كيف يسلم فى الاستقبال (وان كان) انقطاعها (لضعفها) اى لفتور الشهوة (فى نفسها) اى فى اصل خلقتها (فالاول) وهو الذى يجاهد شهوته افضل (لان الترك بالمجاهدة من قوة اليقين واستيلاء الدين) ولقد زل فى هذا البحث فريق فظنوا ان الجهاد هو المقصود الاقصى ولم يعلموا ان ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق وعلائقها الشاغلة

من المولى وظن آخرون ان قمع الشهوات واماطتها بالكلية مقصود بالذات حتى جرب بعضهم ذلك فعجز عنه فقال هذا محال وكذب بالشرع وسلك سبيل الاباحة واسترسل فى اتباع الشهوات وكل ذلك جهالة وضلالات (وفى) اى وكذا اختلف فى (نفع الاستغفار) باللسان (مع الاصرار) على الذنوب الكبار والصغار (والحق النفع) لثلاثة اوجه (لما سبق) من الاخبار فى فضل الاستغفار من غير قيد بعدم الاصرار (وكونه) اى ولكون الاستغفار باللسان (حسنة تصلح للتكفير) اى لتكفير العصيان (وعدم ضياع الاجر) اى ولعدم ضياع اجر عامل عبده سبحانه (فورد) فى التنزيل (ان الله لايضيع اجر المحسنين) ولايضيع اجر من احسن عملا * (وان تك حسنة يضاعفها) * تمــــــامه * ويؤت من لدنه اجرا عظيما * وقال * فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (وما ورد) مبتدأ اى وما جاء فى حديث (ان المستغفر بلسانه المصر على ذنبه) اى بجنانه (المستهزئ بربه) وفى الاحياء بلفظ المستغفر من الذنب وهو مصر كالمستهزئ بآيات الله قال مخرجه هو حديث ابن عباس عند ابن ابى الدنيا ومن طريقة البيهقى فى الشعب ولفظه المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بربه (محمول عليه) خبر المبتدأ اى حمله العلماء على الاستغفار (بحكم العادة من الغفلة عن الارادة (دون الابتهال) اى التضرع فى الحال (والصدق فى السؤال) اى سؤال المغفرة فى الاستقبال فهذا حسنة تصلح ان تدفع بها السيئة وكذا مانقل عن بعضهم انه كان يقول استغفر الله من قولى استغفر الله وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين وهو محمول على الاستغفار بمجرد القول من غير ان يكون للقلب فيه شركة العمل وقال رابعة العدوية استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير فلاتظن انها تذم حركة اللسان من حيث انه ذكر الله بل تذم غفلة القلب فهو يحتاج الى استغفار من غفلة جنانه لامن حركة لسانه فانه من سكت عن الاستغفار باللسان ايضا يحتاج الى استغفارين لا الى استغفار واحد فهكذا ينبغى ان يفهم ذم مايحمد وذم مايذم والاجهلت معنى قول القائل الصادق «حسنات الابرار سيئات المقربين» فان هذه امور تثبت بالاضافة فلاينبغى ان تؤخذ من غير اضافة بل ينبغى ان لايستحقر ذرات الطاعات والسيئات ولذا قال الامام جعفر الصادق ان الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث رضاه فى طاعته فلاتحقر وامنها شيئا فلعل رضاه فيه وسخطه فى معاصيه فلاتحقر وامنها شيئا فلعل غضبه فيه وخبأ وليه فى عباده فلاتحقر وامن عباد الله احدا فلعله ولى الله وزادوا وخبأ اجابته فى دعائه واسمائه فلا تتركوا شيئا منهما فربما كانت الاجابة فيه وقال سهل لابد للعبد فى كل حال من مولاه فاحسن احواله ان يرجع اليه فى كل شئ مماقدره وقضاه فان عصاه قال يارب استر على فاذا فرغ من المعصية قال يارب تب على فاذا تاب قال يارب

ارزقنى العصمة واذا عمل الطاعة قال يارب تقبل منى وسئل ايضا عن الاستغفار الذى يكفر الذنوب فقال اول الاستغفار الاستجابة ثم الانابة ثم التوبة فالاستجابة اعمال الجوارح والانابة اعمال القلوب والتوبة اقباله على مولاه بان يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذى هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم التنقل الى الافراد ثم الثبات ثم البيان ثم القرب ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلة ولايستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضاء زاده والتوكل صاحبه ثم ينظر الله اليه فيرفعه الى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش وسئل عن معنى قوله عليه السلام التائب حبيب الله فقال انما يكون حبيب الله اذا كان فيه جميع ماذكره الله فى قوله تعالى * التائبون العابدون * الآية وقال الحبيب هو الذى لا يدخل فيما يكرهه حبيبه وفى الاحياء فاياك ان تستحقر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصى فلا تنقيها كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللا بانها لاتقدر فى كل ساعة الاعلى خيط واحد فتقول واى غنى يحصل فى خيط واحد وما وقع ذلك فى الثياب ولا تدرى المعتوهة ان ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا وان اجسام العالم مع اتساع اقطاره اجتمعت ذرة ذرة فاذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لاتضيع عند الله اصلا بل اقول الاستغفار باللسان ايضا حسنة اذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الحالة بغيبة اوفضول كلام بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالاضافة الى السكوت عنه وانما يكون نقصانا بالاضافة الى عمل القلب ولذا قال بعضهم لشيخه ابى عثمان المغربى ان لسانى فى بعض الاحوال يجرى بالذكر والقرآن وقلبى غافل فقال اشكر الله اذ استعمل جارحة من جوارحك فى خير وعوده الذكر ولم تستعمل فى الشر ولم يعودها الفضول انتهى فاياك ان تامح فى الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك فى العبادات فهذه مكيدة روجها الشيطان بلعبه على المغرورين وخيل اليهم انهم ارباب البصائر واهل التفطن فى الخبايا والسرائر فاى خير فى ذكر اللسان مع غفلة الجنان والله المستعان (وفى) اى وكذا اختلف فى (نسيان الذنب) وذكره (بعد التوبة) ايهما اولى وانما قيد بما بعد التوبة فان النسيان قبلها مذموم اجماعا قال تعالى * ونسى ما قدمت يداه * فقال قوم حقيقة التوبة ان تنصب ذنبك بين عينيك وقال آخرون حقيقة التوبة ان تنسى ذنبك (وهو) اى نسيان الذنب (الاولى للمبتدئ تحاميا عن تحريك الميل) اى احترازا عن تحريك ميل قلبه الى المعصية الناشئة عن الشهوة عند ذكرها ولان المذنب اذا نسيه لم يكثر احتراقه ولا تقوى ارادته وانبعاثه لسلوك الطريق لان ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع الى مثله فهو بالاضافة الى الغافل كمال ولكنه بالاضافة الى سالك الطريق نقصان فانه شغل مانع عن سلوك

الطريق (وما روى) مبتدأ اى وما نقل (من كثرة نوح المنتهين) من الانبياء والمرسلين والاولياء والصالحين (وبكائهم) حال كثرة دعائهم والخبر (فلا يقاس) فى سلوك طريق الدين (الملائكة بالحدادين) فان صدور البكاء واظهار الذنوب بالاستغفار والدعاء انما كان لتعليم امتهم حتى لا يغفلوا عن حال الجفاء وقت الوفاء هذا وقد اخرج ابن المبارك وابن ابي حاتم عن المقبرى ان عيسى بن مريم كان يقول يا ابن آدم اذا عملت حسنة فاله عنها فانها عند من لا يضيعها واذا عملت سيئة فاجعلها نصب عينيك (وافضل التائبين المستقيم) على اكتساب الطاعات واجتناب السيئات (الى الموت) اى انقضاء الحيوة من غير نقصان الفوت (مبالغا فى اجتناب غير الزلات) التى لا ينفك البشر عنها فى الحالات بحسب العادات من المعاصى المنهيات وانما المبالغة مطلوبة فى جانب المحظورات لما ورد اذا امرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه (فهو) اى المستقيم (سابق بالخيرات) ومسارع الى المبرات مستبدل لسيئاته بالحسنات وفى الكلام ايماء الى قوله تعالى * ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير (والنفس) اى نفس هذا التائب الموصوف بهذه الصفات (مطمئنة) راضية مرضية فى رياض التوبة واهل هذه الرتبة يتفاوت حالهم فى القوة فمنهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك ضراعها ومنهم من لا ينفك عن منازعة النفس ومنعها ولكن تغلب بالمجاهدة وردعها ومنهم من يقل مدة النزاع ومنهم من يكثر ومنهم من يطول عمره ويطول اجتهاده فى امره وتكثر حسناته وتستمر استقامته ومنهم من يقصر عمره فيظفر بالسلامة عن مرارة امره وعن فتوره فى الطاعات وقصوره وهذا معنى قوله (ويزداد الفضل) اى فضل التائب (بطول العمر) اى ان طال عمره فى مكابدة الطاعة (والمجاهدة) مع النفس فى العبادة (فورد افضل السعادات طول العمر فى طاعة الله) اى فى العبادات والحديث لم اعرفه وقد ورد طوبى لمن طال عمره وحسن عمله رواه الطبرانى وابو نعيم عن عبد الله بن بسر (والسلامة) عطف على الفضل اى وتحصل زيادة السلامة عن الوقوع فى المعصية والملامة (بقرب الموت) وقصر العمر وتمام الامر ونقصان الاجر وقد طلب بعض الاكابر طول العمر رجاء كثرة العبادة وبعضهم الموت خلاصا من الفتنة والتسليم اسلم ففى الدعاء المأثور اللهم احينى ما كانت الحيوة خيرا لى وتوفنى اذا كانت الوفاة خيرا لى واجعل الموت راحة لى من كل شر واجعل الحيوة زيادة لى فى كل خير (ثم المعاود) عطف على المستقيم اى ثم الافضل المعاود (فى بعض الذنب المجدد للتوبة) رجوعا الى الرب (مبالغا) فى تجديد التوبة (وهو) اى كثير الابتلاء بالمعصية والتوبة

(المفتتن التواب) اى كثير التوبة والرجعة وعند البيهقى عن على مرفوعا خياركم كل مفتن تواب (والنفس) اى نفس هذا التائب المعاود فى بعض الذنوب (لوامة) تلوم صاحبها بعد المعصية وترجع الى الطاعة التى فيها سلامة وهو المقتصد وهذه ايضا رتبة عالية وان كانت عن الطبقة الاولى ناقصة نازلة فهى اغلب احوال التائبين لان الشر معجون فى طينة البشر وانما غاية سعيه ان يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فيترجح كفة الحسنات واما ان يخلو عنه بالكلية كفة السيئات فذلك فى غاية البعد من حيث العادات فهؤلاء مع هذا الابتلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى اذ قال سبحانه * الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم * اى الصغائر * ان ربك واسع المغفرة * وفى الخبر * ان تغفر اللهم فاغفر جما * واى عبد لك لا الما * وقد قال عز وعلا فى مقام المدح والثناء * والذين اذا فعلوا فاحشة اوظلموا انفسهم ذكروا الله * الآية فاثنى عليهم مع ظلمهم انفسهم لتندمهم وتحسرهم (ثم التائب) عطف على المعاود او المستقيم اى الافضل بعدهما التائب (عن البعض) اى بعض الذنوب (المسوف) اى المؤخر بالتوبة (فى الآخر) اى فى البعض الآخر من الذنوب (المتندم) اى مظهر الندامة (بعد الارتكاب) اى اكتساب المعصية (القاصد) اى الناوى (للتوبة فهو المخلط) الداخل فيمن قال الله فى حقه * وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم * وهو ظالم لنفسه (والنفس) اى نفس هذا الغافل (مسولة) اى مزينة للمعصية ومسهلة لتأخير التوبة وقد قال تعالى * اولئك هم الغافلون لاجرم انهم فى الآخرة هم الخاسرون * فالخسارة مترتبة على الغفلة (وهو على الخطر فى الخاتمة فان مات تائبا فاز) بالجنة وظفر بالمثوبة (والا) اى وان لم يتب ومات (ففى مشية الله تعالى) ان شاء عفا عنه بلطفه وكرمه وان شاء عذبه بقدر ذنبه (بخلاف الاولين) اى صاحب نفس المطمئنة وصاحب النفس اللوامة (فهما فائزان) بالجنة والسلامة فى العاقبة (واما المرتكب) للمعصية (المصر) عليها من غير التوبة (الناسى للتوبة) اى التارك لها نفسها (وعزمها) اى والعزم عليها (فهو) الذى اسمه (الغافل) عن حكم ربه الجاهل عما خلق لاجله فقد ورد من حديث ابن عمر عند الديلمى ان لله ملكا ينادى فى كل يوم وليلة ابناء الاربعين زرع قد دنا حصاده الحديث وفيه ليت الخلائق لم تخلقوا وليتهم اذا خلقوا علموا لما ذا خلقوا فيجلسوا بينهم فيتذاكروا الحديث (والنفس) اى نفسه (امارة) اى كثيرة الامر (بالسوء) اى بالمعصية (يخشى عليه سوء الخاتمة) من الموت على الفسق او الكفر هنالك نعوذ بالله من ذلك (ويجوز شمول العفو من الله (اياه) اى الغافل ولكنه نادر لايقع فى الاغلب بلا سبب (كنيل الكنز) اى كوصوله بالكنز (بلا طلب) وكمن يحصل له العلم اللدنى بمجرد الجذب الالهى

(لكن التوقع) للعفو مع الاصرار على المعصية وعدم اتيان الطاعة (حماقة) اى غرور وجهالة (فورد) فى التنزيل (وان ليس للانسان الا ماسعى) وفق ماقدره الله له وقضى فلابد من فعل الطاعة وترك المعصية او الرجوع عنها بالتوبة والا فعاقبته محظرة فربما يختطف قبل التوبة ويقع امره فى المشية فان تداركه الله بالرحمة وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين وان غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى عليه ان يحق عليه فى الخاتمة ماسبق عليه من القول الاول فى قضاء الازل لانه مهما تعذر على المتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على انه سبق له فى الازل ان يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء فى حقه من ذلك الحين واذا تيسرت له اسباب المواظبة على التحصيل دل على انه سبق له فى الازل ان يكون من جملة العالمين فكذا ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الاسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الاغذية والادوية وارتباط حصول فقه النفس الذى يستحق به المناصب العلية فى الدنيا بترك الكسل فى طلب المراتب العليا والمواظبة على طلب العلم فكما لايصلح لمنصب الرياسة والتقدم بالعلم فى مقام السياسة الانفس صارت فقيهة بطول التفقه فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولاللقرب من رب العالمين الاقلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير هكذا سبق فى الازل بتقدير رب الارباب ومسبب الاسباب قال تعالى * ونفس وما سويها فالهمها فجورها وتقويها قد افلح من زكيها وقد خاب من دسيها * فالمخافة من الخاتمة قبل التوبة وكل نفس خاتمة ما قبله اذ يمكن ان يكون الموت متصلا به فليراقبه الانفاس والا وقع فى المحذور ودامت الحسرة الى ان يخرج من دار الغرور فالناس كلهم محرومون الا العالمون والعالمون كلهم محرومون الا العاملون والعاملون كلهم محرومون الا المخلصون والمخلصون كلهم على خطر عظيم (ولايتركها) اى التوبة (لخوف العود) اى لمخافة الرجعة الى المعصية (لجواز الموت قبله) اى قبل عودة الى ذنبه (وغفران السالفة) اى السابقة ان عاد الى ذنبه ولم يتب الى ربه وهذا الترك من خدوع الشيطان فانه من اين له هذا العلم فعسى ان يموت تائبا عن الذنب ويصير حبيبا للرب مع ان الخوف من العود لاضرر فيه بل فيه منفعة فعلى العبد العزم والصدق فى الجزم وعلى الله الاتمام من باب الفضل والاكرام فان اتم فهو المطلوب الاعلى وان لم يتم فقد غفرت ذنوبه السالفة كلها فهذا هو الربح العظيم والفائدة الكبرى فالعبد من التوبة ابدا بين احدى الحسنيين (فورد) عن على مرفوعا (خياركم المفتتن) بصيغة المجهول وفى رواية المفتن بالادغام (التواب) رواه البيهقى فى شعبه (اى كثير الابتلاء بالذنب وكثير التوبة منه) اى طاعة الرب وفى خبر آخر المؤمن كالسنبلة تقوم احيانا وتميل احيانا

رواه ابويعلى وابن حبان من حديث انس وللبيهقى والطبرانى من حديث ابن عباس باسانيد لابد للمؤمن من ذنب تأتيه الفينة بعد الفينة اى الحين بعد الحين فالفقيه فى الدين هو الذى لايؤيس الخلق من درجات السعادات بمايتفق لهم من العبرات ومفارقة السيئات المختطفات فللترمذى والحاكم وصححه من حديث انس كل بنى آدم خطاؤن وخير الخطائين التوابون وللطبرانى والبيهقى من حديث جابر المؤمن واه راقع فسعيدهم من مات على رقعه اى واه بالمعصية والملامة راقع بالتوبة والندامة (وسبب الاستقامة الرياضة) وهى تهذيب الاخلاق (والمرابطة) وهى الاقامة بالمجاهدة والاستدامة (فورد فى التنزيل (ياايها الذين آمنوا اصبروا) على الطاعات وعن السيئات وفى المصيبات (وصابروا) اى وغالبوا الاعداء الظاهرة والباطنة بشدة الصبر وحدة الامر (ورابطوا اى انفسكم بالمشارطة) اى مع النفس بالمداومة على الطاعة والمواظبة على العبادة فى كل يوم وساعة خوفا عليهما من ضياع البضاعة والتحقيق ان المرابطة ربط النفس على الارتحال والفناء والقلب على اغتنام العبادات والتأهب ليوم الجزاء وهو معنى قوله (وهو) اى ربطها بالمشارطة ثلاثة اشياء (وصية النفس) اى وصيته بها (فى اول النهار) بل فى كل نفس من الاعمار (نحو ان لابضاعة لك) اى ليس لك رأس مال (سوى العمر) وهو ايام غير ممدودة (والانفاس) اى والحال ان انفاسه (معدودة) لاتزيد ولاتنقص (والماضى لايعود) فى الوجود (والوقت ضيق) فى ميدان الشهود (والتمنى) بان يرجع الى الدنيا يوما واحدا ليعمل عملا صالحا اوتمنى المراتب العلية بدون المكاسب العلمية والعملية (غير نافع) بعد الورود (و) منها (توظيف العمل) بان يجعل فى كل وقت عملا ينفعه فى العقبى اويعينه على الطاعة فى الدنيا (و) منها (شرط الشروط عليه) اى على نفسه فحذف لفظ النفس فاتى الجار على ضميره فصار عليه ولا يبعد ان يكون الضمير راجعا الى العمل والمعنى يقول لها ان كذبت فعليك صوم ثلاثة ايام وان اغتبت فعليك صدقة درهمين ونحوهما (ثم) المرابطة (بالمراقبة) وهى مشاهدة كونه سبحانه رقيبا بحاله عالما بفعاله (فى الحركات والسكنات) فلايتحرك ولايسكن الابما يرضاه الحق فى تلك الساعات من العبادات والطاعات (فالاعلى) اى اعلى انواع المراقبة (ان يصير) العبد (مغلوبا بالاستغراق به) من ذكره وفكره (تعالى وعدم الالتفات الى ما سواه) اى سوى الله وما عداه وهذا مراقبة المقربين من الصديقين وهو مراقبة التعظيم والاجلال بان يصير القلب فى جميع الاحوال مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومطالعة تجليات ذلك الجمال على وجه الكمال ومنكسرا تحت الهيبة والعظمة فى المشاهدة فلايبقى فيه متسع للالتفات الى الغير حتى يحتاج الى المجاهدة وهذا الذى صارهمه واحدا وكفاه الله سائر هومه ابدا ومن

نال هذه الدرجة مع الحق فقد غفل عن مراقبة الخلق فلا يبصر من يحضر لديه وهو فاتح عينيه ولا يسمع ما يقال له مع انه لاصمم فى اذنيه (ثم) الاعلى من انواع المراقبة (ان يكون تحت حكم الشرع) خارجا عن تحكم الهوى والطبع وهذه مراقبة الورعين من اصحاب اليمين (فينظر) ويتأمل ويتفكر (قبل العمل فى اول خاطر) يخطر (فيتم ماهوله تعالى) فيه رضاه (ويترك ما سواه وينظر) ايضا (عنده) اى عند الشروع فى العمل طاعة اوغيرها (ففى الطاعة يخلص النية) ويصفى الطوية بان يجعلها لله تعالى من غير الرياء والسمعة ويحضر القلب لمشاهدة الرب كما ورد الاحسان ان تعبد الله كأنك تراه (ويراعى الادب) فى حضرة الرب ويحفظ نفسه عن النشاط فى بساط الانبساط (وفى المعصية يستحيى) من الرب (ويتوب) من الذنب (ويكفر) بما يناسبه ان صدرت عنه (وفى المباح يراعى النيات) فان المباحات بتحسين النيات تصير عبادات (والآداب) بان لايتجاوز عن الضرورات (ثم) مرابطة النفس (بالمحاسبة فى آخر النهار) اوفى آخر كل نفس وساعة (وهو النظر بعد العمل) من الحسنات والسيئات (فورد حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا) وهو اثر عن عمر كما تقدم وقد قال تعالى * ياايها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله (للعاقل اربع ساعات ساعة يحسب نفسه فيها) اى وساعة يناجى فيها ربه وساعة يفضى فيها الى بعض اخوانه الذين يبصرونه بعيوبه وساعة يخلو فيها بينه وبين شهواته وقد تقدم (ثم) مرابطة النفس (بالمعاقبة) لها (فبالجوع) يعاقبها (ان اكل حراما والسهر) اى ويعاقبها بالسهر (ان نظر حراما ونحوه) بان رقد عن التهجد (فلو ساهل) التائب فى هذه المعاقبة (سهل عليه الرجوع) اى المراجعة الى المعصية وما يتبعها من الغفلة فقد عاقب عمر رضى الله عنه نفسه حين فاتته صلوة العصر فى جماعة بان تصدق بارض كانت له قيمتها مائتا الف درهم وكان ابن عمر اذا فاتته صلوة فى جماعة احيى تلك الليلة واخر ليلة صلوة المغرب حتى طلع كوكبان فاعتق رقبتين (ثم) المرابطة (بالمجاهدة) وهى مخالفة النفس (باداء الورد) من انواع الطاعات والعبادات (عند استثقال النفس) عن بعض المأمورات (بل بالزيادة على الموظفات (كاحياء ليلة) فى عبادة (عند التوانى) اى التساهل والتكاسل (عن حفظ جماعة) كان يحفظها (اواداء نافلة) كان يفعلها (ثم) المرابطة (بالمعاتبة بمثل يانفس) بالضم اوالكسر اى يانفسى (الاتستحيين منه تعالى) فى ترك طاعته اوفعل معصيته (الك طاقة بعذابه الاليم) المؤلم من نار الجحيم ومن ماء الحميم (والكل) اى جميع ما ذكر من انواع المرابطات (مأثور) عن السلف والخلف القائمين بمجاهدة النفس والرياضات فى مقام

الطاعات (والاصل) المعتبر فى تحصيل الاستقامة (الاستعانة به تعالى) والاستغاثة بكرمه سبحانه (متضرعا بين يديه تعالى) اى حال عبادته وطاعته (متبرئا عن الحول والقوة) من جهته ورؤية العمل من طاقته كما يشير اليه قوله تعالى * اياك نعبد واياك نستعين * فاياك نعبد تفرقة واياك نستعين جمع وفى الجملة الاولى رد على الجبرية وفى الثانية على القدرية (قيل) اى فى باب الاستقامة (من جاهد) فى ترك المعصية (سبع مرات لايبتلى بالذنب (ثامنة) اى مرة ثامنة وبه تحصل الاستدامة (وقيل من استقام) على التوبة (سبع سنين لايعود) الى المعصية فى جميع عمره وهو قول فرقد السنجى (ثم التوبة) فى عرف المحققين (من الذنب وهى للمؤمنين) خاصة حيث قال تعالى * يا ايها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا * اوعامة (فورد) فى التنزيل (توبوا الى الله جميعا ايه المؤمنون) لعلكم تفلحون (والانابة من الغفلة) الى الحضور (وهى للمقربين فورد) فى التنزيل * من خشى الرحمن بالغيب (وجاء بقلب منيب) ومنه قوله تعالى * الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب * وقوله * خر راكعا واناب (والاوبة من رؤية التقصير) فى الطاعة (وهى للمرسلين فورد) فى التنزيل * ووهبنا لداود سليمان (نعم العبد انه اواب) وكذا فى حق ايوب * انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب * وقد يستعمل فى حق المؤمنين المقربين كقوله تعالى * ان تكونوا صالحين فانه كان للاوابين غفورا (ثم التقوى اهم منها) اى من التوبة وهى اخص من التقوى فكل تائب متق وليس كل متق تائبا (فالممتنع من ذنب لم يرتكبه قبل) اى قبل وقته (متق لاتائب) والممتنع بعد ارتكابه تائب ومتق اما كونه تائبا فظاهر واما كونه متقيا فلانه لم يرتكب الذنب مع امتناعه فمن هنا يصح ان يقال للنبى انه متق ولايجوز ان يقال انه تائب والله سبحانه اعلم واما ما فى الاحياء من انه يجب على كل عالم باقليم اوبلدة اومحلة اومسجد اومشهد ان يعلم اهله دينهم ويميز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشغلهم عما يسعدهم ولا ينبغى ان يصبر الى ان يسأل عنه بل ينبغى ان يتصدى لدعوة الناس الى نفسه فان العلماء ورثة الانبياء والانبياء ماتركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم فى مجامعهم ويدورون على ابواب دورهم فى الابتداء ويطلعون واحدا بعد واحد فيرشدونهم فان مرضى القلوب لايعرفون مرضهم كما ان الذى ظهر على وجهه برص ولامرآة معه لايعرف مرضه مالم يعرفه غيره وهذا فرض عين على العلماء كافة ففيه ان هذا غير معروف فى الكتاب والسنة انه فرض عين بل ولا فرض كفاية وانما الواجب على العلماء ان لا يكتموا العلم ويبينوه لاهله وعلى الجهال ان يسألوهم كما قال تعالى * فسئلوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون * وقال * واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه * واما معنى

قوله عليه السلام العلماء ورثة الانبياء فهو انهم لم يورثوا دينارا ولادرهما وانما ورثوا
العلم فمن اخذه اخذ بحظ وافر وهم مختلفون فى مراتب الوراثة كتفاوت مناصب العلوم
من التفسير والحديث والفقه والقراءة هذا والعلماء الذين هم بمنزلة الاطباء فى زماننا
صاروا مرضى بالداء الذى ليس له دواء وهو حب الدنيا فبهذا السبب عم الداء وعظم
الوباء وانقطع الدواء ومع هذا غلب عليهم الرجاء وهى الدهياء المعضلة والعلماء العالمون
من الاولياء والأصفياء اختاروا ان يكونوا من الاتقياء الاخفياء فنسأل الله الهداية من
الابتداء الى الانتهاء ثم اعلم ان من ابتلى بحب الدنيا فداؤه عضال ليس له دواء وقد
قال رجل لمحمد بن واسع اوصنى فقال انا اوصيك بان تكون ملكا فى الدنيا والآخرة فقال
كيف لى بذلك فقال الزم الزهد فى الدنيا وكتب معاوية الى عائشة بالسلام ان اكتبى لى
كتابا توصينى فيه ولا تكثرى فكتبت اليه من عائشة الى معاوية سلام عليك امابعد فانى
سمعت رسول الله عليه السلام يقول من التمس رضى الناس بسخط الله وكله الله الى الناس
ومن التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس والسلام عليك والحديث رواه
الترمذى والحاكم وكتبت اليه مرة اخرى امابعد فاتق الله فانك ان اتقيت الله كفاك الناس
وان اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا والسلام وهو مقتبس من قوله تعالى * وَلقد وصينا
الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله * ومن قوله سبحانه * انهم لم يغنوا
عنك من الله شيئا * وقال * لقمن لابنه يابنى زاحم العلماء بركبتيك ولاتجادلهم فيمقتوك
وخذ من الدنيا بلاغك وانفق فضول كسبك لآخرتك ولاترفض الدنيا كل الرفض فتكون
عيالا وعلى اعناق الرجال كلا وصم صوما تكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك
فان الصلوة افضل من الصوم وقال ايضا يابنى لاتضحك من غير عجب ولاتمش فى غير
ارب ولاتسأل عما لايعنيك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك فان مالك ماقدمت ومال
غيرك ماخلفت يابنى من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يفعل الخير يغنم ومن يفعل
الشر يأثم ومن لم يملك لسانه يندم وقال رجل لابى حازم اوصنى فقال كل ما لوجاءك
الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه وكل ما لوجاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه وقال
رجل لحامد اللفافى اوصنى فقال اجعل لدينك غلافا كغلاف المصحف لئلا تدنسه الآفات
قال وماغلاف الدين قال ترك طلب الدنيا الى مالا بد منه وترك كثرة الكلام الا فيما
لابد منه وترك مخالطة الناس الا فيما لابد منه وكتب الحسن الى عمر بن عبد العزيز
اما بعد فخف ماخوفك الله واحذر ماحذرك الله وخذ مما فى يديك لما بين يديك فعند
الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام وكتب مطرف بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز
اما بعد فان الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لاعقل له وبها يغتر من لا علم عنده فكن
فيها ياامير المؤمنين كالمداوى جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء وكتب

عمر

عمر بن عبد العزيز الى عدى بن ارطاة اما بعد فان الدنيا عدوة لاولياء الله تعالى وعدوة اعداءالله اما اولياءالله فغمتهم واما عداؤه فغرتهم ومجمل الكلام فى هذا المقام من المرام ان من اعطى قلبه حسن الاصغاء واستشعر الخوف واتقى وانتظر المثوبة الاسنى وصدق بالحسنى فسييسره الله تعالى للطريقة اليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى ثم لايغنى عنه مااشتغل به من ملاذالدنيامهما هلك فتردى وما على الانبياء الاشرح طريق الهدى وانما لله الآخرة والاولى *

الباب السابع عشر فى الصبر والرضاء والشكر

(بسم الله الرحمن الرحيم) الذى نستعين بذاته وصفاته على توفيق الصبر على بلائه وابتلائه والرضاء بحكمه وقضائه والشكر على نعمائه وآلائه وقد اجتمع الثلاثة فى حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل عليه السلام على الانصار فقال اموءمنون انتم فسكتوا فقال عمر نعم يارسول الله قال وما علامة ايمانكم فقالوا نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال عليه السلام مؤمنون ورب الكعبة رواه الطبرانى فى الاوسط (الصبر) وهو حبس النفس عن الامر (ثبات باعث الدين) من قصد الامتثال ثم خوف النار ثم طمع الجنة ثم رجاء اللقاء وهذا كله طريق اهل الهدى وهو اسم لجميع ما يقرب العبد الى المولى (فى مقابلة باعث الهوى) من الاغراض الفاسدة والاعواض الكاسدة فالهوى هو ميل النفس الى الشىء من غير داعية الشرع بل بمجرد هوى النفس والطبع وقيل الصبر على ثلاثة انواع صبر العوام وهو صبر النفس على ماتكره وصبر الخواص وهو تجرع المرارات من غير تعبس وصبر اخص الخواص وهو التلذذ بالبلاء كالتلذذ بالآلاء فانه علامة اهل الولاء من الانبياء والاولياء وقيل الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الادب فى الثبات على الولاء وتلقى مراقضيته بالرحب والسعة على احكام الكتاب والسنة وتنقسم اقساما صبر لله وهو الثبات على اداء اوامره وانتهاء زواجره وصبر مع الله وهو السكون تحت جريان قضائه من سرائه وضرائه وصبر على الله وهو الركون الى وعده فى كل شىء من امره حلوه ومره وصبر عن الله وهو مذموم وصاحبه ملوم مذؤم كما قيل *

الصبر يحمد فى المواطن كلها * الا عليك فانه مذموم

اى الا عنك وقد يحمد اذا وصل الى مقام الرضاء فى جميع ابواب القضاء كما قيل *

اريد وصاله ويريد هجرى * فاترك ما اريد لما يريد

وقال الجنيد المسير من الدنيا الى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق فى جنب الحق

شديد والسير من النفس الى الله تعالى صعب شديد والصبر مع الله اشد وحكى عن بعض العارفين انه سئل الشبلى عن الصبر ايه اشد فقال الصبر فى الله فقال لا قال الصبر لله قال لا قال الصبر مع الله قال لا قال فاى شئ قال الصبر عن الله قال فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه يتلف وقد قيل معنى فى قوله تعالى * اصبروا وصابروا ورابطوا * اصبروا فى الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وقيل الصبر لله عناء والصبر بالله تقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وانشد *

الصبر عنك فمذموم عواقبه * والصبر فى سائر الاشياء محمود

(فاما) ان يكون الصبر (بالجسم عن) الامر (الشاق) على البدن (كالعبادة او من المصائب) البدنية (واما) ان يكون الصبر (بالنفس) طلبا للثواب اوهربا من العقاب (عن الشهوة) اى شهوة البطن وشهوة الفرج وغيرهما (فعن الشهوتين) المذكورتين يقال له (عفة وعن احتمال المكروه) بموت الاقارب ونحوه يقال له (صبر مطلقا) اى وهو الفرد الكامل فى هذا الباب كما اطلق فى منزل الكتاب * وبشر الصابرين * الآية فاقتصر حينئذ على اسم الصبر بلا اختلاف اسم خاص (وضده) اى نقيض (الصبر الجزع) وهو محركة الفزع (والهلع) بفتحتين افحش الجزع كرفع الصوت بالبكاء وضرب الخدود وشق الجيوب ونحوها ومنه قوله تعالى * ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا * وظاهر الآية ان الهلع ضد الجزع والمنع كلاهما (وفى الغنى) اى ويقال فى احتمال الغنى وتحمله من البلوى (ضبط النفس) تحت الشرع والعقل والهدى وحفظها عن متابعة الطبع والهدى (وضده البطر) بفتحتين وهو الطغيان بالنعمة ومنه قوله تعالى * كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى (وفى الحرب) اى والصبر فى مواطن الحرب يقال له (شجاعة) وهى قوة القلب وثباته فى المقاتلة (وضده الجبن) وهو ضعف القلب وخوفه من رؤية العدو فى المعركة حين المقابلة (وفى كظم الغيظ) اى تحمل الغضب (حلم) وعفو (وضده التهور) صوابه ما فى الاحياء من جعل ضده سفها واما التهور فهو التجاوز عما يقتضيه العقل فى الشجاعة وهو مذموم فى الشريعة قال تعالى * ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة * فان الخلق الحسن هو المتوسط بين طرفى الافراط والتفريط (والتدمر) وهو المترتب على التهور هو قبول الدمار وهو الاهلاك كالتدمير ومنه قوله تعالى عز وجل * تدمر كل شئ بامر ربها (وفى نوائب الزمان) اى حوادث الدهر وآفات الدورات (سعة الصدر) وهو كناية عن كمال التحمل فى الامر ويقال له شرح الصدر ومنه قوله تعالى * الم نشرح لك صدرك * (وضده ضيقه) اى ضيق الصدر ومنه قوله تعالى * ولاتك فى ضيق مما يمكرون * قرئ بالتخفيف والتشديد (والتضجر والتبرم) فالثلاثة الفاظ

مترادفة

مترادفة اومتقاربة (وفى اخفاء الامر كتمان وضده الاظهار) والافشاء (وفى فضول العيش زهد) وهو عدم الرغبة وقلة المحبة (وضده الحرص) على الزيادة (وفى اليسير من الدنيا) اى فى القليل من فضول الدنيا (قناعة وضده الشره) بفتحتين وهو الحرص على طلب الكثير (وورد) فى التنزيل (انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب) وقال * واصبروا ان الله مع الصابرين * وقال * وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون * وكان عمر رضى الله عنه يقول نعم العدلان ونعم العلاوة للصابرين يعنى بالعدلين الصلوة والرحمة وبالعلاوة الهدى والعلاوة مايحمل فوق العدلين على البعير وقد وجد فى رسالة عمر بن الخطاب الى ابى موسى الاشعرى عليك بالصبر واعلم ان الصبر صبران احدهما افضل من الآخر الصبر فى المصيبات حسن وافضل منه الصبر عما حرم الله وكان حبيب بن ابى حبيب اذا قرأ هذه الآية * انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب * بكا وقال واعجباه اعطى واثنى اى هو المعطى للصبر وهو المثنى عليه كما يشير اليه قوله تعالى * واصبر وماصبرك الا بالله * (الايمان) اى معظم خصال اهل الايمـان (هو الصبر) لم اعرفه وفى رواية الديلمى عن انس مرفوعا الصبر من الايمان بمنزلة الراس من الجسد وزاد البيهقى عن على موقوفا ولاجسد لمن لارأس له ولاايمان لمن لاصبر له (وهو) اى كون الايمان هو الصبر (لدخول اكثر اخلاقه) اى اخلاق الايمان من فعل الطاعة وترك المعصية وعدم الجزع فى المصيبة (فيه) اى فى الصبر وللاكثر حكم الكل امر مقرر وقد جمع الله سبحانه اقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال والصابرين فى البأساء * اى المصيبة * والضراء * اى الفاقة وحين البأس * اى المحاربة (الصبر نصف الايمان) رواه ابونعيم والخطيب من حديث ابن مسعود والديلمى والبيهقى فى الشعب عن انس الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وفى النهاية اراد بالصبر الورع لان العبادة قسمان نسك وورع فالنسك ما امرت به الشريعة والورع ما نهت عنه انتهى والحديث مقتبس من قوله تعالى * ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور * اى لكل مؤمن وفى تقديم الصبر على الشكر ايماء بان الاحتياج اليه اكثر واتم وانه افضل كما تقدم والله اعلم (وهو) اى وكون الصبر نصف الايمان (لاطلاقه) اى الايمان (على المعارف) اليقينيات من الاعتقادات (والاعمال) الصالحات من العبادات (ولاتتم الاعمال) للمجتهدين (الابثبات باعث الدين) من الهدى فى مقابلة باعث الهوى (فهو) اى الصبر (نصف الايمان) بهذا الاعتبـار والترتيب بين النصف الاول والثانى وفق اقتضاء الشرع والطبع (و) ايضا (لاطلاقه) اى الايمان (على الاحوال) من استيلاء تلك المعارف وهى الرضاء والهيبة والانس والشوق (المثمرة للاعمال) لا على

المعارف والعوارف من مقامات الرجـال وفى الاحياء ان جميع مقامات الدين ومنـازل السالـكين انما ينتظم من ثلاثة امور معارف واحوال واعمال فالمعارف هى الاصول فهى تورث الاحوال والاحوال تثمر الاعمال فالمعارف كالاشجار والاحوال كالاغصان والاعمال كالاثمار (وان ما) اى لاجل ان ما (اصاب) السالك من النعم الدنيوية (اما نـافع) فى الدنيا والآخرة كالطاعات والمباحات (واما ضار) فيهما كالمصائب والسيئات (وفيهما) اى النافع والضار (الشكر) للعبد بالاضافة الى ماينفعه (والصبر) بالنسبة الى مايضره وهما لا يحصلان الابتلك الاحوال (فهما نصفان) لتلك الاحوال باعتبار ماذكر من الاقوال (ولابد) للعبد (منه) اى من الصبر (لابتداء العبادة) من الصلاة والصوم وسائر اسباب السعادة (عليه) اى على الصبر (فالدخول فيها) اى فى العبادة (لقمع النفس) لتكميلها ونفعها (والاتمام) اى اتمام العبادة بعد الدخول فيها (اشد) من دخولها فى باب الارادة والقمع والاتمام انما يتأتى بالصبر فى المقام (ولان الدنيا دار محنة) فمن كان فى الدنيا فلا بد له من الابتلاء بشدائدها ومصائبها والصبر على جميع مراتبها لتحصل العبادة ومناقبها (والجزع شاغل) عن العبادة التى هى غاية المنحة (ولان طالب الآخرة اشد ابتلاء فورد اشد الناس بلاء الانبياء ثم الاولياء ثم الامثل) كالعلماء (فالامثل) كالصلحاء رواه الترمذى وقال حسن صحيح وصححه ابن حبان والحاكم لكنه بدون لفظ الاولياء وقد قسم عليه السلام مرة مالا فقال بعض الاعراب من المسلمين هذه قسمة ما اريد بها وجه الله فاخبر به عليه السلام فاحمرت وجنتاه ثم قال عليه السلام رحم الله اخى موسى قد اوذى باكثر من هذا فصبر متفق عليه من حديث مسعود وقال عليه السلام صل من قطعك واحسن الى من حرمك واعف عمن ظلمك وقد تقدم وقال عيسى عليه السلام لقد قيل لكم من قبل يعنى فى التورية ان السن بالسن والعين بالعين والانف بالانف وانا اقول لكم لاتقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الايسر فحول له خدك الايمن ومن اخذ رداءك فاعطه ازارك ومن سخرلك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين انتهى ولايخفى ان عيسى عليه السلام كان مظهرا للجمال كما ان موسى عليه السلام كان مظهرا للجلال ونبينا صلى الله عليه وسلم كان مظهرا للكمال المتضمن للجلال والجمال فاحكامه فى غاية الاعتدال والله سبحانه اعلم بحقايق الاحوال (وهو) اى الصبر (عن الحرام واجب) اى فرض لازم (وعن المكروه) اى كراهة تنزيه (نفل) بل مستحب واما عن المكروه كراهة تحريم فواجب وعن فضول المباح زيادة فضيلة وحزم وفى الاحياء ان الصبر ينقسم ايضـا باعتبار حكمه الى فرض ونفل ومكروه ومحرم فالصبر عن المحظورات فرض وعن المكاره نفل والصبر على الاذى المحظور محظور كمن يقطع يده اويد ولده وهو يصبر عليه ساكتا وكمن يقصد حريمه

بشهوة محظورة فيهيج غيرته فيصبر على اظهاره الغيرة ويسكت على ما يجرى على اهله فهذا الصبر محرم والصبر على المكروه هو الصبر على اذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع فليكن الشرع محك الصبر الذى هو نصف الايمان ولا ينبغى ان يخيل اليك ان جميعه محمود بل المراد به انواع مخصوصة (ثم هو) اى الصبر (فى النعم الدنيوية) انما يحصل (بترك الميل) اليها ويعرف بترك ارتكاب المحرم والمكروه فى تحصيلها (ورعاية حقه تعالى فيها لصرفها الى طاعته وعبادته (وهو الشكر) اى من وجه فلا يتعدد الصبر والشكر كما قيل ثم اعلم ان جميع ما يلحق العبد فى هذه الحيوة لا يخلو من نوعين احدهما ما يوافق هواه والآخر ما لا يوافقه بل يكره وهو محتاج الى الصبر فى كل واحد منهما والنوع الاول اصعبهما فانه يوافق هوى نفسه من الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع المعيشة وكثرة الاتباع والانصار وجميع ملاذ الدنيا وما احوج العبد الى الصبر على هذه الامور فانه ان لم يضبط نفسه عن الاسترسال فيها والركون اليها والانهماك فى اللذات المباحة منها اخرجه ذلك الى البطر والطغيان ويجرانه الى انواع من العصيان كما قال تعالى * كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى * وقال بعض العارفين البلاء يصبر عليه المؤمن والعافية لا يصبر عليها الا صديق ولما فتحت اموال الدنيا على الصحابة قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر وقال عليه السلام الولد مبخلة مجبنة محزنة رواه ابويعلى الموصلى من حديث ابى سعيد ولاصحاب السنن من حديث بريدة باسناد حسن انه عليه السلام لما نظر الى ابنه الحسن اوالحسين يتعثر فى قميصه نزل عن المنبر فاحتضنه ثم قال صدق الله * انما اموالكم واولادكم فتنة * انى لما رأيت ابنى يتعثر لم املك نفسى ان اخذته ففى ذلك عبرة لاولى الابصار (و) الصبر (فى الطاعة) اى العبادة (بصون النية) اى بحفظها عن السمعة والرياء فى حال الابتداء (والاداء) اى وبصون اداء العمل عن غير الاخلاص اوعن الغفلة ودواعى الفترة فى الاثناء (والثواب) اى وبصونه عن الافشاء حال الانتهاء فالثلاثة مذكورة بطريق اللف ومقابلتها مسطورة على وجه النشر حيث قال (عن الرياء) وفى معناه السمعة ولوفى الخلاء (والتكاسل) اى وعن التثاقل فى الاعضاء (والافشاء) بالاملاء فى الملاء (ونحوها) من العجب والغرور والندامة عن الطاعة ورؤية الحول والقوة والامن من مكر الله واستدراجه وعدم خوف الخاتمة ولعل المراد بقوله تعالى * نعم اجر العاملين الذين صبروا * اى على تصحيح النية وعلى اتمام العمل واخلاصه عن الآفات (و) الصبر (فى المعصية) المبتلى بها (بالرياضة) اى برياضة النفس عن مخالفة هواها (و) الصبر (فى مصيبة) من شانها انها (ممكن المجازاة) اى يمكن فيها المكافاة (بالتحمل) اى الحلم والعفو (بترك المكافاة) اى المجازاة

ولو بالمماثلة فى المعاقبة (قولا) كمن سبه (وفعلا) كمن ضربه ومنه قوله تعالى * وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين * وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فاجره على الله * وقد قال بعض الصحابة ما كنا نعد ايمان الرجل ايمانا اذا لم يصبر على الاذى وقال تعالى حكاية عن الانبياء * ولنصبرن على ما آذيتمونا وقال تعالى * ودع اذيهم وتوكل على الله * وقال * واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا * وقال * ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون * وقال * ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور * (وفى غيرها) اى وفى مصيبة غير ممكن المجازاة (بترك الجزع) والفزع (والشكاية) الى الخلق (واستمرار العادة) اى وباستقرارها على حالها (فى الطعام واللباس) وكذا الكلام مع الناس وقد قيل ان الصبر هو ان لا يعرف من صاحب المصيبة اذ يشبه غيره وقال داود عليه السلام ما جزاء الحزين يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك قال جزاؤه ان البسه لباس الايمان فلا انزعه عنه ابدا وقال نبينا عليه السلام من اجلال الله ومعرفة حقه ان لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك ذكره فى الاحياء وقال مخرجه لم اجده مرفوعا وانما رواه ابن ابى من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال من الصبر ان لا تحدث بمصيبتك ولا بوجعك انتهى وقد قيل من كنوز البر كتمان المصائب والاوجاع والصدقة وفى الاثر ان ثواب الصبر على المصيبة اكثر مما فات فاذن مجارى الصبر ثلاثة الطاعة والمعصية والبلية من جهة الخلق او الخالق (اما التألم) اى الحزن للقلب (وجريان الدمع) من العين (فلا ينافيه) اى الصبر (لعدم الدخول تحت الاختيار) بل هما مستحبان لما ورد عن سيد الابرار انه بكى عند موت ولده وقال القلب يحزن والعين تدمع وانا على فراقك يا ابراهيم لمحزونون رواه الشيخان من حديث انس (والكمال) اى كمال الصبر (ترك ما يشغل عنه) اى عن الله (تعالى) من امور الدنيا فمن غفل عن الله ولو فى لحظة فليس له فى تلك اللحظة قرين الا الشيطان قال تعالى * ومن يعش عن ذكر الرحمن * الآية وعن الحسين بن منصور الحلاج حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف فقيل ما هو قال هى نفسك ان لم تشغلها شغلتك (وجاء) فى الاثر عن ابن عباس (الصبر على الفرائض اى اداؤها (ثلاثمائة درجة) اى بالنسبة الى الصبر على اداء النوافل (وعن المحارم ستمائة) لانه اصعب على النفس فان فى فعل الطاعة نوعا من اللذة زيادة على لذة ترك المعصية (وفى المصيبة عند الصدمة الاولى) اى فورتها وشدتها وحدتها (تسعمائة) لانه اقوى واشق على النفس فلابن ابى الدنيا فى كتاب محاسبة النفس عن عمر بن عبد العزيز افضل الاعمال ما اكرهت عليه النفوس والحديث الذى فى المتن رواه

ابن

ابن ابي الدنيا فى الصبر وابو الشيخ فى الثواب عن على مرفوعا بلفظ الصبر ثلاثة فصبر على المصيبة وصبر على الطاعة وصبر عن المعصية فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة مابين الدرجتين كمابين السماء والارض ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجتين كما بين تخوم الارضين الى منتهى الارضين ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة مابين الدرجتين كما بين تخوم الارضين الى منتهى العرش فالحديث يدل على ان الصبر عن المعصية افضل الانواع ويؤيده ماسبق من اثر عمر رضى الله عنه حيث قال الصبر فى المصيبات حسن وافضل منه الصبر عماحرم الله واما الصبر عند الصدمة الاولى فحديث رواه البزار وابو يعلى عن ابي هريرة مرفوعا وفى رواية البزار عن ابن عباس الصبر عند اول صدمة وفى رواية البخارى فى تاريخه عن انس الصابر الصابر عند الصدمة الاولى (والطريق) فى تحصيل الصبر بعد التوفيق ثلاثة منها (تضعيف باعث الهوى) اى تقليله (بالرياضة) الكثيرة بان يقوى داعى الهدى ويقهر داعى الهوى فلا يبقى لهاقوة المنازعة فى الامتناع عن الطاعة بحسب الاستطاعة وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون الى هذه الرتبة هم الاقلون فلا جرم هم الصديقون والمقربون * الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا * فهؤلاء لزموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واما من يغلب عليه دواعى الهوى ويضعف عنده بواعث الهدى فهؤلاء هم الغافلون وهم الاكثرون وهم الذين استرقتهم شهوتهم وغلبت عليهم شقوتهم وهم الذين اشتروا الحيوة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم وما ربحت تجارتهم وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالامانى وهى غاية الحمق كما قال عليه السلام الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى وفى رواية والعاجز بدل الاحمق كما رواه احمد والترمذى وابن ماجه والحاكم عن شداد بن اوس ومعنى دان نفسه حاسبها قاله الترمذى وغيره من العلماء واما من يغلب عليه باعث الهدى تارة وداعى الهوى اخرى فهذا من المجاهدين الذين قيل فيهم * وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم ان الله غفور رحيم * واما التاركون المجاهدة فيشبهون بالانعام حيث قال تعالى * ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون * وقال بعض الشعراء *

* دع المكارم لاترحل لبغيتها * واقعد فانك انت الطاعم الكاسى *

وقد قال تعالى * اولئك كالانعام بل هم اضل * اذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التى بها يجاهد مقتضى الشهوة وهذا قد خلق له وعطله فهو الناقص حقا والمدبر يقينا وصدقا ولذا قيل *

* ولم ارفى عيوب الناس عيبا * كنقص القادرين على التمام *

وهو مقتبس من قوله عليه السلام اشد الناس حسرة يوم القيمة رجل امكنه طلب العلم في الدنيا فلم يطلبه ورجل علم علما فانتفع به دونه رواه ابن عساكر وامامن علم وعمل وعلم فيدعى في الملكوت عظيما كما قال عيسى عليه السلام (و) منها (ذكر قلة قدر الشدة) في مخالفة النفس حال المجاهدة لان شدائد الدنيا واحوالها سهل بالنسبة الى شدائد الآخرة واهوالها (ووقتها) اى وذكر قلة وقت الشدة كما يشير اليه قوله تعالى * كانهم يوم يرونها لم يلبثوا الاعشية اوضحيها * ولذا قيل الدنيا ساعة فاجعلها طاعة (واضرار الجزع) اى وذكر اضرار الجزع والفزع من غير حصول الدفع والنفع (و) منها (تقوية باعث الدين بذكر فضائل المجاهدة) الواردة في الكتاب والسنة في حق المجاهدين والمجتهدين من قوله تعالى * والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا * وقوله * وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما * وقوله عليه السلام المجاهد من جاهد هواه رواه النسائي ورجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر وقد تقدم (ثم ان كان) الصبر والتحمل اوذلك الثبات والتحمل حاصلا (بتعب قوى) اى شديد وجهد جهيد (فتصبر) اى فيقال له تصبر لان صاحبه متكلف في الصبر كما يقال زاهد ومتزهد وصوفي ومتصوف (وان كان) ماذكر واقعا (بيسير) اى بتعب سهل وغير عسير (فصبر) اى فيخص باسم الصبر فاذا دام التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر بالوجه الاسنى قال تعالى * فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى (وان كان) الصبر (دون جهد) اى من غير تعب (فرضى) اى فهو رضى بما يفعل المولى (وورد اعبد الله على الرضاء) فان الرضاء بالقضاء باب الله الاعظم (فان لم تستطع) على عبادته في مقام الرضاء من غير جهد البلاء (ففي الصبر على ماتكره) بمقتضى البشرية (خير كثير) في الامور الدنيوية والاخروية فاعبده على الصبر فان مالايدرك كله لايترك كله والحديث رواه الترمذي من حديث ابن عباس وقال ابو سليمان والله مانصبر على مانحب فكيف نصبر على مانكره (وان كان) الصبر على البلاء (بتلذذ) كتلذذ النعماء (فشكر) اى فهو شكر ينشأ عن كمال المحبة والصدق وغاية الرضاء عن الحق فقد قال بعض العارفين اهل الصبر على ثلاث مقامات الاولى ترك الشكوى وهذه درجة التائبين الثانية الرضاء بالمقدور وهذه درجة الزاهدين الثالثة المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين (وهو) اى التلذذ بالبلاء انمايكون بستة اشياء (بالغيبة عن حظوظ النفس) ولذات الهوى (والشهود) اى وبالحضور (معه تعالى) ليلا ونهارا (كما ورد) عنه عليه السلام انه قال (انى ابيت عند ربى) اى

حاضرا لديه كالواقف بين يديه (يطعمنى هو) اى لاغيره (ويسقينى) اى يغنينى من الطعام والشراب ويقوينى بدلهما بما يلتذ به الاحباب فلم اجد الم الجوع والعطش لفناء حظوظ نفسى وشهود قلبى مع ربى فهذا المعنى يصلح ان يكون استينافى علة لمنع الاصحاب عن الوصال بدون ارتكاب الاسباب واما ماقيل من ان المعنى يطعمنى ويسقينى من طعام الجنة وشرابها فلا يصلح ان يكون علة لمنعهم كما لايخفى على اولى الالباب (وعدم التمييز) اى وبعدم الفرق (بين الالم واللذة) الطبيعيين ولقد قال بعض المحبين *

* فليس لى فى سواك حظ * فكيف ماشئت فاختبرنى *

لكن لما كان فى هذا شائبة من الدعوى ابتلى بنوع من البلوى (كما فى حديث حارثة ما ابالى على اى الحالين) اى المقامين (وقعت) اى سقطت وثبت (على غنى اوفقر) وكذا صحة اومرض وكذا وصل اوهجران وقيل الفقر بلاء ومحنة والغنى هم ومشقة وكل ذلك قادح فى كمال الرضاء والمحبة بل ينبغى ان يفوض التدبير لمالكهما ويسلم الامر الى صاحبها وسيدها ويقول ما قال عمر رضى الله عنه لا ابالى اصبحت غنيا اوفقيرا فانى لا ادرى ايهما خيرلى وفيه اشارة الى قوله * ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا * وفى الحديث القدسى ان من عبادى من لايصلحه الا الفقر ومنهم من لايصلحه الا الغنى الحديث وقد قال عز وجل * عسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لاتعلمون * فالتسليم اسلم والله اعلم (والاعلى) اى اعلى مراتب الصبر من التلذذ بالبلاء الذى هو الشكر بالنسبة الى عدم التمييز كحال اهل السكر (التمييز) بين النفع والضر والحلو والمر (واختيار الالم فى موافقته تعالى) حيث جعله مختارا (والالتذاذ به) اى بالامر فهو الاولى (فورد) عنه عليه السلام انه لما خير بين الدنيا وتركها بان يكون ملكا نبيا اوعبدا نبيا فقال (اختار ان اكون عبدا نبيا) وفى رواية زيادة اجوع يوما فاصبر واشبع يوما فاشكر ليفوز بالمقامين ويجمع بين الامرين لانه كان فى غاية من الكمال فاخذ مايقتضيه الجمال ويستدعيه الجلال (وجاء) فى الخبر (يا) قوم (حبذا المكروهان) اى نعم المكروهان فى طبع الانسان وهما سببا مزيد الاحسان (الموت) على الايمان (والفقر) المقرون برضى الرحمان رواه ابن ابى الدنيا وغيره واخرج احمد وسعيد بن منصور فى سننه بسند صحيح عن محمود بن لبيد ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اثنتان يكرههما ابن آدم يكره الموت والموت خير له من الفتنة ويكره قلة المال وقلة المال اقل للحساب (ثم الرضاء بترك الاعتراض) بالقلب فى جميع انواع القضاء فلا يقول لحادث حدث لولم يحدث لكان اولى اولوحدث فى غير هذا الموضع كان احسن واعلى اذ ليس فى الامكان ابدع مما كان كما فى الاحياء واعترض

عليه من لم يفهم معناه من العلماء (وقيل ترك السخط) اى الكراهة وهو ضد الرضاء والرضاء غاية الغايات ونهاية العنايات ففى الحديث ان الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلونى فيقولون رضاك ويؤيده قوله تعالى * ورضوان من الله اكبر * اى من النعيم الذى يتم فيه فهذا فضل رضى الله وهو ثمرة رضى العبد كما يشير اليه قوله تعالى * رضى الله عنهم * اولا * ورضوا عنه * آخرا (ولابد) للعبد (منه) اى من الرضاء عن الله تعالى لاربعة اشياء (للفراغ) اى فراغ الخاطر (للعبادة) وقد ورد نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ (والتحامى) اى وللتحافظ (من هموم الدنيا) بالقلب (والتعب) ومن غموم النصب بالبدن والقالب (فيها) اى فى الدنيا وقد ورد من جعل الهموم هما واحدا هم الآخرة كفاه الله هم الدنيا والاخرى (وغضبه) اى التحامى من غضبه (تعالى فورد) فى الحديث القدسى والكلام الانسى (من لم يرض بقضائى) فى احكام ارضى وسمائى (ولم يصبر على بلائى) اى ابتلاى فى سرائى وضرائى وفى رواية زيادة ولم يشكر على نعمائى (فليطلب ربا سوائى) اى غيرى وما عدائى من اعدائى وروى انه عليه السلام سأل طائفة من اصحابه الكرام فقال ما انتم فقالوا مؤمنون فقال ما علامة ايمانكم قالوا نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء فقال مؤمنون ورب الكعبة وفى لفظ آخر انه قال حكماء علماء كادوا من فقههم ان يكونوا انبياء وفى مناجاة موسى عليه السلام قال يارب اى خلقك احب اليك قال من اذا اخذت عنه محبوبه سالمنى قال فاى خلقك انت ساخط عليه قال من يستخيرنى فى الامر فاذا قضيته له سخط قضائى وفى الخبر قدرت المقادير ودبرت التدابير من رضى فله الرضاء منى حتى يلقانى ومن سخط فله السخط منى حتى يلقانى وفى الخبر المشهور يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير واجريت الخير على يديه وويل لمن خلقته للشر واجريت الشر على يديه وويل ثم ويل لمن قال لم؟ وكيف؟ وفى الاخبار السالفة ان نبيا من الانبياء شكى الى الله تعالى الجوع والفقر والعمل عشرين سنة فما اصيب الى ما اراد ثم اوحى الله اليه كم تشكو هكذا كان بدوك عندى فى ام الكتاب قبل ان اخلق السموات والارض وهكذا سبق لك منى وهكذا قضيت عليك قبل ان اخلق الدنيا افتريد ان اعيد خلق الدنيا من اجلك ام تريد ان ابدل ما قدرت عليك فيكون ما تحب فوق ما احب اويكون ما تريد فوق ما اريد وعزتى وجلالى لئن يلج هذا فى صدرك مرة اخرى لامحونك من ديوان النبوة ويروى ان الله تعالى اوحى الى داود تريد واريد وانما يكون ما اريد فان سلمت لما اريد كفيتك ما تريد وان لم تسلم لما اريد اتعبتك فيما تريد ثم لايكون الا ما اريد ولله در من قال من اهل المزيد

* تريد النفس ان تلقى مناها * ويـــأبى الله الا ما يريد *

(ويحصل رضوانه) اى وليحصل رضاء الله عنه (فورد) فى التنزيل (رضى الله عنهم ورضوا عنه) فعلامة رضى العبد عن الله رضاء الله عنه اوبالعكس وهو الاولى لذكر رضى الله فى المرتبة الاولى وليسبق رضاه فى الازل الاعلى وقد سئل الفضيل عن الصبر فقال هو الرضاء بقضاء الله قيل وكيف ذلك قال الراضى لايتمنى فوق منزلته وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضاء فيما قد نال وحسن الصبر فيما قد فات وروى عن بعضهم قال مررت على سالم مولى ابى حذيفة فى القتلى وبه رمق فقلت له اسقيك ماء فقال جرنى قليلا الى الاعداء واجعل الماء فى الترس فانى صائم فان عشت الى الليل شربته وفى الخبر طوبى لمن هدى للاسلام وكان رزقه كفافا ورضى به وفى خبر آخر من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى الله منه بالقليل من العمل وللترمذى من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله وفى خبر آخر ارض بما قسم الله لك تكن اغنى الناس وفى اخبار موسى عليه السلام ان بنى اسرائيل قالوا له سل لنا ربك امرا اذا نحن فعلناه يرضى به عنـا فقال موسى الهى قد سمعت ما قالوا فقال ياموسى قل لهم يرضون عنى حتى ارضى عنهم ويشهد لهذا ماروى عن نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال من احب ان ينظر ماله عند الله فلينظر ما لله عز وجل عنده فان الله ينزل العبد منه حيث انزله العبد من نفسه وفى اخبار داود عليه السلام مالاوليائى والهم بالدنيا ان الهم بالدنيا يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم ياداود ان علامة محبتى من اوليـائى ان يكونوا روحانيين لايغتمون وروى ان موسى عليه السلام قال يارب دلنى على امر فيه رضاك حتى اعمله فاوحى الله اليه ان رضائى فى كرهك وانت لاتصبر على ما تكره قال يارب دلنى عليه فقـال ان رضائى فى رضاك بقضائى وعن عمر بن عبد العزيز ما بقى لى سرور الا فى مواقع القدر وقيل له ماتشتهى قال ما يقضى الله تعالى (والسبب) لرضاء العبد بما يفعل الرب شيئان احدهما (ادهاش غلبة الحب) اى اغماؤها واغفالها (عن الاحساس بالالم) فى المحن واهوالها (كمابالعاشق بالدنيا (والحريص) فى جمع مالها واهوالها وكان سهل به علة يعالج غيره منها ولايعالج نفسه فقيل له فى ذلك فقال ياد وست ضرب الحبيب لايوجع وقال الجنيد سألت سريا السقطى هل يجد المحب الم البلاء قال لاقلت وان ضرب بالسيف قال نعم وان ضرب بالسيف سبعين ضربة على ضربة وقال بعضهم احببت كل شئ يحبه حتى لواحب النار احببت دخولها وقال بشر بن الحـارث مررت برجل وقد ضرب الف سوط فى شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل الى الحبس فتبعته فقلت له لم ضربت فقال لانى عاشق فقلت ولم سكت قال لان معشوقى كان بحذائى ينظر الى قلت ولونظرت الى المعشوق الاكبر فزعق زعقة وخرميتا وقال يحيى

بن معاذ الرازى اذا نظر اهل الجنة الى الله سبحانه ذهبت عيونهم فى قلوبهم من لذة النظر الى الله ثمانمائة سنة لاترجع اليهم فماظنك بقلوب وقعت بين جلاله وجماله اذا لاحظوا جلاله هابوا واذا لاحظوا جماله تاهوا وقال بشر قصدت عبادان فى بدايتى فاذا انا برجل اعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه فرفعت رأسه فوضعته فى حجرى فلما افاق قال من هذا الفضولى الذى دخل بينى وبين ربى لوقطعنى اربا اربا ما ازددت له الاحبا قال بشرفما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد وبين رب فانكرتها ويروى ان يونس عليه السلام قال لجبريل عليه السلام دلنى على اعبد اهل الارض فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب سمعه وبصره وهو يقول الهى متعتنى بهما ما شئت وسلبتنى ما شئت وابقيت لى فيك الامل يابر يا وصول ويروى ان عيسى عليه السلام مر برجل اعمى وابرص مقعد مضروب الجنبين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا من خلقه فقال له عيسى عليه السلام ياهذا اى شئ من البلاء اراه مصروفا عنك فقال ياروح الله انا خير ممن لم يجعل الله فى قلبه ما جعل فى قلبى من معرفته فقال صدقت هات يدك فناوله يده فاذا هو احسن الناس وجها وافضلهم هيئة قد اذهب الله عنه ما كان به وصحب عيسى وتعبد معه وقطع عروة بن الزبير رجله من ركبتيه من اكلة خرجت بها ثم قال الحمد لله الذى اخذ منى واحدة وابقى اخرى لئن كنت اخذت لقد ابقيت ولئن كنت ابليت لقد عوفيت ثم لم يدع وردة تلك الليلة وقال ابوسليمان الدارانى قد نلت من كل مقام حالا الا الرضاء فمالى منه الامشام الريح وعلى ذلك لوادخل الخلائق كلهم الجنة وادخلنى النار كنت راضيا ولما قدم سعد بن ابى وقاص مكة وكان قد كف بصره جاءه الناس يهرعون اليه كل واحد يسأله ان يدعو له فيدعو لهذا ولهذا كان مجاب الدعوة قال عبد الله بن السائب فأتيته وانا غلام فتعرفت اليه فعرفنى وقال انت قارئ اهل مكة قلت نعم فذكر قصة قال فى آخرها فقلت له ياعم انت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك فتبسم وقال يابنى قضاء الله عندى احسن من بصرى وقال بعض السلف لوقرض جسمى بالمقاريض لكان احب الى من ان اقول لشئ قضاه الله ليته لم يقضه (والعلم) اى وثانيهما المعرفة بشيئين (بجزالة الثواب) اى عظمته وكثرته يوم الحساب فقد قال تعالى * انمايوفى الصابرون اجرهم بغير حساب * وقد ينال الجزاء فى الدنيا ايضا قبل العقبى كما روى عن الرميصاء ام سليم انها قالت توفى ابن لى وكان زوجى ابوطلحة غائبا فقمت فسجيته فى ناحية من البيت فقدم ابوطلحة فقمت فهيأت له افطاره فجعل يأكل فقال كيف الصبى فقلت فى احسن حال بحمد الله ومنه فانه لم يكن منذ اشتكى خيرا منه الليلة ثم تصنعت له

باحسن ما كنت اتصنع من قبل ذلك حتى اصاب منى حاجته ثم قلت الاتعجب جيراننا فقال ومالهم فقلت اعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا فقال بئس ما صنعوا فقلت هكذا ابنك كان عارية من الله تعالى فان الله قبضه اليه فحمد الله واثنى عليه واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبره فقال عليه السلام اللهم بارك لهم فى ليلتهم قال الراوى فلقد رأيت لهم بعد ذلك فى المسجد سبعة كلهم قد قرؤا القرآن رواه الطبرانى فى الكبير من طريقة ابى نعيم فى الحلية والقصة فى الصحيحين من حديث انس مع اختلاف وللنسائى فى الكبرى باسناد صحيح من حديث جابر دخلت الجنة فاذا انا بالرميصاء امرأة طلحة فقد روى ان امرأة الموصلى عثرت فقطع ظفرها فضحكت فقيل لها اما تجد من الوجع فقال ان لذة ثوابه ازالت عن قلبى حرارة وجعه وعذابه وقد ورد فى الترمذى وغيره حديث *

* هل انت الا اصبع دميت * وفى سبيل الله ما لقيت *

وقال شقيق من يرى ثواب الشدة لايشتهى المخرج منها ولله در القائل *

ان كان سركم ما قال حاسدنا * فما لجرح اذا ارضاكم الم

(كما للمريض والتاجر) المسافر (المتحملين شدة الحجامة) رجاء للصحة (والسفر) اى ومحنته طمعا للزيادة (وبان له تعالى فى كل صنع حكمة) كما قال تعالى * صنع الله الذى اتقن كل شىء * وقال * صبغة الله ومن احسن من الله صبغة * بل حكما كثيرة (يتعجب الذاهل الغافل (عن السر) اى سر تلك الحكمة فى تلك الصنعة وما يترتب عليها من الحكم (كما فى قصة موسى والخضر عليهما السلام) وما وقع بينهما من الملام والكلام فى تحقيق المقام وتدقيق المرام (ولا يرد التناقض بينه) اى بين الرضاء بالقضاء فقد ورد فى الدعاء اللهم اسئلك الرضاء بالقضاء (وبين بغض المعصية) الواقعة بحكم القضاء (لان الرضاء) انما هو (بالقضاء) الذى هو فعل الرب وخلقه (والمعصية مقضية) على العبد صادرة عن فعله وكسبه ولو كان بتقدير الرب وحكمه ولان قضاء الشر ليس بشر انما الشر هو المقضى فلا يكون الرضاء بالشر وبهذا يتحقق معنى الخبر الخير كله بيديك والشر ليس اليك (ولان الرضاء) بالقضاء (من حيث انه مقضى لاينافى) ايضا (البغض للمعصية من حيث انه معصية) فالحيثية اذا كانت مختلفة يصير الامور المختلفة كلها مؤتلفة كالولد العاق يحب من حيثية الولدية ويبغض من جهة العقوقية (وهو) اى الرضاء بالقضاء (لايوجب ترك الاسباب) اى اسباب البقاء وغيره من الابواب (وتحقيقه) اى تحقيق ترك الاسباب (يأتى فى التوكل) الموضوع لهذا الباب (ولا الدعاء) اى ولايوجب الرضاء ترك الدعاء لقوله تعالى * ويدعوننا رغبا ورهبا * وثبت انواع من الدعاء عن سيد الانبياء مع انه فى اعلى مقامات الرضاء (بشرط الصلاح قلبا) ولو لم يشرطه لسانا (فورد اللهم زدنا فى اللبن اللهم ارزقنا خيرا

منه فى غيره) والحديث رواه الترمذى فى الشمائل عن ابن عباس انه عليه السلام قال من اطعمه الله طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه واطعمنا خيرا منه ومن سقاه الله لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه قال وقال عليه السلام ليس شىء يجزئ مكان الطعام والشراب غير اللبن هذا وقد قال ميمون بن مهران من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء وقال الفضيل ان لم تصلح على تقدير الله فلم تصلح على تقدير نفسك وقال عبد العزيز ابن ابى رواد وليس الشان فى اكل خبز الشعير والخل ولا فى لبس الصوف والشعر ولكن الشان فى الرضاء بالقضاء والقدر وقال عبد الله بن مسعود لان احس جمرات احرقت ما احرقت وابقت ما ابقت احب الى من ان اقول لشىء كان ليته لم يكن او لشئ لم يكن ليته كان ونظر رجل الى قرحة فى رجل محمد بن واسع فقال انى لارحمك من هذه القرحة فقال انى لاشكرها منذ خرجت اذ لم تخرج فى عينى وقال الثورى يوما عند رابعة العدوية اللهم ارض عنا فقالت اما تستحيى من الله ان يساله الرضاء وانت عنه غير راض فقال استغفر الله فقال جعفر بن سليمان متى يكون العبد راضيا عن الله قالت اذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة وعن الفضيل اذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى عن الله تعالى وعن احمد بن ابى الحوارى قال ابو سليمان الدارانى ان الله من كرمه قد رضى من عبيده بما رضى به العبد من مواليهم قلت كيف ذلك قال اليس مراد العبد ان يرضى عنه مولاه قلت نعم قال فان محبة الله من عبيده ان يرضوا عنه وقال بعض السلف من حسن الرضاء بالقضاء ان لا يقول هذا يوم حار او بارد فى معرض الشكاية وقول القائل الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب والاحتراف كد ومشقة كل ذلك قادح فى كمال الرضاء بالقضاء فعن عمر رضى الله عنه لا ابالى اصبحت غنيا او فقيرا فانى لا ادرى ايهما خير لى وعن ابن مسعود انه قال الفقر والغنى مطيتان لا ابالى ايهما اركب ان كان الفقر ففيه الصبر وان كان الغنى ففيه البذل وانما لم يقل ففيه الشكر ايماء الى ان الفقر افضل من الغنى واشارة الى ان الغنى من غير البذل مذموم عند اهل الفضل والعدل هذا وقد اختلف العلماء فى الافضل من اهل مقامات ثلاثة رجل يحب الموت شوقا الى الله تعالى ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ورجل قال لا اختار شيئا وارضى بما يختاره الله لى ورفعت هذه المسالة الى بعض العارفين فقال صاحب الرضاء افضل لانه اقلهم فضولا واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثورى ويوسف بن اسباط فقال سفيان الثورى كنت اكره موت الفجاءة قبل اليوم واليوم وددت انى مت فقال له يوسف لم قال لما اتخوف من الفتنة فقال يوسف لكنى لا اكره طول البقاء فقال سفيان لم قال لعلى اصادف يوما اتوب فيه واعمل صالحا فقال لوهيب اى شئ تقول قال انا لا اختار شيئا احب ذلك الى الله احبه الى فقبل الثورى بين عينيه فقال روحانية ورب الكعبة ويؤيده الدعاء المأثور اللهم احينى ما كانت الحيوة خيرا لى وتوفنى

اذا كانت الوفاة خيرا لى واجعل الحيوة زيادة لى فى كل خير واجعل الموت راحة لى من كل شر (ثم الشكر يجمعه) ثلاثة اشياء (عرفان النعمة من المنعم) وهذا علم يصدر عن اعتقاد ان كل ما فى العالم موجود فهو من الله مشهود كما قال تعالى * ومابكم من نعمة فمن الله * وفى دعائه عليه السلام اللهم ما اصبح بى من نعمة او باحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر (والفرح به) اى بالمنعم الحاصل بانعامه لا بنفس النعمة من حيث ذاتها الادنى بل من حيث انها وسيلة الى القرب من المولى والنظر الى وجهه الاعلى فهذا هو الرتبة العليا وعلامته ان لايفرح من الدنيا الا بماهو مزرعة للاخرى ويحزن بكل نعمة تلهيه عن طريق الهدى وهذا حال (واستعمالها) اى صرف النعمة (فى طاعته) اى طاعته دون معصيته للمنعم وهذا عمل وقال الشبلى الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة وقال الجنيد الشكر ان لاترى نفسك اهلا للنعمة وقال الخواص شكر العامة على المطعم والملبس وشكر الخاصة على واردات القلوب وهى رتبة لايدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن والفرج وسائر الشهوات ومدركات الحواس من الالوان والاصوات وخلا عن لذة القلب وما يرد عليه من الواردات فان القلب السليم لايلتذ فى حالة من الصحة القويم لابذكر الله ومعرفته من حيث الذات والصفات وانما يلتذ بغيره اذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس باكل الطين ويختاره على السكنجبين وكما يستبشع بعض المرضى الاشياء الحلوة ويستحلى الاشياء المرة حتى قيل *

* ومن يك ذا فم مر مريض * يجد مرا به الماء الزلالا *

(ولا بد) للعبد (منه) اى من الشكر (لاستدامة النعمة) اى لطلب دوام النعمة وبقائها (فورد) فى التنزيل (وكفرت) صوابه فكفرت كما فى نسخة وصدر الآية * وضرب الله مثلا قرية * اى مكة * كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا * اى واسعا * من كل مكان فكفرت * اى اهلها (بانعم الله) اى بتكذيب رسوله (فاذاقها الله لباس الجوع) اى القحط سبع سنين (والخوف) اى الرعب من المسلمين (بما كانوا يصنعون * وان) اى وورد فى الحديث ان (النعم او ابد) اى وحشيات متنفرات كصيود شوارد (فقيدوها بالشكر) وقد قيل الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد المنحة المفقودة كما يشير اليه قوله (واستزادتها) اى ولطلب زيادة النعمة (فورد) فى التنزيل (* لئن شكرتم لازيدنكم) تمامه * ولئن كفرتم ان عذابى لشديد * (والذين اهتدوا) بالايمان وترك الكفر واداء الشكر (زادهم هدى) اى هداية على هدايتهم وعناية على رعايتهم ثم اعلم ان لكل عضو من القلب واللسان وسائر الجوارح والاركان شكرا يليق به من عمل الطاعة وترك المعصية واعظمها شكر الجنان واظهرها شكر اللسان وقد قال عليه السلام لرجل كيف اصبحت فقال بخير فاعاد عليه السلام

السؤال حتى قال فى الثالثة بخير احمد الله واشكره فقال عليه السلام هو الذى اردت منك رواه الطبرانى فى الدعاء من رواية الفضل ابن عمر و مرفوعا وهذا معضل وفى المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو وليس فيه تكرار السؤال وقال احمد الله اليك وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله ليكون الشاكر لله مطيعا والمستنطق له به مطيعا فكل عبد يسأل عن حاله فهو بين ان يشكر وبين ان يشكو وبين ان يسكت فالشكر طاعة صحيحة والشكوى معصية قبيحة وكيف لا تقبح الشكوى من المولى وهو ملك الملوك وبيده كل شىء وعبده مملوك لا يقدر على شىء فالاحرى بالعبد ان لم يصبر على البلوى ويفضيه الضعف الى الشكوى ان يكون شكواه الى المولى فهو المبلى وهو القادر على ازالة البلاء وذل العبد لمولاه عز والشكوى الى غيره ذل واظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح قال الله تعالى * ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون * فقد روى ان وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز فقام شاب ليتكلم فقال عمر الكبير الكبير فقال يا امير المؤمنين لو كان الامر بالسن لكان فى المسلمين من هو اكبر منك فقال تكلم فقال لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة اما الرغبة فقد اوصلها الينا فضلك واما الرهبة فقد آمننا منها عدلك وانما نحن وفد الشكر جئناك نشكرك باللسان وننصرف (وايضا) مما يدل على تحقيق وجوب الشكر على العبد من جهة العقل مع قطع النظر من النقل مثال وهو ان يقال (اذا ارسل ملك) عظيم (فرسا وثوبا وزادا الى عبد) بعيد عن قربه (فيجىء اليه) راكبا لابسا متنعما عليه (وينال حظ القربة) اى ويلقى حظ قرب الملك لديه (مع استغناء الملك عنه) وكمال احتياج العبد منه (فاستعمل الفرس والزاد) (فى البعد عنه) اى عن حكمه وفى سفر المخالفة من قربه (او اهمل) امره ونسى قدره وجلس فى محله ولم يستعمل لا فى قربه ولا فى بعده (او مكن) اى او اذا اقدر (عبدا على بساط القربة) وامكنه من الانبساط فى نشاط عدم الكربة (فاشتغل العبد عن خدمته) اى خدمة الملك وعن المأتى الى حضرته (ملتفتا لى خسيس فى حرفته من دباغ وكناس وسيس دابته (يسأله) اى يطلب العبد عن ذلك الخسيس (كسرة رغيف) باظهار فاقته وحرقته فى حضرة الملك وصحبته فلا شك ان كلا منهما (يستحق المقت) اى كمال الغضب (و) يقتضى (سلب النعمة) وجلب النقمة وادامة العقوبة والطرد عن الخدمة والبعد عن الحضرة وتوضيحه ما فى الاحياء ان الانبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة الخلق الى كمال توحيد الحق ولكن بينهم وبين الوصول اليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة وانما الشرع كله تعريف لطريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات الشاقة ويمكنك ان تفهم بمثال وهو ان ملكا من الملوك ارسل الى عبد قد بعد عنه

مركوبا وملبوسا ونقدا لاجل زاده فى الطريق حتى يقطع به مسافة البعد فيقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان احديهما ان يكون قصده من وصول العبد الى حضرته ان يقوم ببعض مهماته ويكون له غنى فى خدمته والثانية ان لايكون للملك حظ فى العبد ولا حاجة به اليه بل حضوره لايزيد فى ملكه كما ان غيبته لاتنقص من ملكه فيكون قصده من الانعام عليه بالمركوب ونحوه ان يحظى العبد بالقرب منه فى مقابلة خدمته وينال سعادة حضرته لينتفع هو فى نفسه لا لينتفع الملك به وبانتفاعه فتنزل العباد من الله فى المنزلة الثانية لا فى المنزلة الاولى فان الاولى محال على الله والثانية غير محال ثم اعلم ان العبد لايكون شاكرا فى الحالة الاولى بمجرد الركوب والوصول الى حضرته ما لم يقم بخدمته التى ارادها الملك منه واما فى الحالة الثانية فلا يحتاج الى الخدمة اصلا ومع ذلك يتصور ان يكون شاكرا او كافرا فيكون شكره بان يستعمل ما انقده اليه مولاه فيما احبه لاجله لا لاجل نفسه وكفره بان لايستعمل ذلك فيه بان يعطله اويستعمله فيما يزيد فى بعده منه فمهما لبس العبد الثوب وركب المركوب ولم ينفق الزاد الا فى الطريق فقد شكر مولاه اذ استعمل نعمته فى سبيل محبته اى فيما احبه لعبده لا لنفسه وان ركبه واستدبر حضرته واخذ يبعد منه فقد كفر نعمته اى استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لا لنفسه وان جلس ولم يركب لا فى طلب القرب ولا فى طلب البعد فقد كفر ايضا نعمته اذ اهملها وعطلها وان كان هذا دون ما لو بعد منه فكذا خلق الله سبحانه الخلق وهم فى ابتداء فطرتهم يحتاجون الى استعمال الشهوات لتكمل ابدانهم بها فيبعدون عن حضرته بسببها وانما سعادتهم فى القرب منه فاعد لهم من النعم مايقدرون على استعماله فى نيل درجة القرب وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى فقال * لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات * الآية فاذا انعم الله بآلات يترقى بها العبد عن اسفل سافلين خلقها الله لاجل العبد حتى ينال بها سعادات القرب والله سبحانه غنى عنه قرب او بعد منه والعبد فيه بين ان يستعملها فى الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه وبين ان يستعملها فى المعصية فقد كفر لاقتحامه لما يكرهه مولاه ولا يرضاه له فان الله لايرضى لعباده الكفر والمعصية وان عطلها فلم يستعملها لا فى طاعة ولا فى معصية فهو ايضا كفران للنعمة بالتضييع اذ كل ماخلق الله تعالى فى الدنيا انما خلق آلة للعبد ليتوصل بها الى سعادة الاخرى ونيل القرب من المولى فكل مطيع فهو يقدر طاعته شاكر لنعمة الله فى الاسباب التى استعملها وكل كسلان ترك الاستعمال اوعاص استعمل ذلك فى طريق البعد فهو كافر جار فى غير محبة الله فالمعصية والطاعة تشملهما المشية ولكن لاتشملهما المحبة والكراهة بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه ووراء بيان هذه

الدقيقة سر القدر الذى منع من افشائه صونا للحقيقة (والفارق بين محبوبه تعالى ومبغوضه) عز وعلا (للفعل) محبوبا ومبغوضا (والترك) كذلك (العلم بالكتاب والسنة) فانهما كفتا ميزان العدلة (والاستبصار) اى بروية كما فى نسخة اى والاعتبار بفكر من العقل ونظر وتأمل فى النقل (والضابط) لما يحبه الله وما يبغضه (ان الموصل) للعبد (الى معرفته) اى الله (ومحبته محبوب لله) فينبغى استعمال النية فيه (والشاغل عنه) اى والمانع عما ذكره من المعرفة والمحبة (مبغوض لله) فيجب عدم استعمال النية فيه (ثم النعمة اما دنيوية كالخلقة السوية والملاذ الشهية) من المطالبات النفسية (وصرف المفاسد والمضار) البدنية بآلات حسية مثل اليد والرجل حيث يدفع الضر او يهذب من الشر (واما دينية كالتوفيق على الطاعة والعصمة) فى حق الانبياء (والحفظ) فى حق الاولياء (عن المعصية) مع القدرة او عدمها فان من العصمة ان لاتقدر (وهى) اى النعمة الدينية (اعظم) قدرا من النعمة الدنيوية (لايصالها) اى لتبليغ النعمة الدينية (الى السعادة الابدية) التى لاغاية لها (والانجاء) اى الخلاص (عن الشقاوة السرمدية) التى لانهاية لها (واشتراك الكفار) مع الابرار (فى الدنيوية) والدنيا مبغوضة لسرعة فنائها وكثرة عنائها وخسة شركائها (واغتنام الابرار زوالها) اى فقد النعمة الدنيوية خوفا من نقصان النعمة الاخروية كما قال بعض المجتهدين ورود الفاقات اعياد المريدين (وطلب الاحصاء) نعم الله وعدها (توقع المحال) وتمنيه لعدم طاقة البشر فى ذلك الحال (فورد) فى التنزيل (وان تعدوا) اى تريدوا ان تحصوا (نعمة الله لاتحصوها) اى لاتطيقوا احصاءها وعدها فضلا عن القيام بحقها من شكرها وقد قيل الانفاس فى اليوم والليلة اربعة وعشرون الفا وفى كل نفس نعمتان فى حصولها باعتبار طلوعها ونزولها (والطريق) المفضى الى الشكر ثلاثة (المعرفة) لنعمته سبحانه فانه ما من عبد الا ولو امعن النظر فى احواله لرأى من الله نعمة اونعما كثيرة تخصه لا يشاركه فيها عامة الناس بل يشاركه عدد يسير منهم وربما لا يشاركه فيها احد (والتفكر فى صنايعه تعالى) من الانفسية والآفاقية واحساناته سبحانه عليه من بين البرية (والنظر الى الادنى) فى المرتبة المعيشية والامور الدنيوية (فورد من نظر فى الدنيا الى من دونه) فى المرتبة من الجاه والمال (ونظر فى الدين الى من فوقه) من العلم والعمل والحال (كتبه الله صابرا) بالنظر الثانى (وشاكرا) بالنظر الاول فتأمل والحديث رواه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وهو فى الصحيحين بلفظ انظروا الى من هو اسفل منكم ولاتنظروا الى من فوقكم فهو اجدر ان لاتزدروا نعمة الله عليكم اى لاتحتقروها وللعسكرى عن انس مرفوعا من نظر الى مافى ايدى الناس طال

حزنه ولم يشف غيظه وحكى عن بعضهم انه كان يحضر كل يوم دار المرضى والمقابر ومواضع الحدود ليشاهد انواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل فى صحته وسلامته عما ابتلوا به فيحمد الله على ما اعطاه من نعمه فاذن كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد الله تعالى على نفسه نعما كثيرة لاسيما من خص بالسنة والايمان والعلم والقرآن ثم بالفراغ والصحة والامان ولذا قيل *

* من شاء عيشا رحيبا يستطيب به * فى دينه ثم فى دنياه اقبالا *

* فلينظرن الى من فوقه ورعا * ولينظرن الى من دونه مالا *

وقال عليه السلام ان القرآن هو الغنى الذى لاغنى بعده ولا فقر معه رواه ابو يعلى والطبرانى من حديث انس وقال عليه السلام من آتاه الله حفظ كتابه فظن ان احدا اوتى افضل مما اوتى فقد صغر اعظم النعم رواه البخارى فى تاريخه منه فقد استهزأ بآيات الله وعن الصديق من اوتى القرآن فظن ان احدا اوتى افضل منه فقد حقر عظيما وعظم حقيرا وقال عليه السلام من لم يتغن بالقرآن فليس منا اى لم يستغن وقد سبق والكل مقتبس من قوله سبحانه * ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم لاتمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم * وقال بعض السلف يقول الله ان عبدا اغنيته عن ثلاثة لقد اتممت عليه نعمتى عن سلطان يأتيه فيه احتمالان وطبيب يداويه وعما فى يد اخيه وعبر الشاعر عن هذا بقوله *

* اذا القوت يأتى لك والصحة والامن * واصبحت محزونا فلا فارقك الحزن *

بل افصح العبارات واملح الاشارات كلام افصح من نطق بالضاد حيث عبر عن هذا المراد على وجه الارشاد للعباد بقوله من اصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا اى جمعت والحديث قدتقدم قال فى الاحياء ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من امور وراء هذه الثلاث مع انها وبال عليهم ولايشكرون نعمة الله فى هذه الثلاث ولايحمدون نعمة الله عليهم فى الايمان الذى به وصولهم الى النعيم المقيم والملك العظيم بل البصير ينبغى ان لايفرح الابالمعرفة واليقين والايمان بل نحن نعلم من العلماء من لوسلم اليه جميع مادخل تحت قدرة ملوك الارض من المشرق الى المغرب من اموال واتباع وانصار وقيل له خذ هذا عوضا عن علمك بل عن عشر عشير علمك لم يأخذه وذلك لرجائه ان نعمة العلم تفضى به الى قربه سبحانه فى الآخرة بل لوقيل له لك ما ترجوه فى الآخرة بكماله فخذ هذه اللذات فى الدنيا بدلا عن التذاذك بالعلم فى الدنيا وفرحك به قبل العقبى لكان لايأخذه لعلمه بان لذة العلم دائمة لاتنقطع وثابتة لاتسرق ولاتغصب ولاينافس فيها ولاتنقلع وانها صافية لاكدورة فيها ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة لايفى مرجوها بمخوفها ولالذتها

بالها ولافرحها بغمها هكذا يرى الى الآن وهكذا يكون الى آخر مابقى من الزمان اذما خلقت لذات الدنيا الالتخدع بها العقول الناقصة حتى اذا انخدعت وتقيدت بها ابت عليهم وامتنعت عنهم واستعصت منهم كالمرأة الجميلة ظاهرها مزين للشاب العشيق الغبى حتى اذا تعلق بها قلبه احتجبت عنه فلايزال معها فى عناء دائم وتعب قائم وكل ذلك لاغتراره بلذة النظر اليها فى لحظة ولو غفل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم فى جميع عمره فهكذا وقع ارباب الدنيا فى شباك الدنيا وحبائلها ولاينبغى ان يقول ان المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها فان المقبل عليها ايضا متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها وجمعها ومنعها ودفع القصود عنها وتألم المعرض عنها يفضى الى اللذة فى الآخرة وتألم المقبل عليها يفضى الى العسر فى العاقبة فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى * ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لايرجون (فان قلت كيف يمكن الشكر) لله (والعبد بعجز عنه) اى عن شكر الله (الابتوفيقه) لشكره (وهو) اى والحال ان توفيقه لشكره (نعمة تستدعى شكرا) آخر (الى ان يتسلسل) فيصير الشكر محالا (قلت التحقيق لمن بلغ مقام الفناء) عن نفسه والبقاء بربه (ان الشاكر) الذى (هى) الشكور (المشكور) وان المثنى هو المثنى عليه (فورد) فى الحديث المشهور (لااحصى ثناء عليك) اى لااطيق الحمد والشكر على نعمك (انت كما اثنيت على نفسك) وحاصله ان الاعتراف بالعجز عن الشكر عين الشكر وانشد * العجز عن درك الادراك ادراك * كما حقق فى توحيد الذات حيث قال تعالى * ولا يحيطون به علما * وليس كمثله شئ * وقال على ما خطر ببالك فالله غير ذلك وقال الملائكة * سبحانك لاعلم لنا الاما علمتنا * ويوم يجمع الله الرسل فيقول ما ذا اجبتم قالوا لاعلم لنا * وقيل فى معنى قول بعض السلف من عرف نفسه فقد عرف ربه اى من عرف نفسه بالعجز عرف ربه بالقدرة ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء وتوضيح السؤال والجواب ولو احتيج الى بعض الاطناب لانه من فصل الخطاب الذى هو لب لباب هذا الباب من الكتاب عند ارباب الالباب هو ان جميع ما نتعاطاه باختيارنا من انواع الشكر على نعم الدنيا والاخرى هى نعمة اخرى من الله تعالى وبالشكر اجرى اذ جوارحنا وقدرتنا وارادتنا وداعيتنا وسائر امورنا التى هى اسباب سكوتنا وحركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمه فكيف نشكر نعمته بنعمته ولو اعطانا الملك مركوبا فاخذنا مركوبا آخر له وركبناه او اعطانا مركوبا آخر لم يكن الثانى شكرا للاول مقابلا كان الثانى يحتاج الى شكر آخر كما يحتاج الاول ثم لايمكن شكر الشكر الابنعمة اخرى فيؤدى الى ان يكون الشكر محالا فى حق الله تعالى من هذين الوجهين ولسنا نشك فى الامرين وقد ورد به الشرع فكيف السبيل الى الجمع فاعلم ان هذا الخاطر خطر لداود وكذا لموسى عليهما السلام فقال يارب كيف اشكرك

وانا لا استطيع ان اشكرك الابنعمة ثانية من نعمك وفى لفظ آخر وشكرى لك نعمة اخرى منك توجب الشكر على ذلك فاوحى الله تعالى اليه اذا عرفت هذا فقد شكرتنى وفى خبر آخر اذا عرفت ان النعم منى رضيت بذلك منك شكرا والتحقيق فى مقام التوفيق على وجه التدقيق ان ههنا نظرين نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرفك قطعا انه الشاكر وانه المشكور وانه المحب وانه المحبوب وهذا نظر من عرف انه ليس فى الوجود غيره وان كل شئ هالك الا وجهه ومن هنا قول لبيد *

* الا كل شئ ماخلا الله باطل *

وقول بعض ارباب الشهود سوى الله والله ما فى الوجود وقول بعض الابرار

* ليس فى الدار غيره ديار *

وذلك لان الغير هو الذى يتصور ان يكون له بنفسه قوام ومثل هذا الغير لاوجود له بل هو محال ان يوجد اذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل قائم بغيره فهو موجود بغيره فان اعتبر ذاته ولم يلتفت الى غيره لم يكن له وجود البتة وانما الوجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذى اذا قدر عدم غيره بقى موجودا فان كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولاقيوم الا واحد ولا يتصور ان يكون غير ذلك فاذا نظرت فى هذا المقام علمت ان الكل منه مصدره واليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب ومن هنا نظر حبيب بن ابى حبيب حيث قرأ * انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب * فقال واعجباه اعطى واثنى اشار الى انه اذا اثنى على عطائه فعلى نفسه اثنى فهو المثنى وهو المثنى عليه ومن هنا نظر الشيخ ابو سعيد الميهنى حيث قرئ بين يديه * يحبهم ويحبونه * فقال لعمرى يحبهم ودعه يحبهم فبحق يحبهم لانه انما يحب نفسه اشار به الى ان المحب هو المحبوب وهذه رتبة عالية ومنزلة غالية لاتفهمها الابمثال على حد عقلك فيقال ان المصنف اذا احب تصنيفه فقد احب نفسه والصانع اذا احب صنيعته فقد احب نفسه وكل ما فى الوجود سوى الله فهو تصنيفه وصنعته فان احبه فما احب الانفسه واذا لم يحب الا نفسه فبحق احب ما احب وهذا كله نظر بعين التوحيد وتحقيق التفريد ويعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس اى فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير فى الكون الا الله وليس المعنى كما فهمه الوجودية من العينية لنص المعية كما بينته فى رسالة المرتبة الشهودية فى المنزلة الوجودية فهذا احد النظرين واما النظر الثانى فنظر من لم يبلغ الى مقام الفناء عن نفسه فظن لنفسه وجودا مستقلا ولو عرف لعلم انه من حيث هو لاثبات له ولاوجود له وانما وجوده من حيث اوجد لا من حيث وجد وفرق بين الموجود وبين الموجد وليس فى الوجود الاموجود واحد وموجد فالموجود حق والموجد من حيث هو هو باطل والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان فاذا كان كل من

عليها فان فلا يبقى الا وجه ربك ذوالجلال والاكرام ودرجات الموحدين متفاوتة فى مقامات المجتهدين وقد جاء جميع الانبياء والمرسلين داعين الى التوحيد المحض وترجمته قول لا اله الا الله ومعناه ان لا ترى الا الله الواحد القهار فالواصلون الى كمال التوحيد هم الاقلون والباقون. وهم الاكثرون عن هذا المعنى غافلون كما قال تعالى * وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون * اذا عبدة الاوثان قالوا * ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى * وكانوا داخلين فى اوائل التوحيد دخولا ضعيفا والمتوسطون وهم الكثيرون ففيهم من ينفتح بصيرته فى بعض الاحوال فتلوح لهم حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا تثبت وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز كما قيل *

* لكل الى شأو العلا حركاته * ولكن عزيز فى الرجال ثباته *

ولما امر عليه السلام بطلب القرب بقوله سبحانه * واسجد واقترب * قال فى سجوده اعوذ بعفوك من عقابك واعوذ برضاك من سخطك واعوذ بك منك لا احصى ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك فقوله عليه السلام اعوذ بعفوك من عقابك كلام عن مشاهدة فعل الله فقط وكأنه لم ير الا الله وافعاله فاستعاذ بفعله من فعله ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الافعال وترقى الى مصادر الافعال وهى الصفات فقال اعوذ برضاك من سخطك ثم رأى ذلك نقصانا فى التوحيد فاقترب ورقى من مقام مشاهدة الصفات الى مشاهدة الذات فقال اعوذ بك منك فهذا فرار منه اليه من غير رؤية فعل ولا صفة ولكنه رأى نفسه فارا منه اليه ومستعيذا به ومثنيا عليه ففنى عن مشاهدة نفسه اذ رأى ذلك نقصانا فى مقام انسه فاقترب فقال لا احصى ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك فقوله لا احصى خبر عن فناء نفسه وخروجها عن مشاهدتها وقوله انت كما اثنيت على نفسك بيان انه هو المثنى وهو المثنى عليه وان الكل منه بدأ واليه يعود ولقد كان عليه السلام لا يرقى من مرتبته الى الاخرى الا ويرى الاولى بعدا بالاضافة الى الثانية فكان يستغفر الله تعالى من الاولى كما قال انه ليغان على قلبى فى اليوم والليلة حتى استغفر الله سبعين مرة وكان ذلك لترقيه الى سبعين مقاما بعضها فوق بعض فى مقام الوحدة ومشاهدة الكثرة هذا وما من مقبول الا وهو مقود الى الجنة بسلاسل الاسباب من تسليط العلم والخوف عليه وما من مخذول الا وهو مقود الى النار بسلاسل تسليط الغفلة والغرور عليه فالمتقون يساقون الى الجنة قهرا والمجرمون يقادون الى النار قهرا ولا قاهر الا الله الواحد القهار ولا قادر الا الملك الجبار وهذا معنى قوله خلقت هؤلاء للجنة ولا ابالى وخلقت هؤلاء للنار ولا ابالى (واختلف فى وجوبه) اى الشكر (فى المصائب والحق الوجوب) بناء على ستة اشياء (على ان لا يصيب اكبر منها) اى من تلك المصيبة التى اصابته اذ مقدورات الله لا تتناهى فلو ضعفها الله وزادها ماذا كان يردها عما ارادها وكان يقول شيخنا العالم النقى على المتقى اذا اخذ عمامتك فتصدق

بالحلاوة بسلامة رأسك فالمصيبة المالية اهون من المصيبة البدنية (وان لاتكون) المصيبة (فى الدين) فقد قال رجل لسهل دخل اللص بيتى واخذ متاعى فقال له اشكر الله تعالى لو دخل الشيطان قلبك وافسد التوحيد ماذا كنت تصنع وقد ورد فى دعائه عليه السلام لاتجعل مصيبتنا فى ديننا وقال عمر رضى الله عنه ما ابتليت ببلاء الاكان لله على فيه اربع نعم اذ لم تكن فى دينى ولم تكن اعظم منها واذ لم احرم الرضاء واذ رجوت الثواب عليها (وان تعجل عقوبتها) بصيغة المجهول اى عقوبة المعصية فى الدنيا (ولا تدخر للآخرة) فلعذاب الآخرة اشد وابقى اذ مصائب الدنيا يتسلى عنها باسباب اخر تهون المصيبة فيخف وقعها ومصيبة الآخرة تدوم وان لم تدم فلا سبيل الى تخفيفها بالتسلى اذ اسباب التسلى مقطوعة بالكلية فى الآخرة عن المعذبين وايضا مامن عقوبة الاوكان يتصور ان تؤخر الى الآخرة ومن تعجلت عقوبته فى الدنيا فلا يعاقب ثانية فى العقبى لقوله عليه السلام اذا اذنب ذنبا فاصابته شدة او بلاء فى الدنيا فالله اكرم ان يعذبه ثانيا فى العقبى كذا فى الاحياء وقال مخرجه رواه الترمذى وابن ماجه من حديث على من اصاب فى الدنيا ذنبا عوقب به فالله اعدل من ان يثنى عقوبته على عبده ولاحمد والطبرانى باسناد صحيح من رواية الحسن البصرى عن عبد الله بن مغفل ان رجلا من الصحابة رأى امرأة كان يعرفها فى الجاهلية فكلمها ثم تركها فجعل الرجل يلتفت اليها وهو يمشى فصدمه حائط فاثر فى وجهه فاتى النبى عليه السلام فاخبره فقال عليه السلام اذا اراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبته فى الدنيا وقال على كرم الله وجهه الا اخبركم بارجى آية فى كتاب الله قالوا بلى فقرأ عليهم * وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير * ولله در القائل

﴿ شعر ﴾ لعمرك ما كالشكر داع زيادة * ولا عوضا كالصبر عند المصائب

(وانها) اى ولان المصيبة الماضية (كانت) فى التقدير (آتية) لابد من وصولها اليه وقد وصلت (ففرغ منها) وتخلص عنها فهى نعمة بذاتها كما يشير اليه قوله تعالى * ما اصاب من مصيبة فى الارض ولا فى انفسكم الا فى كتاب من قبل ان نبرأها (وان ثوابها) اى المصيبة (خير منها) اى من عدمها فما من شئ يقع للعبد الا ويتصور ان يكون له فيه ذخيرة دينية فعليه ان يحسن الظن بالله فيما يعطيه ويبليه فان حكمته تعالى واسعة وهو بمصالح العباد اعلم من العباد وغدا يشكره العباد على البلاء اذا رأوا ثواب البلاء ويتمنى انه كان يقرض ابدانه فى الضراء فقد روى ان رجلا قال له عليه السلام اوصنى فقال لاتتهم الله فى شئ قضاه عليك رواه احمد والطبرانى من حديث عبادة وقال عليه السلام عجبا لامر المؤمن ان امره كله له خير وليس ذلك الا للمؤمن ان اصابته سراء شكر فكان خيرا له وان اصابته ضراء صبر وكان خيرا له رواه مسلم (وانها) اى ولان المصيبة (تنقص من القلب حب الدنيا)

فلم يسكن اليها ولم يأنس بها فقد ورد الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر رواه مسلم من حديث ابي هريرة (فهي) اى المصائب (في التحقيق نعم) يجب لاهل التوفيق الشكر عليها (اذلاتخلو) المصيبة (عن تكفير الخطيئة) ان كان من المبتدئين (اورياضة للنفس) لما فيها من المحنة والبلية ان كان من المتوسطين (اورفع للدرجة) ان كان من المنتهيين والاخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة شهيرة كقوله عليه السلام من يرد الله به خيرا يصب منه رواه البخاري من حديث ابي هريرة ولابن ابي الدنيا من حديث ابي سعيد الخدري ان رجلا قال يارسول الله ذهب مالي وسقم جسدي فقال لاخير في عبد لايذهب ماله ولايسقم جسده ان الله تعالى اذا احب عبدا ابتلاه واذا ابتلاه صبره ولابي داود ان الرجل ليكون له الدرجة عند الله لايبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك (وقراءة سورة الواقعة) مبتدأ و (في ايام العسرة) ظرفه والخبر (لطلب القناعة) اى قناعة القلب وهو ان لايشغله شاغل عن حضرت الرب وهو جواب سؤال مقدر تقديره انكم اوصيتم الشكر على المصيبة واثبتهم انها في التحقيق من النعمة فقراءة السلف سورة الواقعة كل ليلة في ايام العسرة لاى معنى كانت فاجاب بما تقدم وقد اخرج ابن عساكر في فضائل القرآن وابويعلى وابن مردويه في تفسيره والبيهقي في شعب الايمان عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه الفاقة واخرج ابن مردويه عن انس عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال سورة الواقعة سورة الغنى فاقرؤها وعلموها اولادكم (او العدة) اى الاستعداد (على العبادة دون وسعة الدنيا) لان السلف لم يكونوا محبين لوسعتها (وانماقرئت) السورة (لماوردفيها) اى في فضلها (من الاخبار والآثار) كماسبق (والا) اى وان لم يحمل على ماتقدم (فلامبالاة بحملة تعالى) للسلف (بالشدة) اى بالبلاء والمحنة (فهم) اى السلف (كانوا يغتنمونها) اى الشدة والبلاء اكثر مما كانوا يغتنمون الراحة والنعماء (وامانداء ايوب عليه السلام) ربه انى مسنى الضر (فلبيان الشكر) واظهاره (على نعمة الصبر) لقوله تعالى * واما بنعمة ربك فحدث (وجزيل جزائه) اى وعلى عظيم جزاء الصبر وعطائه (لقرينة * وانت ارحم الراحمين) وذلك لان الله تعالى سلط بعض بلائه على خاصة عباده وخلاصة اصفيائه فهو فضل من الله ومن جملة عطائه فشكر عليه وتبتع لديه واشار اليه بقوله مسنى الضر الذى تخص به انبيائك واوليائك بلا استحقاق منى بل بكرم منك فانك ارحم الراحمين (اولبلوغ المرض الى العقل) اى القلب (واللسان المفوت) ذلك المرض (للمعرفة) بالجنان (والذكر) باللسان (اوالعجز عن اقامة الصلوة) بتمام اركانها (اولانقطاع الوحى اربعين يوما) ومقام الفترة في غاية من العسرة حتى كاد نبينا عليه السلام ان يرمى نفسه عن الصخرة ولذا قيل الحجاب اشد العذاب (وانما ورد الامر

بسؤال

بسؤال العافية) فى الاحاديث الثابتة الوافية كما رواه الترمذى من قوله عليه السلام ما سئل الله شيئا احب اليه من ان يسأل العافية ولابن ماجه عن انس مرفوعا سل ربك العافية والمعافاة فى الدنيا والآخرة فاذا اعطيت العافية فى الدنيا واعطيتها فى الآخرة فقد افلحت ولاحمد والترمذى عن ابى بكر سلوا الله العفو والعافية فان احدا لم يعط بعد اليقين خيرا من العافية (والنهى عن سؤال البلية) فقد مر عليه السلام بقوم مبتلين فقال اما هؤلاء كانوا يسألون الله العافية رواه الترمذى وقال على رضى الله عنه اللهم انى اسئلك الصبر فقال عليه السلام لقد سألت الله البلاء فسأله العافية رواه الترمذى ولابن ماجه والنسائى باسناد جيد عن ابى بكر الصديق انه عليه السلام قال سلوا الله العافية فما اعطى عبد افضل من العافية الا اليقين واشار باليقين الى عافية القلب عن مرض الجهل والشك فعافية القلب اعلى من عافية القلب (لان الاولى سؤال تمام النعمة فى الدنيا) فان تمامها بعافية البدن فيها (وثواب الشكر) اى وسؤال ثوابه على نعمة رفع البلاء (فى الآخرة لقدرته تعالى على ان يعطى الاجر الجزيل على الشكر) على نعمة رفع البلاء (مايعطى على الصبر) على محنة البلاء ومن هنا قال عليه السلام ولكن عافيتك اوسع كما رواه ابن ابى الدنيا وغيره فى اثناء دعائه يوم خرج الى الطائف وقال مطرف بن عبد الله لان اعافى فاشكر احب الى من ان ابتلى فاصبر (واما) مايرد على قوله والنهى عن سؤال البلية (مثل قول سمنون المحب

﴿ شعر ﴾

(فليس لى فى سواك حظ * فكيف ماشئت فاختبرنى) (وقول آخر)

(شعر) (اريد وصاله ويريد هجرى * فاترك ما اريد لما يريد)

(فكلام العشاق فى حالة الغلبة) من الاشواق (وهو) اى مثل هذا الكلام حين يجرى (يطوى ولا يروى) لان صاحب الحال لايقتدى ومن اللطائف ماحكى ان فاختة كانت يراودها زوجها فتمنعه فقال ما الذى يمنعك عنى ولو اردت ان اقلب لك ملك سليمان ظهر البطن لفعلت لاجلك فسمعه سليمان فاستدعاه وعاتبه على ماجرى فقال يانبى الله كلام العشاق يسمع ولا يحكى ثم اعلم انه حكى ان سمنون بلى بعد هذا البيت بعلة الحصر فكان بعد ذلك يدور على ابواب الكتاب ويقول للصبيان ادعوا لعمكم الكذاب ومن هذا القبيل ما قال بعضهم اودان اكون جسرا على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون واكون انا فى النار لان محبة الانسان ليكون هو فى النار دون سائر الخلق غير ممكن ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظن بنفسه حبا لمثل ذلك فمن شرب كاس المحبة سكر ومن سكر توسع فيما ذكر فلو زايله سكره علم ان ما غلب عليه كان حالة لاحقيقة لها فما ايسر الدعوى وما اعسر المعنى واما قول الشاعر اريد وصاله البيت فهو ايضا محال

اذ معناه انى اريد مالا اريد لان من اراد الوصال ما اراد الهجر فكيف اراد الهجر الذى لم يرده كذا قرره الامام حجة الاسلام ولا يبعد ان يقال فى البيت الثانى انه اراد ان لايكون له ارادة بدون ارادة الله وان تكون ارادته تابعة لارادته سبحانه سواء يكون وصلا اوهجرا قربا اوبعدا كما يشير اليه قوله تعالى * وماتشاؤن الا ان يشاء الله * وقول السلف ماشاء الله كان وما لم يشا لم يكن وفى هذا المقام قال ابويزيد البسطامى لما قيل له ما تريد اريد ان لا اريد غايته انه قال صاحب منازل السائرين هذه ايضا ارادة ونوقش بان هذه ارادة مطلوبة وبانها داخلة فى قوله لا اريد والحاصل انه من باب كمال الرضاء بالقضاء واما البيت الآخر فلانه يدعى ان يصل السالك الى مقام ليس له فيه حظ ولذة سوى ذكر المحبوب وفكره وقربه ولعل وجه الابتلاء انه كان فيه بقية حظ اوشظية لذة ولو كان فى ضمن الدعوى لهذه الحالة التى اظهرها بتلك المقالة (وفى) اى واختلف ايضا فى (ان الشاكر) الغنى (افضل ام الصابر) الفقير واما الفقير الشاكر فهو افضل من الغنى الشاكر اتفاقا فقد قال قائلون الصبر افضل من الشكر وقال آخرون الشكر افضل من الصبر وقال جماعة هما سيان لقوله عليه السلام الصبر نصف الايمان وهو استدلال ضعيف اذ يحتمل ان يكون احدهما افضل من الآخر كما يقال ان الايمان علم وعمل وهما لايستويان اذ العلم خير من العمل وقال طائفة يختلف باختلاف الاحوال وقيل القناعة خير منهما واختاره الجلال السيوطى والصوفية اجمعوا على ان الفقير الصابر افضل من الغنى الشاكر بل قال بعضهم ان الفقير الشاكى افضل من الغنى الشاكر ولما سئل الجنيد عن الصبر والشكر ايهما افضل قال ليس مدح الغنى بالوجود ولامدح الفقير بالعدم وانما المدح فى الاثنين قيامهما بشروط ماعليهما فشرط الغنى ان يصحبه فيما عليه اشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها والفقير ان يصحبه فيما عليه اشياء تالم صفته وانقباضها وانزعاجها فاذا كان الاثنان قائمين لله عز وجل بشروط ما عليهما كان الذى آلم صفته وازعجها اتم حالا ممن متع صفته ونعمها ويقال كان ابو العباس بن عطاء قد خالفه فى ذلك فقال الغنى الشاكر افضل من الفقير الصابر فدعا عليه الجنيد فاصابه ما اصابه من البلاء من قبل اولاده وتلف امواله وزوال عقله اربع عشرة سنة ويقول دعوة الجنيد اصابتنى ورجع الى تفضيل الفقير الصابر على الغنى الشاكر هذا والشاكر الذى يشكر على الموجود والشكور الذى يشكر على المعبود ومن هنا قوله سبحانه * وقليل من عبادى الشكور * انه كان عبدا شكورا * وقوله عليه السلام افلا اكون عبدا شكورا واما الشكور من اسمائه عزوجل فهو الذى يعطى الاجر الجزيل على الامر القليل (والحق) فى المسألة (انه) اى الشان (ان اريد) بالصبر (ما كان) من الصبر (بتلذذ فلاتعدد) كما سبق بيانه ان الصبر حينئذ هو الشكر

(وهو) اى الصبر المطلق من غير التلذذ الملحق (على البلاء خير منه على الرخاء) كما مر فى كلام الجنيد من طريق الايماء (وهو) اى وهذا الصبر هو (المراد بما ورد من افضل ما اوتيتم اليقين وعزيمة الصبر) وقد تقدم (يؤتى يوم القيمة باشكر اهل الارض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى باصبر اهل الارض فيقال له اترضى ان نجزيك كما جزينا هذا الشاكر فيقول نعم يارب فيقول الله عز وعلا انعمت عليه) وفى نسخة الاحياء كلما انعمت عليه (فشكر وابتليتك فصبرت لاضعفن لك الاجر) كذا فى الاحياء وقال مخرجه لم اجد له اصلا لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى * انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب * وروى يؤتى باهل البلاء فلاينصب لهم ميزان ولاينشر لهم ديوان ويصب عليهم الاجر صبا بغير حساب حتى يتمنى اهل العافية فى الدنيا ان اجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به اهل البلاء من الفضل كذا فى تفسير البغوى (والا) اى وان لم يرد بالصبر ما كان يتلذذ (فالشكر) الذى يضمن ركنيه وهما الامتناع عن المعصية وصرف النعمة الى الطاعة افضل من الصبر (لابتنائه) اى الشكر هذا (على المحبة وهى) اى المحبة (اعلى المقامات) وحاصله ان لافرق بين الصبر مع التلذذ والشكر التام ثم الصبر بغير التلذذ خير من الشكر الذى غير تام والشكر التام خير من الصبر بغير التلذذ واما قوله عليه السلام الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر كما ذكره الترمذى من حديث ابى هريرة فهو دليل على فضيلة الصبر حيث الحق به الشكر ومن المعلوم ان المشبه به ينبغى ان يكون اعلى رتبة فى القدر ومما يدل على فضيلة الفقر ما رواه الطبرانى فى الاوسط من حديث معاذ بن جبل يدخل الانبياء كلهم قبل داود وسليمن عليهما السلام الجنة باربعين عاما وروى البزار من حديث انس آخر من يدخل الجنة من اغنياء امتى عبد الرحمن بن عوف *

الباب الثامن عشر فى الخوف والرجاء

وهما جناحان للسالك يطير بهما الى كل مقام محمود وعطيتان بهما يقطع كل عقبة كؤود فلا يقود الى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الارجاء الا ازمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب المقيم الا سياط التخويف وسطوات التعنيف وقد دخل عليه السلام على رجل وهو فى النزع فقال عليه السلام كيف تجدك فقال اجدنى اخاف ذنوبى وارجو رحمة ربى فقال عليه السلام ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن الا اعطاه الله ما رجاه وامنه مما يخاف رواه الترمذى وغيره باسناد جيد ومن هنا قال تعالى * نبئ عبادى انى انا الغفور الرحيم وان عذابى هو العذاب الاليم * ليكونوا بين الرجاء والخوف وفى تقديم الرجاء ايماء الى ان الوصول به ارجى كما لايخفى وكذا قوله تعالى * وان ربك

لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب * فكان حق المصنف ان يقدم الرجاء وانما اخره كما فى الاحياء لان الخوف حال اهل الابتداء بخلاف الرجاء فانه مقام اهل الانتهاء ومما يدل على استواء الامرين حديث القلوب بين اصبعين ومما يدل على ترجيح الرجاء حديث غلبت رحمتى غضبى وفى الجملة لابد للمؤمن من اجتماعهما وعدم انفكاك احدهما فلابن حبان فى صحيحه والبيهقى فى شعبه وابن المبارك فى زهده من رواية الحسن مرسلا لا اجمع على عبدى خوفين ولا اجمع له امنين (بسم الله الرحمن الرحيم) رجاء كل خائف من العذاب الاليم (الخوف) للسائرين (والرجاء) للطائرين فى منازل السالكين (خاطر ان) خاطران وفى اصلهما عارضان وهما من جملة مقامات المريدين واحوال الطالبين وانما يسمى الوصف مقاما اذا ثبت واقام وانما يسمى حالا اذا كان عارضا يوشك زوالا فالذى هو غير ثابت يسمى حالا لانه يحول عن القلب على القرب وهو جار فى كل وصف من اوصاف القلب لتقلبه بتقليب الرب ثم اعلم ان العمل على الرجاء اعلى منه من الخوف لان اقرب العباد الى الله احبهم له والحب يغلب بالرجاء واعتبر ذلك بملك له عبد ان يخدم احدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء ثوابه واذا كان الخوف والرجاء خاطرين من غير اختيار فيهما ولا اقتدار عليهما (فلا تكليف الا فى مقدماتهما) وهى ذكر الآيات والاحاديث التى تبعث الانسان على الخوف والرجاء فمقدمات الخوف اربع ذكر الذنوب السابقة وذكر شدة العقوبة التى لاطاقة للانسان بها فى العاقبة وذكر ضعف النفس عن احتمالها وذكر قدرة الله على الانسان متى شاء وكيف شاء فى احوالها ومقدمات الرجاء اربع ايضا ذكر سوابق الفضل اليك من غير العمل وذكر ماورد من جزيل ثوابه وعظيم كرامته فى بابه دون استحقاقك اياه بالخدمة فى جنابه وذكر كثرة نعمه عليك دنيا واخرى وذكر سعة رحمته تعالى وسبقها على غضبه فهو بالرجاء اولى واحرى ثم هما (مبنيان على انتظار مايستقبل) من الثواب والعقاب فان الخوف غم يلحق لتوقع المكروه والرجاء فرح يلحق لتوقع المحبوب (فالمستغرق بذكره تعالى ابن الوقت) بل ابو الوقت فانه الغالب عليه وانما غيره فهو ابن الوقت لانه الحاكم لديه والحاصل انه مشتغل بما هو اولى فى الوقت قائم بما هو مطالب فيه حذرا من المقت (فيعدمهما) اى الخوف والرجاء وفى نسخة فيفقدهما (فالرجاء الفرح لانتظار محبوب فلا بد من سبب) وباعث لتحقق انتظار المطلوب (فان حصل اكثر الاسباب) اى اسباب حصوله لديه (فالاصدق اسم الرجاء) ووصوله عليه (كتوقع الحصاد ممن القى بذرا جيدا) نقيا غير عفن ولامسوس (فى ارض صالحة) للزراعة بان يكون غير سبخة (يصلها الماء) على سعة (وان فقد) اكثر الاسباب (فالغرور والحماقة) اصدق عليه من اسم الرجاء لصاحبه فى

هذا الباب (كما الوالتى بذرا) تالفا (فى غير صالحة) من ارض (لا يصلها الماء) الامرة (وان شك فيها) اى فى كثرة الاسباب للحصاد بان حصل بعضها دون بعضها (فالتمنى) اصدق عليه من اسم الرجاء (كما اذا صلحت الارض) مع القاء البذر الجيد (ولاماء) لاحتمال وصول ماء من السماء وتوضيحه ان الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالارض والايمان كالبذر والطاعات جارية مجرى تقليب الارض وتنظيفها وحفر الانهار ونحوها والقلب المواع بالدنيا ومتاعها المستغرق لحبها وذكرها كالارض السبخة التى لاينموالبذر فيها ويوم القيمة يوم الحصاد ولا يحصد احد الاما زرع ولا ينموزرع الا من بذر الايمان وقل ما ينفع الايمان مع خبث الجنان وسوء الاخلاق ومساوى العصيان فاذن اسم الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع اسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق الا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله بصرف القواطع والمفاسد والموانع فالعبد اذا بث بذر الايمان وسقاه بماء الطاعات وطهر القلب عن شوك الاخلاق الردية وانتظر من فضل الله تثبيته على ذلك الى الممات وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة والرحمة الكاملة الشاملة كان انتظاره رجاء حقيقيا وان قطع عن بذر الايمان ماء الطاعات وترك القلب مشحونا بالاخلاق السيئات وانهمك فى طلب اللذات والشهوات ثم انتظر المغفرة وعلوالدرجات فانتظاره حمق وغرور فى الحالات (فوردان الذين آمنوا والذين هاجروا) السيئات واللذات (وجاهدوا فى سبيل الله) بتكثير الطاعات (اولئك يرجون رحمت الله) اى هم الذين يستحقون ان يرجوا رحمة ربهم بخلاف من ينهمك فيما يكرهه الله ولايذم نفسه عليه ولايعزم على التوبة والرجوع اليه فرجاؤه المغفرة حمق وغرور كما قيل الغرة بالله ان يعمل الرجل بمعصية الله تعالى ويتمنى مغفرته عز وعلا (وكما ورد الاحمق من اتبع نفسه هواها) وتابعها فى طلب مشتهاها (وتمنى على الله) ان يدخل الجنة وماويها والحديث تقدم وقال يحيى بن معاذ الرازى من اعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب على رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله عز وجل من غير طاعة وانتظار زرع الجنة ببذر النار وطلب دار المطيعين بالمعاصى وانتظار الجزاء من غير عمل والتمنى على الله عز وجل مع الافراط فى الامل وانشد *

﴿شعر﴾ مابال دينك ترضى ان تدنسه * وثوبك الدهر مغسول من الدنس

ترجوالنجاة ولم تسلك مسالكها * ان السفينة لا تجرى على اليبس

وقد ورد ان زيد الخيل الذى غيره عليه السلام وسماه زيد الخير جاء عليه السلام وقال جئت لاسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال كيف اصبحت قال اصبحت احب الخير واهله واذا قدرت على شئ منه سارعت اليه وايقنت بثوابه واذا فاتنى شئ منه حزنت عليه وحننت اليه فقال هذه علامة الله فيمن يريد ولو هيألك للاخرى

هيأك بها ثم لايبالى فى اى اوديتها هلكت رواه الطبرانى فى الكبير من حديث ابن مسعود فمن ارتجى ان يكون مرادا للخير من غير هذه العلامات فهو مغرور فى وادى الملامات وعن على كرم الله وجهه من اشتاق الى الجنة تبتل عن الشهوات ومن اشفق من النار رجع عن المحرمات (اما حسن الظن) بالله حيث يقول انا عند ظن عبدى بى كما رواه الشيخان وزاد ابن حبان فليظن بى ما شاء وعنه عليه السلام لايموتن احدكم الاوهو يحسن الظن بالله كما رواه مسلم من حديث جابر انما يكون (بالحذر عن المعصية والاجتهاد فى الطاعة فلابد منه للسالك) اى من حسن الظن وغلبة الرجاء (فهو يبعث على الطاعة وترك المعصية (ويهون احتمال المشقة) فى ورود المصيبة والمحنة (والقنوط) وهو ضد الرجاء (كفر) قال تعالى * لاتقنطوا من رحمة الله وقال * ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون * وهو بمعنى اليأس (فورد) فى التنزيل (لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون) وورد انه عليه السلام قال لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم الى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون الى ربكم فهبط جبريل فقال ان ربك عزوجل يقول لم تقنط عبادى فخرج اليهم فرجاهم وشوقهم رواه ابن حبان فى صحيحه من حديث ابى هريرة واوله متفق عليه من حديث انس وقال على كرم الله وجهه لرجل اخرجه الخوف الى القنوط لكثرة ذنوبه ياهذا يأسك من رحمة الله اعظم من ذنوبك وعنه رضى الله عنه انما العالم الذى لايقنط الناس من رحمة الله ولا يؤمنهم من مكر الله وللبيهقى فى الشعب عن زيد بن اسلم ان رجلا من بنى اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم قال فيقول الله تعالى له يوم القيمة اليوم اؤيسك من رحمتى كما كنت تقنط عبادى منها وفى الخبر ان الله تعالى اوحى الى داود عليه السلام احبنى واحب من يحبنى وحببنى الى خلقى فقال يارب كيف احببك الى خلقك فقال اذكرنى بالحسن الجميل واذكر آلائى واحسانى وذكرهم ذلك فانهم لايعرفون منى الا الجميل ولابن ابى الدنيا والبيهقى فى شعبه من حديث انس مرفوعا ان رجلا يدخل النار فيمكث فيها الف سنة ينادى ياحنان يامنان فيقول الله لجبريل اذهب فأتنى بعبدى قال فيجئ به فيوقفه على ربه فيقول له كيف وجدت مكانك قال فيقول شر مكان فيقول بما قدمت يداك وماانا بظلام للعبيد ردوه الى مكانه قال فيمشى فيلتفت الى ورائه فيقول الله عز وجل الى اى شئ تلتفت فيقول رجوت ان لا تعيدنى اليها بعد ان اخرجتنى منها فيقول الله تعالى اذهبوا به الى الجنة فدل هذا على ان رجاءه (انجاه والطريق) الموصل الى تحصيل الرجاء ذكر ستة اشياء (ذكر سوابق فضله) فى ايجاد العبد وامداده من جوده وكرمه (دون شفيع) اى بلا شفيع من عنده (وما وعد الله من جزيل ثوابه) فى كتابه (دون استحقاق) سابق فى بابه مع انه لا استحقاق للمملوك على المالك بشىء من حسابه (وما انعم) على عبده من الرزق والعافية وتوفيق الطاعة

(بما يمد) نفعه (فى الدارين) من عنده (دون سؤال) اى غير مسألة سابقة من عبده (وسعة الرحمة) قال تعالى * ورحمتى وسعت كل شئ * وفى الصحيحين من حديث ابى هريرة لو علم الكافر سعة رحمة الله ما ايس من جنته احد (وسبقها الغضب فورد رحمتى سبقت غضبى) وفى رواية غلبت وفى الصحيحين من حديث ابى هريرة ان الله كتب على نفسه قبل ان يخلق الخلق ان رحمتى تغلب غضبى (وماورد فيه) اى فى فضل الرجاء من الكتاب والسنة (مثل لاتقنطوا من رحمة الله) الآية اى * ان الله يغفر الذنوب جميعا * وفى قرأة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولايبالى كما رواه الترمذى من حديث اسما بنت ابى يزيد وحسنه (انا عند ظن عبدى بى) كما تقدم والله اعلم وكان ابوجعفر محمد بن على يقول انتم اهل العراق تقولون ارجى آية فى كتاب الله عز وجل * قل ياعبادى الذين اسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله * الآية ونحن اهل البيت نقول ارجى آية فى كتاب الله * ولسوف يعطيك ربك فترضى * انتهى وذلك لما ذكر فى تفسيره انه عليه السلام قال لا يرضى محمد واحد من امته فى النار اى مؤبدا وكان بعض العارفين يرى آية المداينة فى سورة البقرة من اقوى اسباب الرجاء فقيل له وما فيها من الرجاء فقال الدنيا كلها قليل ورزق الانسان فيها قليل والدين من رزقه قليل فانظر كيف انزل الله فيه اطول آية ليهتدى بها عبده الى طريق الاحتياط فى حفظ دينه فكيف لايحفظ دينه الذى لاعوض له منه فى دنياه وعقباه وروى فى تفسير قوله تعالى * يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه * ان الله اوحى الى نبيه عليه السلام انى اجعل حساب امتك اليك فقال لايارب انت خير لهم منى فقال اذن لااخزيك فيهم رواه ابن ابى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله تعالى وللبيهقى فى شعبه من رواية عتبة بن الوليد ان الخليل قال يوما يا كريم العفو فقال جبريل اتدرى ما تفسير يا كريم العفو هو ان يعفو عن السيئات برحمته ثم يبدلها حسنات بكرمه ولابن ابى الدنيا من حديث حذيفة مرفوعا ليغفرن الله تعالى يوم القيمة مغفرة ماخطرت قط على قلب احد حتى ان ابليس ليتطاول لها رجاء ان تصيبه وفى الصحيحين من حديث ابى هريرة ان الله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنده تسعة وتسعين رحمة واظهر منها فى الدنيا رحمة واحدة يتراحم الخلق بها فتحن الوالدة الى ولدها وتعطف البهيمة على ولدها فاذا كان يوم القيمة ضم هذه الرحمة الى التسعة والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والارضين قال فلا يهلك على الله يومئذ الا هالك وللترمذى من حديث انس وصححه وابن ماجه من حديث جابر شفاعتى لاهل الكبائر من امتى وقال الثورى ما احب ان يجعل حسابى الى ابوى لانى اعلم ان الله تعالى ارحم بى منهما وقال ابن ادهم خلا لى المطاف ليلة وكانت ليلة ممطرة مظلمه فوقفت فى الملتزم عند الباب فقلت يارب اعصمنى حتى لا اعصيك ابدا

فهتف هاتف من البيت يا ابراهيم انت تسألنى العصمة وكل عبادى المؤمنين يطلبون ذلك فاذا عصمتهم فعلى من اتفضل ولمن اغفر ويؤيده حديث لولم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بخلق آخر يذنبون فيغفر لهم انه هو الغفور الرحيم رواه مسلم من حديث ابى هريرة وكان الحسن يقول لو لم يذنب المؤمن لكان يطير فى الملكوت ولكن الله قمعه بالذنوب ويؤيده حديث لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب فقيل ما هو قال العجب رواه البزار وابن حبان والبيهقى من حديث انس وقال الجنيد ان بدت عين من الكرم الحقت المسيئين بالمحسنين ويؤيده قوله تعالى * ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين * وقال يحيى بن معاذ فى مناجاته يكاد رجائى لك مع الذنوب يغلب رجائى لك مع الاعمال لانى اعتمد فى الاعمال على الاخلاص وكيف احرزها وانا بالآفة معروف واجدنى فى الذنوب اعتمد على عفوك وكيف لاتغفرها وانت بالجود موصوف وكان بعض السلف يقول فى دعائه يارب واى اهل دهر لم يعصوك ثم كانت نعمك عليهم سابغة وارزاقك عليهم دائرة سائغة سبحانك ما احلمك وعزتك انك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق حتى لكأنك يا ربنا انما تطاع وسبحانك ما احملك تعصى وتدر الرزق وتسبغ النعمة حتى لكانك ياربنا لاتغضب (والخوف) عطف على الرجاء (وهو الحزن لانتظار مكروه) وهو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال واما من انس بالله فى فى جميع الاحوال وملك الحق قلبه على وجه النظام وصار ابن وقته ومشاهد الجمال الحق على الدوام ولم يبق له التفات الى المستقبل من الايام فلم يبق له خوف ولا رجاء بل صار حاله اعلى من الخوف والرجاء فانهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج الى رعوناتها ولهذا اشار الواسطى حيث قال الخوف حجاب بين الله وبين العبد وقال ايضا اذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة الرجاء الخوف فى الضمائر ويؤيده ظاهر قوله تعالى * الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * وهذا بالنسبة الى الخواص الكرام واما النسبة الى الصلحاء من العوام فمعناه لا خوف عليهم بلحوق العقاب ولاهم يحزنون بفوت الثواب فى العقبى وبالجملة فالمحب اذا شغل قلبه فى مشاهدة محبوبه لخوف فراقه كان ذلك نقصا فى شهوده وانما دوام الشهود غاية المقامات ونهاية الدرجات لكن الكلام الآن فى اوائل الحالات فنقول الخوف له اسباب ينشأ منها ويصدر عنها كما قال (فاما من العلم بعدم مبالاته تعالى) فانه عز وجل لايسأل عما يفعل ومن عزته فى صفاته انه لواهلك العالمين لم يبال من احد ولم يمنعه مانع لوحدة ذاته (فورد) فى حديث مشهور ان الله تعالى لما خلق آدم مسح على ظهره فاستخرج منه ذريته فقبض قبضة فقال (هؤلاء فى الجنة ولا ابالى و)

قبض اخرى فقال (هؤلاء فى النار ولا ابالى) اى لا ابالى (من ملامة احد) اذ لا يجب على الله شىء لا من اثابة المطيع ولا من تعذيب العاصى (اومن الطاعة والمعصية) اى اوالمعنى لا ابالى من طاعة مطيع ولا من معصية عاص فانه كما ورد لو عذب اهل سمواته وارضه لكان عادلا فى حكمه غير ظالم فى امره (او) لا ابالى (لعدم تأثير الاثابة والتعذيب فى زيادة ملكى ونقصانه) كما فى حديث مسلم عن ابى ذر مرفوعا حكاية عن الله سبحانه ياعبادى انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ياعبادى لوان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ياعبادى لوان اولكم وآخركم وانسكم كانوا على افجر قلب رجل واحد منكم مانقص ذلك من ملكى شيئا (او) لا ابالى (لانى متصرف فى ملكى) افعل ما اشاء واحكم ما اريد بالعدل (او) لانى (متفضل غير مائل) فى ادخال الجنة (عادل غير جائر) فى ادخال النار لما تقدم (اوالجهل) اى اوالخوف هو الحزن الجهل (بالخاتمة وهو) اى خوف الخاتمة (للمتقى اغلب) لانه بحسب معرفته بعيوب نفسه وبعظمة جلال الله وقدسه فاخوف الناس لربه اعرفهم بنفسه وبربه ولذا قال عليه السلام والله انى لاخشاكم لله واتقاكم له رواه البخارى من حديث انس وللشيخين من حديث عائشة والله انى لاعلمهم بالله واشدهم له خشية وقد قال تعالى * انما يخشى الله من عباده العلماء (والاعلى) من انواع المخافة وادناها على كمال المعرفة ان يكون الخوف (من سابقة الازل) لان الخاتمة اللاحقة تتبع المقدمة السابقة فالخاتمة فى هذا الباب يظهر بما سبق به القضاء فى ام الكتاب فالالتفات الى القضاء الازلى الذى جرى بتوفيقه القلم اعلى من الالتفات الى ما يظهر فى الابد بعد ماكان فى حيز العدم واليه اشار صلى الله عليه وسلم حيث قال على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال هذا كتاب الله كتب فيه اهل الجنة باسمائهم واسماء آبائهم لايزاد فيهم ولاينقص وليعملن اهل السعادة بعمل اهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ثم يستنقذهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة وليعملن اهل الشقاوة بعمل اهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة السعيد من سعد بقضاء الله والشقى من شقى بقضاء الله والاعمال بالخواتيم رواه الترمذى من حديث عبدالله ابن عمرو بن العاص وقال حسن صحيح غريب وفى رواية السعيد من سعد فى بطن امه والشقى من شقى فى بطن امه رواه البزار وغيره بسند حسن ومن هنا خوف الكاملين حيث لم يعرفوا انهم من اى القبضتين ومن اى الفريقين المذكورين فى قوله تعالى * فريق فى الجنة وفريق فى السعير * وفى قوله عز وعلا * فمنهم شقى وسعيد * وقوله عز وجل * فمنكم كافر ومنكم مؤمن * وقوله سبحانه * اما شاكرا واما

كفورا * (واما) بالكسر عطف على قوله اما من العلم الخ والمعنى ان الحزن لانتظار مكروه اما من جهة المعرفة بصفة الله تعالى وعزته وجلاله فى مرتبة عظمته واما (من المعاصى) اى من جهة كثرة المعصية الصادرة عن العبد فى حال غفلته وغرته (ويختص) الخوف من المعصية (بموضع الغرور عند المواظبة على الطاعة بخلاف الاول) اى يختص هذا الخوف ويتميز من الخوف الاول وهو عدم المبالاة بان يغتر بمواظبته عن الطاعة فيعلم ان هذا كان من المعاصى لامن عدم المبالاة لان خوف عدم المبالاة لايزول قط وخوف الثانى يزول عند المواظبة على الطاعة وتوضيحه ان هذا انقسام الخائفين الى من يخاف من معصيته وجنايته والى من يخاف الله تعالى نفسه لعظمته وجلالته فهذا اعلى رتبة واعلى منزلة ولذا يبقى خوفه وان كان فى طاعة الصديقين واما الآخر فهو فى عرضة الغرور والامن ان واظب على الطاعات وداوم على العبادات فالخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله تعالى خوف الموحدين والصديقين وهو ثمرة المعرفة بالله فكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ماهو جدير بان يخاف من غير جنايته بل العاصى لوعرف الله حق معرفته لخاف الله ولم يخف من معصيته اذ لولا انه مخوف فى نفسه لما سخره للمعصية ويسرله سبيل بابها ومهدله تمام اسبابها فان تيسير اسباب المعصية ابعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها ان يسخر للمعصية وتجرى عليه اسبابها ولاسبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من تيسرت له الطاعات وتمهدت له سبل القربات فالعاصى قدقضى عليه بالمعصية شاء ام ابى فكذا المطيع حسب ماقدره الله وقضى فالذى رفع محمدا صلى الله عليه وسلم الى اعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ووضع اباجهل فى اسفل سافلين من غير جناية سبقت منه قبل شهوده جدير بان يخاف منه لصفة جلاله قال من اطاع لله اطاع بان سلط عليه ارادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الارادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضروريا والذى عصى عصى لانه سلط عليه ارادة قوية جازمة وآتاه الاسباب والقدرة فكان الفعل بعد الارادة والقدرة ضروريا فليت شعرى ما الذى اوجب اكرام هذا وتخصيصه بتسليط ارادة الطاعات عليه وما الذى اوجب اهانة الآخر وتبعيده بتسليط دواعى المعصية لديه وكيف يحال ذلك على العبد وينسب اليه واذا كانت الحوالة ترجع الى القضاء الازلى من غير جناية ولاوسيلة فالخوف ممن يقضى بما شاء ويحكم بما يريد حزم عند كل مريد طالب للمزيد (ثم) الخوف عند سكرات الموت وشدته وما بعده (اما من السؤال) فى القبر من منكر ونكير اوعند الموقف من نقير وقطمير (اوالعذاب) فى القبر اومن هول المطلع اوهيبة الموقف والحياء من كشف الستر اومن مزلة الصراط اوحدته وكيفية العبور عليه باختلاف الاحوال اوالعذاب فى النار وما فيها من الاغلال والانكال والاهوال (اوفوت الجنة) دار النعيم والملك المقيم

ونحوها

(ونحوها) من نقصان الدرجات وخوف حجاب الذات واعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب فانه اشد العذاب عند ارباب الالباب وهو خوف العارفين وماقبل ذلك هو خوف العابدين والصالحين والزاهدين وكافة المعاملين ومن لم يكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بالم البعد والفراق فاذا ذكرله ان العارف لا يخاف النار وانما يخاف الحجاب فى دار القرار وجد ذلك منكرا فى باطنه وتعجب منه فى نفسه قال ذوالنون خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت فى بحر لجى (وتختلف الآثار) للخوف بحسب اختلاف انواعه فى الاسرار (فمن خاف استيلاء العادة) فى اتباع الشهوات المألوفة بالارادة (واظب على تركها) وداوم على خلافها (ومن خاف اطلاعه تعالى) على السرائر (اشتغل بتنقية السر) وتطهير القلب من الوساوس فى الضمائر (فاعتبر) وقس على هذا مخاوف اخر وهى من خاف اغتراره بزخارف الدنيا زهد فيها ومن خاف هجوم الموت قبل التوبة بادر اليها (ويؤثر) الخوف (فى البدن بالهزالة) اى النحول باذابة اللحم والشحم (والصفرة) باللون المصحوب بالكدرة (والضعف) فى القوى (والبكاء) الصادر من الخشية (واذا كمل) الخوف (يؤدى الى الجنون) بان يصعد الى الدماغ فيفسد العقل (و) يقوى فيورث القنوط واليأس اويفضى الى (الموت) بان تنشق به المرارة (وهو) اى الموت من خوف الله (شهادة لكن الافضل من عاش وجاهد) لقوله عليه السلام طوبى لمن طال عمره وحسن عمله وقد تقدم واعلم ان معنى كونه شهيدا ان له رتبة بسبب موته من الخوف كان لاينالها لومات فى ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو بالاضافة اليه فضيلة فامابالاضافة الى بقائه وطول عمره فى طاعة الله وسلوك سبيل امره فليس بفضيلة بل للسالك لطريق الفكر والمشاهدة والترقى فى درجات المجاهدة فى كل لحظة رتبة شهيد ولذا ورد يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجح مداد العلما ولولا هذا لكان رتبة صبى يقتل اومجنون يفترسه سبع اعلى من رتبة نبى اومنزلة ولى يموت حتف انفه وهو محال والحاصل ان اقصى درجات الخوف ان يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله حتى لايبقى فيه متسع لغير الله وذلك مع بقاء الصحة والعقل فان جاوز هذا الى ازالة العقل والصحة فهو مرض يجب عليه علاجه ان كان قدرة لديه ولذا كان سهل يقول للمريدين الملازمين للجوع اياما كثيرة احفظوا عقولكم فانه لم يكن لله ولى ناقص العقل ويؤيده ما اشتهر فى لسان العامة ما اتخذ الله وليا جاهلا ولو اتخذه لعلمه وكذا يؤثر الخوف فى الجوارح فيكفها عن السيئات ويقيدها بالطاعات تلافيا لما فرط فى الماضى واستعدادا للمستقبل ولذا قيل ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه بل الخائف من يترك ما يخاف ان يعاقب عليه وقال ابو القاسم الحكيم من خاف شيئا هرب منه ومن خاف الله هرب اليه وقيل لذى النون متى

يكون العبد خائفا قال اذا نزل نفسه منزلة السقيم الذى يحتمى مخافة طول السقام (ومن غلب عليه) خوف الله (خافه كل شئ) مما سواه ولابى الشيخ ابن حبان وابن ابى الدنيا حديث من خاف الله خافه كل شئ (كما كان) هذا المقام المعمر (لعمر رضى الله عنه فورد ان الشيطان ليفر من ظل عمر) كما مر وكذا يؤثر فى الصفات بان يقمع الشهوات ويكدر اللذات فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه اذا عرف سما فيه (والاعلى) فى مراتب الخوف (ان يدهشه) الخوف ويذهله (عن الاشياء) اى رؤيتها ويغفله عما يجرى على الاعضاء من حركتها (فلم تؤثر) الاشياء (فيه) اى فى الخائف (للغيبة عنها) اى لغيبة الخائف عن الاشياء والغفلة عنها (كما كان له عليه السلام حيث قصده الشيطان وهو فى الصلوة فاحترق) اى الشيطان فاذا كان الامر كذلك (فلابد للسالك (منه) اى من الخوف هنالك (فهو) اى الخوف (بزجر النفس) ويمنعها (عن المعصية) وارتكابها (وينفى العجب) ويدفعه (عن الطاعة) واكتسابها فاقل درجات الخوف مما يظهر اثره فى الاعمال المورثة للاحوال ان يمتنع من المحظورات ويسمى الكف الحاصل منها ورعا فاذا زادت قوته كف عما يتطرق اليه امكان التحريم فيكف عما لا يتيقن ايضا تحريمه ويسمى ذلك تقوى اذ التقوى ان يترك ما يريبه الى ما لا يريبه وقد يحمله على ان يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق فى التقوى فاذا انضم اليه التجرد للخدمة فصار لا يبنى ما لا يسكنه ولا يجمع مالا يأكله ولا يصرف الى غير الله نفسا من انفاسه فهو الصدق وصاحبه جدير بان يسمى صديقا واما الخوف الذى يجرى مجرى رقة النساء كما يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وكذا عند مشاهدة سبب هائل فاذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب الى الغفلة عن خوف الرب فهذا خوف قاصر قليل الجدوى وهذا حال الناس كلهم الا العارفين والعلماء الراسخين ولست اعنى بالعلماء المترسمين برسومهم والمتسمين باسمائهم فانهم ابعد الناس عن الخوف لما فيهم من العجب والغرور بل العلماء بآيات الله وصفاته وافعاله فى مصنوعاته وذلك مما قل وعز وجوده الآن كالكبريت الاحمر فى سالف الزمان ولذا قال الفضيل اذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت فانك ان قلت لا كفرت وان قلت نعم كذبت واما الخوف المفرط وهو الذى يجاوز حد الاعتدال حتى يخرج الى اليأس والقنوط فهو مذموم ايضا لانه يمنع من العمل والمراد من الخوف هو الحمل على العمل واذا تحقق اليأس له فهو كفر منه لانه اعتقد عدم قدرته سبحانه على عفوه فى زلته (والامن) وهو ضد الخوف (كفر) ايضا لانه يدل على اعتقاد عدم قدرته وفقد ارادته على عقوبته على ذنوبه مع وجود طاعته وعبادته (فورد) فى التنزيل (فلا يامن مكر الله الآية) اى * الا القوم الخاسرون * اى الذين خسروا انفسهم واهلهم يوم القيمة بالكفر والمعصية

(والطريق) الموصل الى تحصيل الخوف شيئان (النظر فى صفاته تعالى) الجلالية كالقهار والمنتقم والجبار (وافعاله) فى مصنوعاته من معاملاته مع طوائف الكفار فمن عرف الله حق معرفته حملته معرفته على خشيته بمشاهدة عظمة الله وعزته (فورد) فى التنزيل (انما يخشى الله من عباده العلماء) لانهم العارفون بصفاته الخائفون منه بحسب ذاته (انا اعلمكم بالله واخشاكم له) حديث متفق عليه (وذكر الذنوب) السابقة (والخصوم) المتعلقين به يوم القيمة فى الاحوال اللاحقة (وشدة العذاب) بعد مناقشة الحساب (وضعف النفس) عن العقاب والحجاب (وماورد فيه) اى فى فضل الخوف من الكتاب والسنة واقوال السلف واحوالهم فى هذا الباب اما الكتاب فقوله تعالى * هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون * رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه * ولمن خاف مقام ربه جنتان * وخافونى ان كنتم مؤمنين * سيذكر من يخشى * وهم من خشية ربهم مشفقون * واما السنة فقوله عليه السلام رأس الحكمة مخافة الله رواه البيهقى فى شعبه من حديث ابن مسعود وقوله لعائشة لما قالت يا رسول الله الذين يؤتون ما اتوا وقلوبهم وجلة هو الرجل يسرق ويزنى قال لا بل هو الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف ان لا يقبل منه رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم وقوله عليه السلام ما من مؤمن تخرج من عينه دمعة وان كانت مثل رأس الذباب من خشية الله ثم تصيب شيئا من حر وجهه الا وحرمه الله على النار رواه الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن مسعود وقوله اذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة ورقها رواه الطبرانى والبيهقى فى شعبه من حديث العباس وقوله لا يلج النار احد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع رواه الترمذى وقال حسن صحيح وقوله لعقبة بن عامر حيث سأل ما النجاة يا رسول الله قال امسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك وقد تقدم وقوله ما من قطرة احب الى الله من قطرة دمع جرت من خشية الله اوقطرة دم اهريقت فى سبيل الله رواه الترمذى من حديث ابى امامة وحسنه وقوله اللهم ارزقنى عينين هطالتين تسقيان بذروف الدمع قبل ان تصير الدموع دماء والاضراس جمرا رواه ابو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر باسناد حسن وقوله سبعة يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله وذكر منهم رجلا ذكر الله فى خلوة ففاضت عيناه رواه الشيخان وعن حنظلة قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا انفسنا فرجعت الى اهلى فدنت منى المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا عليه عنده عليه السلام واخذنا فى الدنيا ثم تذكرت ما كنت فيه وقلت فى نفسى قد نافقت حين تحول عنى ما كنت فيه من الخوف والرقة فخرجت وجعلت انادى نافق حنظلة فاستقبلنى ابو بكر فقال كلا لم تنافق فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا اقول نافق حنظلة نافق

حنظلة فقال عليه السلام كلا لم ينافق حنظلة فقلت يا رسول الله كنت عندك فوعظتنا موعظة رقت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا انفسنا فرجعت الى اهلى فاخذنا فى حديث الدنيا ونسيت ما كنا عليه عندك فقال ياحنظلة لو كنتم ابدا على تلك الحالة لصافحتكم الملائكة فى الطرق وعلى فرشكم ولكن ياحنظلة ساعة فساعة رواه مسلم واما الآثار فقال ابو بكر الصديق من استطاع ان يبكى فليبك ومن لم يستطع فليتباك وكأنه اخذه من قوله تعالى * فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا * ومن قوله * يبكون ويزيدهم خشوعا * ومن قوله * افمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون * ومن قوله * خروا سجدا وبكيا * وكان محمد بن المنكدر اذا مسح وجهه ولحيته من دموعه يقول بلغنى ان النار لا تأكل موضعا مسته الدموع وقد تقدم فى الحديث مايساعده وقال عبد الله بن عمر وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا فوالذى نفسى بيده لو يعلم احدكم ما وراءه لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وقال ابو سليمان الدارانى ما تغرغرت عين بمائها من خشية الله الا لم يرهق وجه صاحبها قتر ولا ذلة يوم القيمة فان سالت دموعه انطفأ باول قطرة منها بحار من النيران ولو ان رجلا بكى فى امة ما عذبت تلك الامة وقال كعب الاحبار والذى نفسى بيده لان ابكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتى احب الى من ان اتصدق بجبل من ذهب وقال عبد الله بن عمر لان ادمع دمعة من خشية الله احب الى من ان اتصدق بالف دينار وقال فضيل من خاف الله تعالى دله الخوف على كل خير اى وحفظه عن كل شر وضير وقال الشبلى ماخفت الله يوما الا رأيت له بابا من الحكم والعبر ما رأيته قط وقال ذوالنون من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد لله حبه وصح له لبه اى عقله وقال ذوالنون ينبغى ان يكون الخوف ابلغ من الرجاء فاذا غلب الرجاء تشوش القلب وكان ابو الحسن الضرير يقول علامة السعادة خوف الشقاوة لان الخوف زمام بين الله وبين عبده فاذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الناس غدا فقال اشدهم خوفا اليوم وقال سهل لا تجد الخوف حتى تأكل الحلال وقال ابو سليمان الدارانى مافارق الخوف قلبا الاخرب (واختلف فى ان الرجاء) للعبد (افضل) من الخوف (ام الخوف) افضل له من الرجاء (والحق) من القول (عدم الانفكاك) اى انفكاك احدهما عن الآخر (اذ لو عدم احدهما لصار آمنا) عند عدم الخوف (اوقنوطا) عند عدم الرجاء فان الرجاء بلا خوف امن والخوف بلا رجاء يأس وكلاهما ممنوعان بنص القرآن فالحق الاعتدال فى غالب الاحوال وايضا فهما متلازمان لان كل من رجا محبوبا فلا بد ان يخاف فوته كما يشير اليه قوله تعالى * يدعوننا رغبا ورهبا * و * يدعون ربهم خوفا وطمعا * نعم يجوز ان يغلب احدهما على الآخر وهما مجتمعان ويجوز ان يشتغل القلب باحدهما ولا يلتفت الى الآخر فى الحال لغفلته عنه (فشرطهما) اى شرط وجودهما (عدم القطع) فى كليهما فالامن والقنوط ينافى عدم القطع

(فلا يقال ارجو طلوع الشمس واخاف هجوم الاجل) لان امرهما مقطوع فيه عادة بل يقال انتظر لفوت الشرط وهو عدم القطع نعم يقال ارجو نزول المطر واخاف انقطاعه فلا يطلق اسم الرجاء والخوف الاعلى مشكوك يتردد منه اذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف فان المحبوب الذى يجوز وجوده يجوز عدمه لامحالة فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف فالتقدير ان لامحالة يتقابلان نعم احد طرفى الشك قد يترجح بحصول بعض الاسباب ويسمى ذلك ظنا فيكون ذلك سبب غلبة احدهما على الآخر فاذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفى الخوف بالاضافة وكذا بالعكس (والرجاء افضل من حيث هو هو) اى مع قطع النظر عن صاحبه انه فى اى مقام هو من مقامات المبتدين والمنتهين من المريدين فى طريق المجتهدين او المريدين فى امر الدين (فهو) اى الرجاء (طريق المحبة) وسبيل المحبين وهو افضل المقامات واكمل الحالات (وورد سبقت رحمتى غضبى) وقد تقدم وفيه تنبيه نبيه على انه ينبغى ان يكون الرجاء اغلب على الخوف وتوضيحه ان الخوف والرجاء دواءان تداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود فان كان الغالب على القلب داء الامن من مكر الله والاغترار به فالخوف افضل وان كان الاغلب على العبد هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء افضل فبهذا الاعتبار غلبة الخوف افضل لان الاغترار اغلب على القلب وان نظر الى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء افضل لانه مستقى من بحر الرحمة ومستقى الخوف من بحر الغضب ومن لاحظ من صفات الله مايقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه اغلب وليس وراء المحبة مقام فى طلب الرب واما الخوف فمستنده الالتفات الى الصفات التى تقتضى العنف والنقمة فلا تمازجه المحبة ممازجة الرجاء (وهو) اى الرجاء (الافضل) من الخوف والمفهوم من الاحياء انه الاصلح كما فى بعض النسخ هنا ولعله المصلح وانما يكون الرجاء اولى من الخوف (ان امتنعت النفس عن التوبة لكثرة المعاصى) الموجبة لليأس والقنوط من الرحمة (او اقتصرت) النفس (على الفرائض) دون الواجبات والسنن المؤكدات (او ضعف) بالمرض والكبر (واشرف على الموت) اى قاربه الفوت فان الافضل حينئذ هو الرجاء (ليموت) بزيادة وصف الرجاء (على المحبة) الناشئة من كثرة الرجاء (والخوف) افضل واصلح واولى من الرجاء فى مقام الدواء (ان غلب التمنى واعتقاد) صاحبه (المعاصى) لقلة خوفه (والاعتدال) بين الخوف والرجاء انسب واقرب (ان اتقى ظاهر الاثم وباطنه) اى جليه وخفيه ولذا قيل لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا وروى ان عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده يابنى خف الله خوفا ترى انك لو أتيته بحسنات اهل الارض لم يقبلها منك وارج الله رجاء ترى انك لو اتيته بسيئات اهل الارض غفرها لك (ولا يعرض) من الاعراض اى ولا يعدل المتقى

المذكور من الاعتدال (بمعارضة كثرة اسباب الرجاء) من الاعمال (فكان عمر رضى الله عنه) مع كمال تقواه وكثرة اعماله لله (يقول لو لم يدخل الجنة الا واحد) من المؤمنين (ارجو ان اكون اياه) اى ذلك الرجل (ولو لم يدخل النار الا واحد) من الخلق (اخاف ان اكون اياه) وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوى فمثل عمر رضى الله عنه ينبغى ان يساوى خوفه رجاءه فاما العاصى اذا ظن انه ذلك الرجل واستثنى من دخول النار كان ذلك دليلا على مافيه من الاغترار (وتعسر التحرز) عطف بالمعنى لان الفاء فى قوله فكان عمر لتعليل المعنى فالتقدير لانه كان عمر ولتعسر الاحتراز (عن المعاصى الباطنة) ويجوز عطفه على قوله بمعارضة فيكون ما بينهما جملة معترضة وفيه جواب لسؤال مقدر وهو ان مثل عمر لاينبغى ان يساوى خوفه رجاءه بل ينبغى ان يغلب رجاؤه خوفه فاشار الى ان شروط صحة الايمان على وجه الحقيقة من الامور الدقيقة فانه لابد للقلب ان يكون نظيفا من الشرك الخفى والنفاق والرياء وخبايا الاخلاق الخبيثة فيه غامضة والآفات من الشهوات وزخارف الدنيا وما يتعلق بها من اللذات واللهوات كثيرة وان سلم القلب فى الحال عن هذه الاحوال ربما يلتفت اليها فى الاستقبال فان كان ضعيف القلب جبانا فى نفسه غلب خوفه على رجائه لامحالة كما يحكى فى احوال الخائفين فى الصحابة والتابعين وان كان قوى القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه فاما ان يغلب رجاؤه فلا ولقد كان عمر يبالغ فى تفتيش قلبه وتقلب حاله من المعاصى حتى كان يقول رحم الله من اهدى الى بعيوب نفسى واذا كان يخاف من النفاق وخصال اهله (حتى) غاية التعسر اى الى ان (كان عمر يسأل حذيفة) بن اليمان (عن وجود اثر النفاق فيه) اى عمر اذ كان حذيفة قد خصه عليه السلام بعلم المنافقين وكان يسمى صاحب سر النبى عليه السلام (واحتمال زوال الاسباب) اى ولاحتمال زوال اسباب الرجاء (فى المستقبل) من الزمان (فورد ان الرجل ليعمل عمل اهل الجنة) وفى الاحياء زيادة خمسين سنة (حتى لا يبقى بينه وبين الجنة الا شبر) قال فى الاحياء وفى رواية الا قدر فواق ناقة (فيسبق عليه الكتاب) اى المكتوب الازلى فى علم الله او المكتوب فى اللوح المحفوظ اوعند تولده فى صحائف الملائكة المؤكلة على حفظه (فيختم له بعمل اهل النار) فيدخل النار وكذا فى من يعمل عمل اهل النار والحديث رواه مسلم من حديث ابى هريرة ان الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل اهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل اهل النار وللبزار والطبرانى فى الاوسط سبعين سنة واسناده حسن وللشيخين فى اثناء حديث لابن مسعود ان احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع الحديث وليس فيه تقدير زمن العمل

بخمسين سنة ولاذكر شبر ولافواق ناقة (ثم سوء الخاتمة نعوذبالله منه) اى من سوء الخاتمة
وتغير الحالة فمن ذا يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفى والرياء فى
زوايا القلب وان اعتقد نقاء قلبه وصفاء لبه من مثله فمن يأمن مكرالله بتلبيس حاله عليه
واخفاء غيبه عنه فان وثق به فمن اين يثق ببقائه على ذلك الى تمام حسن الخاتمة التى عليه مدار
سعادة العاقبة فاذن اقصى غايات المؤمن ان يعتدل خوفه ورجاؤه اما غلبة الرجاء فى اكثر الناس
فيكون مستندا الاغترار وقلة المعرفة واين مثل عمر حتى يعتدل خوفه ورجاؤه كما مر فالخلق
الموجودون فى هذا الزمان كلهم الاصلح لهم غلبة الخوف بشرط ان لايخرجهم الى اليأس وترك
العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون سببا التكاسل من العمل وداعيا الى الانهماك فى المعاصى وطول
الامل فان ذلك قنوط وليس بخوف انما الخوف هو الذى يحث على الطاعات ويكدر جميع الشهوات
ويزعج القلب من الركون الى الدنيا وزخارف اللذات ويدعوه الى التجافى عن دار الغرور
والامنيات وهو الخوف المحمود دون حديث النفس الذى لايؤثر فى الكف عن السيئات
والحث على العبادات ودون اليأس الموجب للقنوط من رحمة خالق البريات وقد قال يحيى
بن معاذ من عبد الله بمحض الخوف غرق فى بحار الافكار ومن عبده بمحض الرجاء تاه
فى مفازة الاغترار ومن عبده بالخوف والرجاء استقام فى محجة ذوى الاستبصار وقال مكحول
النسفى من عبد الله بالخوف فهو حروري ومن عبده بالرجاء فهو مرجى ومن عبده لمجرد المحبة
فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد صديق ثم سوء الخاتمة (اما
بالشك) والتردد فى قبول الايمان (او الجحود) اى الانكار باصل الايمان ومحض الكفران
(عند النزع) اى نزع الروح حال سكرات الموت وظهور اهواله الموجبة لتغير احواله فيقبض
روحه فى حال شك القلب او جحود الرب وذلك يقتضى البعد الابد والعذاب المخلد وذلك
الشك او الجحود انما يقع (لظهور بطلان بدعة) يعتقدها فى ذاته سبحانه اوصفاته او افعاله
فى مصنوعاته او يتأولها فى آية من آياته (كان يعتقدها) اى البدعة (تقليدا) ممن هذا
حاله (اوتعويلا) اى اعتمادا (على مجادلته الكلام) اى مجادلته الخصام بما يعول عليه من اصول
علم الكلام ويغتربه مما بين الانام (فهو) اى وقت النزع (حالة الانكشاف) اى انكشاف كل
شئ على ماهو عليه كما قال تعالى * فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد * فقوله
هو علة لظهور بطلان البدعة واما قوله (واعتقاد بطلان كل ما اعتقده) فمبتدأ وقوله (اوشكه)
بالجر عطف على بطلان الثانى وقوله (لهذا) خبر المبتدأ اى واعتقاد بطلان كل المعتقدات
الصحيحة او اعتقاد شك كلها لهذا (السبب) وهو ظهور النزع اى صار هذا الظهور سببا
لاعتقاد بطلان جميع الاعتقادات الصحيحة او سببا لاعتقاد شك الجميع ويجوز كون قوله
اوشكه مرفوعا عطفا على قوله واعتقاد قيل وهو الارجح يعنى اعتقاد بطلان الجميع لهذا
السبب اوشك الجميع لهذا الباعث والاظهر عندى انه فعل ماض عطفا على اعتقده

فتأمل ثم حاصل كلامه انه جواب سؤال مقدر يترتب على قوله لظهور بطلان بدعة وتقرير السؤال فان قلت ظهور بطلانها بما يوجب الشك او الجحود فى نفسها فقط دون بقية الاعتقادات الصحيحة وسوء الخاتمة المستلزم خلود النار انما هو باعتقاد بطلان جميع الاعتقادات الصحيحة او الشك فيها كلها فكيف يتصور سوء الخاتمة بهما فى بدعة واحدة فاجيب بما تقدم وتوضيحه ان المبتدع مهما كان بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه لم يظن بنفسه انه اخطأ فى هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه الى رأيه الكاسد وعقله الفاسد بل ظن ان كل ما اعتقده لا اصل له اذ لم يكن عنده فرق بين ايمانه بالله وبرسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاداته الفاسدة الصريحة فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته اوباعثا لشكه فيها فاذا اتفق زهوق روحه فى هذه الخطرة قبل ان يثبت ويعود الى اصل الايمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشك والعياذ بالله منه فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى * وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون (وورد) فى التنزيل (قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا الآية) اى * الذين ضل سعيهم فى الحيوة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا (والمعاملة) اى لاتعارض سوء الخاتمة واراد بالمعاملة الورع والزهد وسائر الاعمال الصالحة فانها لاتكفى لدفع هذا الخطر بل لاينجى منه الا الاعتقاد الحق (والبله) جمع الابله (بمعزل عنه) اى عن خطر سوء الخاتمة فانهم هم الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر ايمانا مجملا راسخا كالاعراب والعجائز وسائر العوام الذين لم يخوضوا فى البحث والنظر العقلى استدلالا ولم يشرعوا فى الكلام استقلالا ولا اصغوا الى اصناف اهل الكلام فى تقليد آرائهم المختلفة التى تقتضى ضلالا واضلالا (ومن ثم ورد اكثر اهل الجنة البله) رواه البزار من حديث انس ولذا منع السلف الكرام من البحث والنظر والخوض فى الكلام والتفتيش عن هذه الامور بالتمام وامروا الخلق ان يقتصروا على ان يؤمنوا بما انزل الله جميعه وبكل ما جاء من الظواهر من عنده مع اعتقاد نفى التشبيه ومنعوهم عن الخوض فى التأويل لان الخطر فى البحث عن الصفات عظيم وعقباته كؤودة ومسالكه وعرة والعقول عن درك جلال الله قاصرة وهداية الله بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطربة ومتعارضة والقلوب لما القى اليها فى ابتداء النشو آلفة وبه متعلقة والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة او المأخوذة بحسن الظن من المعلمين فى اول الامر ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة وشهوات الدنيا بمخنقها آخذة وعن تمام الفكر صارفة فاذا فتح باب الكلام بالله وبصفاته بالرأى والمعقول وفى تفاوت الناس فى قرائحهم واختلافهم فى طبايعهم وحرص كل جاهل منهم على ان يدعى الكمال والاحاطة بكنه ذى الجلال انطلقت السنتهم بمايقع لكل واحد منهم وتعلق

ذلك بقلوب المصغين اليهم وتأكد ذلك بطول الالف فيهم وانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم فكانت سلامة الخلق فى ان يشتغلوا بالاعمال الصالحة ولا يتعرضوا لما هو خارج من حد طاقتهم ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان وترك كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان وهو يعتقد ان ذلك علم واستيقان وانهم صفو ايمان وعرفان ويظن ان ما قنع به من حدس وتخمين علم يقين بل عين يقين ولتعلمن نبأه بعد حين كما قيل *

* سوف ترى اذا انجلى الغبار * افرس تحتك ام حمار *

وينشد فى حق هؤلاء عند كشف الغطاء

* احسنت ظنك بالايام اذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتى به القدر *

* وسالمتك الليالى فاغتررت بها * وعند صفو الليالى يحدث الكدر *

واعلم يقينا ان كل ما فارق الايمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض فى البحث فقد تعرض لخطر سوء الخاتمة وهذا ملخص ما فى الاحياء (او) سوء الخاتمة يقع (بمعاداته تعالى) وهو من اضافة المصدر الى مفعوله (لعلمه) اى لمعرفة العبد (بتفريقه تعالى اياه) اى العبد من الدنيا (وتألم القلب) اى ولتوجعه (بفواتها) اى بفوات الدنيا ولذاتها (وكان يستولى حبها عليه) اى على قلبه (ولضعف ايمانه) بالله وبما لديه (ولا يكون من ذكره تعالى فيه الاحديث النفس) المحظور اليه (وهو) اى والحال ان قلبه (اسود من تراكم ظلام الرذائل) من سوء الاخلاق والشمائل فان اتفق زهوق روحه فى تلك اللحظة التى خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء سرمدا وهلك هلاكا مؤبدا ولا يظلم ربك احدا (فورد) فى التنزيل (قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم الآية) اى * وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بامره والله لا يهدى القوم الفاسقين (او) سوء الخاتمة يحصل (بامر دنياوى كان يحبه) العبد (فاحتجب عنه تعالى شغلا) لذلك العبد (به) اى بالامر الدنيوى (فما اعتاد وترسخ) اى ثبت (فى القلب لاينسى كما فى النوم) ويعرف هذا بمثال وهو لا يخفى عليك ان الانسان يرى فى منامه جملة من الاحوال التى عهدها طول عمره حتى انه لا يرى الا ما يماثل مشاهداته فى اليقظة فان المراهق الذى لم يحتلم لا يرى صورة الوقاع اذا لم يكن قد واقع فى اليقظة ولو بقى كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع ثم لا يخفى ان الذى مضى عمره فى التفقه يرى من الاحوال المتعلقة بالعلم والعلماء ما لا يراه التجار الذى مضى عمرهم فى التجارة والتاجر يرى من الاحوال المتعلقة باسباب التجارة اكثر مما يراه الطبيب والفقيه لانه انما يظهر له فى حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الالف والموت يشبه النوم ولذا قيل الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا ولكن الموت فوق النوم واما سكرات الموت وغشيانه فقريب من النوم فيقتضى

بذلك تذكر المألوفات من الطاعات او السيئات او اللذات والشهوات ومن هنا يخالف منامات الصالحين والطالحين وقد قيل كما تعيشون تموتون وكما تموتون تحشرون ويشير اليه قوله تعالى * كما بدأكم تعودون * وطول المواظبة على الخير وتخلية الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت وساعات الفوت فانه يموت المرء على ماعاش عليه ويحشر على ما مات لديه واذا قيل عن بقال كان يلقن عند الموت كلمة الشهادة وهو يقول خمسة ستة اربعة زيادة (وهو) اى الاحتجاب المذكور وسائر الامور (لكثرة المعاصى مع قوة الايمان اوقلتها مع ضعفه) اى لقلة المعاصى مع ضعف الايمان (وهذا) الحجاب المذكور اوالقسم المسطور من اقسام سوء الخاتمة (لا يوجب الخلود فى النار) بخلاف الاولين من اقسام سوء الخاتمة فانهما يوجبان الخلود فى دار البوار (ومن ثم) اى ومن اجل ان سوء الخاتمة يتحقق عند النزع (نكره الفجاءة) من الموت والبغتة المقتضية لبعض الفوت (لجواز اتفاقها) اى اتفاق وقوع الفجاءة (على خاطر سوء) يكون سببا لسوء الخاتمة (وتغبط الشهادة) اى يحب ويتمنى (لاستيلاء حبه تعالى) حينئذ (على القلب واعراضه من الدنيا) واقباله بكليته على الرب (وهو) اى هذا المقام (لمن يخلص) فى النية (ولا يقصد الغلبة) من اخذ البلاد وقهر العباد (والغنيمة) من الاموال النفيسة والخدام الانيسة (والصيت) بالجاه والرياء والسمعة (والعلاج) للخلاص عن سوء الخاتمة (المعرفة) التامة من العلم النافع (ولزوم الطاعة) من العمل الصالح (وتعجيل التوبة) عن المعصية (والنوم على الطهارة ظاهرا) وهو ظاهر (وباطنا) بان لايكون فى قلبه غل وغش لاحد من خلق الله فورد من بات على طهارة ثم مات من ليلته مات شهيدا رواه ابن السنى عن انس (وتنقية القلب) اى تصفيته وتخليته عن حب غير الرب (وتلاوة القرآن) غيبا ونظرا مع مراعاة المبانى وملاحظة المعانى (وطلب العلم النافع) من التفسير والحديث والفقه والتصوف (فالامر) اى امر سوء الخاتمة (صعب) اى شديد ومر (ومن ثم يروى عن السلف) من الصحابة والتابعين (كثرة النوح والبكاء) مع زيادة التضرع والدعاء فى السراء والضراء فقد قال الحسن البصرى يخرج رجل من النار بعد الف عام ياليتنى كنت ذلك الرجل وانما قال ذلك لخوف سوء الخاتمة وقال محمد بن خولة الحنفية والله لا ازكى احدا غير رسول الله ولا ابى الذى ولدنى فثارت الشيعة عليه فجعل يذكر من فضائل على ومناقبه وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام بكيا خوفا من الله عز وجل فاوحى الله اليهما لم تبكيان فقد امنتكما فقالا ومن يأمن مكرك رواه الطبرانى وغيره وكأنهما اذا علما ان الله علام الغيوب وانه لاوقوف لهما على غاية الامور لم يأمنا ان يكون قوله فقد امنتكما ابتلاء لهما وامتحانا ومكرا بهما حتى ان سكن خوفهما ظهر انه قد امنا من المكر وما وفيا

بقولهما هذا ولولا ان الله لطيف بعباده العارفين اذ روح قلوبهم بروح الرجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف فاسباب الرجاء للعارفين رحمة من الله لهم واسباب الغفلة رحمة على عموم الخلق من وجه وكان ابو الدرداء يحلف بالله ما احد امن على ايمانه ان يسلب عند الموت الاسلبه وكان سهل يقول خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وكل حركة وهم الذين وصفهم الله اذ قال * وقلوبهم وجلة * ولما احتضر سفيان جعل يبكى فقيل يا اباعبدالله عليك بالرجاء فان عفو الله اعظم من ذنوبك فقال اوعلى ذنوبى ابكى لوعلمت انى اموت على التوحيد لم ابال ان القى الله بامثال الجبال من الخطايا وفى رواية عنه انه قال بكينا على الذنوب زمانا فالآن بكينا على الاسلام وكان سهل يقول المريد يخاف ان يبتلى بالمعاصى والعارف يخاف ان يبتلى بالكفر وروى عن عيسى عليه السلام انه قال يامعشر الحواريين انتم تخافون المعاصى ونحن معاشر الانبياء نخاف الكفر وفيه تنبيه نبيه على ان خوف الانبياء اقوى وبه اشار حديث انا اخوفكم بالله والمعتقد ان الانبياء معصومون من الكفر اجماعا بحسب النقل لكنهم كانوا خائفين من جهة تجويز العقل اذ لايجب شئ على الله وان فعله اما العدل واما الفضل وقد قيل كان الخليل عليه السلام اذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا فى ميل فيأتيه جبريل فيقول له الجبار يقرؤك السلام ويقول هل رأيت خليلا يخاف خليله فيقول ياجبريل انى اذا ذكرت خطيئتى نسيت خلتى وعن الحسن لو اعلم انى برئ من النفاق كان احب الى مما طلعت عليه الشمس وقد قال الحسن ان من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب والمدخل والمخرج ومن الذى يخلص من هذه المعانى بل صارت هذه الامور مألوفة بين الناس معتادة ومنسى كونها منكرا بالكلية بل جرى ذلك على قرب عهد بزمانه عليه السلام فكيف الظن بزماننا هذا حتى قال حذيفة ان كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهده عليه السلام فيصير بها منافقا انى لاسمعها من احدكم اليوم عشر مرات رواه احمد وكان الصحابة يقولون انكم لتعملون اعمالا هى ادق فى اعينكم من الشعر كنا نعدها على عهده عليه السلام من الكبائر رواه البخارى وغيره وقال بعضهم علامة النفاق ان تكره من الناس ما تأتى مثله وان تحب على شئ من الجور وان تبغض على شئ من الحق وقيل من النفاق انه اذا مدح بشئ ليس فيه اعجبه ذلك وقال رجل لابن عمر انا ندخل على هؤلاء الامراء فنصدقهم بما يقولون فاذا خرجنا تكلمنا فيهم فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهده عليه السلام رواه احمد وسمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال ارأيت لوكان الحجاج حاضرا اكنت تتكلم بما تكلمت به قال لاقال كنا نعد هذا نفاقا على عهده عليه السلام واشد من ذلك ما روى ان

نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون فى شئ من شانه فلما خرج سكتوا حياء منه فقال تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهده عليه السلام وكان حذيفة يقول انه تأتى على القلب ساعة يمتلئ بالايمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز ابرة وتأتى عليه ساعة يمتلئ بالنفاق حتى لا يكون للايمان فيه مغرز ابرة ولعلهم ما عنوا به النفاق الذى هو ضد الايمان بل المراد به ما يجتمع مع اصل الايمان من بعض العصيان والحاصل ان العارف بين الالتفات الى السابقة والى الخاتمة اللاحقة خائفا منهما ولذا قال عليه السلام العبد المؤمن بين مخافتين بين اجل قد مضى لايدرى ما الله صانع فيه وبين اجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه فوالذى نفسى بيده ما بعد الموت من مستعتب ولابعد الدنيا من دار الا الجنة والنار ذكره البيهقى وغيره وقال عيسى عليه السلام يامعشر الحواريين خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة وتباعدان من الدنيا وبحق اقول لكم ان اكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب فى طلب الفردوس قليل ويروى عن الصديق انه قال لطائر ليتنى كنت مثلك ياطائر اولم اخلق بشرا وقال ابوذر وددت لو انى لشجرة تعضد وكذا قال طلحة وقال عثمان وددت انى اذامت لم ابعث وقالت عائشة وددت انى كنت حيضة ونسيا منسيا وروى ان عمر كان يسقط من الخوف فاذا سمع آية من القرآن خر مغشيا عليه وكان يعاد اياما واخذ يوما تبنة من الارض وقال ياليتنى كنت مثل هذه التبنة ياليتنى لم اك شيئا مذكورا ياليتنى كنت نسيا منسيا ياليت امى لم تلدنى وكان فى وجه عمر خطان اسودان من الدموع ولما قرأ عمر * اذا الشمس كورت * فانتهى الى قوله * واذا الصحف نشرت * خر مغشيا عليه ومر يوما بدار انسان وهو يصلى ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى * ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع * نزل عن حماره واستند الى حائط فمكث زمانا ورجع الى منزله فمرض شهرا يعوده الناس ولا يعرفون مرضه وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الصبح وقد علاه كآبة وهو يقلب يده لقد رأيت اصحابه عليه السلام فلم ار اليوم شيئا يشبههم لقد كانوا يصبحون صفرا شعثا غبرا بين اعينهم امثال ركب المعزى قد باتوا سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم واقدامهم فاذا اصبحوا وذكروا مادوا كما تميد الشجرة فى يوم الريح فهملت اعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم والله كأنى بالقوم باتوا غافلين يعنى من حوله ثم قام فما رؤى بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم وقال عمران بن حصين لوددت انى كنت رمادا تسفينى الرياح فى يوم عاصف وقال ابو عبيدة بن الجراح وددت انى كبش فيذبحنى اهلى فيأكلون لحمى ويحتسبون مرقى وكان على بن حسين اذا توضأ اصفر لونه فيقول له اهله ماهذا الذى يعتادك عند الوضوء فيقول اتدرون بين يدى من اريد ان اقوم وقرأ

مضر القارى يوما * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا * الآية فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشى عليه وقال وعزتك وجلالك لاعصينك جهدى ابدا فاعنى بتوفيقك على طاعتى وكان المسور بن مخرمة لايقوى على ان يسمع القرآن من شدة خوفه ولقد كان يقرأ عنده الحرف او الآية فيصيح الصيحة فما يعقل اياما حتى اتى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه * يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى جهنم وردا * فقال انا من المجرمين ولست من المتقين فقال اعد على القول ايها القارى فاعاد عليه فشهق شهقة فلحق بالآخرة وروى ان زرارة بن اوفى صلى بالناس صلاة الغدوة فلما قرا * فاذا نقر فى الناقور * خرمغشيا عليه فحمل ميتا وسئل ابن عباس عن الخائفين فقال قلوبهم بالخوف قرحة واعينهم باكية يقولون كيف نفرح والموت ورائنا والقبر امامنا والقيمة موعدنا وعلى جهنم طريقنا وبين يدى ربنا موقفنا وقال عمر بن عبدالعزيز انما جعل الله الغفلة فى قلوب العباد رحمة كيلا يموتوا من خشية الله وقال الفضيل انى لااغبط نبيا مرسلا ولاملكا مقربا ليس هؤلاء يعاتبون يوم القيمة انما اغبط من لم يخلق وروى ان فتى من الانصار دخلته خشية النار فبكى حتى حبسه ذلك فى البيت فجاء عليه السلام ودخل البيت فاعتنقه فخرميتا فقال عليه السلام جهزوا ميتكم فان الفرق من النار فتت كبده رواه ابن ابى الدنيا والبيهقى فى الشعب من حديث سهل بن سعد وقال العنبرى اجتمع اصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكى ولحيته ترجف فقال عليكم بالقرآن عليكم بالصلوة ويحكم ليس هذا زمان حديث انما هذا زمان بكاء وتضرع ودعاء كدعاء الغريق انما هذا زمان احفظ لسانك واخف مكانك وعالج قلبك وخذ ماتعرف ودع ماتنكر وقال رجل للحسن يا ابا سعيد كيف اصبحت فقال بخير فقال كيف حالك فتبسم الحسن فقال تسئلنى عن حالى ماظنك بناس قد ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل انسان منهم بخشبة على اى حال هم قال الرجل على حالة شديدة قال الحسن حالى اشد من حالهم وعن ابن السماك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلود اما فى الجنة اوفى النار وقال معاذ بن جبل ان المؤمن لا يسكن روعته حتى يخلف جسر جهنم وراءه وخلاصة الكلام فى هذا المقام ان غلبة الخوف حال الصحة اصلح ليبعثه على ترك الغفلة وغلبة الرجاء فى تلك الحالة اصلح لانه اجلب للمحبة ولذا قال عليه السلام لا يموتن احدكم الاوهو يحسن الظن بربه رواه مسلم من حديث جابر ومن هنا لما حضر الوفاة سليمان التيمى قال لابنه يابنى حدثنى بالرخص واذكرلى الرجاء حتى القى الله حسن الظن به وكذلك لما حضر الوفاة الثورى واشتدجزعه جمع العلماء حوله يرجونه وقال الامام احمد عند الموت لابنه اذكرلى الاخبار التى فيها الرجاء وحسن الظن والمقصود من ذلك ان يحبب الله

الى نفسه وان يموت مع المحبة التى هى مقام انسه رزقنا الله من فيض قدسه *

الباب التاسع عشر فى الفقر والزهد

الفقر فخر الانبياء وذخر الاولياء والزهد زاد الاتقياء وقدم الفقر على الزهد بناء على تقدم وجود اصله فى كل مخلوق ونسله كما يشير اليه قوله تعالى * والله الغنى وانتم الفقراء * والزهد عارض من جهة عدم ميله الى الغنى المضر لوصول نيله (بسم الله الرحمن الرحيم) افتقر الى غنى ربى الكريم وازهد عن غير لقاء مولاى العظيم (والفقر) عند الصوفى (فقد ما يحتاج اليه) فى ظن الفاقد مما لديه اما فقد مالاحاجة اليه فلا يسمى فقرا وان كان المحتاج اليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج اليه فقيرا واذا فهمت هذا لم تشك فى ان كل موجود سوى الله سبحانه فهو فقير لانه محتاج الى دوام الوجود فى ثانى الحال ودوام وجوده مستفاد من فضل الله وجوده وان كان فى الوجود موجود ليس وجوده مستفادا له من غيره فهو الغنى المطلق ولايتصور ان يكون مثل هذا الموجود الا واحد فليس فى الوجود الاغنى واحد وكل ماعداه محتاج اليه فى ايجاده وامداده والى هذا الحصر اشير فى قوله تعالى * والله الغنى وانتم الفقراء * وهذا معنى الفقر مطلقا ولكن المراد هنا بيان الفقر من المال على الخصوص والافقر العبد بالاضافة الى اصناف حاجاته لاينحصر (فان فرح) السالك (بالفقد) المذكور او بحصول ما يحتاج اليه (وكره الزائد على الضرورة) فيما لديه (فزاهد) اى فهو زاهد وهذه الحالة حالة عليا (وان لم يكره الزائد على الضرورة كراهة يتأذى بوصوله (ولم يرغب) فى الزايد على الضرورة رغبة يفرح بحصوله (فراض) اى فاسمه راض ورب راغب فى المال لا يخطر بقلبه انكار على الله ولا كراهة فى فعل مولاه فتلك الكراهة هى التى يحبط ثواب الفقر فى عقباه (وورد يامعشر الفقراء) اى جماعتهم (اعطوا الله الرضاء من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم) وتتمة الحديث والافلا رواه الديلمى عن ابى هريرة ويكاد مفهوم الحديث يشعر بان الحريص لا ثواب له على فقره لكن العمومات الواردة فى فضل الفقر والقناعة والزهد تدل على ان له ثوابا فلعل المراد بعدم الرضاء هو الكراهة بفعله سبحانه فى حبس الدنيا عنه (وان ترك الطلب) اى طلب الزائد على الضرورة وهو قادر على طلبه ولكن تركه (مع الوجود) اى وجود المال الزائد (عنده احب) من عدم وجوده لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ رغبته ان يكون من طلبته بل ان اتاه عفوا عفوا اخذه وفرح به وان افتقر الى تعب فى طلبه لم يشتغل به (فقانع) اى فيقال له قانع اذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك طلب المفقود مع ما فيه من الرغبة الضعيفة فى الوجود (وان رغب) فى الزائد لو وجد سبيلا الى طلبه ولو بالتعب لطلبه (وتركه للعجز) اى وترك

الطلب

الطلب لعجزه عن طلبه اوهو مشغول بالطلب وتعبه (فحريص) اسمه (وان اضطر اليه)
اى افتقر الى ما يحتاج اليه (وفقده) وفقده ضرر عليه كالجائع الفاقد للخبز والعارى
الفاقد للثوب (فمضطر) وصفه كيف ما كانت رغبته فى الطلب ضعيفة اوقوية وقل ما
ينفك صاحب هذه الحالة عن الرغبة فى الجملة (والاعلى) من الفقر او من الزهد او اعلى
الاحوال الخمس (تسوية الوجود) اى وجود ما يحتاج اليه من المال (والعدم) اى وفقد ما
يحتاج اليه فان وجده لم يفرح من ثباته ولم يتأذ من اتيانه وان فقده كذلك
كحال عائشة اذ اتاها مائة الف درهم من العطاء فاخذته وفرقته من يومها فقالت خادمتها
لو ابقيت منها درهما نشترلنا به لحما نفطر به فقالت لو ذكرتنى فعلت فمن هذا حاله
لو كانت الدنيا بحذافيرها فى يده وخزائنها فى تصرفه لم تضره اذهو يرى الاموال من جملة الخزائن
الملك المتعال لافى يد نفسه فلا يفرق بين ان تكون فى يده او فى يد غيره وقد حملت خزائن الارض
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى ابى بكر وعمر فاخذوها ووضعوها فى مواضعها ولم يكن
عندهم فرق بين الماء والمال فى كل الحال (فهو استغناء دون الغنى) المطلق (لاختصاصه)
اى الغنى المطلق (به) اى بالحق (تعالى) شانه وينبغى ان يسمى صاحبه المستغنى لانه
غنى عن فقد المال ووجوده جميعا وقد يقال له غنى بغنى مولاه لخبر ليس الغنى عن
كثرة العرض انما الغنى غنى النفس ثم هذا العبد وان استغنى عن المال وجودا وعدما
لم يستغن عن اشياء اخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله ليبقى استغناؤه الذى
زين الله تعالى به قلبه فان القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حر والله تعالى
هو الذى اعتقه من هذا الرق فهو محتاج الى دوام هذا العتق والقلوب مقلبة بين الرق
والحرية فى اوقات متقاربة لانها بين اصبعين من اصابع الرحمن فلذا لم يكن اسم الغنى
مطلقا عليه مع هذا الكمال الا مجازا (وهو) اى الاستغناء (المراد بما ورد) من الكتاب
والسنة (فى فضل الفقر) والفقراء كقوله تعالى * للفقراء المهاجرين * الآية * و * للفقراء
الذين احصروا * الآية ساق الكلام فى معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم
بالهجرة والاحصار وكقوله عليه السلام لبلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا رواه الحاكم
من حديث بلال والطبرانى من حديث ابى سعيد بلفظ مت فقيرا ولا تمت غنيا وقوله
تدخل فقراء امتى الجنة قبل اغنيائهم بخمسمائة عام رواه الترمذى من حديث ابى هريرة
وقال حسن صحيح وقوله الفقر ازين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس رواه
الطبرانى من حديث شداد بن اوس وقوله اطلعت فى الجنة فرأيت اكثر اهلها الفقراء
واطلعت فى النار فرأيت اكثر اهلها الاغنياء رواه احمد من حديث عبد الله بن عمرو
باسناد جيد وللشيخين من حديث اسامة بن زيد قمت على باب الجنة فاذا عامة من دخلها

المساكين واذا اصحاب الجد محبوسون وقوله تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر رواه محمد بن
حنيف الشيرازى فى شرف الفقر والديلمى من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به
وقوله آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان لمكان ملكه وآخر اصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن
بن عوف لاجل غناه وفى رواية رأيته دخل الجنة زحفا وللديلمى عن ابى الدرداء مرفوعا
اوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ياموسى اذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار
الصالحين واذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته وروى ان عيسى عليه السلام
مرفى سياحته برجل نائم ملتف فى عباءة فايقظه وقال يانائم قم فاذكر الله فقال ماتريد
منى انى قد تركت الدنيا لاهلها فقال له فنم اذن حبيبى ثم وقال موسى عليه السلام
يارب من احباؤك من خلقك حتى احبهم فقال كل فقير فقير فيحتمل ان يكون الثانى
تاكيدا وان يكون المراد به شديد الفقر وكان عيسى عليه السلام احب الاسامى اليه ان
يقال له يامسكين ولابى الشيخ من حديث انس يقول الله عز وجل يوم القيمة ادنوا منى
احبائى فيقول الملائكة ومن احباؤك فيقول فقراء المسلمين فيدنون منه فيقول اما انى لم
ازو الدنيا عنكم بهوان كان بكم ولكن اردت بذلك ان اضعف لكم كرامتى اليوم
فتمنوا على ماشئتم ولابى نعيم فى الحلية من حديث الحسين بن على اتخذوا عند الفقراء
ايادى فان لهم دولة يوم القيمة وللطبرانى من حديث ابى امامة دخلت الجنة فسمعت
حركة امامى فنظرت فاذا بلال فنظرت الى اعلاها فاذا فقراء امتى واولادهم ونظرت
فى اسفلها فاذا فيهم الاغنياء والنساء قليل فقلت يارب ماشأنهم قال اما النساء فاضرتهن
الاحمران الذهب والحرير واما الاغنياء فاشتغلوا بطول الحساب فتفقدت اصحابى فلم
ار عبد الرحمن بن عوف ثم جاءنى بعد ذلك وهو يبكى فقلت ما خلفك عنى فقال اما
والله يارسول الله ماخلصت اليك حتى لقيت المشيبات فظننت انى لا اراك قلت لم قال
كنت احاسب بمالى ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ الا اخبركم عن ملوك الجنة
قالوا بلى يا رسول الله قال كل ضعيف مستضعف ذى طمرين لايؤبه به لو اقسم على الله
لابره وللحاكم والترمذى من حديث عائشة انه عليه السلام قال لها ان اردت اللحوق
بى فعليك بعيش الفقراء واياك ومجالسة الاغنياء ولا تنزعى درعك حتى ترقعيه وعن
ابن عباس ملعون من اكرم بالغنى واهان بالفقير وقال لقمان لابنه لاتحقرن احدا لخلقان
ثيابه فان ربك وربه واحد وقال يحيى بن معاذ حبك للفقراء من اخلاق المرسلين
وايثارك لمجالستهم من علامات الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين وقال
المؤمل ما رأيت الغنى اذل منه فى مجلس الثورى ولا رأيت الفقير اعز منه فى مجلس الثورى
وللدار قطنى وغيره من حديث ابن عمر ان لكل شىء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين
والفقراء الصبرهم جلساء الله يوم القيمة وفى الصحيحين من حديث ابى هريرة اللهم اجعل

رزق آل محمد قوتا وفى رواية لمسلم كفافا ولابن ماجه من حديث انس ما من احد غنى ولا فقير الاود يوم القيمة انه كان اوتى قوتا فى الدنيا وللديلمى يقول الله تعالى يوم القيمة اين صفوتى من خلقى فيقول الملائكة ومن هم يا ربنا فيقول فقراء المسلمين القانعين بعطائى الراضين بقضائى ادخلوهم الجنة فيدخلونها ويأكلون ويشربون منها والناس فى الحساب يترددون (اما ما ورد اعوذ بك من الفقر) كما للنسائى من حديث ابى سعيد الخدرى انه عليه السلام كان يقول اعوذ بالله من الكبر والفقر وفى رواية للحاكم من الفقر والكفر (ونحوه) من حديث كاد الفقر ان يكون كفرا وقد تقدم (فمحمول على الاضطرار) بلا انضمام زهد فى الاختيار وهو ان يضطر الى الشئ ويفقده لان هذه الحالة لاشك انها مشوشة اومحمول على فقر القلب فعن ذى النون اقرب الناس الى الكفر ذوفاقة لاصبرله وفى الجملة كل ما هو شاغل عن المولى فهو شؤم فى الدنيا والاخرى ومن هنا ورد اعوذ بك من شر فتنة الفقر وشر فتنة الغنى فان الفقر يكون منسيا كما ان الغنى يكون مطغيا هذا وسنذكر فضل الزهد فى محله الآتى واما الآثار فى الرضاء والقناعة فكثيرة منها قول عمر رضى الله عنه ان الطمع فقر واليأس غنى وانه من يئس عما فى ايدى الناس وقنع بما فى يده استغنى عنهم وفى دعائه عليه السلام اللهم قنعنى بما رزقتنى وبارك لى فيه وقد قيل فى القناعة *

اضرع الى الله لا تضرع الى الناس * واقنع بيأس فان العز فى الياس

واستغن عن كل ذى قربى وذى رحم * ان الغنى من استغنى عن الناس

وقال ابن مسعود ما من يوم الا وملك ينادى من تحت العرش يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك وقال ابو الدرداء ما من احد الا وفى عقله نقص وذلك انه اذا اتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا والليل والنهار دائبين فى هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص وقيل لبعض الحكماء ما الغناء فقال قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك ومر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبقلا فقال له يا ابا عبد الله ارضيت من الدنيا بهذا فقال افلا ادلك على من رضى بشر من هذا قال بلى قال من رضى بالدنيا عوضا عن العقبى وروى ان الله عز وجل قال فى بعض الكتب المنزلة يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها الا القوت فاذا انا اعطيتك منها القوت وجعلت حسابها الى غيرك فانا محسن اليك (واختلف فى ان الفقر) مع الصبر (افضل) من الغنى مع الشكر (ام الغنى) مع الشكر افضل من الفقر مع الصبر فذهب الجنيد والخواص والاكثرون الى فضل الفقر وخالفهم ابن عطاء كما تقدم وقد استدل عليه بان الغنى وصف الحق واجيب بان غناه سبحانه ليس بالاسباب فانقطع ولم ينطق فى هذا الباب واجيب ايضا بان التكبر من صفات الحق فينبغى ان يكون افضل من التواضع ثم قيل بل هذا يدل على ان الفقر افضل لان صفات العبودية

افضل للعبد كالخوف والرجاء وصفات الربوبية لاينبغى ان ينازع فيها لما ورد الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى فيهما قصمته وقال سهل حب العز والبقاء شرك فى الربوبية ولا منازعة فيهما لانهما من صفات الله قلت ويشير اليه قوله تعالى * والله الغنى وانتم الفقراء * ثم التحقيق ان الفقر والغنى اذا اخذا مطلقا لم يشك من قرأ الاخبار والآثار فى تفضيل الفقر وانما يتصور التردد فى مقامين احدهما فقير صابر ليس بحريص على الطلب بل هو قانع وراض بالاضافة الى غنى ينفق ماله فى الخيرات ليس حريصا على امساك المال وثانيهما فقير حريص مع غنى حريص اذ لايخفى ان الفقير القانع افضل من الغنى الحريص الممسك وان الغنى المنفق ماله فى الخير خير من الفقير الحريص اتفاقا واما الاول فربما يظن ان الغنى افضل من الفقير لانهما تساويا فى ضعف الحرص على المال والغنى متقرب بالخيرات والفقير عاجز عنه وهذا هو الذى ظنه ابن عطاء فى غالب الظن فاما الغنى المتمتع بالمال وان كان فى مباح فلا يتصور ان يفضل على الفقير القانع وقد يشهد له ماسيأتى من سؤال الفقراء عما يوهم ترجيح الاغنياء (والحق الاختلاف بحسب الاشخاص) بل وتفاوت الاحوال كما يشير اليه قوله تعالى * ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا * وفى الحديث القدسى ان من عبادى من لا يصلحه الا الفقر ولو اغنيته لفسد حاله وان من عبادى من لا يصلحه الا الغنى ولو افقرته لفسد حاله وفى دعائه عليه السلام اللهم وسع لى رزقى عند كبر سنى ومن هنا قيل التسليم اسلم ومقام الرضاء اتم والله اعلم ويؤيده قوله تعالى * عسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لاتعلمون (فالفضل) اى زيادة الفضيلة (بقدر الفراغ عن الشواغل) اى الموانع عن تحصيل الفضائل (والدنيا انما حذر عنها) اى عن حبها (للشغل عنه تعالى) بسببها وتوضيحه ان مالا يراد بعينه بل يراد لغيره فينبغى ان يضاف الى مقصوده اذ به يظهر فضله والدنيا ليست محذورة لعينها بل لكونها عائقة عن الوصول الى الله ولا الفقر مطلوب لعينه ولكن لان فيه فقد العائق عن الله سبحانه (وكم من فقير شغلته) الدنيا وحبها وكسبها وصرفه الفقر عن المقصد كاكثر ابناء الدنيا (وكم من غنى لم تشغله) الدنيا ولو اكثر فى مالها وجاهها (كسليمان عليه السلام) وداود وابراهيم (وعبد الرحمن بن عوف) وعثمان بن عفان وذلك لان غاية المقصد فى الدنيا هو حب الله والانس به ولايكون ذلك الا بعد معرفته وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن والفقر قد يكون من الشواغل كما ان الغنى قد يكون من الشواغل كما يشير اليه قوله عليه السلام اعوذ بك من شر فتنة الفقر وشر فتنة الغنى كما تقدم وانما الشاغل على التحقيق حب الدنيا ولا يجتمع معه حب المال فى القلب والمحب للشئ مشغول به سواء كان فى فراقه اوفى وصاله وربما يكون شغله فى الفراق اكثر وربما يكون فى الوصال اكثر والدنيا معشوقة للغافلين فالمحروم عنها مشغول بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع

بها (اما فى حق الاكثر فالفقر) افضل (اذ هو ابعد عن الخطر) فى الشغل عن المولى (والانس) اى وعن الاستيناس (بالدنيا والقدرة) اى وعن القوة (على الشهوة) اذ فتنة السراء اشد من فتنة الضراء ومن العصمة ان لا تقدر ولذا قال الصحابة بلينا بفتنة الضراء فصبرنا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر ومن هنا قال عيسى عليه السلام لا تنظروا الى اموال اهل الدنيا فان بريق اموالهم يذهب بنور ايمانكم وفى الخبر ان لكل امة عجلا وعجل هذه الامة الدينار والدرهم رواه الديلمى من طريق ابى عبد الرحمن السلمى من حديث حذيفة وكان اصل عجل قوم موسى عليه السلام من حلية الذهب والفضة ايضا فاستواء المال والماء والذهب والحجر انما يتصور للانبياء والاولياء ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله بطول المجاهدة هناك اذ كان عليه السلام يقول للدنيا اليك عنى اليك عنى اذ كانت تتمثل له بزينتها رواه الحاكم وكان على كرم الله وجهه يقول يا صفراء غيرى غيرى يا بيضاء غيرى غيرى وذلك لاستشعاره فى نفسه ظهور مبادى الاغترار بها لولا ان رأى برهان ربه (الا فى المضطر) فليس الفقر افضل فى حقه (لانه) اى المضطر (يموت جبرا) اى خاليا عن الخير قهرا وقد يكون ذلك كفرا (والواجد) بالنصب عطفا على الضمير وبالرفع على انه مبتدأ خبره (بحصل المعرفة) والجملة حال (الا من) استثناء من المستثنى اى المضطر (لايتوب عن المعاصى فالموت خير له) اى فالفقر الموجب للموت خير له اذ يقل معاصيه فى الدبار ويتخلص هو عن الم الاضطرار (وكذا فى نفس الامر) اى وكما ان الفقر افضل فى حق الاكثر فكذا هو افضل فى نفس الامر (ورد اللهم احينى مسكينا وامتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين) رواه الترمذى من حديث انس وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث ابى سعيد وفيه مبالغة عظيمة فى مدح المساكين حيث لم يقل واحشرهم فى زمرتى وهو اما تواضع منه عليه السلام واما اراد بهم الانبياء والمرسلين لان غالبهم كانوا فقراء ومساكين وفى رواية للترمذى زيادة يوم القيمة فقال عائشة لم يا رسول الله قال انهم يدخلون الجنة قبل اغنيائهم باربعين خريفا (بلغ عنى) خطاب منه عليه السلام لمن جاء برسالة (الفقراء) من اصحابه الكرام والمعنى اخبر عن قبلى الفقراء تسلية لهم حيث ما جعلوا اغنياء (ان لمن صبر) على الفقر (واحتسب) اى طلب من الله الاجر (منكم) ومن امثالكم (ثلاث خصال) مختصة لكم (ليست للاغنياء) واحدة منها فضلا عن جميعها (اما الخصلة الواحدة فان فى الجنة غرفا) اى قصورا عالية (ينظر اليها اهل الجنة كما ينظر اهل الارض الى نجوم السماء لا يدخلها الا نبى فقير او شهيد فقير او مؤمن فقير) وهو من لا يكون صاحب نصاب (والثانية يدخل الفقراء الجنة قبل الاغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام) وهذه الجملة رواه الترمذى من حديث ابى هريرة وصححه (والثالثة اذا قال الغنى سبحان الله والحمد لله ولا اله الا

الله والله اكبر وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغنى بالفقير وان انفق معها عشرة آلاف درهم وكذلك اعمال البر كلها لمن جاء) متعلق ببلغ عنى اى قال النبى عليه السلام لمن جاء (برسالة الفقراء ان الاغنياء) يجوز فتح ان وكسرها (يحجون ويعتمرون ويتصدقون) بفضول اموالهم (ونحن عاجزون عن ذلك) فى تمام احوالهم وفى الاحياء روى فى الخبر ان الفقراء شكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الاغنياء بالخيرات (والصدقات) والحج والجهاد فعلمهم كلمات فى التسبيح وذكر لهم انهم ينالون بها فوق ما نال الاغنياء فعلم الاغنياء بذلك فكانوا يقولونه فعادوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروه فقال عليه السلام ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء قال مخرجه متفق عليه من حديث ابى هريرة ونحوه انتهى وقال فى الاحياء ايضا وقد استشهد ابن عطاء بهذا ايضا قال وفيه نظر لان الخبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك وهو ان ثواب الفقير فى التسبيح يزيد على ثواب الغنى وان فوزهم بذلك الثواب هو * فضل الله يؤتيه من يشاء * فقد روى زيد بن اسلم عن انس قال بعث الفقراء رسولا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انى رسول الفقراء اليك فقال مرحبا بك وبمن جئت من عندهم جئت من عند قوم احبهم الله قال قالوا يارسول الله ان الاغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا نقدر عليه ويعتمرون ولا نقدر عليه واذا مرضوا بعثوا بفضل اموالهم ذخيرة لهم فقال عليه السلام بلغ عنى الفقراء الحديث قال مخرجه لم اجده هكذا بهذا السياق والمعروف فى هذا المعنى ما رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر اشتكى فقراء المهاجرين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل الله به عليهم اغنياءهم فقال يامعشر الفقراء الا ابشركم ان فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل اغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام (ولان) عطف على ورد فهو دليل ثان على ان الفقراء افضل فى نفس الامر وذلك لان (الغنى سبب طول الحساب) وهو نوع من العذاب ولذا قال ابو الدرداء ما احب ان لى حانوتا على باب المسجد ولا تخطئنى صلوة ولا ذكر واربح كل يوم اربعين دينارا واتصدق بها فى سبيل الله قيل وما تكره قال سوء الحساب ومن هنا قال شقيق اختار الفقراء ثلاثة اشياء راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب واختار الاغنياء ثلاثة اشياء تعب النفس وشغل القلب وشدة الحساب (والغرور) اى وسبب طول الغرور فى الامور الموجب للحجاب فقد قال بعض السلف مثل من تعبد وهو فى طلب الدنيا كمثل من يطفئ النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك وقال ابو سليمان الدارانى تنفس فقير فى شهوة لا يقدر عليها افضل من عبادة غنى الف عام وعن الضحاك قال من دخل السوق فرأى شيئا يشتهيه فصبر واحتسب كان خيرا له من الف دينار ينفقها كلها فى سبيل الله عز وجل وقال رجل لبشر بن الحارث ادع الله لى فقد اضرنى العيال

فقال

فقال اذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لى فى ذلك الوقت فان دعاءك افضل من دعائى وكان يقول مثـل الغنى المتعبد مثل روضة على مزبلة ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر على جيد الحسناء وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الاغنياء (فان عورض) ماذكر من ادلة تفضيل الفقر على الغنى (بان الغنى صفته تعالى والتخلق باخلاقه مندوب اليه) كما ورد تخلقوا باخلاق الله (وبان الغنى قادر على العبادات المالية) من الزكوة والحج والعمرة (دون الفقير) اى بخلافه (لم يعترض) اى لم يقبل اعتراضه فى الامرين فهمـالف ونشرهما مرتبا قوله (لان الغنى بالاسباب والاعراض) الواقعة من غير الاكساب (ليس من خلقه) اى صفته (تعالى كالتكبر) بهما (دون استحقاق) للغنى والكبرياء وذلك لان الله غنى بذاته لابما يتصور زواله والتكبر لايليق بالعبد لانه من خاصة صفاته اللائقة بذاته كما اوضحناه فيما تقدم (والعبادة) اى ولان العبادة (المالية انما توجب الثواب) فى العقبى (لترك الدنيا) للاشتغال بخدمة المولى (كالتوبة) فى الدنيا توجب المثوبة فى الاخرى (لترك الذنب) اى مخافة المولى (فلوفضل الغنى على الفقير) بهذا الاعتبار (لفضل العاصى على المتقى) اى الطايع من الابرار وهو لايصح عند اولى الاستبصار (وحقه) اى حق الفقير الواجب عليه عشرون حقا (ان لايكرهه) اى الفقر (من حيث انه فعله تعالى) شرعا وان كان كارها للفطر طبعا كالمحجوم يكون كارها للحجامة ولا يكره فعل الحجام الا كارها للحجامة (بل) ربمـا (يتقلد منه) سبحانه (المنة تقلد المحجوم) اى كتقلده المنة (من الحاجم) ثم عدم الكراهة من هذه الحيثية واجب ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر وهذا معنى قوله (والاياثم) اى وان لم يحبه من حيث انه فعله تعالى يأثم لعدم الرضاء بالقضاء وهو واجب على العباد شرعا وان كان الفقر مكروها عنده طبعا وارفع من هذا المقام ان لا يكون كارها للفقر بل يكون راضيا به وارفع منه ان يكون طالبا له وفرحا به لعلمه بغوائل الغنى ويكون متوكلا فى باطنه على الله تعالى واثقا به فى قدر ضرورته ان يأتيه الرزق لامحالة عند المولى ويكون كارها للزيادة على الكفاف وقد قال على كرم الله وجهه ان لله عقوبات للفقر ومثوبات بالفقر فمن علامة الفقر اذا كان مثوبة ان يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على فقره ومن علامته اذا كان عقوبة ان يسوء عليه خلقه ويعصى ربه ويكثر الشكاية والتسخط بالقضاء وهذا آداب باطنه مع ربه (ويستر) اى وحق الفقير فى ادب ظاهره ان يستر (امره) ويكتم فقره ويستر ايضا سره فقد قـال بعضهم ستر الفقر من كنوز البر وروى من كنوز البر كتمان المصائب (بالتجمل) اى باظهار الجمال كأنه صاحب المال كما قال صاحب هذا الحال * واذا تصبك خصاصة فتجمل *

وقال سفيان افضل الاعمال التجمل عند شدة الاحوال (والتعفف) عن السؤال واظهار الحال وقد وصف الله اصحاب الصفة من كمل الرجال بقوله (يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف) اى اظهار العفةمال المحنة (فوردان الله يحب الفقير المتعفف ابا العيال) رواه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين (ولا يتواضع) اى وحق الفقير ان لايتواضع (لغنى) بالمال (للغنى) اى لاجل ماله من المال المستغنى عن طلب الكمال من العلوم والاعمال (فورد فيه) اى فى ذمه من تواضع لغنى لاجل غناه (ذهب ثلثا دينه) رواه البيهقى وغيره وروى الديلمى من حديث ابى ذر بلفظ لعن الله فقيرا تواضع لغنى من اجل ماله من فعل ذلك منهم فقد ذهب ثلثا دينه انتهى وذلك لان آلة العبادة قلب ولسان وجوارح وفى تعظيم الغنى لابد من استعمال اللسان والجوارح وفيه تنبيه نبيه على انه لوعظمه بقلبه ذهب كل دينه (بل) حق الفقيران (يترفع عليه) اى على الغنى استغناء بربه الغنى المغنى (فورد انه) اى التكبر على الغنى المتكبر (صدقة) اى ثوابه صدقة اوصدقة من صدقات الفقير تدل على صدقه فى باب الفقر وفى رواية ته مع التاهى فانه صدقة وعن على كرم الله وجهه ما احسن تواضع الغنى للفقير رغبة فى ثواب الله واحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله فهذه رتبة واقل منهـا ان لا يخالط الاغنياء ولا يرغب فى مجالستهم لان ذلك مبادى الطمع قال الثورى اذا خالط الفقير الاغنياء ورغب فى مجالستهم فاعلم انه مراء واذا خالط السلطان فاعلم انه لص وقال بعض العارفين اذا مال الفقير الى الاغنياء انحلت عروته فاذا طمع فيهم انقطعت عصمته واذا سكن اليهم ضل سعيه ومحنته (ولايتوانى) اى وحقه ان لايفتر عن الطاعة ولا يتكاسل (فى العبادة) بسبب فقره وقلة صبره (ويتصدق بالفاضل) اى وحقه ان لايمنع ما يفضل عنه من حاجته كطعام يقيم صلبه وثـوب يوارى عورته ويـدفع عنه حره وبرده وبيت يكـنه ويستره فـان ذلك جهد المقل وفضله اكثر من اموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى (فورده فيه) اى فى حقه (ان درهمـــا) من الفقير (افضل من مـائة الف) اى مائة الف درهم من الغنى وفى رواية سبق درهم مـــائة الف درهم وعن ابى هريرة قـــال عليه السلام درهم من الصدقة افضل عند الله من مـــائة الف قيل وكـيف يارسول الله قال اخرج رجل من عرض ماله مـائة الف درهم فتصدق بهـا واخرج رجل درهما من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم افضل من صاحب المائة الالف رواه النسائى (ويستقرض) اى وحقه ان يستقرض (تحسينا للظن به تعالى) ان يقضيه من خزائن كرمه وجوده (لاتعويلا) اى اعتمادا (على السلطان الظالم) واعوانه وجنوده (فيقضى) دينه بنفسه (ان وجد حلالا) بعده

والا

(والا) اى وان لم يجد حلالا فلا يأخذه فانه حينئذ (يقضيه تعالى) فى الدنيا (ويرضى الخصماء) فى العقبى اما بفضله او بعدله بان يعطى الخصم منزلة يرضى بها عن حقه (ويكشف الحال) اى وان يظهره ولايخفيه (عن المقرض) لئلا يدخل تحت وعيد من غشنا فليس منا (ولايخدع) اى وان لايخدع المقرض (بالمواعيد) الكاذبة (ويجب القضاء) اى قضاء دين الفقير حيث صرفه فى الطاعات (من بيت المال) الموضوع لمهمات المسلمين من الملمات (والصدقات) اى الزكوة (ولا يسأل) اى وحقه ان لايسأل عن الناس اصلا (فهو) اى السؤال عن الخلق (فى الاصل) اى اصل وضع الشرع (حرام) وانما يحل لعوارض تشرع من ضرورة اوحاجة مهمة قريبة من الضرورة فان كان عنها بد فهو حرام وانما كان الاصل فيه التحريم لثلاثة امور محرمة (لتضمنه الشكاية منه تعالى) اذ السؤال اظهار للفقر وفقد للمال وذكر لقصور نعمة الله عنه فى الحال وهو عين الشكوى عن المولى وكما ان العبد المملوك اذا سأل غير سيده كان سؤاله تشنيعا على مالكه فكذا سؤال العبد تشنيع على ربه سبحانه وهذا ينبغى ان يحرم ولا يحل الا لضرورة كما لا تحل الميتة الا لضرورة (واذلال النفس) اى ولتضمنه اهانة النفس (المؤمنة لغيره) سبحانه وقد قيل السؤال ذل ولو ابن الطريق وورد لايحل لمؤمن ان يذل نفسه يعنى لغير الله بل عليه ان يذل نفسه لمولاه فان فيه العزة والجاه فقد قال تعالى * ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين * فاما سائر الخلق فانهم عباد امثاله فلا ينبغى ان يذل لهم الا لضرورة فى احواله ففى السؤال ذل السائل بالاضافة الى المسؤل ومن دعاء الامام احمد اللهم كما صنت وجهى من سجود غيرك فصن وجهى عن مسألة غيرك (وايذاء المسؤل) اى ولتضمنه ايذاءه غالبا لانه ربما لاتسمح نفسه بالبذل من طيب قلب منه (فربما يعطى حياء) من السائل او رياء اذا كان السؤال فى المحافل فهو حرام على الآخذ وان منع ربما استحيى وتأذى فى نفسه بالمنع اذ يرى نفسه فى صورة البخلاء ففى البذل نقصان ماله وفى المنع نقصان جاهه وكلاهما مؤذيان والسائل هو السبب فى الايذاء والايذاء حرام الالضرورة (فورد) فى كون السؤال فى الاصل حراما (ما احل من الفواحش غير مسألة الناس) ولفظ الاحياء مسالة الناس من الفواحش ما احل من الفواحش غيرها قال مخرجه لم اجد له اصلا انتهى فورد من سأل عن غنى فانما يستكثر من جمر جهنم ومن سأل وله مال يغنيه جاء يوم القيمة ووجهه عظم يتقعقع ليس عليه لحم رواه ابوداود وابن حبان من حديث سهل بن الحنظلية ولمسلم من حديث ابى هريرة من سال الناس اموالهم تكثرا فانما يسأل جمرا وللشيخين من حديث ابن عمر ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيمة وليس فى وجهه مزعة لحم ولاصحاب السنن من حديث ابن مسعود من سأل وله ما يغنيه كانت مسألته

خدوشا وكدوحا فى وجهه ولمسلم من حديث عوف بن مالك الاشجعى انه عليه السلام بايع قوما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفية ولاتسألوا الناس شيئا ولقد كان بعضهم يقع السوط من يده فلينزل عن فرسه ويتناوله ولابن ابى الدنيا وغيره من حديث ابى سعيد الخدرى من سألنا اعطيناه ومن استغنى اغناه الله ومن لم يسألنا فهو احب الينا وللبزار والطبرانى من حديث ابن عباس استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك واسناده صحيح وفى رواية فتغتنموا ولو بحزم الحطب فهذه الاحاديث صريحة فى تحريم السؤال الا للفقير قال فى الاحياء وتقديره عسير اذ ليس اليناموضع التقدير بل يستدرك ذلك بالتوقيف والتقرير وقد ورد فى الحديث استغنوا بغنى الله تعالى عن غيره قالوا وما هو قال غداء يوم وعشاء ليلة كذا فى الاحياء قال مخرجه هو من حديث سهل بن الحنظلية قالوا ما يغنيه قال ما يغديه او يعشيه ولاحمد من حديث على باسناد حسن قالوا وما ظهر غنى قال عشاء ليلته وهذا هو المختار من مذهبنا الحنفية وفى حديث آخر من سأل وله خمسون درهما اوعدلها من الذهب فقد سأل الحافا وفى لفظ آخر اربعون درهما ولعل هذه الاحاديث محمولة على حالة احتياج السائل لغير الاكل من الثوب اوالبيت ونحوهما من ضروريات معيشته وقيل يجوز للسائل ان يسأل معيشته سنة لاسيما اذا كان معيلا اولا يعطى العطاء لا فى وقت واحد والله سبحانه اعلم (الا) اى وحقه ان لايسال احدا الا (لضرورة تميت) اى تقتله (اوتمرض) اى تجعله مريضا اوتجعله عريانا ونحوها فالسؤال حينئذ مرخص فيه لكن (لمن عجز عن الكسب) بحرفة ونحوها (اواستغرق) وقته (فى طلب العلم) الشرعى من الامر الاصلى اوالفرعى لامن استغرق فى طلب العبادة فان نفع هذا قاصر ونفع ذلك متعد ولان زيادة العبادة نافلة وزيادة العلم فريضة (اوتعب) اى اولمن تعب بسبب الكسب وضعف عن الطاعة (وفيه) اى فى حصول التعب (الترك) للسؤال (اولى) مع جواز السؤال وفى الجملة ورد مايدل على الرخصة فى السؤال حيث قال عليه السلام للسائل حق وان جاء على فرس رواه ابوداود من حديث الحسين ابن على ولابى داود والترمذى وقال حسن صحيح ردوا السائل ولو بظلف محرق وقد سأل ثلاثة من الانبياء فى موضع الضرورة سليمان وموسى والخضر عليهم السلام وروى ان بعضهم رأى ابا الحسن الثورى يمد يده ويسأل الناس فى بعض المواطن قال فاستعظمت ذلك واستقبحته له فاتيت الجنيد فاخبرته فقال لاتعظم هذا عليك فان الثورى لم يسأل الناس الا لتعظيمهم انما يسألهم ليثيبهم فى الآخرة فيوجرون من حيث لا يضره ثم قال الجنيد هات الميزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة والقاها على المائة ثم قال احملها اليه فقلت فى نفسى انما يوزن الشئ ليعلم

مقداره فكيف خلط به مجهولا وهو رجل حكيم فاستحييت ان اسأله فذهبت بالبصرة الى الثورى فقال هات الميزان فوزن مائة قال ردها عليه وقال قل له انا لا اقبل منك شيئا واخذ ما زاد على المائة قال فزاد تعجبى فسألته فقال الجنيد رجل حكيم يريد ان يأخذ الحبل بيطر فيه وزن المائة لنفسه طلبا لثواب الآخرة وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عزوجل فاخذت ما كان لله ورددت ماجعل لنفسه قال فرددتها الى الجنيد فبكى وقال اخذ ماله ورد مالنا الله المستعان فانظر الآن كيف صفت قلوبهم واموالهم وكيف خلصت لله اعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ولكن بتشاهد القلب وتناجى الاسرار وذلك نتيجة اكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والاقبال على المولى بكنه الهمة (ويحترز) اى وحقه اى يحترس (عن الشكاية) من الله فى سؤاله (فيقول) كاتما لحاله (انى مستغن) بالقلب عن السؤال ثقة بالله الملك المتعال (لكن النفس تريد الشهوة) فتوقعنى فى السؤال (وعن الاذلال) اى ويحترز عن التذلل فى السؤال فيجتنب اجنبيا لئيما من ارباب الاموال (فيسال قريبا) اى ذا قرابة جميعا من اهل الكمال من وصفه انه لا ينقصه ذلك فى عينه ولايزدريه بسبب فقره وكذا حكم صديقه فكان ابراهيم النخعى يسأل اصحابه الدرهم والدرهمين ويعرض عليه غيرهم المائتين فلا يأخذه (اوكريما) من ذوى الجمال من نعته انه (لايمن) على السائل بالعطاء والنوال (بل يقبل المنة) للسائل عليه فى اخذ المال ولو بالسؤال فقد قال بشر الحافى ماسألت احدا قط شيئا الا السرى السقطى لانه قد صح عندى زهده فى الدنيا فهو يفرح بخروج الشىء من يده ويتبرم ببقائه عنده فاكون عونا له على مايحب (وعن الايذاء) اى ويحترز عن ايذاء المسؤل (فلا يسائل فى الجمع الا من يستحيى عن الرد) والمنع وان لم يكن فى الجمع (فيحرم) حينئذ ما اخذ (ان اعطى) المسؤل (حياء منه) اى من السائل (اومن حاضر) آخر (كالواخذ عنفا) اى غصبا اذلافصل بين الاخذ بضرب القضاء او بسوط الحياء بل ضرب الباطن اشد نكاية عند العقلاء (والفارق) بين عطائه لله او حياء من الخلق (القرائن) الموجودة فى تلك الحالة (وفتوى القلب) الخالى عن الميل الى المال وسبيل الخلاص عن الايذاء ان يلقى الكلام تعريضا فى الصحبة بحيث لا يقدم على البذل الامتبرع بصدق الرغبة وان لايعين شخصا للسؤال لئلا يشوش له البال (ويشكره) اى وحق الفقير ان يشكر الله (سبحانه بعد القبض) اى اخذ العطاء بثلاثة من الاشياء (بالاشتغال بالطاعة) قولا وفعلا مثل ان يقول الحمد لله اويصلى ركعتين لله (والانفاق فيها) اى وبصرف العطاء فى طاعة المولى (فهو) اى الانفاق فى الطاعة (الاحب) اى الافضل من غيره المستفاد من قوله (اوفى المباح) ينفق مثل فضول الحلال (ومعرفة فضل الفقر) اى وبمعرفته المثمرة لترك التواضع المفرط للمعطى (وشكر المعطى) اى وبثنائه لجزائه (بكونه سببا) فى عطائه

(فورد من لم يشكر الناس لم يشكر الله) رواه احمد والترمذى وحسنه عن ابى سعيد وذلك لا ينافى رؤية النعمة من الله اما اذا غفل عن الله فى اخذ العطاء واثنى على المخلوق وشكره بالثناء والدعاء فلا يكون شكره حينئذ شكرا لله (ويدعو له) اى وحقه ان يدعو بالخير للمعطى فيقول طهر الله قلبك فى قلوب الابرار وزكى عملك فى عمل الاخيار او يقول بارك الله لك فيما اعطيت وفيما ابقيت (فورد من اسدى) اى اوصل (اليكم معروفا) اى احسانا (فكافئوه) اى جازوه بمثله لقوله تعالى * هل جزاء الاحسان الا الاحسان * (فان لم تستطيعوا) على المكافاة فى العطاء (فادعوا له) باظهار الثناء واسرار الدعاء فللترمذى والنسائى وابن حبان عن اسامة من صنع اليه معروفا فقال لفاعله جزاك الله خيرا فقد ابلغ فى الثناء وللشيرازى عن ابن عباس من اسدى الى قوم نعمة فلم يشكروها له فدعا عليهم استجيب ولابن عساكر عن على من صنع الى احد من اهل بيتى يدا اكافيه عليها يوم القيمة (ولا يستصغر) اى وحقه ان لا يستحقر العطاء ولا يترك الدعاء والثناء لحديث من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير والتحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر رواه عبد الله بن احمد فى زوائد المسند عن عثمان بن بشير (ولا يفزع) اى وان لا يجزع (بالمنع) فان العطاء والمنع والضر والنفع بيد الله سبحانه فورد لا مانع لما اعطيت ولا معطى لما منعت وفى الحكم لابن عطاء ربما اعطاك فمنعك وربما منعك فاعطاك وقال تعالى * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا * وما منع عبد عن باب الا وفتح له عن ابواب (ويحترز) اى وحقه ان يحترز (عن الشبهة) اى تناولها (فورد) فى التنزيل (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) اى من الشدائد الدنيوية والاخروية ويجعل له من كل ضيق فرجا ومن كل عسر يسرا (ويرزقه من حيث لا يحتسب) رزقا حلالا طيبا من غير حساب (ولا يأخذ) اى وان لا يقبل (اكثر من قوت يوم وليلته) ان كان من الاقوياء (فهو) اخذ قوت اليوم (العزيمة) التى يأخذ بها الانبياء والاولياء (والرخصة) للضعفاء ومن له العيال والنساء (قوت سنة لتجدد سبب الدخل) وهو ما يدخل على الانسان من ضيعته وزراعته (بعدها) اى بعد تمام سنته (وكان عليه السلام لا يدخر) اى لا يدخر (للعيال اكثر منه) اى من قوت سنة (بل يؤثر شيئا منه) اى ادخار قوت السنة (الوسط) اى الافضل المتوسط بين الحالات (المرضى من الروايات فورد اربعون) يوما (او خمسون) يوما فى مدة جواز الادخار واو للشك او التنويع (ونصاب الزكوة) وهو عشرون دينارا او اربعمائة درهم (وقيمة الضيعة) اى المزرعة فيستغنى بها طول عمره وفى معناها قيمة البيوت والحوانيت المستقلة لفوائد الغلة (او البضاعة) اى قدر رأس مال التجارة (المحصلة للغنى) بسبب الربح الكافى للمعيشة فيتجر بها ويستغنى عن غيرها وفى الاحياء

ان

ان فى الادخار ثلاث درجات احديها ان لايدخر الاليومه وليلته وهى درجة الصديقين وثانيتها ان يدخر لاربعين يوما فايما زاد عليه دخل فى طول الامل وقدفهم العلماء ذلك من ميعاد الله لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة فى امل الحيوة اربعين يوما وهذه درجة المتقين وثالثتها ان يدخر لسنة وهى اقصى المراتب وهى رتبة الصالحين ومن زاد فى الادخار على هذا فهو داخل فى غمار العموم خارج من خير الخصوص بالكلية فغنى الصالح الضعيف لطما نينة قلبه فى قوت سنة وغنى الخصوص فى اربعين يوما وغنى خصوص الخصوص فى يوم وليلة وقدقسم النبى عليه السلام لنسائه على مثل هذه الاقسام فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول مايحصل وبعضهن قوت اربعين يوما وبعضهن يوما وليلة منهن عائشة وحفصة وقد سكت عنه مخرجه (ويستر) اى وحقه ان يستر السؤال اواخذ النوال ويكتمه فيسأل فى الخلاء دون الملاء (تحاميا عن هتك المروؤة) اى تحفظا عن خرق الفتوة فانها تقتضى عدم السؤال فى حال يوجب الايذاء اومروؤة المسؤل ان رد السائل مع القدرة والقوة (وكشف الحاجة) اى وتحاميا عن اظهار الفقر والفاقة وقد تقدم ان من كنوز البر كتمان الفقر (والحسد) اى وعن اظهار الحسد الذى لايخلو من الجسد (والغيبة) بالطعن عليه فى الغيبة (وسوء الظن به) فى كونه غنيا ويظهر الفقر الذى يقتضى خلقا دنيا وهذا كلها من الكبائر فصيانتهم عن هذه الجرائم اولى وذا انما يحصل بستر السؤال والاخذ كما لا يخفى (ومن اعلان عبادة المعطى) فان الاخفاء افضل فى الصدقة لقوله تعالى * ان تبدوا الصدقات فنعماهى وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خيرلكم * وفى ستر السؤال واخذ النوال اعانة للمعطى على اسرار العمل واخفائه الذى هو الاكمل والاعانة على اتمام المعروف معروف عند الكمل (و) من اعلان (مذلة النفس المؤمنة فهو حرام) من غير ضرورة (وشبهة الشركة) اى وتحاميا عنها (فورد من اهدى اليه هدية وعنده قوم) اواحد (فهم شركاؤه فيها) والمراد بهم هم الذين يداومون مجلسه ويعتكفون بابه ويتفقدون اموره لاكل من كان جالسا فى ذلك الوقت عنده كذا فى اصول الترمذى والحديث رواه الطبرانى من حديث حسن ابن على بلفظ فجلساؤه شركاؤه فيها وعليه البخارى بصيغة تمريض قال السيوطى واخرجه العقيلى من حديث عائشة انتهى واما حديث الهدايا تشترك فلا اصل له وكذا الهدية لمن حضر الامن حيث المعنى من غير اعتبار المبنى (ويعرف) من ستر سؤاله واخذه تحاميا عن هتك ستر المروؤة الى آخره (بكراهة ظهور اخذ غيره كاخذه) اى كراهة ظهور اخذ نفسه فورد لايؤمن احدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه ويكره لاخيه مايكره لنفسه (ويظهر) اى وحقه ان يظهر السؤال واخذ النوال (قصد الاخلاص) فى تصحيح الحال

والمعنى ان من ترك السؤال فى الملاء لئلا يعيب عليه الخلق فى الخلاء فهذا نوع من الرياء فيصح له ان يظهر اخذ العطاء ليتخلص من شائبة الرياء (واسقاط الجاه) واسقاط المنزلة عند ارباب الدنيا (وهضم النفس) اى ولرياضتها فى طريق المولى النافعة له فى العقبى (واداء الشكر) اى ولادائه لنعمة الفقر (فورد) فى التنزيل لبيان مدح اظهاره (واما بنعمة ربك فحدث) ولبيان ذم اسراره (ويكتمون ما آتيهم الله من فضله) وهذا انما يصح لمن يتلذذ بالفقر والبلاء كما يتلذذ غيره بالسعة والنعماء بل يكون ممن يقتدى به الصلحاء ويتفق على فضله العلماء فيظهر الشكر على الفقر ليعلم ان موجب فضله الفقر المقرون بالشكر (ويعرف) من يظهر السؤال قصدا لاداء الشكر فى نعمة الفقر (بارادة ظهور عطاء الساتر له) اى المعطى (كعطاء المظهر له) بل ربما يرد العطاء على وجه الاسرار ويقبله على طريق الاظهار عكس فعل بعض الابرار (واما ان بلغ حدا يستوى فيه السر والعلانية) فى حقه (فكبريت احمر) اى فهو كبريت احمر عزيز الوجود فى دائرة الشهود بل كعنقاء المغرب يسمع له اسم ولا يرى جسم (ويترك) اى وحقه ان يترك (ما) اى سؤال ما او اخذ ما يدخل (فيه) اى عطائه (السمعة والرياء وكذا المنة والايذاء (تحاميا عن الاعانة على الاثم) قال تعالى * وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان * وكان سفيان الثورى يرد ما يعطى ويقول لو علمت انهم لا يذكرون ذلك افتخارا به لاخذت وعوتب بعضهم فى رد ما كان يأتيه من صلة قال انما ارد صلتهم اشفاقا عليهم ونصحا لهم لانهم يذكرون ذلك ويحبون ان يعلم بهم فتذهب اموالهم وتحبط اجورهم وتفسد احوالهم (والاولى ان لا يأخذ الا للحاجة اليه) فيما لابد منه وهو مفسر فى حديث رواه الترمذى وصححه عن عثمان مرفوعا لاحق لابن آدم الا فى ثلاث جلف الخبز والماء وثوب يوارى عورته وبيت يسكنه ويكنه فمازاد فهو حساب (فورد ما المعطى من سعة) فى ماله (باعظم اجرا من الآخذ اذا كان) الآخذ (محتاجا اليه) رواه الطبرانى من حديث ابن عمر (او التفريق) اى اولا يأخذ الا لاجل تفريقه (على الفقراء) المحرومين من خيرات الاغنياء (فيعجل) فى التفريق ولا يهمل (تحاميا عن الانس بالدنيا) فلا يدخر فان امساكه ولو ليلة واحدة فيه اختبار وفتنة فربما يحلو فى قلبه فيمسكه ولاحمد من حديث عائشة بسند حسن انه قال فى مرضه الذى مات فيه يا عائشة ما فعلت بالذهب فجاءت ما بين الخمسة الى الثمانية الى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول ماظن محمد بربه لولقى الله وهذه عنده انفقيها وفى رواية سبعة او تسعة دنانير وله من حديث ام سلمة باسناد صحيح دخلت على النبى عليه السلام وهو ساهم الوجه اى متغيرة قالت فحسبت ذلك من وجع فقلت يانبى الله مالك ساهم الوجه فقال من اجل الدنانير السبعة التى اتانا امس

امسينا

امسينا وهى فى خصم الفراش وفى رواية امسينا ولم ننفقها (اوالاخذ) اى ولايأخذ الا لاجل اخذه (فى الملاء والرد فى الخلاء فهو اقرب الى السلامة) من السمعة والرياء ومن خجالة الاغنياء وما يحصل لهم من الايذاء واما ان اخذه فى الملاء وفرقه فى الخلاء فهو مقام الصديقين من الاولياء وهذا امر شاق على النفس لايطيقه الا من اطمأنت نفسه بالرياضة هذا ويجوز له ان يترك ولايأخذ ليصرفه صاحبه الى من هو احوج اليه منه اويأخذ العطاء ويوصله الى من هو احوج اليه من الفقراء فيفعل كلاهما فى السر اوكلاهما فى الملاء (ويختار التطوع) اى وحقه ان يختار اخذ صدقة التطوع على الواجب من الزكوة والفطرة (ان شك) الفقير (فى شرائط الواجب) اى فى وجود شرائط اخذ الزكوة الواجبة هل هومستحق للزكوة ام لا فان اشتبه الامر عليه فهومحل الشبهة (اوعلم) الفقير (انه) اى الغنى (لا يتصدق) بصدقة التطوع (على غيره ان لم يأخذ) الفقير بعينه (اوقصد) الفقير (التوسيع على الفقراء) بايثار مال زكوة الاغنياء فانه يختار اخذه فانه محض الخير ونفع الغير (والواجب) اى ويختار اخذ صدقة الواجب (ان قصد الاعانة على ادائه) اى اداء الواجب وقضائه (او) قصد (موافقة الفقراء) ومرافقة الضعفاء (اوهضم النفس) اى رياضته فى مقام الابتلاء (فامثاله) اى امثال ما ذكر (تختلف باختلاف النية) اى نيات الصلحاء وجاءت الى فتح الموصلى صرة فيها خمسون درهما فقال حدثنا عطاء عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من اتاه رزق من غير مسألة فرد فانما يرد على الله عزوجل ثم فتح الصرة فاخذ منها درهما ورد سائرها وكان الحسن يروى هذا الحديث ايضا ولكن حمل اليه رجل كبشا ورزمة من دقيق فرد ذلك وقال من جلس مجلسى هذا وقبل من الناس مثل هذا لقى الله عزوجل يوم يلقاه وليس له خلاق وهذا يدل على ان امر العالم والواعظ اشد فى قبول العطاء وكان الحسن يقبل من اصحابه كذا فى الاحياء وقال مخرجه حديث عطاء لم اجده مرسلا بكذا ولاحمد وابى يعلى والطبرانى باسناد جيد من حديث خالد بن عدى الجهنى من بلغه من اخيه معروف من غير مسألة ولا اسراف نفس فليقبله ولا يرده فانما هو رزق ساقه الله عزوجل اليه وجاء خراسانى بمال الى الجنيد وسأله ان يأخذه ويأكله فقال افرقه على الفقراء فقال ما اريد هذا قال ومتى اعيش حتى آكل هذا فقال ما اريد ان تنفقه فى الخل والبقل بل فى الحلوى والطيبات فقبل ذلك منه فقال الخراسانى ما اجد ببغداد آمن على منك فقال الجنيد ولاينبغى ان يقبل الا من مثلك وقيل من اعطى ولم يأخذ سأل ولم يعط قال العلماء يخاف فى الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع او دخول فى شبهة اوغيره وفى الاحياء قال بعض العلماء المجاورين بمكة كانت عندى دراهم اعددتها للانفاق فى سبيل الله فسمعت فقيرا وقد فرغ من طوافه وهويقول بصوت خفى * جايع كماترى عريان

كما ترى فما ترى فيما ترى يامن يرى ولا يرى * فنظرت فاذا عليه خلقان لا تكاد تواريه فقلت فى نفسى لا اجد لدراهمى احسن من هذا فحملتها اليه فنظر اليها ثم اخذ منها خمسة دراهم فقال اربعة ثمن مئزرين ودرهم انفقه ثلاثا ولاحاجة لى الى الباقى فرده قال فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان فهجس فى نفسى منه شئ فالتفت الى واخذ بيدى فاطافنى معه اسبوعا كل شوط منها فى جوهر من معادن الارض تتخشخش تحت اقدامنا الى الكعبين منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ولم يظهر للناس فقال هذا كله اعطانيه ربى فزهدت فيه وآخذ من ايدى الخلق لان هذه اثقال وفتنة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة والمقصود ان الزيادة على الحاجة انما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله اليك ماذا تعمل فيه وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء قال تعالى * انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا * وعن موسى عليه السلام انه قال يارب جعلت رزقى هكذا على ايدى بنى اسرائيل يغدينى هذا يوما ويعشينى هذا ليلة فاوحى الله تعالى اليه هكذا اصنع باوليائى اجرى ارزاقهم على ايدى البطالين من عبادى ليؤجروا فيهم فلا ينبغى ان يرى المعطى الامن حيث انه مسخر مأجور وقيل فى تفسير قوله تعالى * لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله معناه ليبع احد ثوبيه وقيل ليستقرض بجاهه فذلك مما آتاه الله وقال بعضهم لله عباد ينفقون على قدر بضايعهم ولله عباد ينفقون على قدر حسن ظنهم بربهم ومات بعضهم فاوصى بماله لثلاث طوايف الاقوياء والاسخياء والاغنياء فقيل من هؤلاء فقال اما الاقوياء فهم اهل التوكل على الله واما الاسخياء فهم اهل حسن الظن بالله واما الاغنياء فهم اهل الانقطاع الى الله وكان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة فقير لايسأل وان اعطى لايأخذ فهذا مع الروحانيين فى عليين وفقير لايسأل وان اعطى اخذ فهذا مع المقربين فى جنات الفردوس وفقير يسأل عند الفاقة فهذا مع الصادقين من اصحاب اليمين وقال ابراهيم بن ادهم لشقيق البلخى حين قدم عليه من خراسان كيف تركت الفقراء من اصحابك قال تركتهم ان اعطوا شكروا وان منعوا صبروا وظن انه لما وصفهم بترك السؤال اثنى عليهم غاية الثناء فقال ابراهيم هكذا تركت كلاب بلخ عندنا فقال شقيق فكيف الفقراء عندكم يا ابا اسحق فقال الفقراء عندنا ان منعوا شكروا وان اعطوا آثروا فقبل رأسه وقال صدقت يا استاذ (ثم الزهد عزوف القلب) اى ميله وانصرافه (عن الدنيا الى الآخرة طوعا) اى اختيارا وجعله طاعة فالزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشئ الى ما هو خير له منه ومنه قوله تعالى * وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين * اى باعوه طمعا فى ان يخلولهم وجه ابيهم وكان ذلك احب عندهم من يوسف فاذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد فى الدنيا وكل من باع

الآخرة بالدنيا فهو ايضا زاهد في الآخرة لكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا كما يخصص اسم الالحاد بمن يميل الى الباطل واسم الحنيف بمن يميل الى الحق وان كان الكل بمعنى الميل في وضع اللسان فالذى يرغب عن كل ماسوى الله حتى الفراديس فهو الزاهد المطلق والذى يرغب في كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمع في الحور والقصور والانهار والاثمار فهو ايضا زاهد لكن دون الاول والذى يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذى يترك المال دون الجاه اوبالعكس اويترك التوسع في الاكل ولا يترك التجمل في الزينة فلا يستحق اسم الزهد مطلقا ودرجته في الزاهدين درجة من يتوب عن بعض المعاصى في التائبين وقد تقدم الخلاف في صحة التوبة لكن لاخلاف في صحة الزهد عن البعض ثم الزهد عبارة عن ترك المباحات ومن ترك المحظورات لايسمى زاهدا ويشترط في المرغوب عنه ان يكون مقدورا عليه ولذا قيل لابن المبارك يا زاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز اذ جاءته الدنيا راغمة فتركها اما انا ففيما ذا زهدت وقال ابن ابى ليلى لابن شبرمة الاترى الى هذا ابن الحائك لا نفتى في مسألة الارد علينا يعنى ابا حنيفة فقال ابن شبرمة لا ادرى اهو ابن الحائك اوما هو ولكن اعلم ان الدنيـا غدت اليه فهرب منها وهربت منا فطلبناها انتهى فمن عرف ان ما عند الله باق وان الآخرة خير وابقى عزف قلبه عن الدنيا الى العقبى مع القدرة على تحصيل مراتب الغنى والى هذا الشرط اشار بقوله طوعا (ولايعبأ باليد) اى ولايعتبر بتصرف المال وتوسع الجاه وجودا وعدما وقلة وكثرة اذاحصل الزهد فيها (لوجودها) اى الدنيا جاها ومالا (لسليمن عليه السلام) مع انه كان زاهدا في الدنيا وراغبا في العقبى كسائر الانبياء والاولياء (وكون عيسى) اى ولكونه (عليه السلام اخلى يدا من نبينا صلى الله عليه وسلم مع انه) اى نبينا (افضل) وزهده اتم واكمل على انه لايبدع ان يوجد في المفضول بعض ما لايوجد في الافضل فتأمل ولعل الحكمة في اختيار عيسى عليه السلام المبالغة في الزهد فانه مسلك اهل الترهب واما نبينا عليه الصلاة والسلام فلما كان رحمة لكافة الانام اختار طريقا يسع جميع امته ان يتبعوه ولانه صاحب الملة الحنيفية السمحاء وليس في دينه من حرج ولكونه مظهر المرتبة الجمع بين الصفات الجمالية والنعوت الجلالية كما يشير اليه قوله اشبع يوما فاشكر واجوع يوما فاصبر مع ان الزهد عند المحققين هو ترك ما يشغلك عن المولى وزاد العقبى ثم كل مؤمن يعلم ان الآخرة خير وابقى لكن قد لايقدر على ترك الدنيا اما لضعف علمه ويقينه بالمآل واما لاستيلاء الشهوة عليه في الحال واما لاغتراره في الاستقبال بمواعيد الشيطان في التسويف يوما بعد يوم الى ان يختطفه الموت لايبقى معه الاحسرة بعد الفوت والى تعريف خساسة الدنيا

اشار قوله تعالى * قل متاع الدنيا قليل * والى تعريف نفاسة الآخرة قوله * وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن * واما قول ابن مسعود ماعرفت ان فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى * منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة * فرواه البيهقى فى دلائل النبوة باسناد حسن لكن حمل على ان منهم من يريد الدنيا ليصرف فى طريق العقبى ومنهم من يريد الآخرة ويترك الدنيا بالكلية رضا للمولى وعملا بما قال عيسى عليه السلام يا طالب الدنيا لتبر تركك للدنيا ابر (وهو) اى الزهد (يثمر) خمسة اشياء (المكاشفة) لاحوال الآخرة (كما سبق فى حديث النجاشى وحارثة رضى الله عنه) اما حديث النجاشى فهو انه سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح فى قوله تعالى * فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام * فقيل له ما هذا الشرح فقال ان النور اذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل يارسول الله هل لذلك من علامة قال نعم التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله رواه الحاكم واما حديث حارثة فهو انه لما قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انا مؤمن حقا فقال وما حقيقة ايمانك قال عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها وكأنى بالجنة عن يمينى والنار عن يسارى وكأنى بعرش ربى بارزا فقال عليه السلام عرفت فالزم نور الله قلبك بالايمان رواه البزار من حديث انس والطبرانى من حديث الحارث ابن مالك (والفراغ) اى ويثمر الزهد فراغ خاطر ارباب الارادة (للعبادة) التى هى سلوك سبيل السعادة (فورد من احب آخرته اضر بدنياه) تمامه ومن احب دنياه اضر بآخرته فآثروا ما يبقى على ما يفنى رواه احمد والطبرانى من حديث ابى موسى (وتعظيم قدرها) اى ويثمر تعظيم مقدار العبادة (فورد ركعتان من عالم زاهد خير من عبادة المتعبدين الى آخر الدهر) لم اجده اصلا بهذا السياق وانما هو لابن مسعود موقوفا وللشيرازى فى الالقاب عن على مرفوعا ركعة من عالم بالله خير من الف ركعة من متجاهل بالله وللديلمى عن انس ركعتان من رجل ورع افضل من الف ركعة من مخلط ولابن النجار عن محمد بن على مرسلا ركعتان من عالم افضل من سبعين ركعة عن غير عالم وقد صح لفقيه واحد اشد على الشيطان من الف عابد (ومحبته تعالى) اى ويثمرها الزهد فقد ورد فى الخبر ان اردت ان يحبك الله فازهد فى الدنيا رواه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد وقد تقدم حديث ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى ايدى الناس يحبك الناس (ومعرفته) اى ويثمرها ففى الخبر قد ورد اذا رأيتم العبد قد اعطى صمتا وزهدا فى الدنيا فاقربوا منه فانه يلقى الحكمة رواه ابن ماجه من حديث ابى خالد وقد قال تعالى * ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا * ولذا قيل من زهد فى الدنيا اربعين

يوما

يوما اجرى الله ينابيع الحكمة فى قلبه وانطق بها لسانه كذا فى الاحياء وقد يوجد معناه من حديث من اخلص لله اربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه رواه ابونعيم من حديث ابى ايوب ومن المعلوم انه لايكون العبد عابدا مخلصا الا اذا كان زاهدا وفى الخبر ايضا من زهد فى الدنيا ادخل الله الحكمة قلبه وانطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها واخرجه منها سالما الى دار السلام رواه ابن ابى الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلا ولابن عدى من حديث ابى موسى من زهد فى الدنيا اربعين يوما واخلص فيها العبادة اجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه (فهما) اى المحبة والمعرفة اللتان يثمرهما الزهد (لاتحصلان الا بدوام الذكر) اى ذكر المولى (والفكر) لزاد العقبى (الممتنعين مع الشغل بالدنيا) وقد قال تعالى * اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا * اى على الزهد فى الدنيا كما جاء فى التفسير وقال تعالى * انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا * قيل معناه ايهم ازهد فيها وقال تعالى * من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب * وقال عزوجل * لاتمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى * وللطبرانى من حديث ابن مسعود بسند حسن من اشرب قلبه حب الدنيا التاط منها اى ابتلى بثلاث: شقاء لا ينفد عناه وحرص لايبلغ غناه * وامل لايبلغ انتهاه * وللديلمى من رواية على بن ابى طلحة مرسلا لايستكمل عبد الايمان حتى يكون قلة الشىء احب اليه من كثرته وله من حديث انس من زهده فى الدنيا بصره بعيوب نفسه وفقهه فى الدين وعن عيسى عليه السلام الدنيا قنطرة فاعبروها ولاتعمروها ولابن حبان من حديث على من اشتاق الى الجنة سارع الى الخيرات ومن خاف من النار لها عن الشهوات ومن يرقب الموت ترك اللذات ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات وجاء فى الآثار لا تزال لا اله الا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل مالم يبالوا بما نقص من دنياهم وفى لفظ مالم تؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فاذا فعلوا ذلك وقالوا لا اله الا الله قال تعالى * كذبتم لستم بها صادقين وعن بعض الصحابة قال تابعنا الاعمال كلها فلم نر فى امر الآخرة ابلغ من زهد فى الدنيا وقال بعض الصحابة لصدر التابعين انتم اكثر اعمالا واجتهادا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كانوا خيرا منكم قيل ولم ذلك قال كانوا ازهد فى الدنيا منكم وقال عمر رضى الله عنه الزهادة فى الدنيا راحة القلب والجسد وقال ابن سعد كفى به ذنبا ان الله تعالى زهدنا فى الدنيا ونحن نرغب فيها وقال رجل لسفيان اشتهى ان ارى عالما زاهدا فقال ويحك تلك ضالة لاتوجد وقال يوسف ابن اسباط انى

لاشئ من الله ثلاث خصال ان اموت حين اموت وليس فى ملكى درهم ولايكون على دين ولايكون على عظمى لحم فاعطى ذلك كله ويروى ان بعض الخلفاء ارسل الى الفقهاء الجوائز فقبلوها وارسل الى الفضيل بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها فقال بنوه قد قبل الفقهاء وانت ترد وانت على حالتك هذه فبكى الفضيل وقال اتدرون ما مثلى ومثلكم كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها فلما هرمت ذبحوها لكى ينتفعوا بجلدها وكذلك انتم اردتم ذبحى على كبر سنى موتوا يااهلى جوعا خيرلكم من ان تذبحوا فضيلا (ثم الادنى) من مراتب الزهد (باعتبار نفسه) اى نفس الزهد وذاته مع قطع النظر عن حكمه وما منه وفيه كما سيأتى (ان يجاهد فيه) اى فى تحصيل الزهد (لميل النفس الى الدنيا) والتفاتها اليها ولكنه يجاهدها ويكفها عنها (وهو تزهد) وهو مبدأ الزهد فى حق من يصل الى درجة الزهد بالكسب والجهد (ثم) الاعلى منه (ان يتنفر) طبعه (عنها) اى عن الدنيا لعدم ميل نفسه اليها (فهو زهد) فالمتزهد فى الدنيا يذيب اولانفسه فى الطاعة ثم كيسه والزاهد يذيب اولا كيسه ثم يذيب نفسه فى الطاعة لا فى الصبر على مافارقه والمتزهد على خطر لانه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود الى الدنيا والى الاستراحة بها فى قليلها اوكثيرها (ثم) الاعلى منه (عدم الميل) اليها (و) عدم (التنفر) عنها وذلك بان يترك الدنيا طوعا لاستحقاره اياها بالاضافة الى ماطمع فيه من غيرها خيرا منها ولكن هذا الزاهد يرى لامحالة زهده ويلتفت اليه فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده ويظن بنفسه انه ترك شيئا له قدر لما هو اعظم قدرا منه وهذا ايضا نقصان عند من له عرفان (ويعرف) صاحب هذا المقام (بتسوية سرقة ماله ومال غيره) لعدم ميله الى كل منهما ولقوله عليه السلام لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه ويكره لاخيه ما يكره لنفسه بل ربما يهون عليه سرقة مال نفسه دون سرقة مال غيره (ثم) الاعلى (عدم الاعتبار بزهده) لفنائه فى الله وبقائه به فقد انطوى فى نظره وجود كل شئ فضلا عن زهده وهى المرتبة العليا بان يزهد فى الدنيا طوعا ويزهد فى زهده ايضا فلا يرى زهده اصلا اذلايرى انه ترك شيئا ما اذعرف الدنيا لاشئ وسببه كمال المعرفة ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات الى الدنيا ومن هنا قال ابو يزيد لابى موسى عبد الرحيم فى اى شئ تتكلم قال فى الزهد قال فى اى شئ قال فى الدنيا فنفض يده وقال ظننت انك تتكلم فى شئ الدنيا لا شئ اى شئ تزهد فيها فاذن لايلتفت الزاهد الى زهده الا اذا التفت الى ما زهد فيه ولايلتفت الى ما زهد فيه الا لانه يراه شيئا معتدا به ولا يراه شيئا معتدا به الا لقصور معرفته فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة (وباعتبار مامنه) اى والادنى فى الزهد باعتبار مامنه الزهد ان يكون

زهده للنجاة (من خوف النار) وما فيها من انواع العقاب (ثم) الاعلى ان يكون زهده (من اجل الرجاء الى الجنة) وما فيها من انواع الثواب وانما يكون اعلى مما قبله (لاقتضائه المحبة) اى زيادتها والمحبة اعلى المقامات كما سيأتى فى خاتمة الكتاب (ثم) الاعلى ان يكون زهده (من رفع الالتفات) لخواطره (الى ماسواه تعالى) فلا تكون له رغبة الا فى الله وفى لقائه ورضائه ولايلتفت قلبه الى الآلام ليقصد الخلاص منها والى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها بل هو مستغرق الهم بالله تعالى وهو الذى يصبح وهمه هم واحد وهو الموحد الحقيقى الذى لايطلب غير الله ومن طلب غير الله فقد عبده سواء وجده اوفقده وهذا زهد المحبين وهم العارفون لانه لايحب الله تعالى خاصة الامن عرفه ولا تظنن ان اهل الجنة عند النظر الى وجهه الكريم تبقى لذة الحور والقصور وسائر النعيم المقيم فى قلوبهم بل تلك اللذة بالاضافة الى نعيم الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على اطراف الارض ورقاب الخلق بالاضافة الى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به فالطالبون لنعيم الجنة عند اهل المعرفة كالصبى الطالب للعصفور التارك للذة الملك وذلك لقصوره عن ادراك لذة الملك لالان اللعب بالعصفور فى نفسه اعلى والذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق ومن هنا روى اكثر اهل الجنة البله وعليون لاولى الالباب (وباعتبار مافيه) اى ادنى الزهد باعتبار ما فيه الزهد ان يكون زهده (فى بعض الدنيا كالمال دون الجاه) او عكسه (وهو كالتوبة عن بعض الذنوب) وقد اختلف فى صحتها لكن الصحيح اعتبارها فى الجملة على ماتقدم بخلاف الزهد فانه لاخلاف فى صحة بعضه (ثم) الاعلى ان يكون زهده (فى كلها) اى فى جميع الدنيا مالها وجاهها (ثم) الاعلى وهى المرتبة العليا ان يكون زهده (فيما سواه تعالى) حتى عن زهده فى نفسه ايضا وقد ذكر الله تعالى فى آية واحدة سبعة مما فيه الزهد فقال * زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحيوة الدنيا والله عنده حسن المآب * ثم اجمله فى آية اخرى ورده الى خمسة فقال * اعلموا انما الحيوة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد * الى ان قال * وما الحيوة الدنيا الامتاع الغرور * ثم رده الى اثنين فقال * المال والبنون زينة الحيوة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا * وقال فى موضع آخر انما الحيوة الدنيا لعب ولهو * ثم رد الكل الى واحد فى موضع آخر فقال * ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى * فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس فى الدنيا والحاصل ان الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء فى الدنيا واذا رغب عنها لم يردها ولذا لما كتب عليهم القتال قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا اخرتنا الى اجل قريب فقال تعالى * قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى * اى لستم تريدون البقاء الالمتاع الدنيا فظهر عند ذلك الزاهدون

وفضح المنافقون اما الزاهدون المحبون فى الله فقاتلوا فى سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا احدى الحسنيين وكانوا اذا دعوا الى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون اليه مبادرة الظمآن الى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله اونيل رتبة الشهادة وكان من مات فيهم على فراشه يتحسر على فوت سعادة الشهادة حتى ان خالد بن الوليد رضى الله عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول كم فررت بروحى وهجمت على الصفوف طمعا فى الشهادة والآن اموت موت العجائز فلما مات عد على جسده ثمان مائة ثقب من آثار الجراحات واما المنافقون ففروا من الزحف خوفا من الموت فقيل لهم ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم الآية هذا واجمع ما قيل فى حد الزهد قول ابى سليمن الدارانى قد سمعنا فى الزهد كلاما كثيرا والزهد عندنا ترك كل شئ يشغلك عن الله عز وجل وقرأ ابو سليمن قوله تعالى الا من اتى الله بقلب سليم * فقال هو القلب الذى ليس فيه غير الله وقال انما زهدوا فى الدنيا ليفرغوا قلوبهم من همومها للاخرى (وباعتبار الحكم) اى والزهد الادنى باعتبار حكم الزهد (الفرض) اى يجب على السالك ان يزهد فيه (وهو) اى الزهد الفرض ان يكون زهدا (فى الحرام) وهو لابد منه لكمال الاسلام وجمال الاحكام (ثم السنة) اى الزهد الذى يسن للمريد ان يزهد فيه (وهو) اى الزهد السنة ان يكون زهدا (فى الشبهة ثم الزهد (النفل) المندوب المستحب (وهو) اى الزهد النفل ان يكون زاهدا (فى فضول المباح) وقال قوم الزهد فى الحلال لا فى الشبهة والحرام فليس ذلك من درجاته فى شئ ثم رأوا انه لم يبق حلال فى اموال الدنيا فلا يتصور الزهد الآن ويؤيده قول الحسن رأيت سبعين بدريا كانوا فيما احل الله لهم ازهد منكم فيما حرم الله عليكم وفى خبر آخر كانوا بالبلاء اشد فرحا منكم بالرخاء وكان احدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول اخاف ان يفسد على قلبى فمن كان له قلب فهو لامحالة يخاف على فساده والذين قد امات حب الدنيا قلوبهم فقد اخبر الله عنهم اذ قال * ورضوا بالحيوة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * وقال تعالى * ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هويه وكان امره فرطا * قال عز وعلا * فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيوة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم * فاحال ذلك كله على الغفلة وعدم المعرفة فان قلت مهما كان الصحيح ان الزهد هو ترك ماسوى الله فكيف يتصور مع الاكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم فكل ذلك اشتغال بما سواه فاعلم ان معنى الانصراف عن الدنيا الى الله هو الاقبال بالقلب على المولى ذكرا وفكرا ولا يتصور ذلك الا مع البقاء ولا بقاء الا بضرورات النفس فمهما اقتصرت فى الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله فان ما لايتوصل الى الشئ الا به فهو منه كذا فى الاحياء وقد يقال المراد بالاشتغال بالمولى ان يكون بالقلب دون القالب فان الواصلين الى مقام الحضور لايشغلهم شئ من

الامور فقلبهم لايغفل عن الله ولو كانوا فى الزراعة والتجارة كما يشير اليه قوله سبحانه رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله * الآية كما ان قلب اهل الدنيا لايغفل عن دنياهم ولو كان قالبهم فى المسجد والطاعة والقراءة ونحوها بل اهل القلوب لكمال ذكرهم وفكرهم لو ارادوا ان يغفلوا قلبهم ساعة لم يقدروا على ذلك كما ان اهل الغفلة لو اجتهدوا ان يحضروا قلبهم ساعة عجزوا عما هنالك بل العارفون عدوا الغفلة كفرا وارتدادا كما اشار اليه العارف ابن الفارض بقوله *

(شعر) ولو خطرت لى فى سواك ارادة * على خاطرى سهوا حكمت بردتى

فالحاضرون على الدوام هم الانبياء عليهم السلام والاولياء من اتباعهم الكرام والغافلون الكاملون هم الكافرون المشبهون بالانعام واما المخلطون فهم فى احوالهم مختلفون فتارة يحضرون واخرى يغفلون وهم الذين قال تعالى فيهم * وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا * الآية (ويخرج) السالك (عنه) اى عن الزهد ويدخل فى حب الدنيا خمسة اشياء (القصد الى الكسب ان كان) القصد (للذة) اى بشهوة النفس بالمكسوب (دون العدة) اى بخلاف ما اذا كان القصد من الكسب الاستعداد والاستعانة (على العبادة) التى هى المندوب والمطلوب وهذا محمل قول ابى سليمان الدارانى من تزوج اوسافر فى طلب المعيشة او كتب الحديث فقد ركن الى الدنيا وذلك لانه نقل عنه ايضا انه قال كل ماشغلك عن الله من مال اوولد فهو عليك شؤم (والادخار) يخرج السالك عن الزهد ايضا (ان زاد) الادخار (على قوت السنة) كماثبتت الرخصة فى السنة (الا لمن لايكسب) اى لايقدر على الكسب لعدم حرفة اولاشتغاله بتحصيل وجوه معرفة (ولا يأخذ من الأيدى) مع هذه الحالة ايضا فانه لايخرجه الادخار عن الزهد وان كان زائدا على قوت السنة (كداود الطائى وهو ملك عشرين دينارا) ورثها من ابيه (فقنع بها عشرين سنة) ثم اعلم انه قد يظن ان تارك المال زاهد وليس كذلك فان ترك المال واظهار الخشونة سهل على من احب المدح بالزهد بل لابد من الزهد فى المال والجاه جميعا فى مقام الكمال هذا وقوم يظهرون الزهد بالتقشف وآخرون بالتكلف ومن الخواص قوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموهون بذلك على الناس ليهدى اليهم مثل لباسهم ولئلا ينظر اليهم بالعين التى ينظر بها الى الفقراء فيحقروا فيعطوا كما يعطى المساكين ويحتجون لانفسهم باتباع العلم وانهم على السنة وان الاشياء داخلة عليهم وهم خارجون منها وان ما يأخذون بعلة غيرهم هذا اذا طولبوا بالحقائق والجئوا الى المضائق وكل هؤلاء اكلة الدنيا بالدين لم يعبأوا بتصفية اسرارهم ولا تهذيب اخلاق نفوسهم فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالا لهم فهم مائلون الى الدنيا متبعون

الهوى فهذا كله كلام الخواص فاذا معرفة الزهد مشكل حتى على الزاهد نفسه فينبغى ان لايتعبد بلبس خاص موافقا للسنة وان يقول فى باطنه على ثلاث علامات الاولى ان لايفرح بموجود ولايحزن على مفقود كما قال تعالى * لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم * اى لاتحزنوا حزن فزع ولاتفرحوا فرح بطر والا فلا يخلو تأثيرهما فى النفس باعتبار اصل الطبع ثم الكمال ان يحزن بوجود المال ويفرح بفقده لانه سبب وجود صحة الحال والثانية ان يستوى عنده ذامه ومادحه بل ينبغى ان يفرح بذمه ويحزن بمدحه والثالثة ان يكون انسه بالله ونسيانه عما سواه ولذا قيل لبعضهم الى ماذا افضى بهم الزهد فقال الى الانس بالله واما الانس بالدنيا وبالله يجتمعان كالماء والهواء فى القدح فالماء اذا دخل خرج الهواء وقد قال اهل المعرفة اذا تعلق الايمان بظاهر القلب احب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما واذا بطن الايمان سويداء القلب وباشره ابغض الدنيا ولم ينظر اليها ولم يعمل لها ولذا ورد فى دعائه عليه السلام اللهم انى اسألك ايمانا يباشر قلبى وقال ابو سليمان من شغل بنفسه شغل عن الناس وهذا مقام العابدين ومن شغل بربه شغل عن الناس وهذا مقام العابدين ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين وقال السرى لايطيب عيش الزاهد اذا اشتغل عن نفسه ولا يطيب عيش العارف اذا اشتغل بنفسه وقال النصر اباذى الزاهد غريب فى الدنيا والعارف غريب فى الاخرى وقال يحيى بن معاذ الزاهد يسعطك الخل والخردل والعارف يشمك المسك والعنبر ثم لايستدل بامساكه قليلا من المال على فقد زهده فى مقام الكمال كما لداود الطائى فان مدار الزهد فى الدنيا عدم محبتها وقد قال الفضيل جعل الله الشر كله فى بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد فيها (والتغذى) بالذال المعجمة اى الاكل (من بر) اى دقيق حنطة (منخول) يخرجه من الزهد ايضا (والمواظبة على الادام) يخرجه ايضا منه (و) كذا (اتخاذ ثوبين) كقميصين (واثاثين) اى متاعين من امتعة البيت كصحنين وابريقين احدهما زائد عن استعماله (وجنس رفيع) اى مستحسن ولذيذ من الادام والثوب والاثاث والاولى فى المقام الاعلى عدم التقيد بالادنى والاعلى كما كان طريق المصطفى وقد قال يحيى بن معاذ الرازى الزاهد الصادق قوته ما وجد ولبسه ما ستر ومسكنه حيث ادركه المساء الدنيا سجنه والقبر مضجعه والخلوة مجلسه والاعتبار فكرته والقرآن حديثه والرب انيسه والذكر رفيقه والزهد قرينه والحزن شعاره والحياء دثاره والجوع ادامه والحكمة كلامه والتراب فراشه والتقوى زاده والصمت غنيمته والصبر معتمده والتوكل حسيبه والعقل دليله والعبادة حرفته والجنة مبلغه ان شاء الله وحده

❁ ثم اعلم ان المهمات فى الامور الدنيوية ستة ❁ المطعم والملبس والمسكن والاثاث والمنكح ومايكون وسيلة الى هذه الخمسة اما المطعم فلا بد للانسان من قوت حلال يقيم صلبه

واقل مقداره لقيمات كما ورد فى حده واقل جنسه ما يقوته ولوخبز نخالة واوسطه خبز الشعير والذرة واعلاه خبز البر غير منخول واقل ادامه الملح او البقل او الخل واوسطه الزيت والسمن واللبن واعلاه اللحم وذلك فى الاسبوع مرة اومرتين ووقته الاقل فى ثلاثة ايام واوسطه فى اليوم والليلة مرة واقصاه فى اليوم والليلة مرتين ويشير اليه قوله تعالى * ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا * وكان يعيش عليه السلام بالاسودين اى التمر والماء وما شبع هو واهل بيته من خبز الشعير يومين متتابعين وفى رواية عنه عليه السلام انه من طلب الفردوس فخبز الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير وكان عيسى عليه السلام يقول يابنى اسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البرى وخبز الشعير واياكم وخبز البر فانكم لن تقوموا بشكره ولما اتى عليه السلام اهل قبا اتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل فوضع القدح فى يده وقال اما انى لست احرمه ولكنى اتركه تواضعا لله واما الملبس فاقل درجاته ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة وهو كساء يتغطى به واوسطه قميص وقلنسوة ونعلان واعلاه ان يكون له مع ذلك منديل وسروال واقل جنسه المسوح الخشنة واوسطه الصوف الخشن واعلاه القطن الغليظ قال ابو بردة اخرجت لنا عائشة كساء ملبدا وازارا غليظا وقالت قبض عليه السلام فى هذين رواه الشيخان ولابن ماجه من حديث ابى ذر باسناد جيد ما من عبد لبس ثوب شهرة الا اعرض الله تعالى عنه حتى ينزعه وقد اشترى عليه السلام سروالا باربعة دراهم كما رواه ابو يعلى من حديث ابى هريرة ولابى الشيخ من رواية عروة بن الزبير مرسلا كان رداؤه عليه السلام اربعة اذرع وعرضه ذراعان ونصف وفى طبقات ابن سعد من حديث ابى هريرة كان له ازار من نسج عمان طوله اربعة اذرع وشبر فى ذراعين وشبر وعن جابر قال دخل عليه السلام على فاطمة وهى تطحن بالرحى وعليها كساء من اجلة الابل فلما نظر اليها بكى وقال يافاطمة تجرعى مرارة الدنيا لنعيم الابد فانزل الله سبحانه * ولسوف يعطيك ربك فترضى * وقال عليه السلام لعائشة ان اردت اللحوق بى فاياك ومجالسة الاغنياء ولا تنزعى ثوبا حتى ترقعيه رواه الترمذى والحاكم وصححه من حديث عائشة ولابى نعيم والحاكم والبيهقى فى شعبه ان من خيار امتى فيما انبأنى العلى الاعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله ويبكون سرا من خوف عذابه مؤنتهم على الناس خفيفة وعلى انفسهم ثقيلة يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان اجسامهم فى الارض وافئدتهم عند العرش وعد على قميص عمر اثنى عشر رقعة بعضها من ادم واشترى على كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ولبسه وهو فى الخلافة وقطع كميه من الرسغين وقال الحمد لله الذى كسانى هذا من رياشه وقال بعضهم قومت ثوبى سفيان ونعليه بدرهم واربعة دوانق ولاحمد من حديث معاذ ان عبد الله ليسوا بالمتنعمين واما المسكن فالاعلى ان يقنع بزاوية من المسجد كاصحاب الصفة

واوسطها بيت من سعف ونحوه وادناها حجرة مبنية اما بشراء اوكراء وللطبرانى من رواية ابى العالية ان العباس بنى غرفة فقال له عليه السلام اهدمها ولابى داود من حديث انس بسند جيد رأى عليه السلام قبة مشرفة فقال لمن هذه قالوا لفلان فلما جاء الرجل اعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل اصحابه عن تغير وجهه عليه السلام فاخبر بذلك فذهب فهدمها فمر عليه السلام بالموضع فلم يرها فاستخبر فاخبر بانه هدمها فدعا له بخير ولابن حبان فى الثقات وابى نعيم فى الحلية عن الحسن مرسلا مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وقال عبد الله بن عمرو مر علينا عليه السلام ونحن نعالج خصا فقال ما هذا فقلنا خص لنا قد وهى فقال ارى الامر اعجل من ذلك رواه ابوداود والترمذى وصححه وابن ماجه وقال الحسن دخلنا على صفوان بن محيريز وهو فى بيت من قصب قد مال عليه فقيل له لو اصلحته فقال كم رجل قد مات وهذا قائم على حاله ولابى داود من حديث انس بسند جيد كل بناء وبال على صاحبه الا مالا يعنى ما لابد منه وكان فى السلف من يبنى داره مرارا فى مدة عمره لضعف بنائه وكان منهم اذا حج اوغزا نزع بيته اووهبه لجيرانه فاذا رجع اعاده قال الحسن كنت اذا دخلت بيوته عليه السلام ضربت بيدى الى السقف وقال عليه السلام للرجل الذى شكا اليه ضيق منزله اتسع فى السماء يعنى فى الجنة رواه ابوداود فى المراسيل ووصله الطبرانى وقال ابن مسعود يأتى قوم يرفعون الطين ويضعون الدين ويستعملون البرازين يصلون الى قبلتكم ويموتون على غير ملتكم واما اثاث البيت فاعلاها حال عيسى عليه السلام اذ كان لا يصحب الامشاطا وكوزا فرأى انسانا يمشط لحيته باصابعه فرمى المشط ورأى آخر يشرب من النهر فرمى الكوز ثم الظرف ينبغى ان يكون من الخزف ولو مكسور الطرف وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة فى اشياء متعددة كالذى معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها وقالت عائشة رضى الله عنها كان ضجاعه اى فراشه عليه السلام الذى ينام عليه وسادة من ادم حشوها ليف رواه ابوداود وابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح وللترمذى فى الشمائل من حديث حفصة ان فراشه عليه السلام كان عباءة مثنية ووسادة من ادم حشوها ليف ورأى عليه السلام على باب منزل عائشة سترا فهتكته وقال كلما رأيته ذكرت الدنيا ارسلى به الى فلان رواه الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من حديثها وقال الحسن ادركت سبعين من الخيار ما لاحدهم الا ثوبه وما وضع احدهم بينه وبين الارض ثوبا قط وكان اذا اراد النوم باشر الارض بجسمه وجعل ثوبه فوقه واما المنكح فقال قائلون لا زهد فى اصل النكاح ولا فى كثرته والى هذا ذهب سهل بن عبد الله وقال قد حبب الى سيد الزاهدين النسائى فكيف تزهد فيهن ووافقه ابن عيينة قال وكان على ازهد الصحابة وله اربع نسوة وبضع

عشرة سرية والصحيح ماقاله ابو سليمان الداراني ان كل ما شغلك عن الله من اهل ومال وولد فهو عليك مشوم وهو مستفاد من قوله تعالى * لاتلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فاولئك هم الخاسرون * وقوله * ان من ازواجكم واولادكم عدوالكم فاحذروهم * وقال ابو سليمان الزهد في النساء ان يختار المرأة الفقيرة الضعيفة على المرأة الجميلة الشريفة وقال الجنيد احب للمريد المبتدى ان لايشغل قلبه بثلاث ولايغير حاله الكسب وطلب الحديث والتزوج وقال احب للصوفى ان لايكتب ولايقرأ لانه اجمع لهمه واما ما يكون وسيلة الى هذه الخمسة فهو المال والجاه فانه قد يفتقرالى خادم له فينفعه وقد يحتاج الى دفع ظلم عن نفسه اوغيره والغالب ان من اشتغل بالعلم والعمل تمهد له من قلوب الخلق مايدفع به عنه الاذى ولوكان بين الكفار فكيف بين الابرار واما المال فقدرالضرورة كاف فى المعيشة فاذا كان كاسبا واكتسب حاجة يومه ينبغى ان يتركه ويشتغل بامريهمه وقد قال ابو سليمان لاينبغى للرجل ان يرهق اهله الى الزهد بل يدعوهم اليه فان اجابوه والاتركهم وفعل بنفسه ماشاء وروى ان ابراهيم الخليل عليه السلام اصابته حاجة فذهب الى صديق له يستقرض شيئا فلم يقرضه فرجع مهموما فاوحى الله اليه لوسألت خليلك لاعطاك فقال يارب عرفت مقتك للدنيا فخفت ان اسألك شيئا منها فاوحى الله اليه ليس الحاجة من الدنيا فتبين من هذا ان تحصيل قدر الحاجة من امر الدين (والاولى المبالغة فى التشديد) اى التضييق على نفسك ان كنت من المريدين المجتهدين (تحاميا) اى تحافظا من ستة اشياء (عن الانس بالدنيا) ونسيان العقبى والاشتغال بغير ذكر المولى (و) عن (طول المكث للحساب) المتضمن لعذاب الحجاب (و) عن (الحبس) والتوقف (عن الجنة) وما فيها من الثواب (واللوم) اى وعن الملامة فى اكتساب السيئات (والتعيير) اى التوبيخ فى تقصير الطاعات (والحرمان عن الدرجات العالية) والمقامات الغالية (وهو) اى المبالغة على النهج المذكور كله ورد فيه (المأثور) من السلف الصالحين فعن الثورى وكان قد شدد على نفسه فقيل لو خففت لنلت الجنة ايضا فما هذه الشدة فقال كيف لا اشدد على نفسى وقد وردان جارية تضحك عند زوجها فى الجنة فتشرق الجنان الثمانية بنور اسنانها فيظنون ان ذلك نور من جهة الرب سبحانه فيخرون ساجدين فنودوا ان ارفعوا روسكم ليس الذى تظنون انما هو نورجارية تبسمت فى وجه زوجها واما ما حكى ان داود الطائى كان له جب مكسور فيه ماؤه فكان لايرفعه من الشمس ويشرب منه الماء الحار ويقول من وجد لذة الماء البارد يشق عليه مفارقة الدنيا فلعله محمول على وقت رياضته ابتداء مخالفته النفس فى شهوته والافيعد من الزهد البارد لانه عليه السلام كان يستعذب الماء ويقول فى دعائه اللهم اجعل حبك احب الى من حب الماء البارد وقد دخل بستانا فقال لصاحبه

ان كان عندك ماء بارد فى شن والاكرعنا فاتى به فشرب وكان بعض العارفين يقول اذا شربت الماء البارد احمد الله من صميم قلبى وايضا انما خلق الله اللذات الدنيوية لتكون انموذجا للذات الاخروية وقد قال تعالى * قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق * وقال تعالى * ياايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما احل الله لكم ولاتعتدوا ان الله لايحب المعتدين * اى المتجاوزين عن الحد فى امر الدين كالرهبانيين (وورد) فى الحديث (لوكانت الدنيا تعدل عند الله) اى تساوى وتماثل (جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء) رواه الترمذى من حديث سهل بن سعد ورواه ابن ماجه بلفظ تزن بدل تعدل وقال قطرة ابدا بدل شربة ماء رواه الحاكم وصححه (الدنيا ملعونة ملعون) وفى نسخة وملعون (مافيها الاماكان لله) وهو العبادة وما يعين عليها وفى رواية الطبرانى من حديث ابى الدرداء الامايبتغى به وجه الله عزوجل واسناده لابأس به ورواه الترمذى من حديث ابى هريرة وحسنه ولفظه الاذكرالله وما والاه وعالما ومتعلما يعنى ومايجرى مجراه فانه سبحانه خلق الاشياء كلها لعباده كما يشير اليه قوله تعالى * هوالذى خلق لكم مافى الارض جميعا * وخلق عباده لعبادته كما قال * وما خلقت الجن والانس الاليعبدون * فشكر نعمته ان يصرفها فى طاعته وكفرانها ان يصرفها فى معصيته اوغفلته (ثم الحالات التى قبل الموت) خيرا اوشرا تسمى (دنيا والتى بعده) اى بعد الممات تكون (آخرة) فان من مات فقد قامت قيامته وقد يقال بين الموت والبعث حال يقال له البرزخ فانه الواسطة بين الدنيا والاخرى (لكن العبادة ومالابدمنه فيها) مما يعين عليها كالاكل والشرب واللباس والنوم المخالطة ونحوها بقدر الضرورة (معدودة من الآخرة بخر وجها عماجمع) من امورها (فيماورد) فى التنزيل (انما الحيوة الدنيا لعب) وهومايتعب الشخص فيه نفسه من غير فائدة له وهو فعل الصبيان والمجانين (ولهو) وهو مايشغل به عن الطاعات ويلهو عن العبادات وهو فعل اهل الغفلة من الشباب وارباب المال والجاه كمايشير اليه قوله تعالى * الهيكم التكاثر حتى زرتم المقابر * (الآية) اى * وزينة * وهى الغالب على النساء ومن تشبه بهن من السفهاء * وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد * وهو حال اكثر اهل الدنيا من الاغنياء والامراء (فهى) اى الاشياء التى جمعت فى الآية السابقة (الدنيا باجمعها) اى بتمامها (ومتاعها) مبتدأ خبره (ماجمع) من انواعها (فيماورد) فى التنزيل (زين للناس حب الشهوات) اى اللذات (الآية) اى * من النساء والبنين * اى دون البنات ولذا قيل فى قوله تعالى * المال والبنون زينة الحيوة الدنيا والباقيات الصالحات * ان البنات داخلة فى الباقيات الصالحات * والقناطير المقنطرة * اى الحمول الكثيرة * من الذهب والفضة * وقد ورد لو كان لابن

آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثا ولن يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب * والخيل المسومة * اى المعلمة او المرسلة * والانعام * من الابل والبقر والغنم * والحرث * للزراعة والاشجار والاثمار والازهار * ذلك متاع الحيوة الدنيا * اى وما الحيوة الدنيا الامتاع الغرور * والله عنده حسن المأب * وجزيل الثواب * وما عند الله خير للابرار (والشغل بها عن حظوظها) اى لذاتها وشهواتها (باطنا وتحصيلها ظاهرا) واما الانبياء والاصفياء فاختار الله لهم الدرجات العليا فى العقبى والمحن والبلايا فى الدنيا فعن ابى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم لقد كان الانبياء قبلى ليبتلى احدهم بالفقر فلا تجد الا العباء وان كان احدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتلهم القمل وكان ذلك احب اليهم من العطاء اليكم رواه ابن ماجه باسناد صحيح وعن ابن عباس قال لما ورد موسى ماء مدين كانت خضرة البقل ترى فى بطنه من الهزل (وعلاج حبها معرفة الرب) فان معرفة الرب موجبة لحبه وحبه لا يجتمع مع حب غيره كما يشير اليه قوله سبحانه * ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه * ولانه سبحانه يبغضها فلا ينبغى لاحد ان يحبها (والنفس) اى معرفة قدرها حتى لا يضيعها فى طلبها الدنية ويمنعها عن تحصيل المنازل السنية (وشرف الآخرة) ودرجاتها العالية الباقية ونفاسة مراتبها الرفيعة المنيعة (وخساسة الدنيا) من خسة شركائها وسرعة فنائها وكثرة عنائها وقلة غنائها ويكفيك فى ذمها ما ورد فى حقها من ان الدنيا جيفة وطالبها كلابها فقد روى ابو الشيخ فى تفسيره عن على موقوفا الدنيا جيفة فمن ارادها فليصبر على مخالطة الكلاب واخرج الديلمى عن على مرفوعا اوحى الله تعالى الى داود يا داود مثل الدنيا كمثل جيفة اجتمعت عليها الكلاب يجرونها افتحب ان تكون كلبا مثلهم فتجر معهم ولاحمد عن عائشة مرفوعا ورجاله ثقات الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وفى صحيح مسلم والترمذى عن ابى هريرة مرفوعا الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ورواه احمد عن عبد الله بن عمرو بزيادة فاذا فارق الدنيا فارق السجن ثم الدنيا فتنة وبلية كما فى صحيح مسلم الدنيا خضرة حلو وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون وفقنا الله سبحانه وتعالى بما يحب ويرضى فى الدنيا والاخرى وبلغنا المقام الاسنى مع الذين احسنوا الحسنى انه جواد كريم *

الباب العشرون فى التوحيد والتوكل واليقين

(بسم الله الرحمن الرحيم) المنفرد بتوحيد الذات وتفريد الصفات عليه يتوكل المتوكلون وبه يتقرب المتقون الموقنون (ادنى رتب التوحيد) من مراتبه الاربع (محض القول) بالتفريد بان يقول الانسان بظاهر اللسان لا اله الا الله وقلبه غافل عنه وهو جاهل به ومنكر له كتوحيد المنافق (وهو) اى قوله (النفاق والعياذ بالله منه) اى من النفاق وما يترتب عليه من الخلاف والشقاق (ولا يفيد) ذلك التوحيد فى الحال الا عصمة الدم والمال اى حفظ دم الموحد وماله (فورد) فى الحديث الصحيح وصدره امرت ان اقاتل الناس حتى

يشهدوا ان لا اله الا الله (فاذا قالوها) اى كلمة التوحيد (عصموا منى دماءهم واموالهم) تمام الحديث الا بحقها وحسابهم على الله (ثم التصديق) معه وهو ان يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين ويكون اعتقاده (كما للعامى) اى كما هو اعتقاد العوام (والمتكلم) وهو الخائض فى علم الكلام (فهو) اى المتكلم (لايتميز) عن العامى فى هذا المقام (الا بالحيلة) اى الصنعة الجدلية (الدافعة لتشويش المبتدعة) المانعة من انهزام قواعد اهل السنة والجماعة (ويفيد) التصديق الجنانى مع الاقرار اللسانى (النجاة من الخلود فى النار) ولو كان صاحبه من الفساق والفجار (ثم مشاهدة صدور الكل) اى ظهور جميع مايقع فى الكون (منه تعالى) وفى الحقيقة هذا يسمى توحيد الافعال فى المصنوعات وما سبق توحيد الذات والصفات وهذا انما يكون بطريق الكشف بواسطة نور الحق لتنوير الاسرار وهو مقام المقربين الابرار وذلك بان يرى اشياء كثيرة ظاهرها الاغيار ولكنه يراها على كثرتها صادرة من الواحد القهار فيقول المشاهد حينئذ ليس فى الدار غيره ديار (ويفيد) هذا التوحيد (اعتماد القلب عليه) فى امور الدنيا والاخرى (وانقطاعه عماسواه) فلايرى احدا يضر وينفع اويعطى ويمنع الا اياه (وهو التوكل) اى الاعتماد على الله وعدم الالتفات الى ما عداه وتوضيحه ان ينكشف لك ان لا فاعل الا الله وان كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وضر ونفع وحلو ومر وخير وشر وغنى وفقر وحيات وممات الى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم الوجود فى دائرة الشهود فالمنفرد بابداعه وابدائه واختراعه هو الله سبحانه لاشريك له فيه واذا انكشف لك هذا لم تنظر الى غيره بل كان منه خوفك واليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك فانه الفاعل على الانفراد دون غيره وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والارض واذا انفتح لك ابواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا اتم من المشاهدة بالبصر وانما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد فى مقامين ويبتغى به ان يتطرق الى قلبك شائبة الشرك بشيئين احدهما الالتفات الى اختيار الحيوانات والثانى الالتفات الى الجمادات اما الالتفات الى الجمادات فكاعتمادك على المطر فى خروج الزرع ونباته ونمائه والى الغيم فى نزول المطر وعلى البرد فى اجتماع الغيم وعلى الريح فى استواء السفينة وسيرها وهذا كله شرك فى التوحيد وجهل بحقائق امر التفريد ولذا قال تعالى * فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون * قيل معناه يقولون لولا استواء الريح لما نجونا ومن انكشف له امر العالم كما هو عليه علم ان الريح هو الهواء والهواء لايتحرك بنفسه مالم يحرك وكذا محركه وهكذا ينتهى الى المحرك الاول الذى لامحرك له ولاهو متحرك فى نفسه ومنه قوله تعالى * ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى * واما الالتفات الى اختيار الحيوانات فى الافعال الاختيارية فيقول الشيطان كيف ترى الكل من الله وهذا الانسان

يعطيك رزقك باختياره فان شاء اعطاك وان شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذى يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك ان شاء حز رقبتك وان شاء عفا عنك فكيف لاتخافه ولا ترجوه وامرك بيده فانت تشاهد ذلك ولاتشك فيه وعند هذا زلت اقدام الاكثرين الا عباد الله المخلصين الذين لاسلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر ان جميع ما فى السموات وما فى الارض من الشمس والقمر والنجوم والمطر والارض والحجر والمدر والشجر وكل حيوان وملك وبشر مسخرات فى قبضة القدرة الالهية الصمدانية والقوة السبحانية الربانية ثم اعلم انه سبحانه قال * وما تشاؤن الا ان يشاء الله * واجمع السلف على ان ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فلا يتحرك الانسان ولا يسكن الا اذا شاء الله شاء العبد ام لم يشأ فليست المشية اليه فمهما وجدت المشية التى تصرف القدرة الى مقدورها انصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل الى المخالفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة محركة ضرورة عند انجزام المشية والمشية تحدث ضرورة فى القلب فهذه ضروريات يرتبط بعضها الى بعض وليس للعبد ان يدفع وجود المشية ولا انصراف القدرة الى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشية للقدرة فهو مضطر فى الجميع * فان قيل فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار وانت لاتنكر الاختيار فكيف يكون مجبورا مختارا اجيب بانه لو انكشف لك الغطاء لعرفت انه فى عين الاختيار مجبور لانه عبد مسخر مقهور ولذا قال بعض العارفين لا تختر فان كنت تختار فاختر ان لاتختار وربك يخلق ما يشاء ويختار والله سبحانه اعلم بحقايق الاسرار (ثم رؤية عدم ماسواه) اى مشاهدته بجنب وجود مولاه فلا يرى فى الوجود الا واحدا وهو مشاهدة الصديقين الاحرار (ويفيد) هذا التوحيد (الاستغرق به تعالى) اى بشهوده (والغيبة عن الغير) اى الغفلة عن وجود غيره (وهو) عند الصوفية (الفناء) فى التوحيد الحاصل من كمال الصفاء وجمال الوفاء من حيث انه لايرى الا واحدا فلا يرى نفسه ايضا فاذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالواحد كان فانيا عن نفسه فى توحيد بمعنى انه فنى عن رؤية نفسه بالكلية وقد يفنى عن رؤية فنائه ايضا ويسمى الفناء عن الفناء ويبقى له البقاء فى مشاهدة اللقاء فالاول موحد بمجرد اللسان وذلك يعصم صاحبه عن السيف والسنان والثانى موحد بجنانه مفهوم لسانه لكن ليس فيه انشراح وانفتاح لشانه والثالث موحد بمعنى انه لم يشاهد الا فاعلا واحدا والرابع موحد بمعنى انه لم يظهر فى نظر شهوده غير الواحد الواجب فى وجوده ولايرى الكل من حيث انه كثير بل من حيث انه واحد وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد ويسمى مقام جمع الجمع فى حال التوحيد وهو ان لايحجزه الكثرة عن الوحدة ولا تحجبه الوحدة عن الكثرة وبهذا يتبين لك ان توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لايخلو عن مشاهدة الغير والالتفات الى الكثرة بالاضافة الى من لايشاهد سوى الواحد الحق المطلق فان قلت كيف يتصور ان

لايشاهد الا واحدا وهويشاهد السماء والارض وما بينهما من الطول والعرض وهى كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا * فاعلم ان العارفين قالوا صدور الاحرار قبور الاسرار كما يشير اليه قوله عليه السلام لوتعلمون ما اعلم وقالوا ايضا افشاء سر الربوبية كفر لكن قد يمكن الاشارة الى كشف مافيه ستر بان يقال الشئ قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار وقد يكون واحدا بنوع آخر من ملاحظة واستبصار وهذا كما ان الانسان كثير اذا التفت الى روحه وجسده واطرافه وعروقه وعظامه واحشائه واعضائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة اخرى واحد وكم من شخص يشاهد انسانا ولا يخطر بباله كثرة امعائه واجزائه فهو فى حال الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفرق وكأنه فى عين الجمع والملتفت الى الكثرة فى تفرقه فكذا كل ما فى الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة وهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد وباعتبارات اخر سواها كثير ثم هذه المشاهدة التى لا يظهر فيها الا الواحد الحق تارة تدوم وتارة كالبرق الخاطف وهى الاكثر والدوام نادر عزيز يغلب فى المجاذيب والى هذا المقام اشار الحسين المنصور بن الحلاج حيث رأى الخواص يدور فى الاسفار فقال فيماذا انت قال ادور فى الاسفار لاصحح حالى فى التوكل وقد كان من المتوكلين فقال الحسين قد افنيت عمرك فى عمران باطنك فاين الفناء فى التوحيد فكان الخواص فى تصحيح المقام الثالث من التوحيد فطالبه بالمقام الرابع من التفريد فان قلت فكيف الجمع بين التوحيد والشرع اذ معنى التوحيد ان لافاعل الا الله ومعنى الشرع اثبات الافعال للعباد فان كان العباد فاعلا فكيف يكون الله فاعلا وان كان الله فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ومفعول بين فاعلين غير مفهوم فالجواب نعم ذلك غير مفهوم اذا كان للفاعل معنى واحد وان كان له معنيان ويكون الفعل مجملا مرددا بينهما لم يتناقض كما يقال قتل الامير فلانا ويقال قتله الجلاد لكن الامير قتل بمعنى آخر والجلاد قتل بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى والله فاعل بمعنى آخر فمعنى كون الله فاعلا انه المخترع الموجد ومعنى كون العبد فاعلا انه المحل الذى خلقت فيه القدرة بعد ان خلق الله فيه الارادة بعد ان خلق فيه العلم ولاجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله سبحانه الافعال فى القرآن مرة الى الملائكة واخرى الى العباد ونسبها بعينها مرة الى نفسه فقال تعالى * قل يتوفيكم ملك الموت الذى وكل بكم * وقال * ثم توفته رسلنا * وقال * الله يتوفى الانفس حين موتها * وقال * فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى * وهو جمع بين النفى والاثبات ظاهرا ولكن معناه ما رميت بالمعنى الذى يكون به الرب راميا اذ رميت بالمعنى الذى يكون به العبد راميا فانهما لغتان مختلفتان فالمعنى وما رميت حقيقة اذ رميت مجازا ولكن الله رمى حيث خلق فيك قوة الرمى اوخلق فى مرمى الوصول الى عين العدو وقيل ما رميت خلقا اذ رميت كسبا

ولكن الله قدر رميك ازلا وكذا ذكر الله تعالى فى القرآن الادلة والآيات فى الارض والسموات ثم قال * اولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد * وقال * شهد الله انه لا اله الا هو * فبين انه الدليل على نفسه وذلك ليس بمتناقض بل طريق الاستدلال مختلف فكم من طالب عرف الله بالنظر الى الموجودات كما قال بعضهم ما نظرت شيئا الا ورأيت الله بعده وهذا طريق المريد السالك وكم من طالب عرف الموجودات بالله سبحانه كما قال بعضهم ما نظرت شيئا الا ورأيت الله قبله وهذا مسلك المريد المجذوب ومن هنا قال من قال عرفت ربى بربى ولولا ربى لما عرفت ربى فالحاصل ان الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تناقض لهذه المعانى اذا فهمت حقائق المعانى ولذا قال عليه السلام للذى ناوله التمرة خذها لولم تأتها لاتتك كما رواه ابن حبان والطبرانى فاضاف الاتيان اليه والى التمرة ومعلوم ان التمرة لاتأتى على الوجه الذى يأتى الانسان به اليها وكذا لما قال ذلك التائب اتوب الى الله ولا اتوب الى محمد قال عليه السلام عرف الحق لاهله وذلك لان من اضاف الكل الى الله فهو المحقق الذى عرف الحق لاهله ومن اضاف الى غيره فهو المتجوز فى مرامه المستعبر فى كلامه ومن هنا قال عليه السلام اصدق بيت قالته العرب قول لبيد * الا كل شئ ماخلا الله باطل * متفق عليه من حديث ابى هريرة والمعنى انما لاقوام له بنفسه وانما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وانما حقيته وحقيقته لغيره لا بنفسه فاذن لاحق بالحقيقة الا الحى القيوم ليس كمثله شئ وهو السميع البصير فانه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته فهو الحق وما سواه باطل اى مضمحل وزائل وكما قال تعالى * كل شئ هالك الا وجهه * ومن هنا قال سهل يامسكين كان ولم تكن ويكون ولاتكون فلما كنت اليوم صرت تقول انا وانا كن الآن كأن لم تكن فانه اليوم كما كان وهذا تفصيل ما اجمل فى قول بعضهم كان الله ولم يكن معه شئ وهو الآن على ما عليه كان هذا واذ ثبت فى نفسك بكشف اواعتقاد جازم انه لافاعل الا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك ان له تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والرحمة بجملة الآحاد وانه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة الكل لامحالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت الى غيره بوجه ولا الى نفسك وحولك وقوتك فانه لا حول ولاقوة الا بالله فالحول عبارة عن الحركة والقوة عبارة عن القدرة (والالتفات الى الغير) حينئذ لاحد الامرين (اما لضعف اليقين) وذلك (لتطرق الشك) وخطوره فى امور يجب عدم الالتفات اليها (وعدم الاستيلاء) اى ولقلة غلبة اليقين واستعلائه (على القلب) ودخول اليقين فى سويدائه (واما للضعف الجبلى) اى الخلقى الطبيعى وهو مرض القلب باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الاوهام الغالبة لديه فان القلب قد ينزعج تبعا للوهم وطاعته له من غير نقصان فى اليقين

فان من كان يتناول عسلا فشبه بين يديه بالعذرة ربمانفر عنه طبعه ويمتنع عليه تناوله (كالجبان مطيع الوهم لايطيق البيتوتة فى بيت خال اوفيه ميت) فلو كلف العاقل ان يبيت مع الميت فى قبر اوفراش اوبيت نفر طبعه عن ذلك وان كان متيقنا لكونه ميتا وانه جماد فى الحال وان سنة الله مطردة بانه لايحشره الآن ولايحييه ولو احياه لعاد كما كان واحبه وابقاه وعانقه وارتضاه كما ان سنته سبحانه مطردة بان القلم الذى فى يده لايقلبه حية وان كان قادرا عليه ومع انه لايشك فى هذا اليقين فينفر قلبه عن مضاجعة الميت فى فراش بل الميت معه فى بيت ولا ينفر من سائر الجمادات وذلك جبن فى القلب وهو نوع ضعف قل ما يخلو الانسان عن شئ منه وان قل وقد يقوى فيصير مرضا حتى يخاف ان يبيت فى البيت وحده مع اغلاق الباب واحكامه فاذن لايتم التوكل لابقوة القلب وقوة اليقين جميعا اذ بهما يحصل سكون القلب وطمانينته فالسكون فى القلب شئ واليقين شئ آخر فكم من يقين لاطمانينة معه كما قال تعالى * اولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى * فالتمس ان يشاهد احياء الميت بعينه ليترقى من مقام علم اليقين الى عين اليقين هذا وقد قال تعالى * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا * فالانسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان ولذا قيل الشفيق بسوء الظن مولع واذا انضم اليه الجبن وضعف القلب ومشاهدة المتكلفين على الطلب والكسب غلب سوء ظنه وضعفت قوة توكله وعنه عليه السلام ان الله عز وجل بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضاء واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط (وادنى رتب التوكل) على الله (ان يعتمد) عليه (اعتماد المتوكل) من المخلوق (على الوكيل) مثله (للعلم) اى لعلم الموكل (بشفقته تعالى وقدرته وعلمه) كما قدمناه وهذه الدرجة الاولى (ثم) التوكل الاعلى منه ان يعتمد عليه سبحانه (اعتماد الطفل على الام) فيكون حاله مع الله كحالة الطفل مع امه فانه لا يعرف غيرها ولا يفزع الى احد سواها ولا يعتمد الا اياها فاذا رآها تعلق فى كل حال بذيلها ولم يتركها وان نابه امر فى غيبتها كان اول سابق الى لسانه يا اماه يا اماه واول خاطر يخطر على قلبه امه فانها مفزعة وقد وثق بكفالتها وشفقتها وكفايتها ورعايتها فمن كان تألهه الى الله ونظره الى مولاه واعتماده عليه فى دنياه واخراه كلف به كما تكلف الصبى بامه بل اقوى منه فانه سبحانه ارحم الراحمين فيكون متوكلا حقا كما ان الطفل متوكل على امه صدقا (وتفارق) هذه الرتبة الثانية الدرجة (الاولى) بشيئين (بعدم الالتفات على الاعتماد استغراقا بالام) فى باب الاستناد اذ الصبى اذا طولب بتفصيل الكل لا يعرف ان التوكل ما هو فلا يعرف الا الوكيل وتوضيحه فى مقام الفرق بين هذا وبين الاول ان هذا متوكل وقد فنى فى توكله عن توكله اذ ليس يلتفت قلبه الى التوكل وحقيقته بل على المتوكل عليه فقط فلا مجال فى قلبه لغير المتوكل

عليه

عليه واما الاول فمتوكل بالتكلف والكسب وليس فانيا عن توكله حيث له التفات الى توكله وشعور به وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده والى هذه الدرجة اشار سهل حيث سئل عن التوكل ما ادناه فقال ترك الامانى قيل فاوسطه قال ترك الاختيار وهذا اشارة الى الدرجة الثانية وسئل عن اعلاه فلم يذكره وقال لم يعرفه الا من بلغ اوسطه (وترك التدبير) اى وتفارق الثانية الاولى بترك تدبير الامور اذا كان فى مقام الحضور (فتلك الرتبة الاولى (لاتنافيه) اى اصل التدبير (بالطريق الذى رسمه) اى بينه (الوكيل) به وعينه بان يفعله تصريحا اوتلويحا ولكن تنافى بعض التدبيرات التى مارسمه بها ولا كلفه فى تحصيلها وذلك كالمتوكل على وكيله فى الخصومة فانه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لايترك التدبير الذى اشار اليه وكيله اوالتدبير الذى عرف من عادته وسنته دون صريح اشارته فاما الذى يعرفه باشارته بان يقول لست اتكلم الا بحضورك فيشتغل لامحالة بالتدبير للحضور ولا يكون هذا مناقضا لتوكله عليه اذ ليس هو فزعا منه الى حول نفسه وقوتها فى اظهار الحجة ولاالى حول غيره بل من تمام توكله ان يفعل مارسمه له اذ لو لم يكن متوكلا ولامعتمدا له فى قوله لما حضر بقوله واما المعلوم بعادته والمراد سنته فهو ان يعلم من عادته ان لايحاج الخصم الا من السجل فتمام توكله ان كان متوكلا عليه ان يكون معولا على سنته وعادته ووفائه بمقتضاها وهو ان يحمل السجل مع نفسه اليه عند مخاصمته فاذن لايستغنى عن التدبير فى الحضور وعن التدبر فى احضار السجل ونحوه من الشهود فى الامور (ثم) اعلى رتب التوكل على الله تعالى (ان يكون المتوكل بين يدى الله سبحانه فى حركاته وسكناته (كالميت بين يدى الغسال) حال تقلبه وسائر تصرفاته لايفارقه الا فى انه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الازلية كما تحرك يد الغاسل الميت وهو الذى قوى يقينه بانه سبحانه مجرى الحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات وان كله يحدث جبرا فيكون غائبا عن الانتظار لمايجرى عليه (وتفارق هذه المنزلة الثالثة الدرجة (الثانية بترك السؤال مطلقا) سواء كان السؤال من الله اومن غيره فى جميع الاحوال كما روى عن الخليل انه لما قال جبريل الك حاجة قال اما اليك فلا واما الى الله فبلى فقال سل ربك فانك فى مقام البلاء المورث للولاء فقال حسبى من سؤالى علمه بحالى وحاصله ان صاحب هذا المقام يفارق الصبى فى ماله من المرام فان الصبى يفزع الى امه ويصيح وراءها ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها بل مثال هذا مثال صبى فرض انه يعلم امه وان لم يزعق بامه فالام تطلبه وانه وان لم يتعلق بذيل امه فالام تحمله وانه وان لم يطلب منها اللبن فالام تبتدىء وترضعه وهذا المقام فى التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته ورحمته ورعايته وانه يعطى ابتداء افضل مما يسأل فكم من نعمة ابتدأها قبل الدعاء وبغير الاستحقاق كما يشير اليه قوله تعالى * وآتاكم من كل

ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها (فتلك) اى الرتبة الثانية (انما تنافيه) اى السؤال (من غيره تعالى) فقط (وهى) اى الدرجة الثانية (اندر) اى اقل (وقوعا و)اعز (بقاء ثم الثانية ثم الاولى) كذلك فان انبساط القلب الى ملاحظة الحول والقوة والاسباب طبعى وانقباضه بالكلية عن ملاحظة هذه الاشياء عارض لايدوم فان رجع حال المتوكل الى التبرى من الحول والقوة وهذا هو تحقيق معنى لا حول ولا قوة الا بالله حقا صدقا وقد اشكل امر الحول والقوة على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعى انه يدقق فى الرأى والمعقول حتى يشق الشعر بحدة نظره فهى مهلكة مخطرة ومزلقة قدم عظيمة هلك فيه العالمون اذ اثبتوا لانفسهم امرا وهو شرك فى التوحيد واثبات خالق سوى الله فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله اياه فقد علت رتبته وعظمت نسبته ورفعت درجته وارتفعت همته وهو الذى يصدق بمعنى قوله لاحول ولاقوة الا بالله ومن بعض العارفين انه قال ما مضمونه اسأت بالذنب واعتذرت منه الى الرب مع ان اعتذارى عند قلبى اسوء من ذنبى لتضمنه دعوى الوجود والقدرة والفعل وهذه كلها مخصوصة بربى (ولابد منه) اى من التوكل فى امر الرزق وغيره لثمانية اشياء (فورد) فى التنزيل (وعلى الله) اى لاعلى ماسواه (فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) كاملين اواذا صرتم مؤمنين والامر للوجوب وفى آية اخرى * وعلى الله فليتوكل المؤمنون * وقال * نعم اجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) اى كافيه فيما تمناه وقال * اليس الله بكاف عبده * فمن يطلب من غيره الكفاية فهو مكذب لهذه الآية وقال * ان الله يحب المتوكلين * وناهيك بخصلة موجبة للمحبة الالهية وقال * ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم * اى عزيز لايذل من استجار به ولايضيع من لاذ بجنابه والتجأ الى حماه وزمامه وبابه حكيم لا يقصر عن تدبير امر من توكل على حسن تدبيره وفق تقديره وقال * وتوكل على الحى الذى لا يموت * ايماء الى ان من يموت لا اعتماد عليه ولا استناد اليه كما حكى عن الخواص (ولوتوكلتم) وفى رواية لو انكم تتوكلون (على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير) تمامه تغدو خماصا وتروح بطانا رواه الترمذى والحاكم وصححاه من حديث عمر وهو مقتبس من قوله تعالى * وكاين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم * وفى رواية زيادة ولمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال وفى رواية للبيهقى لوعرفتم الله حق معرفته لزالت بدعائكم الجبال وعن ابن مسعود مرفوعا رايت الامم بالموسم فرأيت امتى قد ملأت السهل والجبل فاعجبنى كثرتهم وهيئاتهم فقيل لى افرضيت فقلت نعم فقيل ومع هؤلاء سبعون الفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل من هم يا رسول الله قال الذين لايكتوون ولايتطيرون ولايسترقون

وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة بن محسن فقال يارسول الله ادع الله ان يجعلنى منهم فقال عليه السلام سبقك بها عكاشة رواه منيع باسناد حسن واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس وللحاكم وغيره من حديث ابن عباس من سره ان يكون اغنى الناس فليكن بما عند الله اوثق منه بما فى يديه وللطبرانى وغيره من رواية الحسن عن عمران بن حصين ولم يسمع منه انه قال عليه السلام من انقطع الى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها ويروى انه لما قال جبريل لابراهيم الخليل الك حاجة فقال اما اليك فلا وفاء بقوله حسبى الله ونعم الوكيل انزل الله فيه * وابراهيم الذى وفى * وقد اوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ما من عبد يعتصم بى من دون خلقى فيكيده اهل السموات والارض الا جعلت له مخرجا وقال سعيد بن جبير لدغتنى عقرب فاقسمت على امى لتسترقين فناولت الراقى التى لم تلدغ وقال بعض العلماء لايشغله المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع امر آخرتك ولا تنال من الدنيا الا ماكتبه الله لك وقال هرم بن حيان لاويس القرنى اين تأمرنى ان اكون فاومأ الى الشام فقال الهرم كيف المعيشة بها فقال اويس اف لهذه القلوب قد خالطتها الشكوك فما تنفعها الموعظة وقال بعضهم متى رضيت بالله وكيلا وجدت الى كل خير سبيلا فقال ابو موسى الديبلى قلت لابى يزيد ما التوكل فقال ما تقول انت ان اصحابى يقولون لو ان السباع والافاعى عن يمينك ويسارك ما تحرك لذلك سرك فقال ابو يزيد نعم هذا قريب ولكن لو ان اهل الجنة فى الجنة يتنعمون واهل النار فى النار يعذبون ثم وقع لك تميز بينهما خرجت من جملة المتوكل قال فى الاحياء ما ذكره ابو موسى خبر عن اعلى احوال التوكل وهو المقام الثالث وما ذكره ابو يزيد عبارة عن اعز انواع العلم الذى هو من اصول التوكل وهو العلم بالحكمة وان ما فعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تمييز بين اهل النار واهل الجنة بالاضافة الى اصل العدل والحكمة وهذا اغمض انواع العلم ووراء سر القدر وابو يزيد قل ما يتكلم الا عن اعلى المقامات واقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن نحو الحيات شرطا فى المقام الاول من التوكل فقد احترز الصديق فى الغار اذ سد منافذه الا ان يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه باطن سره اويقول انما فعل ذلك شفقة على رسوله لاعلى نفسه وانما يزول التوكل بحركة سره لغيره لامر يرجع الى نفسه وللنظر فى هذا مجال لان امثال ذلك لاتناقض احوال التوكل فان حركة السر من الحيات هو الخوف وحق المتوكل ان لا يخاف بتسلط الحيات اذ لا حول للحيات ولا قوة الا بالله وان احترز لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوته فى الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير ويشير الى هذا المقام قوله تعالى لموسى * لا تخف انى لايخاف لدى المرسلون * وقال * فاوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف

انك انت الاعلى * لانك فى المنظر الاعلى (وايضا) اى كما لا بد من التوكل لوجوبه لا بد منه لما يحصل (فيه التفرغ للعبادة عن الالتفات) الى تحصيل الاقوات كالمنع عن ارادة طريق السعادة فقد سئل ذو النون المصرى عن التوكل فقال خلع الارباب وقطع الاسباب فخلع الارباب اشارة الى علوم التوحيد وقطع الاسباب الى الاعمال فى مقام التفريد فقيل له زدنا فقال القاء النفس فى العبودية واخراجها من الربوبية يعنى بالتبرى من الحول والقوة (وايضا) لا بد من التوكل فانه كما هو المعلوم (لا يتغير القدر المقسوم) قال تعالى * نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحيوة الدنيا * الآية وقد سئل حمدون القصار عن التوكل فقال ان كان لك عشرة آلاف درهم وعليك دانق دين لم تأمن ان تموت ويبقى ذلك فى عنقك وان كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير ان تترك لها وفاء فلا تيأس من الله ان يقضيها عنك ويقرب منه قول صاحب المنازل ما بيدى لم اعرف نصيب من وما يصيبنى لم اعرف بيد من وفى هذا اشارة الى مجرد الايمان بسعة القدرة وان فى المقدورات اسبابا خفية سوى هذه الاسباب الظاهرة (فورد الرزق مقسوم مفروغ) ليس له اصل بهذا المبنى ولكنه صحيح من حيث المعنى فللبيهقى فى الشعب مرفوعا عن ام الدرداء ان الرزق ليطلب العبد كما يطلبه اجله ويشير اليه قوله سبحانه * الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم * بل فيه تنبيه نبيه على ان ما بقى له شئ من رزقه لم يتأت له طلب اجله وقد قال بعض العلماء لو هرب العبد من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لادركه وانه لو سأل الله ان لا يرزقه لما استجاب له وكان عاصيا ويقال له يا جاهل كيف اخلقك ولا ارزقك ولذا قال ابن عباس اختلف الناس فى كل شئ الا فى الرزق والاجل فانهم اجمعوا على ان لا رازق ولا مميت الا الله وقال عيسى عليه السلام انظروا الى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله يرزقها يوما بيوم فان قلتم نحن اكبر بطونا فانظروا الى الانعام والوحوش كيف قبض الله لها الرزق وقال ابو يعقوب السوسى المتوكلون تجرى ارزاقهم على ايدى العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون وقال بعضهم العبيد كلهم فى رزق الله لكن بعضهم يأكل بذل السؤال وبعضهم بتعب وانتظار كالتجار وبعضهم بامتهان كالصناع وبعضهم بعز كالصوفية يعبدون فيشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة ويشير الى هذا المقام قوله تعالى * ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون * الى ان قال * ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون (اربع فرغ منهن الخلق) بالفتح (والخلق) بالضم (والاجل والرزق) رواه الطبرانى من حديث ابن مسعود ولفظه فرغ الى ابن آدم من اربع الخلق والخلق والرزق والاجل ورواه احمد والطبرانى عن ابى الدرداء بلفظ فرغ الله عز وجل الى كل عبد من خمس من اجله ورزقه واثره اى عمله ومضجعه اى محل موته وشقى او سعيد ولقد احسن من قال من اهل الفنون *

* جرى قلم القضاء بمايكون * فسيان التحرك والسكون *
* جنون منك ان تسعى لرزق * ويرزق فى غشاوته الجنين *

(وايضا) لابد من التوكل اذ (المطلوب) من العبد (هو العدة) اى الاستعداد (على الطاعة) لزاد المعاد (وهو تعالى قادر على اعطائه لسبب حاصل بالطلب اودون السبب) اى اوحاصل بغير من انواع الكسب فقد قال يحيى بن معاذ فى وجود العبد الرزق دلالة على ان الرزق مأمور بطلب العبد ويؤيده قوله عليه السلام للسائل بعد اعطائه التمرة خذها ولو لم يأتها لاتتك وقد تقدم مبناه وما يؤيده من معناه وسئل ابو عبد الله القرشى عن التوكل فقال التعلق بالله فى كل حال فقال السائل زدنى فقال ترك كل سبب موصل الى سبب حتى يكون الحق المتولى لذلك فالاول عام للمقامات الثلاثة المتقدمة والثانى اشارة الى المقام الثالث خاصة وهو مثل توكل ابراهيم الخليل اذ قال له جبريل الك حاجة فقال اما اليك فلا اذ كان سؤاله سببا يوصل الى سبب وهو حفظ جبريل له فتركه ثقة بان الله ان اراد سخر جبريل لذلك فيكون هو المتولى لذلك وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله سبحانه فلم يرمعه غيره وهو حال عزيز فى نفسه ودوامه ان وجد ابعد منه واعز (والموت جوعا مقدر ايضا كالموت شبعا) فلابد من التوكل سواء كان شبعانا اوجيعانا وقد قال ابو سعيد الخدرى التوكل اضطراب بلاسكون وسكون بلا اضطراب فالاول اشارة الى فزع العبد اليه وانتهاله وتضرعه بين يديه والثانى اشارة الى كمال توكله عليه فعن ابى على الدقاق التوكل ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض فالمتوكل يسكن الى وعده والمسلم يكتفى بعلمه والمفوض يرضى بحكمه ثم اعلم ان الشخص اذا كان بطالا فعليه ان يصير كاسبا وعمالا ولا معنى للتوكل فى حقه الا مايليق بمقامه وفق مرامه فان كمال التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى فهو خاصة للمجتهدين اما من العلماء الزاهدين واما من الصلحاء العابدين فما للبطال والاتكال واذا كان مشتغلا بالله وملازما لمسجده اوبيته ومواظبا على علمه وعبادته بتحسين نيته وتزيين رعايته فالله سبحانه يقرر حبه فى قلوب خلقه حتى يحملوا اليه فوق كفايته فما روى الى الآن من قديم الزمان عالم اوعابد استغرق الاوقات بالله سبحانه وهو فى وسط الديار من القرى والامصار فمات جوعا بل لو اراد ان يطعم جماعة من الناس يعوله لقدر عليه فمن كان لله كان الله له لكن ينبغى ان يكون نظره الى مسبب الاسباب لا الى الاسباب نعم لايطمع فى الحلوى والطير السمانى والثياب الرفيعة والبيوت المنيعة مع انه لو قدر له شىء من ذلك فلا بد من ظهوره هنالك كما يشير اليه * نحن قسمنا بينهم معيشتهم * ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر * ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب * وفى الخبر ابى الله ان يرزق عبده المؤمن الا من حيث لا يحتسب فالاهتمام الكثير بامر الرزق قبيح من

ذوى الدين وهو اقبح من العلماء المجتهدين لان من شرطهم القناعة والاشتغال بالطاعة حسب الاستطاعة الا اذا اراد ان لايأخذ من ايدى الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن فان الكسب يمنع من السير بالفكر الباطن غالبا فاشتغاله بالسلوك مع الاخذ من يد من يتقرب الى الله تعالى بما يعطيه اولى لانه تفرغ للمولى واعانة للمعطى على نيل الثواب فى العقبى ومن نظر الى مجارى سنة الله علم ان الرزق ليس على قدر الاسباب ولا على كد الاكتساب ولذا سأل بعض الاكاسرة حكيما عن الاحمق المرزوق والعاقل المحروم فقال اراد الصانع ان يدل على نفسه اذلو رزق كل عاقل وحرم كل جاهل لظن ان العقل رزق صاحبه فلما رأوا خلافه علموا ان الرزق من غيرهم ولاثقة بالاسباب الظاهرة لهم فقد دخل جماعة على الجنيد فقالوا نطلب الرزق فقالوا ان علمتم فى اى موضع هو فاطلبوه فقالوا نسأل الله فقال ان علمتم انه ينساكم فذكروه فقالوا اندخل البيت ونتوكل على الله وننظر مايكون فقال التوكل على التجربة شك قالوا فما الحيلة قال ترك الحيلة وقال احمد بن عيسى الخراز كنت فى البادية فنالنى جوع شديد فغلبتنى ان اسأل الله عزوجل طعاما فقلت ليس هذا من افعال المتوكلين فطالبتنى ان اسأل الله تعالى صبرا فلما هممت بذلك سمعت قائلا يقول *

* وتزعم انه منا قريب * وانا لا نضيع لمن آتانا *
ويسألنا القوى جهدا وصبرا * كانا لانراه ولا يرانا

(وايضا) لابد من التوكل اذ (الصلاح) فى الامور (مستور) لان من عرف الله تعالى وعرف افعاله وعرف سنته فى اصلاح عباده لم يكن فرحه بالاسباب فانه لايدرى اى الاسباب خيرله كما قال عمر لاابالى اصبحت غنيا اوفقيرا فانى لاادرى ايهما خيرلى (وايضا) لابد من التوكل حيث (انه) اى الله سبحانه (ضمن الرزق بلاتعليق) اى من غير تقييد شرط الكسب والطلب (فورد) فى التنزيل (ومامن دابة فى الارض الاعلى الله رزقها) اى ولولم تكسبه ولم تطلبه لاسيما والرزق مبهم فى نفسه غير معلوم باعتبار محله وجنسه فعن ابراهيم بن ادهم سألت رهبانا من اين تأكل فقال ليس هذا العلم عندى ولكن سل ربى مرة من اين يطعمنى (فما اقبح من يثق) اى يعتمد (على سوق) مع ان الغالب عليه الكذب وخلف الوعد (بعد الاقراض اوالضيافة ولايثق على ضمانه تعالى) مع كمال صدقه وجمال وعده وقد قيل مكتوب فى التورية ملعون من ثقته انسان مثله وفى الحديث من اعتز بالعبيد اذله الله رواه ابونعيم فى الحلية عن عمر وقد حكى عن عابد انه عكف فى مسجد ولم يكن له معلوم فقال له الامام بالمسجد لواكتسبت كان افضل لك فلم يجبه حتى اعادها ثلاثا فقال فى الرابعة يهودى فى جوار المسجد قد ضمن لى كل

يوم

يوم رغيفين فقال ان كان صادقا فى ضمانه فعكوفك فى المسجد خير لك فقال ياهذا لولم تكن اماما تقف بين يدى الله وبين العبـاد مع هذا النقص فى التوحيد خير لك يعنى فضلت وعد يهودى على ضمان الله تعالى للرزق (وايضا) لابد من التوكل اذ (لا افادة فى الطلب) حيث لايزيد بطلبه ولاينقص بتركه فلامنفعة فى طلبه (الا المذلة) لمخلوق مثله ولايحل لمؤمن ان يذل نفسه (وضياع الوقت) اى وتضييع العمر فى غير عبادة هى المطلوب من العبد بحسب الامر (وايضا) لابد من التوكل اذ (الحياة فى الاستقبال مشكوك والموت متيقن) مسلوك (والاستعداد للمتيقن اولى) من الاستعداد للمشكوك (بخلاف الثواب والعقاب) فانهما ولوكانا مقدرين كسائر الاسباب لكن لابد للانسان ان يسعى فى اكتساب ما يوجب الثواب وفى اجتناب ما يقتضى العقاب (لورود الاوامر والنواهى) فى الكتاب (وتعليقهما على العمل) حيث قال * ومن يعمل من الصالحات * ومن عمل صالحا * الآيات وقال تعالى * جزاء بما كانوا يعملون * وان ليس للانسان الا ما سعى (واما ماورد) فى التنزيل (وابتغوا من فضل الله) فقد يتوهم منه ان المعنى اطلبوا من رزق الله وليس كذلك (فالعلم والثواب) هما المرادان من فضل الله (اوهو امر اباحة) بقدر الحاجة اوامر بطلب الحلال دون الشبهة هذا وقد يظن ان معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الارض كالخرقة الملقاة وهذا ظن الجهال وحرام فى الشرع والشرع قد اثنى على المتوكلين ولا ينال بمحظور مقام من مقامات الدين فدفعه بقوله (ولا ينافيه) اى التوكل اربعة اشياء منها (الكسب لانه) اى التوكل (عمل الباطن) فيجتمع مع عمل الظاهر بل هو اتم عند بعض اربـاب السرائر ثم فى مراتب الكسب تفصيل باعتبار السبب (فان كان السبب مقطوعا به بارتباط المسبب) بحيث لم يحصل المسبب بدون السبب (لسنته تعالى كمد اليد للطعام) اى لاكله (والوقاع) اى وكالجماع (للولد) اى لخلقـه (وبث البذر للحصاد) بالفتح والكسر اى لقطعه (فالترك خطا) بل جنون محض (فورد) فى التنزيل (فلن تجد لسنت الله تبديلا) ولن تجد لسنت الله تحويلا * وتوضيحه اذا كان الطعام موضوعا بين يديك وانت جائع محتاج اليه ولكنك لست تمد اليد اليه وتقول انا متوكل وشرط التوكل ترك السعى ومد اليد الى الطعام سعى وحركة وكذا مضغه بالاسنان وابتلاعه باطباق اعالى الحنك على اسافله فهذا جنون محض وجهل ظاهر وليس من التوكل فى شئ فانك ان انتظرت ان يخلق الله شبعا دون اكل الخبز اويخلق فى الخبز حركة اليك اويسخر ملكا ليمضغه ويوصله الى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى وكذلك لولم تزرع الارض وطمعت ان يخلق الله نباتا من غير بذر اوتلد الزوجة من غير وقاع كما ولدت مريم فهذا وامثاله جنون وليس التوكل فى هذا المقام

بالعمل بل بالعلم والحال اما العلم فهو ان تعلم ان الله تعالى خلق الطعام واليد والاسنان وقوة الحركة وانه هو الذى يطعمك ويسقيك ويشبعك ويرويك واما الحال فهو ان يكون سكون قلبك واعتماده على الله سبحانه وتعالى لاعلى اليد والطعام فكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف فى الحال وكيف تعول على قدرتك وربما يطرأ عليك ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك وكيف تثق على حضورها لطعام وربما يسلط الله عليك من يغلبك عليه واذا كان هذا علمه وحاله فليمد اليد اليه فانه متوكل على الله ومعتمد عليه (وان كان) السبب (مظنونا) اى مشكوكا فيه (بعدم حصول المسبب دونه) اى من غير السبب (غالبا كحمل الزاد للسفر فى البوادى) التى لايطرقها الناس الا نادرا (فكذلك تركه خطأ وجنون وايقاع للنفس فى التهلكة (لانه) اى حمل الزاد فى السفر (سنة الاولين) اى عادة الانبياء والمرسلين وطريقة السلف الصالحين من الصحابة والتابعين (لكنه) اى ترك حمل الزاد (يجوز) ولذا كان يفعل الخواص وهو من الخواص لكنه بالنسبة الى العوام القاء للنفس فى التهلكة وهو حرام وانما يجوز (ان ارتاضت النفس) فى مقام المرام (وصبرت عن الطعام اسبوعا) اى سبعة ايام (اوماقرب منه) اى من الاسبوع واقله ان يكون ثلاثة ايام ولياليها وقد روى ان ابا تراب النخشبى رأى صوفيا مديده الى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة ايام فقال له لايصلح لك التصوف اى لاتصوف الامع التوكل ولايصح التوكل الالمن يصبر على الطعام اكثر من ثلاثة ايام وعن ابى على الروذبارى ان قال الفقير بعد خمسة ايام انا جايع فالزموه السوق ومروه بالعمل والكسب (دون الشغل عنه تعالى) بان يعبده من غير ضيق قلب وتشويش خاطر كما حكى ان رجلا قال دخل ابو تراب النخشبى مكة طيب النفس فقلت اين اكلت ايها الاستاذ فقال اكلة بالنصرة واكلة بالنباح واكلة ههنا كذا فى الرسالة القشيرية (وقدرت) اى وان قدرت وظاهر كلام الاحياء ان يقال اوقررت (على الاقتيات بالحشيش) فبعد هذين الشرطين لايخلو غالبا فى البوادى فى كل اسبوع من ان يلقاه آدمى اوينتهى الى قرية اوالى حشيش يكون سببا لحياته وقد يكون له ثبات على الرضى هنالك الى الموت ان لم يتيسر شئ من ذلك فان الذى يحمل الزاد قد يؤخذ زاده اويضل بغيره فيموت جوعا فذلك ممكن مع الزاد كما انه ممكن مع فقده واما لو انحاز الى شعب من الشعاب حيث لاماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكلا فهو آثم به ساع فى اهلاك نفسه كما روى ان زاهدا من الزهاد فارق الامصار واقام فى سفح جبل وقال لا اسأل احدا شيئا حتى يأتينى ربى برزقى فقعد سبعا فكاد ان يموت ولم يأته شئ فقال يارب ان احييتنى فأتنى برزقى الذى قسمت لى والا فاقبضنى فاوحى الله تعالى اليه وعزتى لا ارزقتك حتى تدخل

الامصار

الامصار وتقعد بين الناس فدخل المصر واقام فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب فاكل وشرب فاوجس فى نفسه من ذلك فاوحى الله تعالى اليه اردت ان تذهب حكمتى بزهدك فى الدنيا اما علمت ان ارزق عبدى بيد عبادى احب الى من ان ارزقه بيد قدرتى فاذن التباعد عن الاسباب بالكلية مراغمة للحكمة وجهل لسنة الله القديمة (واماما ورد) فى التنزيل (وتزودوا) وهو امر بطلب الزاد واخذ الزاد (فزاد الآخرة) هو المراد (بقرينة) مابعده (فان خير الزاد التقوى) النافعة فى المعاد (اوهو) اى تزودوا (امر لقوم) خاص من اهل اليمن وغيرهم (يقصدون الحج بلا زاد اتكالا على الناس) اى اعتمادا على اعطائهم من ازوادهم (ويؤذون) الناس (بالالحاح فى السؤال) ومنهم جمع يدعون انهم متوكلون والحال انهم متأكلون (والا) اى ان لم ترتض النفس ولم تصبر عن الطعام (فحرام عليه) ترك السبب من الكسب والطلب (لانه سعى فى الهلاك) للبدن والله لايحب الفساد ورؤف بالعباد (وان كان) السبب (موهوما كالاستقصاء فى دقائق التدبير) من امر الزراعة والتجارة وسائر انواع الصناعة ومنه الكى والرقية والطيرة (فهو) اى الاستقصاء فى هذا الباب (ينافيه) اى التوكل عند اولى الالباب (لانه غاية الحرص) ونهاية الاتكال على الاسباب فعن سهل التوكل ترك التدبير وقال ان الله تعالى خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه وانما حجابهم تدبيرهم (ويستفتى العزب قلبه) اى دون المعيل فانه يتعين عليه طلب الحلال لاجل العيال فانهم لايكتفون بالتوكل وفق ماله من الحال (فيختار) العزب (الكسب) بسبب ثلاثة اشياء (نية التصدق) بما فضل عن قوته على سائر الفقراء لاسيما ذوى القربى (والاعانة على البر) اى وللمساعدة على اهل المجاهدة فى العلم والعمل لقوله تعالى * وتعاونوا على البر والتقوى (والتحامى) اى المحافظة (عن الشغل عنه) اى عن ذكره وفكره (تعالى بالالتفات الى غيره) سبحانه ولومن حوله وقوته فاذا كان المكتسب مكتسبا لعياله او لتفريق ماله من ماله فهو بيديه مكتسب ومنتفع وبقلبه عنه منقطع لقوة ماله فى مقام كماله (والترك) اى ويختار العزب ترك الكسب (لشغل الكسب عنه تعالى) اى عن القيام بحقه كما هو حقه (وانقطاعه اليه) اى ولكمال انقطاع العبد الى حضور سيده عملا بقوله تعالى * وتبتل اليه تبتيلا رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا* والحاصل ان الكسب لاينافى حال التوكل اذا روعيت فيه الشروط وانضاف اليه الحال والمعرفة (ويعرف) صاحب هذا الحال (بعدم التغير لفقد المال وكذا التزود ونحوه) من الادخار للاستقبال ومن النكاح واختيار العيال اختيارا وتركا فيختاره بنية التصدق والاعانة ويتركه لشغله عن الحق والعبادة (ويكسب المعيل) لاجل العيال (كما روى عن الصديق رضى الله عنه) انه لما بويع للخلافة اصبح فاخذ رزمة متاعه تحت حضنه والذراع

بيده ودخل السوق ينادى فكره المسلمون ذلك فقالوا كيف تفعل هذا وقد اقمت لخلافة النبوة فقال لاتشغلونى عن عيالى فانى ان اضعتهم كنت لما سواهم اضيع حتى فرضوا له قوت اهله من المسلمين فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطييب قلوبهم واستغراق وقته لمصالح المسلمين اولى ويستحيل ان يقال لم يكن ابو بكر فى مقام التوكل فمن اولى بهذا منه فدل على انه ما كان متوكلا باعتبار ترك الكسب والسعى بل باعتبار قطع الالتفات الى قوته وكفايته والعلم بان الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الاسباب وبشروط كان يراعيها من طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير ان يكون درهمه احب اليه من درهم غيره فمن دخل السوق ودرهمه احب اليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ولا يصح التوكل الا مع الزهد فى الدنيا نعم يصح الزهد دون التوكل فان التوكل مقام وراء الزهد وقال ابو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد وكان من المتوكلين اخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق كنت اكتسب فى كل يوم دينارا لا ابيت منه دانقا ولا استربح منه الا قيراطا ادخل به الحمام بل اخرجه كله قبل الليل وكان الجنيد لايتكلم فى التوكل بحضرته وكان يقول استحيى ان اتكلم فى مقامه وهو حاضر عندى والحاصل ان التوكل مقام شريف ومرام لطيف ولذا قال ابو سليمان الدارانى لاحمد ابن ابى الحوارى لى من كل مقام نصيب الا من هذا التوكل المبارك فانى ما شممت منه رايحة هذا من كلامه مع علو قدره ومقامه ولعله اراد اقصى ادراك وهو مشاهدة ان لا فاعل الا الله ولا رازق سواه وان كل مايقدره مولاه على عبده من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتمناه وقال الخواص وقد سئل عن اعجب شئ رآه فى اسفاره فقال رأيت الخضر عليه السلام ورضى بصحبتى ولكنى فارقته خيفة ان تسكن اليه نفسى فيكون نقصا فى توكلى (ولايكلف العيال) بالاتكال (الا ان تساعده) فيماله من الحال بالتوكل مع عدم المال والا فيجب عليه الكسب بقدر نظام الكمال فعن سهل من طعن على الكسب فقد طعن على السنة ومن طعن على ترك الكسب فقد طعن على التوحيد فسبحان من اقام العباد فيما اراد ومع هذا الحال لايخرج المعيل عن مقام الاتكال على الملك المتعال فقد قال الحسن البصرى وددت ان اهل البصرة فى عيالى وان حبة بدينار وقال وهيب بن الورد لوكانت السماء نحاسا والارض رصاصا واهتممت برزقى لظننت انى مشرك بربى (ولاالادخار) اى ولاينفى التوكل وضع الذخيرة (لمادون الاربعين) يوما (من العزب) وللسنة من المعيل كما سيأتى (واختلف فيه) اى فى الادخار هل يكون منافيا للتوكل ام لا فذهب سهل الى انه يخرج به عن التوكل مطلقا وذهب الخواص الى انه لا يخرج عن التوكل باربعين يوما ويخرج بما زاد على الاربعين وقال ابوطالب المكى لايخرج عن حدود التوكل بالزيادة على الاربعين ايضا

وهذا

وهذا اختلاف لامعنى له بعد تجويز اصل الادخار كما فى الاحياء على ما سيأتى بيانه فى الاثناء (والتحقيق) فى مقام التوفيق (ان الفضل) فى قلة الادخار (لقصر الامل) فى التعلق بهذه الدار وتوضيحه ان كل ثواب موعود على مقام محمود فانه يتوزع على قدر رتبته فيه مما يوافقه وينافيه ثم تلك الرتبة لها بداية ونهاية ويسمى اصحاب النهايات السابقين واصحاب البدايات اصحاب اليمين اللاحقين ثم اصحاب اليمين ايضا على درجات وكذلك السابقون واعالى درجات اصحاب اليمين اللاحقين تلاصق اسافل درجات السابقين كماقيل نهاية الاولياء بداية الانبياء فلامعنى للتقدير فى مثل هذا التقرير بل التحقيق ان التوكل بترك الادخار لايتم الابقصر الامل وتجويز قرب الاجل واما عدم امل البقاء فيبعد اشتراطه ولوفى نفس فان ذلك كالممتنع وجوده ثم الناس متفاوتون فى طول الامل وقصره واقل درجات الامل يوم وليلة فمادونه من الساعات واقصاه ما يكون عمر الانسان بحسب غالب العادات وبينهما درجات لاحصر لها فى الاوقات فمن لم يأمل اكثر من شهر اقرب الى المقصود ممن يأمل سنة فى الوجود (وميقات الكليم) اى ميعاد موسى عليه السلام حيث قال تعالى * واذ واعدنا موسى اربعين ليلة * (ليس للأمل) اى لجواز طول الامل بقدر اربعين من الاجل فان تلك الواقعة ماقصد بها بيان ما يرخص فيه الامل (بل لاستحقاق نيل المرام) اى وصول موعود موسى (عليه السلام) بعد اربعين يوما الى مقام الكلام (على ماهو السنة الالهية) السبحانية والحكمة الربانية الصمدانية (فى تدبير الامور) الانسانية (كما فى صيرورة الجنين) اى تصوير الطفل فى بطن امه من الاطوار الانسانية الايجادية المتضمنة للتربية التدريجية الامدادية (نطفة) اربعين يوما (وعلقة) كذلك (ومضغة) كذلك (وورد خمرت طينة آدم بيدى) اى بصفتى من نعوت الجمال والجلال او بقدرتى وارادتى على وجه الكمال (اربعين صباحا) رواه الديلمى من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسى باسناد ضعيف وذلك لان استحقاق تلك الطينة لتتخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ما ذكر (ومنه) اى مما ذكر من الكتاب والسنة (يؤخذ فى الرياضة) على اختيار المشايخ للاربعين ويؤيده حديث من اخلص الله اربعين يوما ظهرت له ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وقد تقدم ومن حفظ على امتى اربعين حديثا حشر مع العلماء وله طرق يقوى بعضها ببعض فيصير حسنا (وللسنة) اى ولاينافى التوكل الادخار للسنة الكاملة (من المعيل) اى صاحب العيال من الاطفال والنساء (تطييبا لقلوب الضعفاء كماهو المروى) فى سنة سيد الانبياء ففى الصحيحين انه عليه السلام ادخر لعياله قوت سنة (بخلاف مافوقها) فان ما وراء السنة لايدخرله الابحكم ضعف القلوب والركون الى ظاهر الاسباب من الطلب والكسب (ويترك المضطرب) اى المتشوش اضطرابا

يشغل قلبه من الذكر والفكر (طريق المتوكل) غير المضطرب (بالادخار) فان كان يصلح قلبه بالادخار فهو اولى فى الاختيار بل لو امسك صنعة يكون دخلها وافيا بقدر كفايته وكان قلبه لايفرغ الابرعايته فذلك اولى فى مقام عنايته (لان الغرض) وهومدار المقصود (صلاح القلب) فى عبادة الرب المعبود فرب شخص يشغله وجود المال عن تحصيل الكمال ورب شخص يشغله عدمه لحصول شتات البال والمحذور مايشغل العبد عن الحضور والافجميع ما فى الدنيا ليس فى عينه محذور ولا فى وجودها وعدمها محظور ولذا بعث الله رسوله الى اصناف الخلق ومنهم اهل التجارات والزراعات والمحترفون بانواع الصناعات فلم يأمر لتاجر بترك تجارته ولا المزارع بترك زراعته ولا المحترف بترك حرفته ولا امر التارك لها بالاشتغال بها بل دعا الكل الى الله وطاعته وارشدهم الى ان فوزهم ونجاتهم فى انصراف قلوبهم عن الدنيا الى الله سبحانه وعبادته وعمدة الاشتغال فى عبادة الرب هو القلب فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته كما ان صواب القوى ترك الادخار على قدر طاقته فقد ادخر عليه السلام لعياله قوت سنة ونهى ام ايمن وغيرها ان تدخر شيئا لغد كما تقدم ونهى بلالا عن الادخار وقال انفق ولاتخش من ذى العرش اقلالا رواه البزار من حديث ابن مسعود وابى هريرة وذلك حين دخل عليه النبى عليه السلام وعنده صبر من تمر وللطبرانى والحاكم من حديث ابى سعيد انه عليه السلام قال لبلال الق الله فقيرا واذا سئلت فلاتمنع واذا اعطيت فلا تخبأ وقد اخبر عليه السلام ان الله يحب ان يؤتى رخصه كما يحب ان يؤتى عزايمه كما رواه احمد وغيره من حديث عمر تطييبا لقلوب الضعفاء حتى لا يأتى بهم الضعف الى اليأس والقنوط فيتركون الميسور عليهم من الخير لعجزهم عن منتهى درجات الاقوياء فما ارسل سيد الانبياء الارحمة للعالمين على اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم واذا فهمت هذا علمت ان الادخار قديضر بعض الناس وقد لا يضر ويدل عليه ماروى ابو امامة الباهلى ان بعض اصحاب الصفة توفى فما وجد له كفن فقال عليه السلام فتشوا ثوبه فوجدوا دينارين فى داخل ازاره فقال عليه السلام كيتان رواه احمد وكان غيره من المسلمين يموت ويخلف اموالا فلا يقول ذلك فى حقه فهذا يحتمل وجهين لان حاله يقتضى امرين احدهما انه اراد كيتان من النار كما قال تعالى * فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم * وذلك اذا كان حاله اظهار الزهد والفقر والتوكل مع الافلاس منه فهو نوع تلبيس وثانيهما ان لايكون ذلك عن تلبيس فيكون المعنى به النقصان عن درجة كماله كما ينقص عن جمال الوجه اثركيتين فى الوجه فان كل ما يخلفه الرجل من الدنيا فهو نقصان لدرجته فى العقبى اذلا يؤتى احد شيئا من الدنيا الانقص بقدره فى الاخرى واما بيان ان الادخار مع فراغ القلب عن المدخر

ليس

ليس من ضرورته بطلان التوكل فيشهد له ماروى عن بشر قال الحسين المغازى من
اصحابه كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه رجل كهل اسمر خفيف العارضين
فقام له بشر وقال مارأيته قام الى احد غيره قال ودفع الى كفا من دراهم وقال اشتر لنا
بها من اطيب ما تقدر عليه من الطعام والطيب وما قال لى قط مثل ذلك قال فجئت
بالطعام فوضعته فاكل معه ومارأيته اكل مع غيره قال فاكلنا حاجتنا وبقى من الطعام شىء
كثير فاخذه الرجل وجمعه فى ثوبه وحمله وانصرف فعجبت من ذلك وكرهته له فقال لى
بشر لعلك انكرت فعله قلت نعم اخذ بقية من الطعام من غير اذن فقال ذلك اخونا
فتح الموصلى زارنا اليوم من الموصل وانما اراد ان يعلمنا ان التوكل اذا صح لم يضر معه
الادخار والله سبحانه اعلم بحقايق الاسرار (ولا مباشرة اسباب) اى ولاينفى التوكل
مباشرة اسباب هى (تدفع الضرر) المتعرض للخوف فى نفس اومال (ان كان) الضرر
(مقطوعا به اومظنونا كالتحرز عن النوم فى مكمن السباع) اى فى الارض المسبعة (وممر السيل)
اى وفى مجرى السيل من الوادى لاسيما فى الليل فانه ادهى للويل (وتحت الحائط)
اى الجدار (المائل) الى السقوط وكذا السقف المنكسر الذى يخاف منه الهبوط
(لان التعرض للهلاك منهى عنه) فكل ذلك منهى عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير
فائدة منه (بخلاف الموهوم) اى بخلاف ما اذا كان الضرر موهوما فان مباشرته تنفى التوكل
فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهى التى نسبتها الى دفع الضرر نسبة الكى والرقية
فان الكى والرقية قد يقدم على المحذور دفعا لما يتوقع وقد يستعمل بعد نزول المحذور
لازالة ما وقع (فورد فى وصف المتوكلين) انهم (لايكتوون ولايسترقون) على ما تقدم
فما وصفهم عليه السلام الا بترك الكى والرقية والطيرة ولم يصفهم بانهم اذا خرجوا
الى موضع بارد لم يلبسوا جبة والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع (الا فى اذى الناس)
استثناء من قوله ولا مباشرة اسباب تدفع الضرر اى الا ان يكون الضرر فيما ناله من
اذى الناس له ويكون مما لا اثر له فى الخارج كالشتم والملامة والتعيير والتوبيخ والمذمة
فانه اذا امكنه الصبر والتحمل وامكنه الدفع والتشفى (فالاولى فيه الصبر) وترك
اسباب تدفع الضرر وقول المنصف فالاولى اولى من قول صاحب الاحياء فشرط التوكل
الاحتمام والصبر (فورد) فى التنزيل (فاتخذه وكيلا واصبر على مايقولون) تمامه * واهجرهم
هجرا جميلا (ولنصبرن على ما اذيتمونا) آخره * وعلى الله فليتوكل المتوكلون (ودع
اذيهم) اى اترك مدافعته ومعاقبته فى الحال اومكافاته ومجازاته فى الاستقبال (وتوكل
على الله) فان من توكل عليه كفاه (بخلاف اذى السباع) فانهم مجبولون على الاضرار وفى
معناها الكفار فالصبر على اذى الحيوانات كالعقارب والحيات ليس من التوكل فى

الدرجات اذلا فائدة فيه فى حال من الحالات (فيأخذ) المتوكل (السلاح فورد) فى التنزيل (وليأخذوا اسلحتهم) فى صلوة الخوف وهو امر ايجاب اواستحباب وقد اختفى عليه السلام عن اعين الاعداء فى الغار خوفا من ضرر الكفار وقد قال تعالى لموسى عليه السلام * فاسر بعبادى ليلا * فهذا وماقبله كله فى حق النفس واما فى حق المال فاشار بقوله (ويعلق البعير) اى يربط رجله لئلا يفارق رحله (فورد) انه قال عليه السلام للاعرابى لما اهمل البعير وقال توكلت على الله (اعلقها وتوكل) اى على الله رواه الترمذى من حديث انس وضعفه يحيى القطان ورواه الطبرانى من حديث عمر وبن اميت الضمرى باسناد جيد بلفظ قيدها (ويسد الباب) اى يغلقه (غير مستقص) اى مبالغ (فى الحفظ) كالتماسه من الجيران حفظه مع وجود غلقه وكجمعه اغلاقا كثيرة فى محله فقد كان مالك بن دينار يغلق بابه ليلا بشريط ويقول لولا الكلاب ماشددته وفيه لطافة اذالدنيا جيفة وطالبها كلابها كما ورد وقد تقدم (ولايحفظ متاعا يحرص فيه) اى فى اخذه (السارق) ويطمع فيه الطارق فيكون هو سبب معصيته وباعث مصيبته اويكون امساكه موجب هيجان رغبته (بل يقتصر على مالابد منه ككوز) يشرب منه (وركوة) يتطهر بها (وجراب) يضع زاده فيه (وسلاح) اذا كان من اهل الجهاد اوسلاح كل احد بحسب مقامه ووفق مرامه كالكتب للعلماء وحدة الحرف للفقراء والعصا سلاح الضعفاء وسنة الانبياء وكان بعض المتجردين لم يكن فى خلوته شىء فاذا دخلها اغلقها فاذا خرج منها تركها مفتوحة ويقول انا متاع البيت ولما اهدى المغيرة الى مالك بن دينار ركوة وقال له خذها قال لاحاجة لى اليها قال لم قال يوسوس الى العدو ان اللص قد اخذها فكأنه احترز من ان يعصى السارق ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها فى اللاحق ولذا قال ابو سليمان هذا من ضعف قلب الصوفية هو قد زهد فى الدنيا فما عليه من اخذها (ويغتم) المتوكل (ان سرق) اى جعل مسروقا (لمعصية السارق وتعرضه للعقاب) اللاحق (لا) يغتم (لنقص المال بل يفرح به) اى بنقص المال (لما فيه من صلاحه) اى لما فى نقص المال من كمال صلاح الحال (تحسينا للظن به تعالى) فيما قدره وقضاه من ازل الآزال (ويشكره تعالى على جعله مظلوما لاظالما ونقص دنياه) من ماله (لا دينه) الذى من كماله فقد شكى بعض الناس الى عالم انه قطع الطريق عليه واخذ ماله فقال ان لم يكن غمك انه صار فى المسلمين من يستحل هذا اكثر من غمك بمالك فما نصحت المسلمين وسرق من على ابن الفضيل دينار وهو يطوف بالبيت فرآه ابوه وهو يبكى ويحزن فقال له اعلى الدنيا تبكى فقال لا والله ولكن على المسكين انه يسأل يوم القيمة ولم تكن له حجة وقيل لبعضهم ادع على

من ظلمك فقال انى مشغول بالحزن عليه من الدعاء عليه (ولا يبالغ فى الطلب) اى طلب المسروق او السارق (وسوء الظن بالمسلم) اى وفى التهمة للجيران او غيرهم من اقاربه واصحابه (والاولى ان يعفو) اولا (ويحل) ثانيا (فهو) اى ما ذكر من العفو والاحلال (صدقة ان كان) السارق (فقيرا والا) اى وان لم يكن السارق فقيرا (فاغناء له عن المعصية) التى هى السرقة (وعمل بما ورد انصر اخاك ظالما او مظلوما) وتوضيحه ما فى الاحياء فان قلت كيف يتصور ان لا يحزن اذا اخذ متاعه الذى هو محتاج اليه ولا يأسف عليه وذلك لانه ان كان لا يشتهيه ولا يريده لم امسكه لديه واغلق الباب عليه وان امسكه لانه يشتهيه لحاجته اليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن على فقده وقد حيل بينه وبين ما يشتهيه فاقول انما كان يحفظه ليستعين به على دينه اذ كان يظن ان الخيرة له فى ان يكون له ذلك المتاع ولولا ان الخيرة له فيه ما رزقه الله ولما اعطاه فاستدل على ذلك بتيسير الله وحسن الظن به تعالى مع ظنه ان ذلك معين له على اسباب دينه ولو لم يكن ذلك عنده مقطوعا به واحتمل ان يكون خيرته فى ان يبتلى لفقد ذلك حتى ينصب فى تحصيل غرضه ويكون ثوابه فى النصب والتعب اكثر فلما اخذه الله بتسليط اللص تغير ظنه لانه فى جميع الاحوال واثق بالله حسن الظن به فيقول لولا ان الله علم لى الخيرة الآن فى عدمها لما اخذها منى فبمثل هذا الظن يتصور ان يندفع عنه الحزن اذ به يخرج عن ان يكون فرحه بالاسباب من حيث انها الاسباب بل من حيث انه يسرها مسبب الاسباب عناية به وتلطفا له وهو كالمريض بين يدى الطبيب الحبيب يرضى بما يفعله فان قدم اليه الغذاء فرح به وقال لولا انه عرف ان الغذاء ينفعنى وقد قويت على احتماله لما قربه الى وان اخذ عنه الغذاء فرح ايضا وقال لو لا انه عرف ان الغذاء يضرنى لما حال بينى وبينه فكل من لا يعتقد فى لطف الله ما يعتقده المريض فى الوالد المشفق الحاذق بعلم الطب فلا يصح منه التوكل اصلا ومن عرف الله تعالى وعرف افعاله وعرف سنته فى فى اصلاح عباده لم يكن فرحه بالاسباب فانه لا يدرى اى الاسباب خير له كما قال عمر رضى الله عنه لا ابالى اصبحت غنيا او فقيرا فانى لا ادرى ايهما خير لى فلذلك ينبغى ان لا يبالى المتوكل بسرقة متاعه او ببقائه فانه لا يدرى ايهما خير له فى الدنيا ولا فى الاخرى فكم من متاع فى الدنيا يكون سبب هلاك الانسان وكم من غنى يبتلى براقعة لاجل غناه فيقول ليتنى كنت فقيرا ويتمنى ما يضطر المتوكل الى تركه فى البيت فينبغى ان ينوى عند خروجه منه الرضى بما يقضى الله تعالى فيه من تسليط سارق عليه ويقول ما يأخذه السارق هو منه حل او هو فى سبيل الله وان كان فقيرا فهو عليه صدقة وان لم يشترط الفقير فهو اولى ويكون له نيتان لو اخذه غنى او فقير احدهما ان يكون ماله مانعا له من المعصية فانه ربما يستغنى به

فيتوانى عن السرقة بعده وقد زال عصيانه باكل الحرام لما ان جعله فى حل والثانية ان لايظلم مسلما آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر ومهما نوى حراسة مال غيره بمال نفسه اونوى دفع المعصية عن السارق او تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامتثل قوله عليه السلام انصر اخاك ظالما اومظلوما على ما فى الصحيحين وتمامه قيل كيف انصره ظالما قال تحجزه من الظلم فان ذلك نصرة فنصرة الظالم منعه من الظلم وعفوه عنه اعدام للظلم ومنع له والتحقيق ان هذه النية لاتضره بوجه من الوجوه اذ ليس فيهما مايسلط السارق وبغير القضاء الازلى السابق ولكن يتحقق بها الزهد بنيته فان اخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم لانه نواه وقصده وان لم يؤخذ حصل له الاجر ايضا وجملة الامر ان يكون فى هذا المقام متوكلا على الله سبحانه بالعلم والحال اما العلم فهو ان يعلم ان اللص ان اندفع لم يندفع بكفايته فى اغلاق الباب بل يدفع الله سبحانه اياه كما سبق فى الكتاب فكم من بيت يغلق ولا ينفع وكم من بعير يعقل ويموت او يفلت فكم من اخذ سلاحه يقتل اويغلب فلا يتكل اصلا على هذه الاسباب بل على مسبب الاسباب ورب الارباب واما الحال فهو ان يكون راضيا بما يقتضى الله تعالى به فى نفسه وبيته ويقول اللهم ان سلطت على ما فى البيت من يأخذه فهو فى سبيلك وانا راض بحكمك فانى لاادرى ان ما اعطيتنى هبة فلا تسترجعها او عارية اوديعة فتستردها ولا ادرى انها رزقى قبل خلقى اوسبقت ميشئتك فى الازل انها رزق غيرى وكيف ما قضيت فانا راض به وما اغلقت الباب تحصنا من قضائك وتسخطا به على بلائك بل جريا على مقتضى سنتك فى ترتيب الاسباب فلا ثقة الا بك يامسبب الاسباب ثم اذا عاد فوجد متاعه فى البيت فينبغى ان يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله وان لم يجده بل وجده مسروقا نظر الى قلبه فان وجده راضيا اوفرحا بذلك عالما بانه ما اخذ الله تعالى ذلك منه فى الدنيا الاليزيد رزقه فى العقبى فقد صح مقامه فى التوكل وظهر به صدقه وان تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له انه ما كان صادقا فى دعوى التوكل لان التوكل مقام بعد الزهد ولايصح الزهد الامن لايأسف على ما فاته من الدنيا ولايفرح بما يأتيه بل قد يكون على العكس من ذلك فكيف يصح له التوكل نعم قد صح له مقام الصبر ان اخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه فى الطلب والتجسس بعده وان لم يقدر على ذلك حتى يتأذى قلبه واكثر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب ببدنه فقد كانت السرقة معيبة له فى دينه من حيث انها اظهرت له قصوره عن جميع المهمات وكذبته فى جميع الدعاوى فبعد هذا ينبغى ان يجتهد حتى لايصدق نفسه فى دعواها ولايتدلى بحبل غرورها فانها خداعة امارة بالسوء مدعية للخير فى امورها (وينويه) اى العفو ابتداء (ليثاب وان لم يسرق) انتهاء (كما فى ترك العزل) فانه اذا نوى تحصيل الولد المجاهد فى سبيل الله يثاب به ولو لم يولد (فورد فيه) اى فى ترك العزل

(ثواب ولد كبر وقتل فى سبيله تعالى) وفى الاحياء كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن ترك العزل واقر النطفة قرارها ان له اجر غلام ولد من ذلك الجماع وعاش وقتل فى سبيل الله وان كان لم يولد له لانه ليس من امر الوالد الا الوقاع واما الخلق والحيوة والرزق والبقاء فليس اليه فلو خلق لكان ثوابه على فعله وفعله لم ينعدم فكذلك امر السرقة لكن مخرجه قال لم اجد له اصلا هذا واذا جعله فى سبيل الله فيترك طلبه فانه قد قدمه ذخيرة الى الآخرة فان اعيد عليه (فلا يأخذ) اى فالاولى ان لا يقبله (لو اتى به) اى بالمال المسروق (وان جاز الاخذ) والقبول فانه ملكه فى ظاهر العلم (لان النية) بمجردها (لاتخرج الملك) عن يد المالك لكن اخذه غير مستحسن عند المتوكلين فقد روى ان ابن عمر رضى الله عنهما سرقت ناقته فطلبها حتى اعيى ثم قال فى سبيل الله فدخل المسجد فصلى ركعتين فجاءه رجل فقال يا ابا عبد الرحمن ان ناقتك فى مكان كذا وكذا فلبس نعليه وقام ثم قال استغفر الله وجلس فقيل له الا تذهب فتأخذها فقال انى كنت قلت فى سبيل الله وكذا من اخذ رغيفا مثلا ليعطيه فقيرا فغاب عنه كره له ان يرده الى البيت بعد اخراجه منه فيعطيه فقيرا آخر وحكى عن رجل من العباد بمكة انه كان نائما بجنب رجل معه هميان فانتبه الرجل وفقد هميانه فاتهمه فيه فقال له كم كان فذكره فحمله الى البيت ووزن من عنده ثم بعد ذلك اعلمه اصحابه بانهم كانوا اخذوا الهميان مزحا معه فجاء هو واصحابه اليه فردوا الذهب اليه فابى عليهم وقال خذوه حلالا فما كنت لاعود فى مال اخرجته فى سبيل الله ولم يقبله فالحوا عليه فدعا ابناله وجعل يصره صررا ويبعث بها الى الفقراء حتى لم يبق منه شىء ثم اقل درجات المتوكل ان لايدعو على السارق الذى ظلمه بالاخذ فان فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهيته وتأسفه على مافات وبطل زهده وفى الخبر من دعا على ظالم فقد انتصر وقد تقدم وفى رواية ان العبد ليظلم المظلم فلايزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون مقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه فيقتص له من المظلوم وقد تقدم وحكى ان الربيع بن خيثم سرق له فرس ثمنه عشرون الفا ورقا وكان قائما يصلى فلم يقطع صلاته ولم ينزعج قلبه لطلبه فجاءه قوم يعزونه فقال اما انى كنت قد رأيته وهو يحله قيل فما منعك ان تزجره قال كنت فيما هو احب الى من ذلك يعنى الصلوة فى مقام الاحسان وكمال التكلان قال فجعلوا يدعون على السارق فقال لاتفعلوا وقولوا خيرا فانى قد جعلتها صدقة عليه وقيل لبعضهم فى شىء كان قد سرق له الا تدعو على ظالمك فقال ما احب ان اكون عونا للشيطان عليه قيل افرأيت لوردت عليك السرقة قال لا آخذها ولا انظر اليها لانى كنت قد احللتها له وقيل لآخر ادع الله على من ظلمك فقال ماظلمنى احد ثم قال انما ظلم نفسه الايكفيه المسكين ظلمه لنفسه حتى ازيده شرا (ولا لازالة الضرر)

اى ولاينفى التوكل دفع الضرر (المقطوع به) اى بالسبب المقطوع به (كالشرب لدفع العطش) وكذا الاكل لدفع الجوع واللبس لدفع الحر والبرد (والمظنون) اى والضرر المظنون فيه بالسبب المظنون وهو الطرف الراجح من المشكوك (كالحجامة) والفصد (والاسهال) اى شرب الدواء المسهل وسائر اسباب الطب من معالجة البرودة بالحرارة ومعالجة الحرارة بالبرودة (بخلاف الموهوم) وهو الطرف المرجوح من المشكوك (كالرقية والطيرة) والكى فروى ان عمران بن الحصين اعتل فاشاروا عليه بالكى فامتنع فلم يزالوا به وعزم عليه الامير حتى اكتوى فكان يقول كنت ارى نورا واسمع صوتا وتسلم على الملئكة فلما اكتويت انقطع ذلك عنى وكان يقول اكتوينا كيات فو الله ما افلحن ولا انجحن ثم تاب من بعد ذلك واناب الى الله فرد الله عليه ما كان يجده من امر الملائكة وقال لمطرف ابن عبد الله الم تر الى الملائكة التى كان اكرمنى الله بها قد ردها الله على بعد ان كان قد اخبره بفقدها (والترك) لمباشرة السبب (حرام فى المقطوع به) عند خوف الموت (دون المظنون) فان تركه ليس بحرام واما الموهوم فشرط التوكل تركه اذ وصف به النبى عليه السلام المتوكلين واقواها الكى وتليه الرقية ولذا نهى عليه السلام عن الكى دون الرقية ففى البخارى وانهى امتى عن الكى وفى الصحيحين من حديث عائشة انه عليه السلام رخص فى الرقية من كل ذى حمة ثم الطيرة آخر درجاتها فالاعتماد عليها والاتكال اليها فى هذا الباب غاية التعمق فى ملاحظة الاسباب واما الدرجة المتوسطة وهى المظنونة كالمداواة بالاسباب الظاهرة عند الاطباء ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم وتركه ليس محذورا بخلاف المقطوع بل قد يكون تركه افضل من فعله فى بعض الاحوال وفى حق بعض الاشخاص ويدل على ان التداوى غير مناقض للتوكل فعله عليه السلام وقوله وامره اما قوله فحديث ما من داء الا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله الا السام يعنى الموت رواه الطبرانى وغيره وحديث تداووا عباد الله رواه الترمذى وصححه وابن ماجه من حديث اسامة بن شريك وسئل عليه السلام عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئا قال هى من قدر الله رواه الترمذى وابن ماجه والحديث المشهور مامررت بملاء من الملائكة الاقالوا مر امتك بالحجامة رواه الترمذى من حديث ابن مسعود وحديث احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة واحدى وعشرين لاتبغ بكم الدم فيقتلكم رواه الترمذى من حديث ابن عباس فذكر ان تبيغ الدم سبب الموت وانه قاتل باذن الله تعالى وبين ان اخراج الدم خلاص منه اذ لافرق بين اخراج الدم المهلك من الاهاب وبين اخراج العقرب من تحت الثياب واما امره عليه السلام فقد امر غير واحد من اصحابه الكرام بالتداوى والحمية وقطع لسعد بن معاذ عرقا اى فصده كذا فى الاحياء ورواه مسلم من

حديث جابر قال رمى سعد فى اكحله فحسمه النبى عليه السلام بيده بمشقص الحديث وقد كوى اسعد بن زرارة رواه الطبرانى ويؤخذ منه ان سبب الكى اذا كان موهوما فالاولى تركه وينافى التوكل فعله وقد قال لعلى كرم الله وجهه وكان وجع العين لا تأكل من هذا يعنى الرطب وكل من هذا فانه اوفق لك يعنى السلق الذى طبخ بشعير وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين اتأكل التمر وانت رمد فقال انما آكل بالجانب الآخر فتبسم عليه السلام واما فعله صلى الله عليه وسلم فقد روى من طريق اهل البيت انه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة رواه ابن عدى من حديث عائشة وقال انه منكر انتهى وحديث الاكتحال ثابت فى الترمذى كما لا يخفى وللطبرانى باسناد حسن انه عليه السلام لدغته عقرب فغشى عليه فرقاه الناس الحديث وله فى الاوسط عن انس انه عليه السلام كان اذا اشتكى تقمح كفا من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلا ولابى يعلى والطبرانى فى الكبير من حديث عبد الله بن جعفر ان النبى عليه السلام احتجم بعد ماسم وللبزار وابن عدى فى الكامل من حديث ابى هريرة انه عليه السلام كان اذا نزل عليه الوحى صدعه رأسه فيغلفه بالحناء وللترمذى وابن ماجه من حديث سلمى كان اذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء فكما ان التداوى مروى ومشهور (فترك الدواء ايضا مأثور) عن السلف مسطور فروى عن الصديق انه قيل له لو دعونا لك طبيبا فقال قد رآنى الطبيب وقال انى افعل ما اريد وقيل لابى الدرداء فى مرضه ما تشتكى قال ذنوبى قيل فما تشتهى قال رحمة ربى قالوا الا ندعو لك الطبيب قال الطبيب امرضنى وقيل لابى ذر وقد رمدت عيناه لو داويتهما فقال انى مشغول عنهما قيل لو سألت الله ان يعافيك فقال اسأله فيما هو اهم على منهما وكان قد اصاب الربيع ابن خيثم فالج فقيل له لو تداويت فقال قد هممت ثم ذكرت عادا وثمودا وقرونا بين ذلك كثيرا وكان فيهم الاطباء فهلك المداوى والمداوى ولم يغن الدواء من الله شيئا من الداء وكان احمد بن حنبل يقول احب لمن اعتقد التوكل وسلوك هذا الطريق ان يترك التداوى من شرب الدواء وغيره وقيل لسهل متى يصح للعبد التوكل قال اذا دخل عليه الضرر فى جسمه والنقص فى ماله فلم يلتفت اليه شغلا بحاله وينظر الى قيام الله تعالى فوجه الجمع انه عليه السلام وبعض اصحابه الكرام تداووا توسعة للانام ورخصة فى الاحكام وتركه بعض الاعلام من مشايخ الاسلام عملا بالعزيمة المناسبة لما لهم من المقام والا فالتداوى لا يضر الا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء فلا يرى ان الدواء نافع بنفسه بل من حيث انه جعله الله سببا لنفعه كما لا يرى الماء مرويا ولا الخبز مشبعا وفى الاحياء ولا يصح وجه الجمع بين فعله عليه السلام وافعال التاركين من الاعلام الا بحصر الصوارف من التداوى فى ذلك المقام فترك الدواء المذكور والمأثور

انما هولاحد اسباب سبعة (لمعرفة عدم النفع بالمكاشفة) وهو ان يكون المريض من المكاشفين وقد كوشف له بانه قد انتهى اجله فان التداوى لاينفعه ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة وتارة بحدس وظن وتارة بكشف محقق ويشبه ان يكون ترك الصديق التداوى من هذا السبب فانه من المكاشفين فقد قال لعائشة فى امر الميراث انهما اختاك ولم يكن لها الا اخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملا فوضعت انثى فعلم انه قد كوشف بانها حامل بانثى ولايبعد ايضا ان يكون قد كوشف بانتهاء اجله والافلايظن به انكار التداوى وقد شاهد عليه السلام تداوى وامره كذا فى الاحياء وفرق بين انكار التداوى وعدم مباشرته كما لا يخفى (اولكون المرض مزمنا والعلاج موهوما) فى النفع (كالكى) والرقية ونحوهما وعليه حمل كلام الربيع (اوللشغل عنه) اى لاشتغال قلبه عن المرض وتداويه مما يوافقه وينافيه (بخوف العاقبة وعلمه تعالى) بما وقع له فى السابقة فينسيه ذلك الم الامراض اللاحقة فلا يتفرغ قلبه للتداوى شغلا بحاله وتأملا فى مآله وعليه يدل كلام ابى الدرداء وابى ذر فى ترك الدواء فكان تألم قلبه خوفا من ذنبه اكثر من تألم بدنه من حلول مرضه ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من اعزته اوكالخائف الذى يحمل الى ملك من اجل سياسته اذاقيل الاتأكل وانت جائع فيقول انى مشغول عن الاكل وعن الم الجوع بما هواهم منه ويقرب من هذا اشتغال سهل رحمه الله حيث قيل له ما القوت فقال هو الحى القيوم فقيل له انما سألناك عن القوام قال القوام هو العلم قيل سألناك عن الغذاء قال الغذاء هو الذكر قيل سألنا عن طعمة الجسد قال مالك والجسد دع من تولاه اولايتولاه آخر اذا دخلت عليه علة فرده الى صانعه اما رأيت الصنعة اذاعابت ردوها الى صانعها حتى يصلحها (اولقصد تطويله) اى لارادة استبقاء المرض (لنيل الاجر بالصبر) على بلائه تعالى فقد ورد فى ثواب المرض مايكثر ذكره ومن ذلك ان الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب احدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالابريز ومنهم من يخرج دون ذلك ومنهم من يخرج اسود محترقا رواه الطبرانى من حديث ابى امامة وقال ابن مسعود تجد المؤمن من اصح شئ قلبا وامرضه جسما وتجد المنافق من اصح شئ جسما وامرضه قلبا ويشير اليه قوله تعالى * واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم * فلما عظم الثناء على المرض والبلاء احب قوم المرض واغتنموه وتركوا الدواء لينالوا ثواب الصبر على الداء فكان فيهم من له علة يخفيها ولايذكرها للطبيب ويقاسى العلة ويرضى بحكم الله تعالى وما فيه من الحكمة ونعلم ان ذكر الحق اغلب على قلبه من ان يشغله المرض عنه وانما يمنع المرض جوارحه وعلموا ان صلاتهم من قعود مثلا مع الصبر على قضائه سبحانه من العلة افضل من الصلاة مع العافية والصحة وكان سهل يقول ترك التداوى وان ضعف عن الطاعات

افضل من التداوى لاجل القوة على العبادات وكانت به علة عظيمة ولم يتداولها وكان يداوى الناس منها وسئل عن شرب الدواء فقال كل من دخل فى شئ من الدواء فانما هو سعة من الله عز وجل لاهل الضعف ومن لم يدخل فى شئ منه فهو افضل لانه ان اخذ شيئا من الدواء وان كان هو الماء البارد يسأل عنه لم اخذت ذلك ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لعلمهم ان ذرة من اعمال القلوب مثل الصبر والرضاء والتوكل افضل من امثال الجبال من اعمال الجوارح والمرض لايمنع من اعمال القلوب الا اذا كان المغ البا مدهشا وقال سهل علل الاجسام رحمة وعلل القلوب عقوبة (او تكفير الذنب) بان يرى طول المرض تكفيرا لخطاياه فلابى يعلى وابن عدى من حديث ابى هريرة لايزال الحمى والصداع بالعبد حتى يمشى على الارض كالبردة ما عليه خطيئة وللطبرانى من حديث ابى الدرداء نحوه وله فى الاوسط من حديث انس مثل المريض اذا صح وبرئ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء فى صفائها ولونها وللقضاعى من حديث ابن مسعود حمى يوم كفارة سنة وفى رواية حمى ليلة ولاحمد وابى يعلى من حديث ابى سعيد الخدرى باسناد جيد ان رجلا من المسلمين قال يا رسول الله ارأيت هذه الامراض التى تصيبنا مالنا فيها قال كفارات قال ابى وان قلت قال وان شوكة فما فوقها قال فدعا ان لايفارقه الوعك حتى يموت الحديث والوعك الحمى او شدة المها وللطبرانى فى الاوسط من حديث ابى بن كعب انه قال يا رسول الله ماجزاء الحمى قال تجرى الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم اوضرب عليه عرق فقال اللهم انى اسألك حمى لاتمنعنى خروجا فى سبيلك ولاخروجا الى بيتك ولامسجد نبيك الحديث وقال عيسى عليه السلام لايكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والامراض على جسمه وماله لما يرجو فى ذلك من كفارة خطاياه وروى ان موسى عليه السلام نظر الى عبد عظيم البلاء فقال يارب ارحمه فقال كيف ارحمه بما به ارحمه اى به اكفر ذنوبه وازيد فى درجته (او امتحان النفس) اى لتجربتها فى القدرة على الصبر فى المحنة بعدم الجزع والفزع والشكاية فقد ورد نحن معاشر الانبياء اشد الناس بلاء ثم الامثل فالامثل يبتلى العبد على قدر ايمانه فان كان صلب الايمان شدد عليه البلاء وان كان فى ايمانه ضعف خفف عليه البلاء رواه احمد وابو يعلى والحاكم وصححه (اوطغيانها) اى تجاوز النفس عن حدها (فى الصحة) اى فى ايام الصحة والعافية (بتضييع الوقت بالتنعم) فى الشهوات واللهوات (وتأخير الخيرات) اى وبتأخير الطاعات والعبادات والمبرات (لتطويل الامل) وتبعيد الاجل وتوضيحه ان يستشعر العبد فى نفسه مبادى البطر والطغيان بطول مدة الصحة فيترك التداوى خوفا من ان يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان *

اوطول الامل وتسويف العمل بتأخير الخيرات والمبرات فان الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرك الشهوات وتدعو الى المعاصى والسيئات واقلها ان تدعو الى التنعم فى المباحات وهو تضييع الاوقات واهمال الربح العظيم فى مخالفة النفس وملازمة الطاعات فاذا اراد الله بعبد خيرا لم يخله من التنبيه بالامراض والمصيبات ولذا قيل لا يخلو المؤمن من علة اوقلة اوذلة وروى ان الله تعالى يقول الفقر سجنى والمرض قيدى احبس به من اشاء من خلقى وقال بعض العارفين لانسان كيف كنت بعدى قال فى عافية قال ان كنت لم تعص الله فانت فى عافية فان كنت عصيته فاى داء ادوى من المعصية ماعوفى من عصى وعن على كرم الله وجهه انه لما رأى زينة النبط بالعراق فى يوم عيدهم قال ما هذا الذى اظهروه قالوا يا اميرالمؤمنين هذا يوم عيد لهم فقال كل يوم لا نعصى الله فيه فهو لنا عيد وما احسن من قال من ارباب الحال *

شعر — وليس العيد لمن لبس الجديد * انما العيد لمن امن من الوعيد

وقال تعالى * كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى * قيل اى بالعافية وقال بعضهم انما قال فرعون * انا ربكم الاعلى * لطول العافية لانه لبث اربعمائة سنة لم يصدع له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية ولواخذته الشقيقة لشغلته عن الفضول الدنيوية فضلا من دعوى الالوهية وروى ان عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها وفى الخبر انه عليه السلام عرض عليه امرأة فذكر من صفتها ونعتها حتى هم ان يتزوجها فقيل وانها مامرضت قط فقال لاحاجة لى فيها رواه احمد من حديث انس باسناد جيد وذكر عليه السلام الامراض والأوجاع كالصداع وغيره فقال رجل وما الصداع ما اعرفه فقال عليه السلام عنى اليك من اراد ان ينظر الى رجل من اهل النار فلينظر الى هذا رواه ابو داود وذلك لما ورد ان الحمى حظ كل مؤمن من النار رواه احمد من حديث ابى امامة ولابن ماجه من حديث ابى هريرة انه عليه السلام عاد مريضا من وعك كان به فقال ابشر ان الله عز وجل يقول هى نارى اسلطها على عبدى المؤمن فى الدنيا لتكون حظه من النار فى العقبى (والاولى الاخفاء) اى اخفاء مرضه وسوء حاله (صبرا) على بلائه تعالى (ورضاء) بقضائه سبحانه (وتحاميا عن الشكاية الا على سبيل الحكاية) وانما جاز ذلك لثلاثة اغراض (لقصد العلاج للطبيب) اذا كان المريض من الضعفاء بخلاف الاقوياء فكان الامام احمد به علل لا يخبر بها المتطبيب اذا سأله عنها وتارة يخبر بامراض يجدها ويقول انما اصف قدرة الله فى (اوتعليم حسن الصبر) اى اولتعليم المريدين استحسان الصبر وجواز اظهاره (بالشكاية) على طريق الحكاية بل لبيان الشكر فى الرواية بان يظهر المرض بلية يصبر عليها او نعمة يشكر لديها فيتحدث به كما يتحدث بالنعمة وقال الحسن البصرى اذا حمد المريض

ربه تعالى وشكره ثم ذكر اوجاعه لم يكن ذلك شكوى (وهو) اى صاحب هذا المقام يكون (من المقتدى به) فى امر الرعاية (او اظهار العجز) والافتقار (من الصبر اليه تعالى وهو) انما يستحسن (من القوى) فى مقام الصبر كما روى عن على كرم الله وجهه انه قيل له فى مرضه كيف انت فقال بشر فنظر بعضهم الى بعض كانهم كرهوا ذلك وظنوا انه شكاية فقال اتجلد على الله فاحب ان يظهر فيه العجز والافتقار مع ما علم فيه من القوة والاقتدار (فالنية) اى تحسينها واصلاحها (مرخصة) لاظهار علة واسبابها او والمعنى ان النية مرخصة للتداوى وتركه فان ذلك يختلف باختلاف الاحوال والاوقات وانما الاعمال بالنيات واما من ترك التداوى توكلا فلا وجه له للاظهار اصلا فان الاستراحة الى الدواء احسن من الاستراحة الى الافشاء وقد قال بعضهم من بث لم يصبر ولذا قال يعقوب عليه السلام انما اشكوا بثى وحزنى الى الله وقيل فى معنى قوله فصبر جميل لاشكوى فيه وقيل ليعقوب عليه السلام ما الذى اذهب بصرك قال مر الازمان وطول الاحزان فاوحى الله تعالى اليه تفرغت بشكواى الى عبيدى فقال يارب اتوب اليك وروى عن طاوس ومجاهد انهما قالا يكتب على المريض انينه فى مرضه وكانوا يكرهون انين المريض لانه اظهار معنى يقتضى الشكوى حتى قيل ما اصاب ابليس من ايوب عليه السلام الا انينه فى مرضه فجعل الانين حظه منه ولعله محمول على انين كان يمكنه ان لايظهره عند عواده والا فقد سبق انه تسبيح ويثاب عليه مع انه امر طبيعى لايدخل تحت اختيار المريض وفى الخبر اذا مرض العبد قال الله تعالى للملكين انظرا مايقول لعواده فان حمد الله تعالى واثنى عليه بخير دعوا له وان كان شكا وذكر شرا قالا كذلك يكون وانما كره بعض العباد عيادة العباد خشية الشكاية فى المقام وخوف الزيادة فى الكلام وكان بعضهم اذا مرض اغلق بابه فلم يدخل عليه احد حتى يبرأ فيخرج اليهم منهم الفضيل بن عياض ووهيب بن الورد وبشر بن الحارث وكان الفضيل يقول اشتهى المرض بلا عواد وقال لا اكره العلة الا لاجل العواد هذا ومما ينفع فى باب التوكل من حسن الظن بمجئ الرزق وفق الرفق ان يسمع الحكايات التى فيها عجائب صنع الله تعالى فى وصول الرزق الى صاحب التوكل فى سائر الاوقات كما روى عن حذيفة المرعشى وكان قد خدم ابراهيم بن ادهم فقيل له ما اعجب مارأيت منه فقال بقينا فى طريق مكة اياما لم نجد طعاما ثم دخلنا الكوفة فآوينا الى مسجد خراب فنظر الىّ ابراهيم بن ادهم وقال ياحذيفة ارى بك الجوع فقلت هو ما رأى الشيخ فقال علىّ بدواة وقرطاس فجئت به فكتب بسم الله الرحمن الرحيم انت المقصود اليه يا الله بكل حال والمشار اليه بكل معنى وقال

انا حامد انا شاكر انا ذاكر * انا جايع انا نايع انا عارى

هى ستة فانا الضمين لنصفها * فكن الضمين لنصفها يابارى
مدحى بغيرك امب نار خفتها * فاجر عبيدك من لهيب النار

ثم دفع الىّ الرقعة وقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله وادفع الرقعة الى اول من يلقاك فخرجت فاول من لقينى كان على بغلة فناولته الرقعة فاخذها فلما وقف عليها بكى وقال مافعل صاحب هذه الرقعة فقلت هو فى المسجد الفلانى فدفع الىّ صرة فيها ستمائة دينار ثم لقيت رجلا آخر فسألته عن راكب البغلة فقال هذا رجل نصرانى فجئت الى ابراهيم فاخبرته بالقصة فقال لاتمسها فانه يجيء الساعة فلما كان بعد ساعة دخل النصرانى وركب على رأس ابراهيم يقبله واسلم وقال ابويعقوب الاقطع البصرى جعت بالحرم عشرة ايام فوجدت ضعفا فحدثتنى نفسى بالخروج فخرجت الى الوادى لعلى اجد شيئا يسكن ضعفى فرأيت شلجمة مطروحة فاخذتها فوجدت فى نفسى منها وحشة وكأن قائلا يقول لى جعت عشرة ايام وآخره يكون حظك شلجمة متغيرة فرجعت ودخلت المسجد فقعدت فاذا انا برجل اعجمى قد اقبل حتى جلس بين يدى ووضع قمطرة وقال هذه لك فقلت كيف خصصتنى بها فقال اعلم انا كنا فى البحر منذ عشرة ايام واشرفت السفينة على الغرق فنذرت ان خلصنى الله ان اتصدق بهذا على اول من يقع عليه بصرى من المجاورين وانت اول من لقيته فقلت افتحها ففتحها فاذا فيها كعك سميد مصرى ولوز مقشر وسكر كعاب فقبضت قبضة من هذا وقبضة من هذا وقبضة من هذا وقلت رد الباقى الى صبيانك هدية منى اليهم وقد قبلتها ثم قلت فى نفسى رزقك يسير اليك من عشرة ايام وانت تطلبه فى الوادى وقال ممشاد الدينورى كان علىّ دين فاشتغل قلبى بسببه فرأيت فى النوم كأن قائلا يقول يا بخيل اخذت علينا هذا المقدار من الدين خذ، عليك الاخذ وعلينا العطاء فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا قصابا ولاغيرهم * وحكى عن بنان الحمال قال كنت فى طريق مكة اجئ من مصر ومعى زاد فجاءتنى امرأة وقالت يا بنان انت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتتوهم انه لايرزقك قال فرميت بزادى ثم اتى على ثلاث لم آكل فوجدت خلخالا فى الطريق فقلت فى نفسى احمله حتى يجئ صاحبه فربما يعطينى شيئا فارده عليه فاذا انا بتلك المرأة فقالت انت تاجر تقول عسى يجئ صاحبه فآخذ منه شيئا ثم رمت الى شيئا من الدراهم وقالت انفقه فاكتفيت بها الى قريب من مصر * وحكى ان بنانا احتاج الى جارية تخدمه فانبسط الى اخوانه فجمعوا له ثمنها وقالوا اذا جاء النفير فنشترى مايوافقك فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا انها تصلح له وقالوا لصاحبها بكم هذه الجارية فقال انها ليست للبيع فالحوا عليه فقال انها لبنان الحمال اهدتها اليه امرأة من سمرقند فحملت الى بنان وذكرت له القصة (وقيل كان فى الزمن

الاول رجل فى سفر ومعه قرص فقال ان اكلته مت فوكل الله ملكا فقال ان اكله فارزقه وان لم يأكله فلا تعطه غيره فلم يزل القرص معه الى ان مات ولم يأكله وبقى القرص بعده ويغرب منه ما فى حيوة الحيوان ان دودة أكلها التراب وتموت جوعا خوفا من فراغه وحزنا على فراقه وكذا طير على ساحل البحر يموت عطشا خوفا من نفاد ما فيه من الماء وقال ابو سعيد الخراز دخلت البادية بغير زاد فاصابتنى فاقة فرأيت المرحلة فسررت بان وصلت ثم فكرت فى نفسى انى سكنت واكلت على غيره سبحانه فياليت ان لاادخل المرحلة الا ان احمل اليها فحفرت لنفسى فى الرمل حفيرة وواريت جسدى فيها فسمعوا صوتا عليا فى نصف الليل ياأهل المرحلة ان لله وليا حبس نفسه فى الرمل فالحقوه فجاء جماعة فاخرجونى وحملونى الى القرية وروى ان رجلا لازم باب عمر رضى الله عنه فقال عمر ياهذا اهاجرت الى عمر او الى الله اذهب فتعلم القرآن فانه سيغنيك عن باب عمر فذهب الرجل حتى افتقده عمر فاذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة فقال عمر انى اشتقت اليك فما الذى شغلك عنا فقال انى قرأت القرآن فاغنانى عن عمر وآل عمر فقال عمر رحمك الله فما وجدت فيه؟ قال وجدت فيه * وفى السماء رزقكم وما توعدون * فقلت رزقى فى السماء وانا اطلبه فى الارض فبكى عمر وقال صدقت وكان عمر بعد ذلك يجلس اليه وقال ابو حمزة الخراسانى حججت سنة من السنين فبينا انا امشى فى الطريق اذا وقعت فى بئر فنازعتنى نفسى ان استغيث ثم قلت لا والله لا استغيث فما استتم هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان فقال احدهما تعال حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه احد فاتوا بقصب وبارية وطموا البئر على رأسه فهممت ان اصيح ثم قلت فى نفسى الىّ من هو اقرب منهما فسكتُّ فبينما انا بعد ساعة اذا انا بشىء كشف عن رأس البئر وادلى رجله وكأنه يقول تعلق بى فى همهمة له كنت اعرف له ذلك فتعلقت به فاخرجنى فاذا هو سبع فمر وتركنى فهتف بى هاتف فقال يا ابا حمزة اليس هذا احسن نجيناك من التلف بالتلف فمشيت وانا اقول

* اهابك ان ابدى اليك الذى اخفى * وانت عليم مايلاحظه طرفى *
* نهانى هواى منك ان اكتم الحيا * واغنيتنى بالفهم منك عن الكشف *
* تلطفت فى امرى فابديت شاهدى * الى غائبى واللطف يدرك باللطف *
* تراءيت لى بالغيب حتى كأنما * تبشرنى بالغيب انك فى الكف *
* اراك وبى من هيبتى لك وحشة * فتونسنى باللطف منك وبالعطف *
* وتحيى محبا انت فى الحب حتفه * وذا عجب كون الحيوة مع الحتف *

فهذه احوال رجال ماتوا قبل الموت فلا لحقهم شىء من الفوت وفى هذا المقام قال من قال دع نفسك وتعال * وبيان ذلك الحال ان تطيب نفس السالك لهذه المسالك بالموت

ان لم يأته رزقه علما بان رزقه هو الموت والجوع وان كان نقصانا فى الدنيا فهو زيادة كمال فى العقبى فيرى انه سبق اليه من خير الرازقين ويعتقد انه سبحانه خير الرازقين كما انه احسن الخالقين (والاصل) الذى عليه مدار الدين خصوصا (فيه) اى فى التوكل هو (اليقين) وقد قال تعالى * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين * اى عين اليقين فانه كان عليه السلام واتباعه الكرام فى مقام علم اليقين ولذا تفسيره الموت عند عامة المفسرين من الائمة المتبحرين وقال عزوعلا * هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب * الى ان قال * بالآخرة هم يوقنون * وقول على كرم الله وجهه لو كشف الغطاء ماازددت يقينا لانه انما يزداد وضوحا عينيا بعد ماكان ظاهرا غيبيا كما ان الذى يرى انسانا فى وقت الاسفار لايزداد يقينا عند طلوع شمس النهار بانه انسان فى صورته وهيآته بل يزداد وضوحا فى عرفان تفصيل خلقته والحاصل انه مايزداد اليقين من طريق العلم والبيان وانما يزداد باعتبار الظهور والعيان فينتقل من علم اليقين الى عين اليقين وبرؤية الحق ينتقل من علم اليقين الى حق اليقين ونظيره ان خبر الكعبة متواتر عند كل سالك المناسك فله علم اليقين فى سلوك تلك المسالك الى ان يشاهد البيت من بعيد فيشهد له بعين اليقين مع تأييد ثم اذا قبل الحجر الاسعد والتزم الملتزم انتقل الى حق اليقين فى الحرم المحترم والله سبحانه اعلم (وورد) عنه صلى الله عليه وسلم (من كان غريزته العقل) اى طبيعته (وسجيته اليقين) خلقته وطويته (لم تضره الذنوب) اى ارتكابها كانهما يدعوان الى سرعة التوبة عن اكتسابها والتائب من الذنب كمن لاذنب له فى اجتنابها (من افضل ما اوتيتم اليقين) فى امر الدين (وعزيمة الصبر) فى مقام المجتهدين قال تعالى * وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور * وقال * ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور * ولابى نعيم فى الحلية والبيهقى عن ابى سعيد مرفوعا ان من ضعف اليقين ان ترضى الناس بسخط الله وان تحمدهم على رزق الله وان تذمهم على مالم يؤتك الله ان رزق الله لايجره اليك حرص حريص ولايرده كراهة كاره وان الله بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضاء واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط (وهو) اى اليقين (عدم الشك) فى امر الدين (عند المتكلم) اى فى علم الكلام (والاستيلاء) للامر (على القلب) باستعلاء الرب (فى علم الآخرة) المنتج للعمل فى مرضات الله سبحانه وهذا التعريف عند المتصوفة والفقهاء ولذا توصف عندهم بالضعف والقوة والكمال والزيادة بخلاف غيرهم ومن هنا (قيل) لمن جزع وقت الموت (ضعف يقين فلان عند الموت) كأن الاظهر ان يقال فى الموت أى فى حال وقوعه (مع عدم الشك) لاحد من المسلم والكافر (فيه) اى فى وجود الموت

وثبوته فهو يقين يشبه الشك (وقوى فى الرزق) اى ويقال لمن ترك بالكلية مباشرة الاسباب وتوكل على الله حق توكله بترك الاكتساب: قوى فلان فى امر الرزق (مع الشك فيه) اى فى وجود الرزق اذ يحتمل عنده بان يموت جوعا فى مقامه (ومجاريه) اى محال اليقين ومجاليه (كل ما جاء به الشرع) المبين (والاصول) لليقين اربعة (التوحيد) للحق (وبلوغ الرزق) للخلق (والجزاء) على الاعمال (واطلاعه تعالى على الاحوال) سرا وعلانية فانه يعلم السر واخفى (والجدوى) اى فائدة اليقين اربعة ايضا (عدم الالتفات الى المسخرات) من العلويات والسفليات (والاجمال فى الطلب) اى طلب الرزق ففى الحديث اجملوا فى طلب الدنيا فان كلا ميسر لما كتب له منها رواه ابن ماجه وغيره من حديث ابى حميد الساعدى والمعنى اكسبوا المال بوجه جميل وهو ان لاتطلبه الا بالوجه الشرعى وتصحيح النيات فى المقامات (مع ترك التاسف على الفوات) قال تعالى * لكيلا تأسوا على مافاتكم * اى من الدنيا وورد من اسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة الف سنة ومن اسف على آخرة فاتته اقترب من الجنة مسيرة الف سنة اخرجه الرازى فى مشيخته عن ابى عمرو (والاقدام على الطاعات) اى واكتساب العبادات (مع الامتناع عن المعصية) اى مع الاجتناب عن جميع السيئات (والمبالغة فى اصلاح الظاهر والباطن) بتحصيل الاخلاق والشمائل وتحسين الاحوال والفضائل *

الخاتمة فى المحبة والسلوك

اى وسلوك طريق المحبة وسبيل المودة ومن لم يغترف من بحر المعرفة لم يتعرف حقيقة المحبة مع غير الجنس والمثل والصفة وقال لا معنى لها الا المواظبة على الطاعة ولما انكر المحبة انكر الانس والشوق والذوق والمحو والصحو والفناء والبقاء والقبض والبسط وسائر لوازم المحبة وتوابع المودة وسائر مقامات اهل المعرفة وسيجيء كشف الغطاء عن هذه الحالة ببيان الكتاب والسنة (بسم الله الرحمن الرحيم) تنجلى الامور وتنشرح الصدور والامة مجمعة على ان الحب لله ورسوله فرض فكيف يفترض مالا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة يتبع الحب وثمرته فلابد ان يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من احب (ورد) فى التنزيل مايقوى هذا التأويل (قل ان كنتم تحبون الله) اى تدعون محبته (فاتبعونى) فانى رئيس المحبين فى سلوك المودة (يحببكم الله) كما احبنى وسمانى حبيب الله وللاتباع حظ من متبوعهم بقدر الاتباع ومما يدل على اثبات الحب لله قوله عز وعلا * يحبهم ويحبونه * ثم فى قوله سبحانه * والذين آمنوا اشد حبا لله * دليل على اثبات الحب ومناقبه والتفاوت فى مراتبه (لايؤمن احدكم) ايمانا كاملا او ايمانا اصلا (حتى يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما) من الولد والوالد وما عداهما والحديث رواه الشيخان من حديث انس بلفظ لايجد

احد حلاوة الايمان حتى الحديث وعن ابى رزين العقيلى انه قال يا رسول الله ما الايمان قال الايمان ان يكون الله ورسوله احب اليك مما سواهما وفى الصحيحين من حديث انس ايضا لايؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين وفى رواية لهما ومن نفسه وللبخارى من حديث عبد الله بن هشام قال عمر يارسول الله لانت احب الى من كل شئ الانفسى فقال لا والذى نفسى بيده حتى اكون احب اليك من نفسك فقال عمر انت الآن والله احب الى من نفسى فقال الآن يا عمر يعنى آمنت وهو خير ويحتمل ان يكون استفهاما ولعل هذه الاحاديث مقتبسة من قوله سبحانه * قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بامره * فان ذلك جرى مجرى التهديد والانكار والقصد به الاثبات والاقرار ونبه عليه السلام على تفاوت المحبة بينه وبين الله سبحانه فى هذا المقام بقوله احبوا الله لما يغذوكم به من نعمة واحبونى لحب الله اياى فاشار الى ان محبة الله اصالة ومحبته عليه السلام تبعية كما يقتضيه مقام الربوبية والعبودية ويروى ان رجلا قال يارسول الله انى احبك قال فاعد للفقر تجفافا رواه الترمذى وحسنه وعن عمر رضى الله عنه انه عليه السلام نظر الى معصب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تمنطق به فقال عليه السلام انظروا الى هذا الرجل الذى قد نور الله قلبه لقد رأيته بين ابوين يغذيانه باطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله الى ما ترون رواه ابو نعيم فى الحلية باسناد حسن وفى الصحيحين من حديث انس وابن مسعود وابى موسى قال اعرابى يارسول الله متى الساعة قال ما اعددت لها فقال ما اعددت لها كثير صلوة ولا صيام الا انى احب الله ورسوله فقال له عليه السلام المرء مع من احب قال انس فما رأيت المسلمين فرحوا بشئ بعد الاسلام فرحهم بذلك وقال الصديق من ذاق خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا واوحشه عن جميع البشر اى من ارباب الدنيا وقال الحسن من عرف ربه احبه ومن عرف الدنيا زهد فيها والمؤمن لايلهو حتى يغفل فاذا تفكر حزن وقال ابو سليمن الدارانى ان من خلق الله تعالى خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ويروى ان عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نحلت ابدانهم وتغيرت الوانهم فقال لهم ما الذى بلغ بكم ما ارى فقالوا الخوف من النار فقال حق على الله ان يؤمن الخائف ثم جاوزهم الى ثلاثة آخرين فاذاهم اشد نحولا وتغيرا فقال ما الذى بلغكم الى ما ارى فقالوا الشوق الى الجنة فقال حق على الله ان يعطيكم ما ترجون ثم جاوزهم الى ثلاثة آخرين فاذاهم اشد نحولا وتغيرا كأن وجوههم المرايا من النور فقال ما الذى بلغ بكم ما ارى فقالوا الحب لله عز وجل فقال انتم المقربون انتم المقربون انتم المقربون وقال هرم بن حيان اذا عرف

المؤمن ربه احبه واذا احبه اقبل عليه واذا وجد حلاوة الاقبال اليه لم ينظر الى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر الى الآخرة بعين الفترة وهو بجسده فى الدنيا وبروحه فى الآخرة وقال يحيى بن معاذ عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه وحبه يدهش العقل فكيف وده ووده ينسى مادونه فكيف لطفه وقال يحيى بن معاذ مثقال خردلة من الحب احب الى من عبادة سبعين سنة بلا حب وقال ايضا الهى انى مقيم بفنائك مشغول بثنائك اخذتنى اليك وسربلتنى بقربك وامكنتنى من لطفك وثقلتنى فى الاحوال وقلبتنى فى الاعمال سترا وتوبة وزهدا وشوقا ورضاء وحبا تسقينى من حياضك وتحملنى فى رياضك ملازما لامرك مشغوفا بقولك ولما طر شاربى ولاح طائلى فكيف انصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت منك هذا صغيرا ولى ما بقيت حولك دندنة وبالضراعة اليك همهمة لانى احبك وكل حبيب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف (والمحبة اعظم المقامات واهم المهمات) فقيل المحبة محو المحب بصفاته واثبات المحبوب بذاته وقيل المحبة ايثار المحبوب على المصحوب وقيل مشاهدة الحبيب فى المشهد والمغيب وقيل المحبة ان تغار على المحبوب ان يحبه مثلك فى مقام المطلوب وقيل المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب بعجز القلوب عن ادراك نهايته ويمنع الالسن عن عبارته وقال الجنيد حرم الله المحبة على صاحب العلاقة وقال كل محبة تكون بعوض فاذا زال العوض زالت المحبة وعن ذى النون قل لمن اظهر حب الله احذر ان تركن الى غير الله (وهى) اى المحبة (ميل النفس الى الموافق) اى الى ما يوافق هواها ولا ينافى مشتهاها وتوضيحه ان المدركات تنقسم الى ما يوافق طبع المدرك ويلذه ويلايمه والى ما ينافيه وينافره ويؤلمه والى ما لا يؤثر فيه بايلام ولا التيام فكل ما فى ادراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك وما كان فى ادراكه الم ومحنة فهو مبغوض عنده وما يخلو عن استعقاب لذة وراحة والم وشدة فلا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها فاذن كل لذيذ محبوب عند الملتذ به ومعنى كونه محبوبا ان فى الطبع ميلا اليه ومعنى كونه مبغوضا ان فى الطبع نفرة عنه فالحب عبارة عن ميل الطبع الى الشىء الملذ فان تأكد ذلك الميل وقوى سمى عشقا وشوقا والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فاذا قوى سمى مقتا ويقال سحقا ثم لما كان الحب تابعا للادراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات بالحواس فلكل حاسة نوع من المدركات ولكل واحدة منها لذة فى بعض المدركات وللطبع بسبب تلك اللذة ميل اليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم فلذة العين فى الابصار وادراك المبصرات الجميلة والصور الحسنة المليحة ولذة الاذن فى النغمات الطيبة الموزونة ولذة الشم فى الروايح الطيبة ولذة الذوق فى الاطعمة المستلذة ولذة اللمس فى الليّنة والنعومة ثم لذات الحواس الخمس تشارك فيها البهايم الانسان فان كان الحب

مقصورا على مدركات الحواس الخمس حتى يقال ان الله لا يدرك بالحواس ولا يتمثل بالخيال فلا يحب فاذا قد بطل خاصية الانسان وما تميز به عن الحيوان من الحس السادس الذى يعبر عنه اما بالعقل واما بالنور اوبالقلب او بما شئت من العبارات فلامشاحة فيها وهيهات فالبصيرة الباطنة اقوى من البصر الظاهر كما يشير اليه قوله سبحانه * فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور * والقلب اشد ادراكا من العين ولذا قال * ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب * و * الا من اتى الله بقلب سليم * وجمال المعانى المدركة بالعقل اعظم من جمال الصور الظاهرة للابصار ولذا قال تعالى * وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون * و * ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون * فتكون لامحالة لذة القلوب بما تدركه من الامور الشريفة الالهية التى تخلو عن ادراكها الحواس ابلغ واتم فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح القويم اليه اقوى واهم ولامعنى للحب الاالميل الى ما فى ادراكه لذة (ولالذة اعظم من محبته تعالى ومعرفته) فلاينكر اذن حب الله الا من قعد به القصور عن درجة البهايم غفلا فلم يجاوز ادراكه الحواس اصلا (فالادنى) من اللذات (المطعم) اى لذة الاكل والشرب من المستلذات (ثم المنكح) من المشتهيات وذلك بالنسبة الى المكلف والا فالصبى عنده بعد الاكل تمام لذته اللهو واللعب (ثم الجاه) الصورى (ثم العلم) بالامر الضرورى (ويعرف) الترقى (بترك الادنى واستحقاره عند وجدان الاعلى) واستقراره كما ان المرأة الثيب اذا ارادت زوجا فخيرت بين غنى عنين وفقير رجول فالغالب انها لاتختار الغنى لاسيما اذا كانت غنية ولها قوة شهية فعلم ان لذة المنكح اعلى من لذة المطعم ثم لوفرض انها كانت من اشراف القوم وفرض ان الرجولية زالت من الناس الا من اراذلهم كالكناسين والدباغين فالغالب انها لاتختار زوجا من هذه الطائفة ولو كان غنيا وفى الشهوة قويا فعلم ان لذة الجاه اعلى من لذة المنكح ثم لوفرض شريف ذونسب ذاق لذة العلم وليس فى البلد عالم الا من اراذل القوم المذكورين فالغالب انه لايأنف ان يحضر فى مجلس هذا العالم ليستفيد منه العلم فعلم ان لذة العلم اعلى من لذة الجاه وكذا المخير بين النظر الى صورة جميلة وبين استنشاق رائحة طيبة اذا اختار النظر الى الحسن الصورة علم به ان الصور الجميلة عنده الذمن الروايح الطيبة وكذا اذا حضر الطعام واستمر اللاعب بالشطرنج علم ان لذة اللعب عنده اقوى من لذة الاكل (واستكراه البعض العلم للنقص) فى كماله (كاستكراه المريض المطعم) لعلة فى حاله (والصبى المنكح) لعدم بلوغ مناله والا فلايخفى ان فى العلم والمعرفة لذة حتى ان الذى ينسب الى العلم ولو بشىء خسيس كالشطرنج ونحوه من الكيمياء والسيمياء وامثاله يفرح به والذى ينسب الى

الجهل ولو في شيء حقير يغتم بسببه ثم مراتب العلم متفاوتة باعتبار تفاوت المعلوم (والعلم به تعالى أشرف العلوم فشرفه) اى العلم (بشرف المعلوم) وليت شعرى هل فى الوجود شيء اجل واعلى اكمل واعلى من خالق الاشياء ومكملها ومزينها ومبديها ومعيدها ومدبرها ومربيها فالك العلوم العلم بالله تعالى وصفاته وافعاله فى مصنوعاته وتدبيره فى ارضه وسمواته (ومن ثم يكون الفتوى) بل الكتابة (اشرف من الخياطة) ونحوها من الصياغة والصباغة (والرؤية له سبحانه النعمة) اى من العلم به (لازدياد الكشف) فى معرفة ذاته وصفاته (فيها) اى فى الرؤية حال تجلياته (فاللذة باعتبار هذا) المعلوم وازدياد الكشف المفهوم (وسببها) اى موجب المحبة وباعثها (الكمال) فى الجمال (فهو) اى الكمال (محبوب طبعا) ولو فى زيادة الجاه والمال (ومن ثم احب العالم) لما له كمال فى العلم (والصالح) لما له كمال فى العمل لا لصورتهما الظاهرة بل لسيرتهما الباطنة الباهرة فان الطباع مجبولة على حب الانبياء والعلماء والاولياء مع انهم لم يشاهدوا لهم شيئا من الاشياء ومنه حب ارباب المذاهب كأبي حنيفة ومالك والشافعي واحمد وغيرهم من المشايخ حتى ان الرجل قد يتجاوز حبه لصاحب مذهبه اومشربه حد العشق بسببه فيحمله ذلك على ان ينفق جميع ماله فى نصرة مذهبه والذب عنه ويخاطر بروحه فى قبال من يطعن فى امامه اوشيخه فكم من دم اريق فى نصرة المذاهب باختلاف المراتب فليت شعرى من يحب متبوعا من عالم اوصالح فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته ولوشاهده ربما لم يستحسن صورته وهيأته فاستحسانه الذى حمله على افراط حبه انما هو لاستحسان سيرته وهى صورته الباطنة لا صورته الظاهرة (والوجه الجميل) لما له من صورة الجمال (والكلام البليغ) لما له من سيرة اهل الكمال (والاحسان فان الانسان) اى جنسه (عبيده) اى عبيد الاحسان وفى نسخ الاحياء عبد الاحسان وهو اظهر لحمله على الانسان والمعنى انه قد جبلت القلوب على حب من احسن اليها وبغض من اساء عليها كما ورد وقد ورد ايضا اللهم لا تجعل لفاجر على يدا فيحبه قلبى كما رواه الديلمى وهذا المقام اذا حقق رجع الى الاول فان المحسن من امد بالمال والمعونة وسائر الاسباب الموصلة الى دوام الوجود وتمام الشهود وهو من جملة الكمال الا ان الاول كمال لذاته وهذا من عوارض صفاته بل اذا حكى من سيرة بعض الملوك واصحاب المال فى اقطار الارض العدل والاحسان غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار احسانه لبعد المزار وتنائى الديار فاذا ليس حب الانسان مقصورا على من احسن اليه فقط بل المحسن فى نفسه محبوب وان كان لا ينتهى احسانه قط الى المحب لان كل جمال وحسن فهو محبوب فالصور ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملها وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصورة الباطنة بالبصيرة الباطنة فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذبها

ولا يحبها ولا يميل اليها ومن كانت البصيرة الباطنة اغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعانى الباطنة اكثر من حبه للمعانى الظاهرة فشتان بين من يحب نقشا مصورا على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الانبياء لجمال صورته الباطنة (ولا كمال) فى الجمال والجلال (الا له تعالى) شانه وهو الملك المتعال (ولا احسان الا منه) كما يشير اليه قوله تعالى * وما بكم من نعمة فمن الله (والا على ان يحب) اى الله (لذاته) مع قطع النظر عما تقتضيه صفاته الجمالية من رجاء الجنة ونعوته الجلالية من خوف العقوبة وماتوجبه صفات الافعال من الاكرام والاحسان والانعام (وهو) اى الحب الذى لذاته (من المواهب) اللدنية والمراتب العندية دون المكاسب العبدية كما ورد نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه (بخلاف غيره) اى غير الحب لذاته من انواع الحب الآتية المعبر عنها بقوله (ثم للكمال ثم للاحسان وهو) اى الحب الذى للاحسان (محبة النفس) اى نفس المحب (فى الحقيقة) وان كان يطلق عليه محبة الله فى ظاهر الشريعة والطريقة فاذن يرجع الفرق الى تفاوت الرتبة والافكل واحد يرجع الى محبة الانسان نفسه فكل من احب المحسن لاحسانه فما احب ذاته تحقيقا اى بل احب احسانه وهو فعل من افعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته ولو نقص نقص الحب ويتطرق اليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه وفى الاحياء ان الانسان لايخفى انه يحب نفسه ولايخفى انه قد يحب غيره لاجل نفسه وهل يتصور ان يحب غيره لذاته لا لاجل نفسه هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون ان لايتصور ان يحب الانسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ الى المحب سوى ادراك ذاته فالحق ان ذلك متصور وموجود ولاهل الكمال مدرك ومشهود وذلك كحب الجمال فان كل جمال محبوب عند كل مدرك للجمال وذلك لعين الجمال لان ادراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها ولا يظنن ان الصور الجميلة لاتتصور الا لقضاء الشهوة فان قضاءها لذة اخرى قد تحب الصور الجميلة لاجلها وادراك نفس الجمال ايضا لذيذ فيجوز ان يكون محبوبا لذاته وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجارى محبوبان لايشرب الماء ولاتؤكل الخضرة اوينال منها حظ سوى نفس الرؤية فقد كان عليه السلام يحب الخضرة والماء الجارى كما روى ابونعيم فى الطب النبوى من حديث ابن عباس انه عليه السلام كان يحب ان ينظر الى الخضرة والماء الجارى والطباع السليمة من العوارض السقيمة قاضية باستلذاذ النظر الى الانوار والازهار والاطيار المليحة الالوان والآثار حتى ان الانسان لتفرج عنه الغموم بالنظر اليها لا لطلب حظ وراء النظر اليها فاذا ثبت ان الله جميل كان لامحالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله كما ورد ان الله جميل يحب الجمال رواه مسلم من حديث ابن مسعود هذا وقد يكون الموجبة للمحبة مناسبة خفية بين المحب والمحبوب اذرب شخصين يتأكد الحب بينهما لا لسبب جمال او حظ مال بل بمجرد تناسب الارواح دون

تشاكل الاشباح كما ورد الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف رواه مسلم من حديث ابى هريرة والتعارف هو التناسب والتناكر هو التباين ثم اعلم ان المستحق للمحبة انما هو الله وحده وان من احب غير الله لامن حيث نسبته الى الله فذلك لجهله وقصوره فى معرفة ربه وانما يحب غيره من الانبياء والاصفياء لكونهم احباء له سبحانه ومحبوب المحبوب محبوب ولان اسباب المحبة المتقدمة مجتمعة فى حقه سبحانه بجملتها على وجه الدوام والكمال واما فى حق غيره تعالى فلا يوجد الا آحادها على وجه النقصان والزوال وانما حقيقة فى حقه عزوجل وفى حق غيره مجاز محض بل وهم وتخيل صرف لاحقيقة لها لا فى شهودهم كما فى وجودهم فان العبد لا وجود له من ذاته بل هو محض وعدم صرف لولا فضل الله عليه بالايجاد وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالابقاء والامداد ثم المحبة ثمرة المعرفة تنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها ولذا قال الحسن من عرف ربه احبه ومن عرف النار بعد منها ومن عرف الدنيا زهد فيها ثم الله سبحانه هو المنفرد بالجود والاحسان والطول والامتنان من غير غرض ولا عوض بخلاف احسان الانسان مع ان احسانه ايضا من جملة احسان الملك المنان بل الاحسان على وجه الكمال من غيره محال وكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته فانه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الاحسان وخالق اسباب الاحسان ثم العلم من اسباب المحبة فاين علم الاولين والآخرين من علم الله تعالى الذى لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض ولقد خاطب الخلق كلهم فقال * وما اوتيتم من العلم الا قليلا * بل لو اجتمع اهل الارض والسماء ان يحيطوا بعلمه وحكمته فى تفصيل خلق نملة اوبعوضة لم يطلعوا على عشر عشرة كما قال تعالى * ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء * فالقدر اليسير الذى علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه كما قال تعالى * خلق الانسان علمه البيان ثم لاقدرة ولاقوة الا بالله فان العبد لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولاموتا ولا حيوة ولانشورا وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق اسبابه والممكن له من ذلك ولو سلط بعوضة على اعظم ملك واقوى ملك لاهلكته فليس للعبد قوة الابتمكين مولاه كما يشير اليه حديث لاحول ولا قوة الا بالله وكما قال فى اعظم ملوك الارض * انا مكنا له فى الارض وآتيناه من كل شئ سببا * والسموات مطويات بيمينه والارض ومن عليها جميعا فى قبضته وناصية جميع المخلوقات بيد قدرته ان اهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة وان خلق امثالهم الف الف مرة لايزيد فى كماله سبحانه ذرة وليس كمال لغير الله الا بقدر ما اعطاه واما كماله فكمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الانبياء الاقرار بالقصور عن وصفه ونعته كما قال سيد المرسلين عليه السلام لا احصى ثناء عليك

انت كما اثنيت على نفسك * وقال سيد الصديقين * العجز عن درك الادراك ادراك * فسبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته فالواجب على العبد ان يحب الله لجمال ذاته وكمال صفاته لا لغرض ولا لعوض مما يلايم قلب العبد من حالاته ولذا اوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ان اود الاوداء الى من عبدنى لغير نوال ولكن ليعطى الربوبية حقها وفى الزبور ومن اظلم ممن عبدنى لجنة اونار لولم اخلق جنة ونارا لم اكن اهلا ان اطاع * ومر عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا وقالوا نخاف النار ونرجوا الجنة فقال مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتم ومر بقوم آخرين كذلك فقالوا نعبده حبا له وتعظيما لجلاله فقال انتم اولياء الله معكم امرت ان اقيم وقال ابو حازم انى استحيى ان اعبد الله للعقاب والثواب فاكون كالعبد السوء اذا لم يخف لم يعمل او كالاجير السوء ان لم يعط اجرا لم يعمل ثم المناسبة المحبة بين الله وعبده انه امر ان يتخلق باخلاقه فى اكتساب محامد الصفات التى هى من النعوت الالهية كالعلم والبر والاحسان واللطف وافاضة الرحمة على الخلق والنصيحة والارشاد لهم الى الحق فكل ذلك يقرب العبد من الله سبحانه قرب الصفات ويشير الى تلك المناسبة قوله تعالى * انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق * اذ لم يستحق داود خلافة الله الا بتلك المناسبة واليه يومى قوله عليه السلام ان الله خلق آدم على صورته اى صفته الكمالية من النعوت الجمالية وقد ظن القاصرون ان لاصورة الا الصورة الظاهرة فشبهوا وجسموا وصوروا تصويرا كثيرا تعالى عن ذلك علوا كبيرا واليه الاشارة بقوله تعالى فى الحديث القدسى مرضت فلم يعدنى قال وكيف ذلك قال مرض عبدى فلان ولو عدته لوجدتنى عنده وهذه المناسبة لاتظهر الا بالمواظبة على النوافل بعد احكام الفرائض واتمام الشمائل كما قال تعالى * لايزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به كما رواه مسلم من حديث ابى هريرة وهذا موضع يجب فيضان العلم عنه فقد تحزب الناس فيه الى قاصرين مالوا الى التشبيه الظاهر والى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة الى الاتحاد وقالوا بالحلول حتى قال بعضهم انا الحق وضل النصارى فى عيسى وقالوا هو الاله وقال آخرون تدرعت الناسوت باللاهوت وقال آخرون اتحد به كما تقول الوجودية وهم طائفة ابن عربى بالمعية واما الذين انكشفت لهم استحالة التشبيه والتمثيل والاتحاد والحلول واتضح لهم فى ذلك حقيقة التنزيه فهم الاقلون عددا والاكثرون عددا ولعل ابا الحسن الثورى كان ينظر من هذا المقام اذ غلبه الوجد فى قول القائل هذا الكلام *

(شعر) لازلت انزل فى ودادك منزلا * تتحير الالباب عند نزوله

(وآثارها) اى نتايج المحبة وآثارها خمسة (الشوق) وهو غلبة المحبة فى مقام الذوق (فورد طال شوق الابرار الى لقائى) قال ابو الدرداء لكعب اخبرنى عن اخص آية

يعنى فى التورية فقال يقول الله تعالى طال شوق الابرار الى لقائى وانى الى لقائهم اشد شوقا وقال مكتوب فى جانبها من طلبنى وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى فقال ابو الدرداء اشهد لسمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كذا فى الاحياء وسكت عنه مخرجه ومن دعاء نبينا عليه السلام كما اخرجه النسائى والحاكم اللهم انى اسألك الرضاء بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر الى وجهك وشوقا الى لقائك وكان ابراهيم بن ادهم من المشتاقين قال فقلت يوما يارب ان اعطيت احدا من المحبين لك مايسكن به قلبه قبل لقائك فاعطنى ذلك فقد اضربى القلق قال فرأيت فى النوم انه اوقفنى بين يديه وقال يا ابراهيم اما استحييت منى ان تسألنى ان اعطيك مايسكن به قلبك قبل لقائى وهل يسكن قلب المشتاق قبل لقاء حبيبه فقلت يارب تهت فى حبك فلم ادر ما اقول فاغفرلى وعلمنى ما اقول فقال قل اللهم رضنى بقضائك وصبرنى على بلائك واوزعنى شكر نعمائك فاوحى الله الى داود عليه السلام ياداود لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم وشوقى الى ترك معاصيهم لماتوا شوقا الى وتقطعت اوصالهم من محبتى ياداود هذه ارادتى فى المدبرين عنى فكيف ارادتى بالمقبلين على يا داود احوج مايكون عبدى الى اذا استغنى عنى وارحم ما اكون بعبدى اذا ادبر عنى واجل مايكون عبدى اذا رجع الى (وهو) اى الشوق (غلبة التطلع) اى الاشراق (من وراء حجب الغيب الى الجمال) اى جمال الحق وسبحان من احتجب باشراق نوره واختفى عن البصائر والابصار لشدة ظهوره ولذا قيل

لقد ظهرت فما تخفى على احد * الا على اكمه لايبصر القمرا
لكن بطنت بما اظهرت محتجبا * فكيف يعرف من بالعزة استترا

فهو الاول والآخر والظاهر والباطن (وانبعاث القلب الى الطلب) اى وقيام قلب العبد الى طلب الرب فلقد كان الخواص يضرب صدره ويقول واشوقاه الى من يرانى ولا اراه ويقال الشوق نار الله الموقدة من نور بلائه لاهل ولائه اشعلها فى قلوب اوليائه حتى يحرق بها ما فى قلوبهم من الخواطر والارادات والعوارض والحاجات فيكونوا من خلاصة اصفيائه (و) يرتفع (بالموت شوق اللقاء) اى الملاقات (لحصوله) حال النزع والاشراف (ولا يرتفع شوق زيادة الانكشاف) وهى الرؤية المعبر عنها بالزيادة فى قوله تعالى * للذين احسنوا الحسنى وزيادة (فللرؤية مراتب لاتتناهى) لعدم تناهى التجليات الالهية الصمدية الازلية الابدية ومن جهة عدم نهاية التجليات الجمالية لاهل الجنة قال تعالى * لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد * فتتزايد النعم ساعة فساعة كما يشير اليه قوله تعالى * كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل * اى صورة * واتوا به متشابها * اى سيرة لان الثانى يزيد على الاول لذة وكذا من جهة عدم نهاية التجليات

الجلالية لاهل النار قال عز وجلا * فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا * كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب * فلا يدخل تحت الحصر دركات اهل النار كما لايدخل فى حيز الحصر درجات اهل الجنة فكل عارف فى جنة عرضها السموات والارض من غير ان يضيق على مثله اصلا الا انهم يتفاوتون فى سعة متنزهاتهم بقدر درجاتهم فى اتساع نظرهم وسعة معارفهم فى مقاماتهم فهذا القدر ينبهك على ان معرفة الله تعالى الذ الاشياء ولذا لايفوز بدرجة النظر والرؤية الا العارفون فى الدنيا فالرؤية بقدر المعرفة لان المعرفة هى البذر الذى ينقلب فى الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة ومن لم يعرف الله فى الدنيا لايراه فى العقبى * كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلى ايضا على درجات مختلفة ولذا قال عليه السلام ان الله يتجلى للناس عامة ولابى بكر خاصة كما رواه ابن عساكر من حديث جابر وذلك لانه افضل الناس بسر وقر فى صدره فضل لامحالة يتجلى انفرد به سره وتوضيحه ان طيبة الجنة ان لكل واحد فيها ما يشتهيه فمن لم يشته الا لقاءالله فلا لذة له فى غيره بل ربما يتأذى به فاذا نعيم الجنة بقدر حب الله وحب الله بقدر معرفته فاصل السعادات هى المعرفة التى عبر عنها الشرع بالايمان والاسلام والاحسان والله المستعان فللعارفين فى معرفتهم وفكرتهم لمناجاة الله لذات لوعرضت عليهم الجنة فى الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة المحبة ثم الواصلون الى رتب المعرفة ينقسمون الى الاقوياء المرادين المجذوبين فيكون اول معرفتهم لله تعالى ثم به يعرفون غيره والى الضعفاء المريدين من المجتهدين فيكون اول معرفتهم بالافعال ثم يترقون منها الى الفاعل والى الاول الاشارة بقوله تعالى * اولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد * وبقوله * شهد الله انه لا اله الا هو * ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك قال عرفت ربى بربى ولولا ربى لما عرفت ربى والى الثانى الاشارة بقوله * سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم الآية وبقوله * اولم ينظروا فى ملكوت السموات * وبقوله * قل انظروا ماذا فى السموات والارض * وهذا الطريق هو الاسهل على الاكثرين والاوسع على السالكين واليه اكثر دعوة القرآن المبين فالعارف لايرى غير الله ولايعرف سواه ويعلم انه ليس فى الوجود الا الله وافعاله اثر من آثار قدرته فهى تابعة فلا وجود لها بالحقيقة وانما الوجود للواحد الحق الذى به وجود الافعال كلها ومن هذا حاله فلا ينظر فى شئ من الافعال الا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث انه ارض وسماء وشجر وماء بل ينظر فيه من حيث ان له صانعا فلا يكون نظره مجاوزا له الى غيره فكل العالم تصنيف الله فمن نظر اليها من حيث انها فعل الله كان الموحد الحق الذى لايرى الا الله بل لاينظر الى نفسه من حيث نفسه بل من حيث انه عبد الله فهذا الذى يقال انه فنى فى التوحيد وانه فنى عن نفسه واليه الاشارة بقول من قال * كنا بنا

فغيبنا عنا فبقينا نحن بلانحن * ولذا قال ابو سليمن الدارانى ان لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله وفى اخبار عيسى عليه السلام اذا رأيت الفتى مشغوفا بطلب الرب فقد الهاه ذلك عما سواه وقال ابو سليمن ايضا من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه وقال الثورى لرابعة ما حقيقة ايمانك قالت ماعبدته خوفا من ناره ولا رجاء لجنته فاكون كالاجير السوء بل عبدته حبا له وشوقا اليه وقالت فى معنى المحبة * (شعر)

* احبك حبين حب الهوى * وحبا لانك اهل لذاكا *
* فاما الذى هو حب الهوى * فشغلى بذكرك عمن سواكا *
* واما الذى انت اهل له * فكشفك للحجب حتى اراكا *
* فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى * ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا *

ولعلها ارادت بحب الهوى حب الله لاحسانه اليها وبانعامه عليها بالحظوظ العاجلة وبحبه لما هو اهله الحب لجلاله وجماله الذى انكشف لها وهو اعلى الحبين واقواها وقد قيل لرابعة ما تقولين فى الجنة قالت الجار ثم الدار فبينت ان ليس فى قلبها التفات الى الجنة بل الى رب الجنة وبذلك يشير قول آسية رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة هذا ومن عرف الله عرف ان اللذات المفرقة والشهوات المختلفة كلها تنطوى تحت هذه اللذة كما قال * (شعر)

كانت لقلبى اهواء مفرقة * فاستجمعت مذ رأتك العين اهوائى
فصار يحسدنى من كنت احسده * وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم * شغلا بذكرك يا دينى ودنيائى

وقال بعضهم * وهجره اعظم من ناره * ووصله اطيب من جنته

وما ارادوا بهذا الا ايثار لذة القلب فى معرفة الرب على لذة الاكل والشرب والجماع ونحوها فان الجنة معدن تمتع الحواس فاما القلب فلذته فى لقاء الله فى مقام الايناس (والانس) ايضا من آثار المحبة (وهو) اى الانس (غلبة الفرح بالقرب الى الرب وقصر النظر على المطالعة) اى مراقبته ومشاهدته ومن هذا قيل «الاستيناس بالناس علامة الافلاس» ومن انس بالله توحش عن خلق الله وفى اخبار داود عليه السلام ان الله تعالى قال «يا داود ابلغ اهل ارضى انى حبيب لمن احبنى وجليس لمن جالسنى وانيس لمن انس بذكرى وصاحب لمن صاحبنى ومختار لمن اختارنى ومطيع لمن اطاعنى ما احبنى عبد اعلم ذلك يقينا من قلبه الاقبلته لنفسى واحببته حبا لا يتقدم اليه احد من خلقى من طلبنى بالحق وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى فارفضوا يا اهل الارض ما انتم عليه من غرورها وهلموا الى كرامتى ومصاحبتى ومجالستى وسدوها فانسوا بى اونسكم واسارع الى محبتكم فانى خلقت طينة احبابى

من طينة ابراهيم خليلى وموسى نجيى ومحمد صفيى وانى خلقت قلوب المشتاقين من نورى ورقمتها بجلالى وفى اخبار داود عليه السلام ايضا ان الله اوحى اليه «قل لعبادى المتوجهين الى محبتى ماضركم اذا احتجبت عن خلقى ورفعت الحجاب فيمابينى وبينكم حتى تنظروا الى بعيون قلوبكم وماضركم مازويت عنكم من الدنيا اذابسطت لكم كرامتى وماضركم سخط الخلق اذا التمستم رضائى» وفى اخباره ايضا ان الله اوحى اليه «ان كنت تحبنى فاخرج حب الدنيا من قلبك فان حبى وحبها لا يجتمعان فى قلب يا داود خالص احبتى مخالصة وخالط اهل الدنيا مخالطة» ومن هنا قيل علامة الانس بالحق ضيق صدر صاحبه من معاشرة الخلق واستهتاره بعذوبة الذكر ولذاذة الفكر فان خالط فهو منفرد فى جماعة ومجتمع فى خلوة وغريب فى حضر وحاضر فى سفر وشاهد فى غيبة وغائب فى شهود ومخالط بالقالب ومباين بالقلب (ويفارق) الانس (الشوق بكونه) اى الانس (حالة الاضافة الى الحاضر وذلك) اى الشوق حالة الاضافة (الى الغائب) اى البعيد الغائب ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له انت مشتاق فقال لا انما الشوق الى الغائب فاذا كان الغائب حاضرا فلمن اشتاق فهذا كلام مستغرق بالفرح لما ناله غير ملتفت الى ما بقى فى الامكان من مزايا الالطاف ومن غلب عليه حال الانس لم تكن شهوته الا فى الانفراد والخلوة كما حكى ان ابراهيم بن ادهم نزل من الجبل فقيل له من اين اقبلت فقال من الانس بالله وذلك لان الانس بالله يقتضى التوحش من غير الله بل كل مايعوق عن الخلوة فيكون من اثقل الاشياء على القلب كما روى ان موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرا لايسمع كلام احد من الناس الا اخذه الغثيان لان الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره المطلوب فيخرج عذوبة ماسواه من القلوب وقال بعض الحكماء فى دعائه يامن انسنى بذكره واوحشنى من خلقه قال الله لداود عليه السلام «كن بى مستأنسا ومن سوائى متوحشا» وقيل لرابعة بم نلت هذه المنزلة قالت بتركى مالا يعنينى وانسى بمن لم يزل وقيل من ذاق حلاوة الوحدة استوحش من نفسه الوحدة وكأنه يشير الى قول من قال * وجودك ذنب لايقاس به ذنب * وعن على كرم الله وجهه فى وصف اهل الانس من خواص الانس هم قوم هجم بهم الامر على حقيقة الامر فباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفهون وانسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بابدان ارواحها معلقة بالمحل الاعلى اولئك خلفاء الله فى ارضه والدعاة الى دينه وقد قيل

(شعر) الانس بالله لا يحويه بطال * وليس يدركه بالحول محتال

والآنسون رجال كلهم نجب * وكلهم صفوة لله عمال

(ويبدى) اى يثمر الانس (الانبساط) اى النشاط على حاشية البساط بالاقوال والافعال

والمناجاة

والمناجاة على سبيل الادلال (كما ورد) فى التنزيل واذ قال ابراهيم (رب ارنى كيف تحيى الموتى) وقال موسى (رب ارنى انظر اليك انجح فى الاول) اى اجيب لابراهيم بقوله خذ اربعة من الطير الآية (لوجود الشرط) فيما طلب (واعتذر فى الثانى) فيما طلبه اى جواب موسى بقوله لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى (لفقده) اى لفقد الشرط وعدمه كما بينه قوله * فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا (ولولا الانس) اى وجوده المقتضى للانبساط لموسى عليه السلام (لعوتب) على ماصدر عنه من السؤال والكلام (كما احترق قوم الكليم) عليه التسليم حيث قالوا ارنا الله جهرة فاخذتهم الصاعقة وهم ينظرون فالانبساط قد يكون منكرا لصورة لما فيه من الجرأة وقلة الهيبة ولكنه محتمل ممن اقيم مقام الانس كموسى عليه السلام ومن لم يقم فى ذلك المقام وتشبه بهم فى الفعل والكلام هلك به واشرف على الكفر بسببه كما فى قوم موسى ومثاله مناجات برخ الاسود الذى امر الله تعالى موسى كليمه عليه السلام ان يسأله ان يستسقى لبنى اسرائيل بعد ان قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام يستسقى بهم فى سبعين الفا فاوحى الله اليه كيف استجيب لهم وقد اظلمت عليهم ذنوبهم وسرائرهم خبيثة يدعونى على غير يقين ويأمنون مكرى ارجع الى عبد من عبادى يقال له برخ فقل له يخرج حتى استجيب له فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف فبينما موسى يمشى ذات يوم فى طريق اذا بعبد اسود قد استقبله بين عينيه تراب من اثر السجود فى شملة قد عقدها على عنقه فمر موسى عليه السلام بنور الله فسلم عليه فقال ما اسمك قال اسمى برخ فقال انت طلبتنا منذ حين اخرج فاستسق لنا فقال فى كلامه ماهذا من فعالك ولا هذا من حلمك وما الذى بدالك انقصت عليك غيومك ام عاندت الرياح عن طاعتك ام نفد ماعندك ام اشتد غضبك على المذنبين الست كنت غفارا قبل خلق الخاطئين خلقت بالرحمة وامرت بالعطف ام ترينا انك ممتنع ام تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة قال فما برح برخ حتى اخضلت بنو اسرائيل بالقطر وانبت الله العشب فى نصف يوم حتى بلغ الركب قال فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال كيف رأيت حين خاصمت ربى كيف انصفنى فهم موسى عليه السلام به فاوحى الله اليه ان برخا يضحكنى كل يوم ثلاث مرات وعن الحسن قال احترقت اخصاص البصرة فبقى فى وسطها خص لم يحترق وابوموسى امير يومئذ بالبصرة فاخبر بذلك فبعث الى صاحب الخص فاتى بشيخ فقال له ياشيخ ما بال خصك لم يحترق قال اقسمت على ربى عز وجل لايحرقه فقال ابو موسى انى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول يكون فى امتى قوم شعثة رؤسهم دنسة ثيابهم لو اقسموا على الله لابرهم رواه ابن ابى الدنيا فى كتاب الاولياء قال الحسن ايضا ووقع

حريق بالبصرة فجاء ابو عبيدة الخواص فجعل يتخطأ النار فقال امير البصرة انظر لاتحترق بالنار فقال انى اقسمت على ربى عز وجل لا يحرقنى بالنار قال فاعزم عليها ان تطفأ قوم عليها فطفئت وكان ابو حفص يمشى ذات يوم فاستقبله رستاقى مدهوش فقال له ابو حفص ما اصابك قال ضل حمارى ولااملك غيره فوقف ابو حفص فقال وعزتك لا اخطو خطوة حتى ترد عليه حماره قال فظهر الحمار فى الوقت ومر ابو حفص رحمه الله فهذا وامثاله يجرى لذوى الانس وليس لغيرهم ان يتشبه بهم قال الجنيد اهل الانس يقولون فى كلامهم ومناجاتهم فى خلواتهم اشياء هى كفر عند العامة لو سمعها العوام لكفروهم وهم يجدون المزيد فى احوالهم وذلك يحتمل منهم ويليق بهم واليه اشار القائل * (شعر) قوم يخاطبهم زهو بسيدهم * والعبد يزهو على مقدار مولاه

تاهوا برؤيته عما سواه له * ياحسن رؤيتهم فى عز ما تاهوا

ومن الانبساط قول موسى عليه السلام * ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء * وقوله فى الاعتذار لما قيل له اذهب الى فرعون وقومه فقال ولهم على ذنب فاخاف ان يقتلون (والاعلى الترك) اى الاولى من المراتب فى مقام الانس هو ترك الانبساط فى حضرة المولى (استغناء) عن السؤال فى مراتب انتقال الاحوال (كما كان له عليه السلام فى تحويل القبلة) حيث كان متأدبا فى مقام الانس والدلال فاكتفى بالحال عن السؤال تبعا للخليل حيث قال حسبى من سؤالى علمه بحالى كما يشير اليه قوله سبحانه وتعالى * قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضيها * اى تحبها وتهويها (والقرب) ايضا من آثار المحبة كما يشير اليه حديث لايزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى احبه (وهو) اى القرب (زوال كل معترض) اى شاغل ومانع عن ذكره تعالى وفكره (وهو) اى المعترض انما هو (النفس) اى متابعة هواها ومطاوعة مشتهاها قال تعالى * افرأيت من اتخذ الهه هواه * وورد ابغض اله عبد فى الارض الهوى وقيل وجودك ذنب لايقاس به ذنب (والشيطان) لانه يدعو حزبه الى الطغيان فى الدنيا والى النيران فى العقبى ولان نسبة الاضلال اليه ايضا قد تبعد من حقيقة صفة الجلال فانه من اسباب الضلالة كما ان النبى سبب الهداية فاضافة الهداية الى النبى فى قوله * وانك لتهدى الى صراط مستقيم مجاز * و * انك لاتهدى من احببت * حقيقة ومن المجاز فى جانب الاضلال قول الخليل رب انهن اضللن كثيرا من الناس فهو الله سبحانه هو الهادى والمضل من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادى له وهو يضل من يشاء ويهدى من يشاء وهو اعلم بالمهتدين كما هو اعلم بالضالين (والخلق) لان مخالطتهم غالبا يدعو الى الغيبة والبعد عن قرب الرب لاسيما صاحب الاهل والولد والاصحاب والاحباب والعقار من البساتين والمتنزهات

من الدار فى الديار حتى النوح بطيب اصوات الاطيار وروح نسيم الاسحار فبقدر انسه وقربه الى غير الله يبعد عن انسه وقربه الى مولاه كما انه لايتقرب الانسان من المشرق الاويبعد من المغرب بالضرورة بقدره الاان وصل الى مقام جمع الجمع بحيث لاتحجبه الوحدة عن الكثرة ولاالكثرة عن الوحدة (والدنيا) فان قطع علائقها ورفع عوائقها واخراج حب غيرالله من القلب هو الموجب لقرب الرب فان القلب مثل الاناء الذى لايتسع الخل اوالهواء مالم يخل منه الماء وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وكمال الحب المورث للقرب ان يحب الله بكل قلبه وما دام يلتفت الى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره فبقدر مايشغل بغيرالله وحبه وقربه ينقص منه حب الله ويبعد عن قرب ربه وبقدر ما يبقى فى الاناء ينقص من الخل اوالهواء ويشير الى هذا التفريد والتجريد قوله سبحانه * قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون * وقوله * ان الذين قالوا ربنا الله * اى فى مقام التوحيد * ثم استقاموا * على مقام التجريد وقدم التفريد بل هو معنى قولك لا اله الا الله اى لامعبود ولاموجود ولامشهود سواه (وكماله) اى القرب (الغيبة فى رؤية فعله) اى غيبة العبد فى رؤية افعال ربه (حتى لايرى نفسه) ايضا (فاعلة) فى الحقيقة (كماورد) فى التنزيل (وما رميت) خلقا اوحقيقة (اذرميت) كسبا اومجازا وقد سبق تحقيقه وتدقيقه وحاصل المرام فى هذا المقام ان الحبيب هو القريب من الله والقريب من الله هو البعيد من صفات البهايم ونعوت الشيطان والتخلق بمكارم الاخلاق التى هى اخلاق الرحمان فهو قريب بالصفة لابالمكان ومن لم يكن قريبا وصار قريبا فقد تغير فربما يتوهم بهذا ان القرب لماتجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا اذصار قريبا بعد ان لم يكن وهو محال فى حق الله تعالى اذالتغير عليه من المحال بل لايزال فى نعوت الكمال وصفات الجمال والجلال على ماكان عليه فى ازل الآزال فكلما كان العبد اكمل صفة واتم معرفة واثبت قوة فى قهر النفس والشيطان صار اقرب الى الرحمن فمنتهى الكمال لله وقرب كل واحد منه بقدر كماله التخلق باخلاق الله وافعاله (والاتصال) ايضا من آثار المحبة وليس المراد بالاتصال هناضد الانفصال ولذا قال (وهو) اى الاتصال يرادبه (المكاشفة والمشاهدة) فى مقام المراقبة والمشاهدة اقوى من المكاشفة اذبتصور وهم الخلاف فى المكاشفة بخلاف المشاهدة والحاصل ان المكاشفة اول نتايج المجاهدة والمشاهدة نهاية المساعدة ويشير اليه قوله عليه السلام بعدذكر الايمان والاسلام الاحسان ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وقيل المحاضرة ابتداء والمكاشفة بعده والمشاهدة انتهاء فالمحاضرة حضور القلب وقد يكون بتواتر البرهان وهو بعد وراء الستر وان كان حاضرا باستيلاء الذكر والمكاشفة حضوره بنعت البيان غير مفتقر الى تأمل دليل وتطلب سبيل والمشاهدة هو وجود الحق من غير بقاء تهمة وبلاريبة

فاذاصحا اسماء الاسرار من غيوم الاستار فشمس المشهود مشرقة من برج شوق الانوار كذا فى ارشاد المريدين وهو تفسير علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين *

شعر

عباراتنا شتى وحسنك واحد * فكل الى ذاك الجمال يشير

(كما فى قول ابن عمر رضى الله عنهما كنا نترا أى الله تعالى فى ذلك المكان) اى نتكلف فى مشاهدته اونجتهد حتى نصل الى مرتبة رؤيته ومنزلة حضرته فى ذلك الحال الذى هو على الشان جلى البرهان وانما قال هذا الكلام حال كونه (معتذرا عن ترك رد السلام) لبعض الصحابة الكرام (فى الطواف) اى فى حال طواف بيت الله الحرام (وحارثة) اى وكما فى قول حارثة للنبى عليه السلام (كماسبق) فى تحقيق المقام (وماورد) اى وكمائبت (اعبد الله) وهذا نقل بالمعنى والصواب ان ينقل بالمبنى وهوان تعبد الله (كأنك تراه) وهذه اعلى مقام للعبد واقصاه واما ادناه فكما يشير اليه آخر الحديث (فان لم تكن تراه فانه يراك) وقد بسطنا القول فيه فى شرح الاربعين وهو غير معين (ومحبة الله تعالى العبد) اى للعبد ايضا من آثار محبة العبد لله سبحانه (وورد) فى التنزيل مايدل على ثبوت المحبة من الجانبين حيث قال (يحبهم ويحبونه) وفى تقديم يحبهم ايماء الى ان الاصل هو المحبة الازلية الصمدية الموجبة لمحبة العبد الابدية وورد فى الحديث (اذا احب الله تعالى عبد ابتلاه) بالمصائب على قدر ماله من المراتب فان اشد الناس بلاء الانبياء ثم الامثل فالامثل (فان احبه الحب البالغ اقتناه) واقتناء المال وغيره اتخاذه قنية فالمعنى اختاره من بين خلقه وجعله من خواص ملكه وفى رواية فقيل وما اقتناه قال لم يترك له اهلا ولا ولدا اى فى قلبه فعلامة محبة الله ان توحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره كما يشير اليه قوله واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه * رواه الطبرانى وفى رواية اذا احب الله عبدا ابتلاه (فان صبر على بلائه اجتباه) فى مقام ولائه (وان رضى) باعطائه (اصطفاه) لمقام لقائه ومن بعض العلماء اذا رأيتك تحبه ورأيته يبتليك فاعلم انه يريد ان يصافيك والحديث الثانى ذكره صاحب الفردوس من حديث على ولم يخرجه ولده فى مسنده وقد يتوهم من المتن انهما حديث واحد وليس كذلك كما بيناه (وورد) ايضا (اذا احب الله عبدا) من عبيده (جعل له واعظا من نفسه) اى يبصره بعيوب نفسه ويعرفه طريق انسه (وزاجرا من قلبه) بامر ربه (يأمره) بالخير (وينهاه) عن الشر والحديث رواه ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ام سلمة باسناد حسن لكن بلفظ اذا اراد الله بعبد خيرا الحديث وله من حديث انس اذا اراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه وورد من حديث انس كما رواه الديلمى اذا احب الله عبدا لم يضره ذنب

والتائب

والتائب من الذنب كمن لاذنب له ثم تلا * ان الله يحب التوابين * ومعناه انه اذا احبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وان كثرت كما لايضره الكفر الماضى قبل الاسلام وان كبر وقال عليه السلام ان الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لايحب ولايعطى الايمان الامن يحب رواه احمد والحاكم وصححه من حديث ابن مسعود ولاحمد وابى يعلى من حديث ابى سعيد من اكثر ذكر الله احبه الله وعن رابعة من احب شيئا اكثر ذكره فذكر الله علامة لمحبة الله ولمحبة العبد اياه وفى الصحيحين من احب لقاء الله احب الله لقاءه وقال زيد بن اسلم ان الله تعالى ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له ان يقول اعمل ماشئت فقد غفرت لك ويؤيده انه ورد مثل هذا لاهل بدر (ومعناها) اى معنى محبة الله للعبد (ان يبليه به) اى من علامة حب العبد للمولى ان يبليه بالبلاء المورث لزيادة الولاء واما علامة كونه محبوبا له سبحانه ان يتولى الله شانه ظاهره وباطنه سره وجهره فيكون هو الميسر عليه والمدبر لامره والمزين لاخلاقه والمستعمل لجوارحه والمسدد لظاهره وباطنه والجاعل همومه هما واحدا من ذكر ربه والمبغض فى الدنيا فى قلبه والموحش له من غيره والمونس له بلذة المناجاة فى خلوته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته فانظر فى تحقيق هذا المبنى فما ايسر الدعوى وما اعسر المعنى وقد قال بعض العلماء ليس فى الجنة نعيم اعلى من نعيم اهل المحبة والمعرفة ولا فى جهنم عذاب اشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشىء من ذلك وقد جاء من بعض المتبحرين من المفسرين فى قوله سبحانه * ويوم القيمة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة * انهم هم الذين ادعوا المعرفة والمحبة من غير تحقق تلك الحالة (فلا يصلح) العبد (لغيره) اى لغير مولاه فيما قدره وقضاه (كما ورد) فى التنزيل (واصطنعتك) اى اخترتك بالرسالة (لنفسى) اى لمعرفة ذاتى وصفاتى (وعلاماتها) اى امارات محبة العبد لله ثمانية (كتمانها) لانه قد يدخل فى الدعوى مايجاوز حد المعنى ويزيد عليه فى المبنى وتنتظم عليه العقوبة فى العقبى ويتعجل عليه البلوى فى الدنيا ويكون ذلك من الافتراء على الله من غير الامتراء ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا * نعم قد تكون للمحب سكرة فى حبه حتى تدهش فى عقله ولبه فيضطر الى اظهار حبه لربه والا فصدور الاحرار قبور الاسرار ولقد قال بعض الابرار

من اطلعوه على سرفنم به * لم يأمنوه على الاسرار ما عاشا

(وحب الموت) فانه سبب اللقاء ولذا قال عليه السلام لن تروا ربكم حتى تموتوا وقال حذيفة حبيب جاء على فاقة لا افلح اليوم من يندم وفى وصية ابى بكر لعمر رضى الله تعالى عنهما الحق ثقيل وهو مع ثقله مرى والباطل خفيف وهو مع خفته وبى فان حفظت وصيتى لم يكن غائب احب اليك من الموت وهو مدركك وان ضيعت وصيتى لم يكن غائب ابغض اليك من الموت ولن تعجزه وكان الثورى وبشر الحافى يقولان لايكره الموت الا المريب لان

الحبيب على كل حال لايكره لقاء الحبيب نعم من يكون فى ابتداء مقام المحبة ليس يكره الموت بل يكره عجلته قبل ان يستعد للقاء ربه وعلامته المداومة على الطاعة واستغراق الهم فى استعداد زاد المعاد وان يكون مؤثرا ما احبه الله على ما يحب نفس العبد ويهواه فان من بقى مستمرا على متابعة الهوى فمحبوبه مايهواه بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل

اريد وصاله ويريد هجرى * فاترك ما اريد لما يريد

(والطاعة) اى بمداومة الطاعة قدر الاستطاعة فمن احب الله لايتبع هواه كما قال ابن المبارك

تعصى الاله وانت تظهر حبه * هذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لاطعته * ان المحب لمن يحب مطيع

وفى هذا المعنى من بديع المبنى

واترك ما اهوى لما قد هويته * وارضى بمايرضى وان هلكت نفسى

(والتلذذ فى العبادة) بالمواظبة على الذكر والمداومة على الفكر وكثرة التلاوة فقد حكى عن بعض المريدين قال كنت قد وجدت حلاوة المناجاة فى شدة الارادة فادمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقتنى فترة فانقطعت عن التلاوة وقال فسمعت قائلا يقول فى منامى ان كنت تزعم انك تحبنى فلم جفوت كلامى اماترى مافيه من لطيف عتابى وشريف خطابى فانتبهت وقد اشرب قلبى تلاوة القرآن فعاودت الى حالى وقال ابن مسعود لا ينبغى ان يسأل احدكم عن نفسه الا القرآن فان كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وان لم يكن يحب القرآن فلم يحب وقال سهل علامة حب الله حب القرآن وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبى عليه السلام وعلامة حب النبى حب السنة وعلامة حب السنة حب الآخرة وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا ان لا يأخذ منها الازادا يبلغه الى العقبى وعن مطرف ان المحب لايسأم من حديث حبيبه واوحى الله الى داود عليه السلام قد كذب من ادعى محبتى فاذا جنه الليل نام عنى أليس كل محب يحب لقاء حبيبه فها انا موجود لمن طلبنى وقال يحيى بن معاذ من احب الله ابغض نفسه اى لانه مما سواه وقال ايضا من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب يؤثر كلام الله على كلام الخلق ولقاء الله على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق ثم اعلم انه ليس فى الوجود غيره سبحانه فى عين اهل الشهود من ذاته وصفاته ومصنوعاته ولذا ذكر عن الشيخ ابى سعيد الميهنى لما قرئ عليه قوله * يحبهم ويحبونه * قال بحق يحبهم فليس يحب الانفسه على معنى انه الكل وان ليس فى الوجود غيره فمن لا يحب الانفسه وافعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث انها متعلقة بذاته فهو اذا لايحب الانفسه كما ان العارف لايحب جميع مصنوعات الله ومكنوناته الامن حيث آثار قدرته وانوار ارادته واسرار صفاته وما ورد من الالفاظ فى حبه عبارة يؤول مبناه ويرجع معناه الى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه ويشاهده

بلبه والى تمكنه اياه من قربه والى ارادته ذلك به فى ازله محبة لمن حبه ازلى مهما اضيف الى الارادة الالهية الازلية التى اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طريق القرب الى الرب واذا اضيف الى فعله الذى يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث بحدث بحدوث سببه الذى يقتضيه كما قال لايزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى احبه فيكون قربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه وارتفاع الحجب عن قلبه وحصوله فى درجة القرب من ربه وكل ذلك فعل الله ولطفه به فهو معنى حبه وجملة الكلام فى هذا المقام ان حب العبد لله ثمرة حب ربه الازلى ونتيجة حب ربه الابدى فحب العبد مكتنف بين حبى الرب كما يشير اليه قوله سبحانه * يحبهم ويحبونه * مع قوله * ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله * ثم لايخفى ان مراتب الحب وما فيه الدرجات انما تكون قدر الطاعة والعبادات ويدل على تفاوت المقامات ما روى ان ابا حذيفة بن ربيعة بن عبد الشمس لما زوج اخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش فى ذلك وقالوا انكحت عقيلة من عقائل قريش مولى فقال والله لقد انكحته اياها وانى لاعلم انه خير منها فكان قوله اشد عليهم من فعله قالوا فكيف وهى اختك وهو مولاك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من اراد ان ينظر الى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر الى سالم كذا فى الاحياء وقال مخرجه لم اره من حديث حذيفة وروى ابونعيم فى الحلية المرفوع منه من حديث عمر ان سالما يحب الله حقا من قلبه وفى رواية ان سالما شديد الحب لله عز وجل لو لم يخف الله عز وجل ما عصاه فهذا يدل على ان من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب غيره ايضا فلا جرم يكون تنعمه بلقاء الله عند قدومه عليه على قدر حبه له وعناءه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها وتعلقه بها وقد قال بعض العارفين اذا كان الايمان فى ظاهر القلب احب الله حبا متوسطا واذا دخل سويداء القلب احبه الحب البالغ وترك المعاصى وقال الجنيد الناس فى محبة الله عام وخاص فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم فى دوام احسانه اليهم وكثرة نعمه عليهم فلم يتمالكوا ان احبوه الا انهم يقل محبتهم ويكثر على قدر نعمتهم قلت ويشير الى ذلك قوله تعالى * فليعبدوا رب هذا البيت الذى اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف * بل ايماء الى رجائهم الجنة وخوفهم النار فى دار القرار ومن هنا قال الشبلى لما سمع قوله * منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة * الخ فاين من يريد الله وقد اجبت عن هذا فى بعض مؤلفاتى (والمصيبة) اى والتلذذ فى البلية لما يرى فيها من فعل المبلى سواء يكون فى مقام الصبر او الرضاء والشكر (والحرص فى الخلوة) عن الخلق دون الجلوة لانها غالبا تمنع عن مشاهدة الحق واقل درجات الحب التلذذ بالخلوة والتنعم بمناجاته من دون الرياء والسمع فمن كان المنام والاشتغال بكلام الدنيا الذ عنده من العبادة واطيب من مناجاة الله فكيف يصح محبته فعلامة الحب كمال الانس بمناجات

المحبوب وكمال التنعم بالخلوة به وكمال الاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة ويعوقه عن لذة المناجات وعلامة الانس ان يصير العقل والفهم كله لذة مشغوفا بلذة المناجاة كالذى يخاطب معشوقه ويناجيه وقد انتهت هذه اللذة الى بعضهم حتى كان فى صلاته فوقع الحريق فى داره ولم يشعر به وقطعت رجل بعضهم بسبب علة اصابته وهو فى الصلوة ولم يشعر به وعن الصديق من ذاق من خالص محبة الله اشغله ذلك عن طلب الدنيا واوحشه من جميع البشر (والمناجاة) اى والحرص فى الدعاء والنداء والثناء فى جميع الحالات والمقامات فيواظب على التهجد ويغتنم هدو الليل وصفاء الوقت عن الخلائق بانقطاع العلائق وانفصال العوائق (وبغض الدنيا) بان لا يأخذ منها الازاد العقبى من سلوك طريق المولى وفى اخبار داود عليه السلام لا تستأنس الى احد من خلقى فانى انما اقطع عنى رجلين رجل استبطأ ثوابى فانقطع ورجل نسينى فرضى بحاله وعلامة ذلك ان اكله الى نفسه وان ادعه فى الدنيا حيران ثم مهما انس بغير الله كان بقدر انسه بغير الله مستوحشا من الله ساخطا عن درجة محبته وفى قصة برخ وهو العبد الاسود الذى استسقى به موسى عليه السلام ان الله تعالى قال لموسى ان برخا نعم العبد هو الا ان فيه عيبا قال يارب وما عيبه قال يعجبه نسيم الاسحار فيسكن اليه ومن احبنى لم يسكن الى غيرى (والوحشة من الخلق) لان محبة الله ومحبة غيره لا يجتمعان (واتحاد الهم) هم الدين لما ورد من جعل الهموم هما واحدا كفاه الله هم الدنيا والآخرة وقال بعض العارفين ان لله تعالى عبادا احبوه فاطمأنوا اليه فذهب عنهم التأسف على كل ما فات فلم يشتغلوا بحظ انفسهم اذ كان ملك مليكهم تاما وما شاء كان فما كان لهم فهو واصل اليهم وما فاتهم فيحسن تدبيره لهم ثم حق المحب اذا رجع من غفلته فى لحظة ان يقبل على محبوبه ويشتغل بالعتاب لنفسه ويسأله ويقول يارب باى ذنب قطعت برك عنى وابعدتنى عن حضرتك وشغلتنى بنفسى وبمتابعة الشيطان (وطريقها) اى طريق تحصيل المحبة (السلوك) اى سير مسالك اهل الشريعة والطريقة والحقيقة من منازل السائرين ومراحل الطائرين وقد قيل ان الطرق الى الله بعدد انفاس الخلائق وفيه تنبيه نبيه على ان كل مخلوق له سر مع خالقه لا يطلع عليه الا من هو اقرب منه اليه وعن هذا قال تعالى * وان من شئ الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم * ثم اقرب الطرق الى الله تعالى هو المحبة وهى حاصلة بمتابعة الكتاب والسنة ومخالفة الهوى والبدعة وتمامه باجتناب السيئات من المحرمات والمكروهات واكتساب الطاعات من الفرائض والنوافل من السنن المؤكدات والمستحبات (فورد لا يزال العبد يتقرب الى) اى بعد اداء الفرائض والواجبات والسنن الرواتب (بالنوافل) من الصلوة والطواف والذكر والفكر والثناء والدعاء وما استحسنه العلماء (حتى احبه) حبا يليق بارباب المناقب (فاذا احببته) حبا بليغا (كنت

له سمعا) يسمع بى (وبصرا) يبصربى (وقلبا) يعقل بى (ويدا) يبطش بى (ورجلا) يتقوى بى رواه البخارى وغيره بالفاظ مختلفة فيستخرج ذلك من السالك صفاء ذكر ودقة قلب ودقة فكر يفكر عنه ماسبق من الغفلة ويكون هفوته سببا لتجدد ذكر ربه وصفاء قلبه ومهمالم يرالمحب الاالمحبوب ولم يرشيئا الامنه لم يأسف على فقد المطلوب واستقبل الكل بالرضاء بما وقع من القضاء وعلم ان المحبوب ام يقدرله الاماف خبرته ويتذكر قوله تعالى * وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم * ولعله عليه السلام قال فى هذا المقام انه ليغان على قلبى فى اليوم والليلة فاستغفر الله سبعين مرة كما فى الصحيحين وانما كان استغفاره من القدم الاول فانه كان بعدا بالاضافة الى القدم الثانى كما قيل حسنات الابرار سيئات المقربين الاحرار ويكون ذلك عقوبة لاهل التوفيق على الفتور فى الطريق والالتفات الى غير الحبيب والرفيق كمايروى عنه عليه السلام ممايروى عن ربه تبارك وتعالى انه قال فى بعض الكتب المنزلة ان ادنى ما اصنع بالعالم اذا آثر شهوات الدنيا على طاعتى ان اسلبه لذة مناجاتى فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة العموم واما الخصوص فيحجبون عن المزيد بمجرد الدعوى والعجب والركون الى ماظهر من مبادى اللطف وذلك هو المكر الخفى الذى لايقدر على الاحتراز منه الاالقوى من ذوى الاقدام الراسخة وقد سمع ابراهيم بن ادهم قائلا يقول وهو فى سياحته وكان على جبل لبنان *

* كل شئ لك مغفور سوى الاعراض منا * قد وهبنا لك مافات بقى مافات منا *

فاضطرب وغشى عليه فلم يفق يوما وليلة وطرأت عليه احوال وغلبة ثم قال سمعت النداء من الجبل يا ابراهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحت وقد قدمنا ان درجات الحب لانهاية لها فى مقام القرب فحق العبد ان يجتهد فى كل نفس مايفيد حبا حتى يزداد فيه قربا ولذا قال عليه السلام من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من امسه فهو ملعون كذا فى الاحياء وقال مخرجه لا اعلم هذا الافى منام لعبد العزيز ابن ابى رداد قال رأيت النبى عليه السلام فى المنام فقلت يا رسول الله اوصنى فقال ذلك بزيادة فى آخره رواه البيهقى ولعل تلك الزيادة ما فى بعض الروايات ومن لم يكن فى زيادة فهو فى نقصان وقد قال الشيخ البستى *

* زيادة المرء فى دنياه نقصان * وربحه غير محض الخير خسران *

وقال بعض العارفين من عبد الله بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والادلال ومن عبده بالخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ومن عبده من طريق المحبة والخوف احبه الله تعالى وقربه ومكنه وعلمه فالمحب لايخلو عن خوف والخائف لايخلو عن محبة ولكن الذى غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف الايسير يقال هو فى مقام المحبة وبعد من المحبين ويجعل فى طريق السير من الطائرين المجذوبين المحبوبين وقد قيل فى وصف حال العارفين *

* قريب الوجد ذو مرمى بعيد * على الاحرار منهم والعبيد *
* لقد عزت معانيه فغابت * عن الابصار الا للشهيد *
* غريب الوصف ذو علم غريب * كأن فؤاده زبر الحديد *
* ترى الاعياد فى الاوقات تجرى * له فى كل يوم الف عيد *
* وللاحباب افراح بعيد * ولا تجد السرور له بعيد *

وكان الجنيد ينشد ابياتا يشير بها الى اسرار العارفين وان ذلك لا يجوز اظهارها للغافلين وهى هذه *

* فسرت بناس فى الغيوب قلوبهم * فحلوا بقرب الماجد المتفضل *
* عراضا بقرب الله فى ظل عرشه * تجول بها ارواحهم وتنقل *
* موارد هم فيها على العز والبها * ومصدرهم عنها لما هو اكمل *
* تروح بعز مفرد من صفاته * وماكتمه اولى لديه واعدل *
* ساكتم من علمى به مايصونه * وابذل منه ما ارى الحق يبذل *
* فاعطى عباد الله منه حقوقهم * وامنع منه ما ارى المنع اعدل *
* على ان للرحمن سرا يصونه * الى اهله فى السر والصون اجمل *

فامثال هذه المعارف التى اشير اليها لايجوز ان يشترك الناس فيها ولاينبغى ان يظهرها من انكشف له شىء منها لمن لم ينكشف له عنها بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا ولم يبق على نظامها فالحكمة تقتضى شمول الغفلة لعمارة الدنيا وتمامها ولذا قيل الغفلة من الله رحمة ولولا الحمقى لخربت الدنيا بل لو اكل الناس الحلال اربعين يوما لتعطلت الدنيا لزهدهم فيها وذهولهم عنها وبطلت الاسواق والمعايش منها ولو اكل العلماء من مال الحلال لاشتغلوا بانفسهم لتحصيل الكمال ولوقفت الالسنة والاقلام عن كثير مما انتشر من العلوم بين الانام ولكن لله فيما هو شر ظاهرا حكم واسرار على ما لايخفى كما ان له فى الخير اسرارا وحكما لاتحصى لانهاية لحكمته ولاغاية لقدرته هذا وقد يظهر مقال السر على لسان العارف حال السكر فهو معذور لانه مقهور اذ ربما يشتعل من الحب نيرانه فلايطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه ولاينطفى لمعانه فيقول القادر على كتمانه

فقالوا قريب قلت ما انا صانع * بقرب شعاع الشمس لو كان فى حجرى
فمالى منه غير ذكر بخاطر * يهيج نار الحب والشوق فى صدرى

والعاجز عنه يقول

تخفى فيبدى الدمع اسراره * ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول ايضا

ومن قلبه مع غيره كيف حاله * ومن سره فى جفنه كيف يكتم

وكان صاحب البردة اخذ من هذه الزبدة فى قوله

ايحسب الصب ان الحب منكتم * ما بين منسجم منه ومضطرم

وقال بعض العارفين اكثر الناس من الله بعدا اكثرهم اشارة به اى الى مقام قربه وقد دخل ذوالنون المصرى على بعض اخوانه ممن كان يذكر المحبة فرآه مبتلى ببلاء فقال لا يحبه من وجد الم ضربه فقال الرجل لكنى اقول لا يحبه من لم يتنعم بضربه فقال ذوالنون ولكنى اقول لايحبه من شهر نفسه بحبه فقال الرجل استغفر الله واتوب اليه اى من دعوى حبه وقد قال ابو تراب النخشبى فى علامة الحب ابياتا هى

لا تخدعن فللمحب دلائل * ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه * وسروره فى كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة * والفقر اكرام وبر عاجل
ومن الدلائل ان يرى من عزمه * طوع الحبيب وان الح العاذل
ومن الدلائل ان يرى متبسما * والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل ان يرى متفهما * لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل ان يرى متقشفا * متحفظا من كل ما هو قائل

وقال يحيى بن معاذ الرازى فى هذا المعنى من المبنى

ومن الدلائل ان تراه مشمرا * فى خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه * جوف الظلام فماله من عاذل
ومن الدلائل ان تراه مسافرا * نحو الجهاد وكل فعل فاضل
ومن الدلائل زهده فيما ترى * من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل ان تراه باكيا * ان قد رآه على قبيح فاعل
ومن الدلائل ان تراه مسلما * كل الامور الى المليك العادل
ومن الدلائل ان تراه راضيا * بمليكه فى كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى * والقلب محزون كقلب الثاكل

(وهو) اى السلوك اوطريقه بلزوم عشرة اسباب تكون رفيقه (بلزوم الوضوء) اى الطهارة الظاهرة (فهو) اى الوضوء وما فى معناه (ينور القلب) بسبب تأثير صفاء الظاهر لصفاء الباطن (والخلوة) اى وبلزومها عن الجلوة (فهى) اى الخلوة (تفرغ عن الشواغل) المانعة من تحصيل الفضائل وقد تقدم تحقيق بحث الخلطة والعزلة ثم القوم مختلفون فى طرق سلوكهم فمنهم من جعل مدار الخلوة على خلو القلب عن غير ذكر الرب ومشاهدة الحق ولو كان فى مجمع الخلق كما يشير اليه قوله تعالى * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله * وهو طريق السادة النقشبندية والقادة الشاذلية ويقال فى حقهم انهم غريبون

قريبون وكائنون بائنون وعرشيون فرشيون ومنهم من اختار الخلوة المتعارفة بينهم تهوينا للمبتدى وتسهيلا للمنتهى وكان المصنف منهم ولذا قال (والاولى ان يكون) السالك الذاكر (فى بيت مظلم) ضيق ليس فيه متاع الا ما لابد منه (اويلف رأسه) اذا كان فى مسجد ونحوه (ويغمض عينيه) حال ذكره وفكره لاحين صلوته فانه مكروه على خلاف دأبه عليه السلام وسنته وانما يختار البيت المظلم ولف الرأس وتغميض العين (لتركد الحواس) اى لتسكن وتستقر وفيه ان ما ذكر انما هو يسكن حاسة البصر ولعل ايراده بصيغة الجمع لتوارد النظر (والسكوت) اى وبلزومه عن غير ذكر ربه فقد ورد من صمت نجا ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا اوليصمت ومن حسن اسلام المرء تركه ما لايعنيه (فهو) اى السكوت المشتمل على الفكر (يلقح العقل) اى ينتج كماله (ويقوى القوى) من اللسان وما يتبعه من الجوارح والاركان (والجوع) اى وبلزومه للصيام اوللصبر على فقده والا فهو ليس مطلوبا بنفسه ولذا ورد فى دعائه عليه السلام واعوذ بك من الجوع فانه بئس الضجيع فانه اذا اشتد عن حده يكون شاغلا لصاحبه عن ذكر ربه وفكر حبه (والسهر) فى الذكر والفكر والعبادة والتلاوة والا فهو ايضا ليس بمطلوب فى حد ذاته (فهما) اى الجوع والسهر (ينوران القلب) اذا كان مشتغلا بذكر الرب (بتقليل دمه وذوبان شحمه) فيكون مضيقا لمجرى الشيطان ودخوله ووصوله فيختارهما (على الاعتدال) فيهما (فالافراط) والمبالغة منهما (شاغل عن العبادة (كالتفريط) والتقصير عن قدر الحاجة لارباب الارادة واصحاب السعادة (ونفى الخواطر) اى وبلزوم نفيها ودفعها اذا كانت مذمومة كما قال العارف ابن الفارض

ولو خطرت لى فى سواك ارادة * على خاطرى سهوا حكمت بردتى

اى بارتدادى عن مقام كمالى وحال ودادى وهذا اذا استقرت الخواطر ولم تكن من العوابر والا فلا عبرة لها واشار اليها بقوله (فالتمييز) بين الخاطر الالهى والملكى والشيطانى والنفسى (شاغل) للسالك عما هو بصدده من حصول ذكر ربه ووصول سير قربه فى مقام حبه (والتسليم) اى وبلزوم التسليم والتفويض (له تعالى فى كل حال) من جميع اموره الدنيوية والاخروية فيترك تدبيره واختياره فى جميع احواله الى مادبره الحق له فى آزاله (ونصب متفقد) اى وبلزوم تعيين خادم متفقد للوازمه (يبلغ القوت الحلال) اى يوصل اليه مأكوله ومشروبه من مال الحلال والافشبهه اقرب اليه من الحرام فان هذا الزمان زمان الشبهات وفقدان الحلال الصرف من الطيبات (فهو) اى الحلال (الاصل) فى محافظة الاعمال والاحوال كما يشير اليه قوله تعالى * يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا * وقوله سبحانه * يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون * فقدم

اكل الحلال على صالح الاعمال وقد امر الله بالمؤمنين بما امر به المرسلين اشعارا بان هذا
شان السالكين من السابقين واللاحقين ولان الحلال يثبت ثواب عبادة لم يفعلها الشخص
والحرام يبطل ثواب عبادة فعلها وتوضيحه شخص تعب فى النهار بسبب كسب الحلال وكانت
له وظيفة عبادة فى الليل من الاعمال ففاتت منه العمل بسبب فتور البدن وظهور الكسل فلا
شك انه يثاب على تلك العبادة بسبب تحسين النية فى الارادة ومن اكل الحرام اولبس
الحرام وترك المنام وقيام الليل كله بالصلوة وسائر انواع العبادة لا يقبل منه كما ورد من
اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفيه درهم حرام لم يقبل الله له صلوة مادام عليه شىء رواه الامام
احمد عن ابن عمر قوله تعالى * انما يتقبل الله من المتقين * يعم اكل الحرام وسائر المحرمات
على الانام (وترك غير الفرائض) القطعية والظنية (والرواتب) اى وغير السنن المؤكدة
للصلوات الخمس وهذا اللزوم بالنسبة الى المبتدئ حيث الافضل فى حقه مجرد الذكر
واما بالنسبة الى المتوسط فالاكمل فى حقه التلاوة وبالنسبة الى المنتهى الصلوة لانها
جامعة للذكر والتلاوة واعمال الجوارح واختلاف الحالة كما فى عوارف المعارف (والذكر الدائم)
اى ولزوم الذكر على سبيل الدوام (مستقبلا) لبيت الله الحرام (مع الحضور) اى حضور القلب
فى مشاهدة الرب ولعله اراد بالحضور هنا مجرد نفى الغفلة (باللسان) اى بلسان البيان او
بلسان القلب والجنان اوبالجمع بينهما وهو اكمل وان كان الذكر الخفى افضل لقوله
تعالى * واذكر ربك فى نفسك * وهو يحتمل انه اراد به الخفية عن الخلق واخفى منها
وهى السر مع الحق كما لايخفى وكذا ما ورد خير الذكر الخفى وورد ان الذكر الذى لا
تعلمه الحفظة افضل مما تعلمه سبعين ضعفا فلذا اختاره النقشبندية لتسليك المريدين
فيأمرونهم بان يلصقوا لسانهم الى حنكهم ويقولون بلسان قلوبهم لااله الاالله ويشيرون
فى لااله الى نفى ماسوى الله وفى الاالله الى اثبات ذاته وصفاته ويريدون بالكلمة معنى
لااله معبودا وموجودا ومشهودا بحسب مراتبهم وتفاوت مناقبهم واما اهل الذكر الجلى
باللسان فيشيرون بالنفى الى جانب اليمين وفى الاثبات الى جانب اليسار وهو القلب
وهذه كلها اصطلاحات للمشايخ الكبار واختيارات لهم فى مقام الاظهار والاسرار والافما
ثبت عن النبى المختار تلقين ذكر ولااعطاء خرقة ولا طريق مصافحة انما الثابت بالتواتر
الصحبة ومتابعة الكتاب والسنة اذا عرفت هذا (قيل) افضل الذكر (هو الله) لانه المقصود
لاسواه الا انه لاتحصل التوحيد فى مقام التفريد اذ اثبات وجوده لاشك لاحد فى شهوده
ولذا قالت رسلهم افى الله شك وقال تعالى * ولئن سألتهم من خلق السموات والارض
ليقولن الله * فلابد من كلمة التوحيد لتحقيق صفة التفريد وقد امر جميع الانبياء والرسل
بذلك لاتباعهم واشياعهم (وورد) عن نبينا صلى الله عليه وسلم (افضل الذكر لااله الاالله)
تمامه وافضل الدعاء الحمد لله كما رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم

من جابر مرفوعا (وقيل لا اله الا هو الحى القيوم) وهو لا ينافى ما تقدم لما فيه من زيادة الحى القيوم ولانه آية من القرآن دالة على التوحيد مع زيادة البرهان فالحى الازلى الابدى يشير الى ان غيره لا يصلح للالوهية لانه اما لا حيوة له او حياته حادثة والقيوم هو الذى يقوم بذاته ويقوم غيره باظهار صفاته من قدرته وارادته وحكمته فى مصنوعاته وفى هذا تلويح الى بطلان ما يقوله الوجودية من المعية فى المراتب الشهودية حيث قال ابن العربى سبحان من اوجد الاشياء وهو عينها وقد وقع التناقض فى عين كلامه المنافى لمرامه فانه سبحانه اذا اوجد الاشياء واحدثها كيف يتصور ان يكون عينها فما للتراب ورب الارباب فهو ابعد من قول من قال بالاتحاد فى مقام الالحاد والله رؤف بالعباد (فورد) فى بعض الروايات تقوية لما تقدم (الاسم الاعظم) ثابت (فى آية الكرسى) اى فى اولها (وآل عمران) اى فى صدر سورتها (وهما يشتركان فيه) اى فى وجود لفظ الله لا اله الا هو الحى القيوم فيهما دون غيرهما من السور فانها خالية عنهما والحديث رواه ابو داود والترمذى وابن ماجه وابن ابى شيبة عن اسماء بنت يزيد مرفوعا بلفظ اسم الله تعالى الاعظم فى هاتين الآيتين * والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم وفاتحة آل عمران * الم الله لا اله الا هو الحى القيوم * والظاهر انه فى الآيتين كلتيهما معا على سبيل الاجتماع ويحتمل الانفراد وكذا الكلام فيما ورد من حديث ابى امامة اسم الله الاعظم فى ثلاث سور البقرة وآل عمران وطه قال القاسم التابعى فالتمسته فوجدته انه الحى القيوم لوجوده فيها ويؤيده حديث اصحاب السنن الاربعة وغيرهم ان الاسم الاعظم ياحى ياقيوم وهو المناسب لما تقدم والله اعلم واما ما اورده المصنف فما رأيته فى حديث ثم فى المستدرك للحاكم عن سعد بن ابى وقاص اسم الله الاعظم الذى اذا دعى به اجاب واذا سئل به اعطى لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين وهو دعوة ذى النون يونس عليه السلام ويؤيده قوله سبحانه * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين * وقيل هو هو حيث صدر به وختم به فى قوله هو الله الذى لا اله الا هو * ويقال *

* اعد ذكر نعمان لنا ان ذكره * هو المسك ما كررته يتضوع *

ومن هنا قيل ان فى كلمة الجلالة انواعا من الجمالة اذ لو حذف الفه بقى لله ولله يسجد من فى السموات ومن فى الارض واذا حذف لامه الاولى بقى له وله ما فى السموت وما فى الارض وله الحمد فى الاولى والآخرة وله الكبرياء فى السموات والارض واذا حذف لامه الثانية بقى هو لا اله الا هو قل هو الله احد الى آخره وهو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم ليس كمثله شئ وهو السميع البصير فسبحان من لا يعرفه ما هو الا هو وقد جاء فى الاسم الاعظم روايات اخر كما بينته فى شرح الحصين والجمهور على ان الاسم الاعظم هو الله وقد قال القطب الربانى السيد عبد القادر الجيلانى ان الله هو الاسم الاعظم لكن بشرط ان تقول

الله

الله وليس فى قلبك سوى الله ومن هنا قال شيخ مشايخنا الشيخ ابو الحسن البكرى قدس الله سره السرى فى اول حزبه أستغفر الله مما سوى الله تعقبه بعض علماء الظاهر حيث لم يعرف الله ولا ماسواه وقد شرحته فى جوابه وبينت القول بصوابه (والاولى فيه) اى فى المختار من الاذكار (الاستغناء من القلب) فيختار ما يلهمه الرب (ويواظبه) ليلا ونهارا وسرا وجهارا (حتى تسقط حركة اللسان) اى كلفتها (ويجرى) الذكر على اللسان (دون اختيار) اى من غير تكلف تذكار واحضار (ثم يرجع) الذكر (الى القلب) اى ينتهى اليه ويستولى عليه (ثم ينمحق) وينمحى (الحروف) من المبنى (ويبقى المعنى ثم يرتفع العدد) من المائة والالف ونحوهما مما لابد له من احضار المبنى (ويصير) مداومة تصور الذكر (حالة مستديمة) دالة على رتبة مستقيمة (وحينئذ تحدث المحبة) وتظهر المودة (فلا ينسى المذكور) فى حال من احوال الذاكر كالاكل والشرب والخلطة والعزلة والسكوت والكلام واليقظة والمنام فقد قال المحبة دوام الذكر ويؤيده حديث من احب شيئا اكثر ذكره وقال سفيان المحبة اتباع صاحب النبوة يؤيده آية * قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى * ولله در القائل *

* عجبت لمن يقول ذكرت ربى * وهل انسى فاذكر ما نسيت *
* اموت اذا ذكرتك ثم احيى * ولولا حسن ظنى ما حييت *
* فاحيى بالمنى واموت شوقا * فكم احيى عليك وكم اموت *
* فليت حباله نصب لعينى * فان قصرت فى نظرى عميت *
* شربت الحب كأسا بعد كاس * فما نفد الشراب ولا رويت *

وقال ابن الجلاء اوحى الله الى عيسى عليه السلام انى اذا اطلعت على سر عبدى فلم اجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبى وتوليته بحفظى (ثم يغيب) الذاكر (عن مشاهدة (جميع الاشياء ظاهرا وباطنا) فى مكنوناتها من ارضها وسمواتها (حتى عن النفس) اى وجودها واجزائها (وصفاتها) اى وعن شهود صفاتها الذميمة والمحمودة وسائر حالاتها (و) يغيب (عن محاضراتها فى المذكور وهو القرب) اى المأثور عن الجمهور فعن الخواص المحبة محو الارادات واحتراق جميع الصفات والحاجات (ثم يغيب) الذاكر (عن الذكر) اى عن وجوده وشهوده (ايضا) كما غاب عما عداه من المسطور (فى شهود المذكور) اى حضوره بطريق الفرح والسرور (وهو الفناء) فى بحر النور (ثم يحدث الاتصال) وهو كمال البقاء فى القرب الناشى من جمال الحب (ويشاهد) الذاكر (مايشاهد) من عالم الوصال (لظهور النور) من اشعة الجمال ولمعة الجلال فى مقام الكمال (والغفلة) اى وللغفلة والذهول (عن الشواغل) والموانع من حصول الوصول الى تحقيق الفروع والاصول

وقالت رابعة العدوية يوما من يدلنا على حبيبنا فقالت جارية لها حبيبنا معنا ولكن شغل الدنيا عنه قطعنا وكأنه ماخوذ من قوله تعالى * وهو معكم اين ما كنتم * وقوله * شغلتنا اموالنا واهلونا * وقال السرى من احب الله عاش ومن مال الى الدنيا طاش والاحمق يغدو ويروح بلاش والعاقل عن عيوبه فتاش وكأنه مقتبس من قوله تعالى * فلنحيينه حيوة طيبة * وقال هرم بن حيان اقول المؤمن اذا عرف ربه احبه واذا احبه اقبل اليه واذا وجد حلاوة الاقبال اليه لم ينظر الى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر الى الاخرى بعين الرغبة وبقى بجسده فى الدنيا وبروحه فى العقبى مع المولى فى المقام الاعلى وماقال الشبلى اوحى الله الى داود عليه السلام ياداود ذكرى للذاكرين وجنتى للمطيعين وزيادتى للمشتاقين وانا خاصة للمحبين (ويصير) الذاكر حينئذ (من ملوك الدين) ومن الائمة المجتهدين ومشايخ المسلمين ووحيد عصره وفريد دهره بتوفيق ربه وهو خير المعين لتحقيق علم اليقين فكمل ايمانه واسلامه واحسانه فى عين اليقين واستغرق فى بحر التوحيد ونهر التفريد وغاص فى عين العلم وغاب عن عين غيره فى زين الحلم فلنذكر بعض احوال المحبين فقد قال بعضهم لبعض العارفين انك محب فقال لست محبا انما انا محبوب والمحب متعوب فكأنه اشار الى انه مجذوب ومطلوب وانه بسبب لذته فى خدمة محبوبه غير متعوب ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الانفس ونهبوا الاموال اجتمع الى سهل اخوانه فقالوا لو سألت الله عز وجل دفعهم فسكت ثم قال لله عباد فى هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الارض ظالم الامات فى ليلة واحدة ولكن لايفعلون قيل ولم قال لانهم لايحبون مالايحب الله وقيل لبشر باى شئ بلغت هذه المنزلة فقال كنت اكاتم الله حالى يعنى اسأله ان يكتم على ويخفى امرى وروى انه رأى الخضر فقال له ادع الله لى فقال يسر الله عليك طاعته قلت زدنى قال وسترها عليك فقيل معناه سترها عن الخلق حتى لايطلعوا عليها وقيل معناه سترها عنك حتى لاتلتفت انت اليها وفى الاخبار ان الله تعالى اوحى الى بعض انبيائه انما اتخذ لخلتى من لايفتر عن ذكرى ولايكون له هم غيرى ولم يؤثر على شيئا من خلقى وان احرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا وان قطع بالمنشار لم يجد لمس الحديد الما فمن لم يبلغ الى داره غلبة الحب الى هذا الحد فمن اين يعرف ماوراء الحب من الكرامات والمكاشفات وكل ذلك وراء الحب ووراء كمال الايمان ولاحصر لمقامات الايمان وتفاوته فى الزيادة والنقصان والله المستعان ومما يؤيد هذا الشان من البرهان ما روى انه عليه السلام قال لابى بكر الصديق ان الله قد اعطاك مثل ايمان كل من آمن بى من امتى واعطانى مثل ايمان كل من آمن بى من ولد آدم رواه الديلمى عن على (وقد انتهى الكتاب) الذى هو لب اللباب لكل فصل وباب عند ارباب الالباب (متعلق المقطع) المشير الى ان * ختامه مسك

وفى

وفى ذلك فليتنافس المتنافسون (بالدعاء المأثور) عن سيد الابرار وسيد الاخيار (اللهم انا نسألك الهدى) بالايمان (والتقى) عن العصيان (والعفاف) بالكفاف للانسان (والغنى) عن الخلق فى جميع الاحيان والحديث رواه مسلم والترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود بلفظ اللهم انى اسألك الحديث فلعل ما ذكره رواية فى المبنى او نقل بالمعنى واختار صيغة الجمع لندخل معه ويدخل معنا كما فى قوله (ونعوذ بك من علم لاينفع) وهو يحتمل احتمالين احدهما انه فى نفسه لم يكن من العلوم النافعة كما يشير اليه ما ورد ان من العلم جهلا وثانيهما انه لم يكن ينفع صاحبه بالعمل به لما ورد اشد الناس عذابا عالم لم ينفعه الله بعلمه ونعم ما قال ذو الحالة الفاخرة

يا من تباعد عن مكارم اخلاقه * ليس التفاخر بالعلوم الزاخرة

من لم يهذب علمه اخلاقه * لم ينتفع بعلومه فى الآخرة

(وقلب لا يخشع) بان اسود بالغفلة ولم تؤثر فى النصيحة والموعظة واسباب المعرفة كما قال تعالى * فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله * وقال عز وعلا * الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولايكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم * وقال عز وجل * ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة اواشد قسوة (ونفس لاتشبع) من الدنيا فتكون حريصة عليها ومقبلة بكليتها اليها اوكناية عن كثرة اكلها وعدم قناعتها بمقدار كفايتها (ودعاء لايسمع) اى لايقبل فى حال دعوتها والحديث رواه ابن ابى شيبة عن ابن عمر والطبرانى فى الاوسط عن ابن عباس وزاد اللهم انى اعوذ بك من هؤلاء الاربع ورواه الحاكم وابن ابى شيبة عن ابن مسعود بلفظ اللهم انى اعوذ بك من علم لاينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ونفس لاتشبع وفى رواية لابن حبان وغيره عن انس اللهم انى اعوذ بك من علم لاينفع وعمل لايرفع وقلب لا يخشع وقول لايسمع وفى رواية لابى داود عن ابى هريرة اللهم انى اعوذ بك من الاربع من علم لاينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ودعاء لايسمع ففى هذه الروايات دلالة واضحة على عدم منع جواز السجع الصادر عن استقامة الطبع كما حكى انه قيل لصاحب المنازل اترك السجع فقال رجعت عما سجعت (وآخر دعوينا) بتوفيق مولانا (ان الحمد لله رب العالمين) فيما ولانا فى اولانا واخرانا وفيه ايماء الى قوله سبحانه اخبارا عن اهل الجنة وهو * ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجرى من تحتهم الانهار فى جنات النعيم دعويهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعويهم ان الحمد لله رب العالمين * وفيه تنبيه نبيه على ان آخر مقامات اهل الجنة فى درجات المعرفة والمحبة هو الرضاء والشكر بمزيد النعمة

وازالة المحنة كما يومى اليه قوله سبحانه * وقالوا الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور الذى احلنا دار المقامة من فضله لايمسنا فيها نصب * اى تعب * ولا يمسنا فيها لغوب * اى كلال وكسل وفسر الحزن بانواعه بحسب ما كان كل احد مبتلى بفرد من اصنافه فقيل حزن الفقراء كراء البيت اوالتحويل منه اوحزن الفراق وحجابه وهو لاهل الاشتياق الى مشاهدة الله ورفع نقابه وهو اعلى مراتب ارباب الكمال واعلى مناصب اصحاب الجمال المتزايد المترقى ساعة فساعة الى ازل الآزال والله سبحانه اعلم بحقائق الاحوال (والسلام على عباده الصالحين) من الانبياء والمرسلين السابقين (والصلوة على محمد رسوله) سيد الاولين والآخرين (خاتم النبيين وعلى اتقياء امته) من اهل بيته وصحابته واتباعهم واشياعهم اجمعين (الى يوم الدين) آمين يا رب العالمين *

وكان الفراغ منه على يد مؤلفه رحم وغفر مع سلفه وخلفه آخر يوم الخميس المشرف على ليلة الجمعة المسماة بليلة الرغائب من شهر الله المعظم رجب المرجب احد الاشهر الحرم من شهور عام اربعة عشر بعد الالف من هجرة خير البشر وشافع المحشر من مكة الامنية الى المدينة الامينة النازل فيها للمؤمنين انواع السكينة حامدا ومصليا ومسلما ومفوضا ومتوكلا ومؤمنا ومسلما والصلوة والسلام على سيد المرسلين وافضل الخلق اجمعين وعلى آله واصحابه واتباعه الى يوم الدين آمين آمين بحرمة سيد المرسلين *

قد وقع الفراغ من طبعه فى سنة ١٣٢١ للبلقين بقيتا من شهر ربيع الاول مصححه مصحح المطبعة : شاكرجان بن اسد الله الحميدى التكوى *
ومعين المصحح : الحاج محمد الامين اليعقوبى .

فهرس الجزء الاول من شرح عين العلم لعلى القارى

	صفحه
المقدمة فى العلم وانواعه ـ ـ ـ	١٠
مبحث علم المكاشفة ـ ـ ـ ـ ـ ـ	١١
علم المعاملات ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ	١٢
فى فضيلة العلم وفضل العلماء ـ ـ	١٧
الاخبار الواردة فى فضيلة التعلم والتعليم	١٨
ترك مجادلة الكلام ـ ـ ـ ـ ـ ـ	٣٥
فى فضيلة ابى حنيفة ـ ـ ـ ـ ـ	٣٦
الباب الاوّل فى الورد اى فى	—
الاعمال الموقتة ـ ـ ـ ـ ـ ـ	٤١
فى الامامة والاذان ـ ـ ـ ـ ـ ـ	٥٣
ومن الاعمال الموقتة الصلوة على النبى	٧٢
ومنها الاذكار المروية ـ ـ ـ ـ ـ	٧٤
ومنها الدعاء ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ	٧٣
ومنها التفكر ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ	٨١
الباب الثانى فى الانفاق والقناعة	١٠٥
مبحث السخى ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ	١٠٧
الطريق المحمود فى الانفاق ـ ـ	١٠٨
اظهار الصدقة واخفاؤها ـ ـ ـ	١١٦
من يستحب له اعطاء الصدقة ـ ـ	١١٩
بيان انواع الصدقة ـ ـ ـ ـ ـ ـ	١٢٤
الباب الثالث فى الصوم وكسر	—
الشهوة ـ ـ ـ ـ ـ	١٢٧
بيان جنس المأكولات ومايستحب اكله	١٣٤
الباب الرابع فى السفر والحج والغزو	١٤٥
السفر الدينى ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ	١٤٥
السفر الدنيوى ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ	١٤٣
ما لا يجوز استصحابه فى السفر ـ	١٤٩
ما يستحب مصاحبته فى السفر ـ ـ	١٥٠
الباب الخامس فى التزوج والتخلى	١٦٢
آفات النكاح ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ	١٦٨
فى النساء الممدوحة نكاحها ـ ـ ـ	١٧٣
فى النساء التى يحترز نكاحها ـ ـ	١٧٥
مايفعل للمولود بعد ولادته ـ ـ ـ	١٨٢
الباب السادس فى الكسب والورع	١٨٥
الاجتناب عمايضر الناس فى الكسب	١٨٧
ما يكره بيعه كبيع الكفن ـ ـ ـ	١٨٩
ان الغنى الذى لامصلحة فيه فلايجوز	—
اليه صرف بيت المال ـ ـ ـ ـ ـ	٢٠١
الباب السابع فى الاتباع فى المعيشة	٢٠٢
فى سنن الضيافة ـ ـ ـ ـ ـ ـ	٢١٥
فى سنن اللباس ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ	٢٢٥
فى سنن المسكن والبناء ـ ـ ـ ـ	٢٢٨
فى سنن النوم وآدابه ـ ـ ـ ـ ـ	٢٣٣
آداب تحديث الرؤيا ـ ـ ـ ـ ـ	٢٣٦
فى آداب الخلاء ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ	٢٣٧
فى التنظف بعد النوم ـ ـ ـ ـ ـ	٢٣٨
فى آداب دخول الحمام ـ ـ ـ ـ ـ	٢٤٥
فى حلق الرأس، وقص الشارب	—
ونتف الأبط	٢٤١
قلم الاظفار والاكتحال والتزين ـ	—

	صفحه
تنظيف المسجد وآداب الجلوس فيه	٢٤٣
فى حقوق الجلوس — — — — —	٢٤٦
فى سنن الكلام وآدابه — — —	٢٤٧
فى آداب الكتابة — — — — —	٢٤٩
فى طلب الحوائج — — — — —	٢٥٠
لزوم لزوم المرأة قعر البيت —	٢٥٣
الاغتمام بعدم المصيبة وبطول الصحة	٢٥٣
فى سنن الحجامة — — — — —	٢٥٦
كراهة الاكتواء والرقية — — —	٢٥٧
فى سنن الوصية — — — — — —	—
الباب الثامن فى الصحبة — —	٢٥٩
من يستحب حبه ومن يلزم بغضه —	٢٦٤
فى آداب التسليم على المسلم —	٢٧٤
فيمن لا يجوز التسليم عليه — —	٢٧٥
الاولى بالبداءة بالسلام — — —	—
فى بيان المصافحة — — — — —	٢٧٦
فى توقير الكبير ورحمة الصغير	٢٧٩
فى حقوق المسلم على المسلم — —	٢٨١
الامراض المنهية العيادة — — —	٢٨٩
فيما يفعل عند المحتضر — — —	—
فى بر الوالدين — — — —	٢٩٣
فى صلة الرحم — — — —	٢٩٤
فى حقوق الجار — — — —	٢٩٥
فى المعاشرة مع المرأة — — —	٢٩٧

	صفحه
ابغض المباحات عند الله الطلاق	٣٠٣
فى تأديب الولد — — — —	٣٠٩
الدخول على الظلمة — — —	٣١٤
فى سنن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر	٣٢١
فى النهى عن التجسس — — —	٣٢٩
الباب التاسع فى الصمت وآفات اللسان	٣٣٣
من آفات اللسان التكلم بما لايعنيه	٣٣٤
ومنها الفضول — — — —	٣٣٥
ومنها الخوض فى الباطل — — —	٣٣٦
ومنها المراء — — — — — —	٣٣٧
ومنها الجدل والخصومة — — —	٣٣٨
ومنها الفحش والسب — — —	٣٤٠
ومنها اللعن — — — — — —	٣٤١
ومنها نسبة الذنب الى المسلم والدعاء	—
على احد — — — — — —	٣٤٤
ومنها المزاح — — — — — — —	٣٤٥
ومنها الاستهزاء واظهار السر والوعد	—
على عزم الخلف — — — — —	٣٤٧
ومنها الغيبة — — — — — — —	٣٥٢
ومنها النَّميمة — — — — — — —	٣٥٩
ومنها النفاق فى التكلم، والمدح —	٣٦١
ومنها التكلم بالمنهى عنه شرعًا —	٣٦٢
ومنها السؤال عما يتعذر ادراكه	—
كصفات الله	٣٦٣

فهرس الجزء الثانى من شرح عين العلم لعلى القارى

	صفحة
الباب العاشر فى الاناءة والعجلة	—
والحلم والعفو والنصيحة والحقد	٢
فى ذم الغضب	٤
فى ذم الحسد	١٢
الباب الحادى عشر فى العزلة	—
والخمول وحب الذم وبغض المدح	١٥
فى العزلة عشر آفات	٢١
فى اختيار الجاه والمنصب	٢٧
الباب الثانى عشر فى التواضع	—
وذكر المنة	٣٥
الباب الثالث عشر فى الاخلاص	—
والنية والصدق	٤٩
الباب الرابع عشر فى التفويض	—
وقصر الامل وذكر الموت والانتباه	٨١
الباب الخامس عشر فى نفى	—
الخواطر والرياضة	٩٤
النفس تنقسم الى مطمئنة ولوامة وامارة	١٠٢
الباب السادس عشر فى التوبة	—
والمرابطة والتقوى	١٢٩
فى قبول التوبة عند استجماع شرائطها	١٣٣
المعصية تنقسم الى صغيرة وكبيرة	١٣٥
التقوى اهم من التوبة	١٥٧
الباب السابع عشر فى الصبر	—
والرضاء والشكر	١٥٩
طريق تحصيل الصبر	١٦٥
الغنى الشاكر افضل ام الفقير الصابر	١٨٤
الباب الثامن عشر فى الخوف	—
والرجاء	١٨٥
طريق تحصيل الرجاء	١٨٨
طريق تحصيل الخوف	١٩٥
الرجاء افضل ام الخوف	١٩٦
الباب التاسع عشر فى الفقر	—
والزهد	٢٠٦
ان السؤال فى الاصل حرام عند الشرع	٢١٥
بيان الزهد	٢٢٢
مبحث جواز ادخار القوت	٢٢٩
أعلم ان المهمات فى الامور الدنيوية	—
ستة	٢٣٠
الباب العشرون فى التوحيد	—
والتوكل واليقين	٢٣٥
افادة التوحيد الاستغراق بالله تعالى	٢٣٧
مبحث التوكل	٢٤٠
الادخار لاينافى التوكل	٢٥١
ومباشرة الاسباب لاينافى التوكل	٢٥٣
وترك مباشرة الاسباب عند القطع حرام	٢٥٨
الخاتمة فى المحبة والسلوك	٢٦٧
تعريف المحبة	٢٦٩
آثار المحبة خمسة	٢٧٤
طريق تحصيل المحبة	٢٨٦